

دوستويفسكي

الأعمال الأدبية الكاملة المجلد ٨

ترجمة الدكتور سامي الدروبي

سريّة
وراء حجاب



Bibliotheca Alexandrina

0098647





الاعمال الأدبية الكاملة
المجلد الثامن

دوستويفسكي: الأعمال الأدبية الكاملة - ١٨ مجلدًا

ترجمها عن الفرنسية: د. سامي الدروبي

الطبعة العربية الأولى: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

القاهرة ١٩٦٧

الطبعة العربية الثانية: دار ابن رشد للطباعة والنشر

بيروت - لبنان - شارع فردان - بناية شبارو

ص.ب: ٥٥٣٧ / ١٤ - هاتف: ٢٥٢٨٣٣

الخطوط والخلاف: عماد حليم

طبعت بإشراف: نتورك - إيطاليا ١٩٨٥

الْجَرِيْمَةُ وَالْعِقَابُ ١

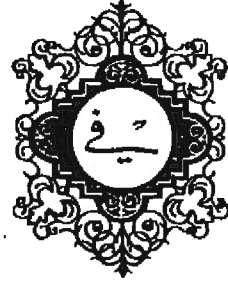
جميع الحقوق محفوظة

« الجريمة والعقاب » (Prestoupłenié i nakazanié)

ظهرت في مجلة « الرسول الروسى » في اعداد سنة ١٨٦٦ ،
من كانون الثانى (يناير) الى كانون الاول (ديسمبر) ، المجلدات
من ٦٦ الى ٦٦ .

الجزء الأول

الفصل الأول



الأيام الأولى من شهر تموز (يوليو) ، أثناء
حر شديد ، خرج شاب في نحو نهاية
الأصيل ، خرج من الغرفة الصغيرة التي كان
يسكنها في زقاق س * وواجه نحو جسر ك * .

بطيء الخطى قلق الهيئة •

لقد أسعفه الحظ فأفلح أثناء هبوطه السلم أن يتحاشى لقاء صاحبة
البيت التي يسكن عندها • ان الغرفة التي يسكنها الشاب تقع تحت السقف
من منزل عال يتألف من أربعة طوابق * ، وهي أقرب الى جحر منها الى
مسكن • وكانت صاحبة البيت التي تؤجره هذه الغرفة مع الطعام والخدمة
تسكن هي نفسها في الطابق الأدنى ، فكان لا بد للشاب ، كلما خرج ،
أن يمر حتماً أمام المطبخ الذي يظل بابه مفتوحاً على السلم دائماً • وكان
الشاب يشعر في كل مرة أثناء مروره بضيق وخرج وانزعاج فيحس
بالحجل والعار ، ويشدو قائم النفس مظلم المزاج •

وليس مرد ذلك الى أنه جبان رعديد ، أو الى أنه مروّع منزعور ،
بالعكس ••• ولكنه يعاني منذ بعض الوقت حالة من التوتر والعصبية
توشك أن تكون مرض الكآبة • لقد بلغت حياته من الاعتزال ومن فرط
الانطواء على النفس أنه يخشى لقاء أى انسان ، لا لقاء صاحبة البيت

فحسب • كان يعيش فى فقر مدقع ، وبؤس شديد ، ولكن العوز نفسه أصبح فى هذه الآونة الأخيرة لا يثقل عليه • أصبح الشاب لا يهتم بشئونه ولا يريد أن يهتم بها • والواقع أن صاحبة البيت كانت لا تخيفه ، مهما تكن المكائد التى تدبرها له • ولكن الوقوف على فسحة السلم ، والاصغاء الى ثمرات مخيفة شتى عن ترهات لا تعنيه فى قليل ولا كثير ، واحتمال التذكير الدائم المستمر ، الذى تصحبه تهديدات وشكاوى ، بضرورة مبادرته الى دفع الأجرة ، واضطراره الى اختلاق الحيل واتصال الاعذار وتلفيق الأكاذيب ... ولكن ذلك كله أصبح من الأمور التى لا يمكن أن يطبقها ، فهو يؤثر عليها أن يتسلل على السلم تسلل هرة ، وأن يفرّ دون أن يراه أحد •

على أن الخوف الذى شعر به هذه المرة من تصور أن دائته قد تراه ، أدهشه هو نفسه منذ أصبح فى الشارع •

حدثت نفسه يقول وهو يتبسم ابتسامة غريبة : « أفكر فى الاقدام على عمل مثل «ذلك» العمل ، ثم أشعر بخوف لأمر تافه هذه التفاهة ؟ نعم ، ان كل شئ موجود بين يدي الانسان ، ومع ذلك يدع الانسان لكل شئ أن يمر تحت أنفه ... وما ذلك الا أن الانسان جبان • نعم ، هذه بديهة ... انه لمن الشائق أن تعرف ما الذى يخافه البشر أكثر ما يخافون ... ألا ان ما يخافه البشر أكثر ما يخافون هو أن يتقدموا خطوة الى أمام ، هو أن يقولوا كلمة شخصية • على أننى أسرف فى الثروة كثيراً • واذا كنت لا أعمل شيئاً ، فلأنتى أثرى • أو قل على نحو أصح وأدق : اذا كنت أثرى فلأنتى لا أفعل شيئاً • ومع ذلك فأنا فى هذه الأشهر الأخيرة انما تعلمت الثروة قابلاً فى ركبي أفكر ... أفكر فى كل شئ ولا أفكر فى شئ • مثلاً : فيم أذهب الآن الى هناك ؟ أنا قادر على أن أفعل ذلك الأمر ، ؟ هل « ذلك الأمر » جد حقاً ؟ لا ... ما هو بالجد

البنة ! وانما هو نزوة خيال لا أكثر ! اننى « أدغدغ » نفسى ملتصقاً
تسليه • نعم ، أعتقد اعتقاداً جازماً بأننى ألتصق لنفسى تسليه • • • •
الحر فى الشارع ما يزال مرهقاً • يضاف الى ذلك نقص ' الهواء ،
والصخب ، والكلس المنتشر فى كل مكان ، والسقالات ، والآجر ،
والغبار ، ثم ذلك التن الصيفى الخاص الذى يعرفه كل ساكن من سكان
بطرسبرج لا تسمح له موارده أن يستأجر « فيلا » • ان اجتماع ذلك كله
قد أثار أعصاب الشاب الذى كانت أعصابه مهتزة من قبل فلورثه مزيداً
من الضيق • وهذه روائح كريهة تنشرها بقايا اسماك ، وهؤلاء سكارى
يلقاهم المرء عند كل خطوة رغم أن اليوم ليس يوم الأحد بل هو يوم من
أيام الأسبوع ، فتصطبغ اللوحة بلون حزين منفّر • ان شموراً عميقاً
بالاشمئزاز يرسم على القسمات الدقيقة من وجه الشاب • والشباب حسن
الصورة وسيم الطلعة ، له عينا دكناوان رائعتان ، وشعر أشقر ضارب
الى لون كلون الرماد ، وقامة فوق الوسط طويلاً ، نحيلة مشوقة • ولكنه
لا يلبث أن يبدو عليه الاسترسال العميق فى الأحلام ، أو قل الانحدار
الى نوع من الحذر • وظل يسير لا يرى من حوله شيئاً ، ولا يرغب فى أن
يرى أى شئ • كل ما هنالك أنه كان ، بين القينة والفينة ، يستأنف
محاورة نفسه ، جرياً على عادة وعاهها الآن • وأدرك فى تلك اللحظة
نفسها أن خواطره وأفكاره تختلط وتضطرب من حين الى حين ، وأنه
ضعيف جداً : انه لم يكذب يطعم شيئاً منذ يومين •

وكان يرتدى ثياباً تبلغ من الرثالة أن شخصاً آخر غيره كان لا بد
أن يشعر بضيق وخرج ، مهما تكن عاداته المكسبة ، اذا هو خرج فى وضع
النهار بمثل تلك الأسمال • الحق أن هذا الحى ليس من الأحياء التى يمكن
أن يستقرب فيها الناس منظر رداء • ان هذا المكان القريب من « سوق
العلف » * ، الذى تكثر فيه محال من نوع خاص ، والذى يتألف سكانه

من صنّاع وعُمّال متكديسين فى هذه الشوارع والأزقة من مركز
بطرسبرج ، يشتمل على تنوع كبير فى الأفراد يُستغرب معه أن يُدهش
أحد من شخص متفرد بعض التفرد . على أن نفس الشاب قد بلغت من
فرط الامتلاء بالاحتقار الكاره أنه رغم ما يتصف به طبعه من شدة التاذى
الذى يذكر أحياناً بالأطفال الصغار ، كان لا يشعر بخجل كثير من مرض
أسماله البالية فى الشارع . ولا كذلك اذا هو التقى بأشخاص يعرفهم أو
يرفاق قدامى لا يحب على وجه العموم أن يختلف اليهم

ومع ذلك حين أعول سكّير كان مقوداً (لا ندرى الى أين
ولا لماذا) فى عربة كبيرة يجرها حصان قوى ، حين أعول هذا السكّير
على حين فجأة قائلاً بصوت مجلجل وهو يومئ الى يده : « هيه ، أنت
يا صاحب القبعة الألماني ! » ، فإن الشاب توقف بغتة ، وقبض على قبعته
بحركة عصبية . هى قبعة عالية مشتراه من عند تسيمرمان * لكنها قد
اهترأت اهترأً تاماً ، واحمرّ لونها ، وغشيتها البقع وتفتتها الثقوب
وزالت حافتها وانطوى أحد طرفيها حتى صار زاوية بشعة كريهة .
على أن الشاب لم يشعر بخجل ، وانما استولت عليه عاطفة أخرى تشبه
الهلج .

ودمدم يخاطب نفسه مضطرباً : « كنت أعرف هذا حق المعرفة . .
قدّرته من قبل ! . . . ذلك أسوأ ما فى الأمر ! تكفى ترهة سخيفة من
هذا النوع ، يكفى أمر تافه كهذا ، حتى يتعرض كل شيء للخطر !
نعم ، ان هذه القبعة صارخة . . . هى مضحكة ، وهى لذلك صارخة . . .
ما نمت أرتدى هذه الأسمال البالية فلا بد لى من قلنسوة ، او من
أية طاقة عتيقة . أما هذه القبعة الفظيعة فلا ! . . . ما من أحد يلبس
قبعة كهذه القبعة . أنها تُرى من مسافة فرسخ كامل . . . ومن



راسکولنیکوف

رآها مرة يتذكرها ولا ينساها ••• يتذكرها في المستقبل ••• فتكون هي الدليل القاطع ••• اننى أحتاج الآن الى أن لا يتبته الى أحد ! ان الأشياء الصغيرة ، ان الأشياء الصغيرة هي التي لها أكبر شأن وأعظم خطر !••• هذه هي الحقيقة ، ان أشياء صغيرة كهذه القبة هي التي تقسد كل شيء في آخر الأمر دائماً ••• •

لم يكن طريقه طويلاً ، حتى لقد كان يعرف عدد الخطوات التي يجب أن يقطعها منذ يجتاز باب منزله : انها سبعمئة وثلاثون خطوة تماماً • لقد عدّ هذه الخطوات ذات يوم من الأيام بعد أن أقرط في الاستسلام لأحلامه •

في ذلك الأوان لم يكن يصدق بعد أن هذه الأحلام واقعة ، وانما كان يروّح عن نفسه بما تشتمل عليه تلك الأحلام من جرأة دنيئة فتانة في آن واحد • أما الآن ، بعد انقضاء شهر على ذلك الأوان ، فقد أخذ يرى الأمور رؤية مختلفة ؟ ورغم جميع المحاورات المحققة التي كانت تجري بينه وبين نفسه ، والتي كان في أثنائها يعيب على نفسه ضعفه وتردده ، فانه قد اعتاد ، رغم ارادته تقريباً ، أن ينظر الى هذا « الحلم الدنيء » نظرتة الى مشروع عليه أن يتفذه ، دون أن يزداد من ذلك ثقة بنفسه على كل حال • وهو الآن ذاهب لاجراء « تمرين » على ذلك الفعل الدنيء ، فاضطرابه يزداد قوة عند كل خطوة •

وفيما هو منهار القلب تسرى في جسمه رعدة عصبية ، اقترب من مبنى ضخّم يطل من احدى جهتيه على القناة ويطل من الجهة الأخرى على شارع س ••• ؟ ان هذا المنزل ، المقسم الى مساكن صغيرة ، يسكنه أناس من جميع الأنواع : خياطون ، وقفّالون ، وطباخون ، وألمان مختلفون ، وشابات يشن من جالهن ، وموظفون صغار ، وهلمّ جرا ••• ان الذهب والأياب تحت قوسى مدخله الكبيرين ، وفي فناءه الواسعين ،

لا ينقطعان • وثمة بوابون ثلاثة أو أربعة يتولون أمره • فما كان أشدَّ سرور الفتى حين لم يلتق بأحد منهم • فلما اجتاز المدخل تسلسل الى السلم الأيمن دون أن يراه أحد • ان هذا السلم ضيق ، مظلم ، « أسود » ، ولكن الشاب يعرفه فقد سبق أن درسه ؛ ثم ان هذا الجو يعجب الفتى ويرضيه ، فهو في ظلام كهذا الظلام لا يخشى أن تقع عليه نظرة مستطلعة • ومع ذلك قال الفتى لنفسه رغم ارادته حين وصل الى الطابق الثالث : « اذا كنت أشعر الآن بهذا الخوف كله ، فماذا يمكن أن أشعر اذا اتفق أن مضيت الى « آخر الشوط » ؟ ... وهناك كانت تسدُّ طريقه صناديق وجنود سابقون كانوا يخلون أحد المساكن من أثاثه • كان الفتى يعرف من قبل أن موظفاً ألمانياً هو رب أسرة كان يقيم في هذا المسكن حتى ذلك الحين • فقال لنفسه أيضاً قبل أن يقرر باب المرأة المعجوز : « ان هذا الألماني ذاهب اذن الآن » فلا يبقى على الفسحة الثالثة من السلم ، خلال فترة من الوقت ، الا مسكن واحد مشغول هو مسكن المرأة المعجوز • ذلك أمر تسرُّ معرفته ... حين تأزف الساعة ، « ورنَّ الجرس رنيناً ضعيفاً كأنه من حديد أبيض لا من نحاس • ان الأجراس تكون دائماً من هذا النوع في المساكن الصغيرة التي تتألف منها عمارة من هذا الطراز • وكان الشاب قد نسي صوت ذلك الجرس ، فإذا هو يحس هذا الصوت الآن تذكيراً مباغتاً بشيء تخيله واضحاً ... فارتعد • كان أعصابه في هذه المرة منهكة • وبعد دقيقة شقَّ الباب شقاً ضيقاً ، وأخذت ساكنة البيت تتفحص القادم الجديد ، من خلال هذا الشق ، بشك واضح وارتباب ظاهر • ان المرء لا يرى ، في هذا الظلام ، الا عينيها الملتعنتين • ولكنها حين أبصرت على فسحة السلم ناساً كبيرين اطمأنت ففتحت الباب فتحاً كاملاً • اجتاز الفتى العتبة ، وولج حجرة المدخل التي يقطعها حاجز جمل ما وراءه مطبخاً صغيراً • وقفت المعجوز قبالة صامته تحدج به نظرة

سائلة • هي امرأة عجوز قصيرة جداً نحيلة جداً ، في نحو الستين من العمر ، لها عينان حادتان شريرتان ، وأنف صغير مدبب • وكانت حاسرة الرأس ، فشعرها المكبب الأنثيب يلتمع ببريق الزيت • وحول عنقها الطويل النحيل انذى يشبه ساق دجاجة ، كانت تلتف خرق مبهمة من قماش « الفلايل » ، وعلى كتفها يتدلى ، رغم الحر الشديد ، فراء قد اصفر لونه وتتسلل وبره • وكانت العجوز تسعل وتخرج البلغم من حلقها في كل لحظة • وأغلب الظن أن الفتى ألقى عليها نظرة خاصة ، لأن الشك والارتياب عادة يظهران في عينيها •

تذكر الفتى فجأة أن عليه أن يكون لطيفاً ودوداً ، فأسرع يدمدم قائلاً للتعريف بنفسه وهو ينحني نصفين :

— راسكولنيكوف * ، طالب • جئت اليك في الشهر الماضي •••

فقاطعت العجوز تقول بصوت واضح متميز دون أن تحول نظرتها السائلة عن وجهه :

— أتذكر يا بني ، أتذكر جيداً أنك جئت •••

فتابع راسكولنيكوف كلامه وقد ساوره شيء من الدهشة والاضطراب حين لاحظ شك العجوز وارتيابها :

— فهأنا ذا أجيء اليك مرةً أخرى ••• لأمر صغير من ذلك النوع نفسه •••

وحدث نفسه قائلاً وهو يشعر بضيق : « الحقيقة أنها ربما كانت هكذا دائماً ، ولكنني لم ألاحظ ذلك في المرة الماضية ! » •

وصمتت العجوز كأنما لتفكر ، ثم تمحت قليلاً ، وقالت للزائر وهي تدله على باب الغرفة وتتضاءل أمامه :

- تفضل ادخل يا بنى ا

دخل الشاب غرفة صغيرة مفروشة الجدران بورق أصفر ، فيها أزهار جيرانيوم ، ولتوافدها ستائر من قماش الموملين . وكانت الغرفة فى تلك اللحظة تضيئها أشعة الشمس الفاربة بنور ساطع . قال الفتى يحدث نفسه : « ماذا ؟ هل ستسطع الشمس اذن هذا السطوع » حينذاك ، ؟ لقد اخترقت هذه الفكرة ذهن راسكولينكوف على غير علم منه ، فاذا هو يلف الغرفة كلها بنظرة سريعة ليدرس ترتيبها وليحفظه فى ذاكرته ان أمكن ذلك . ولكن هذه الغرفة لا تتميز كثيراً بصفات خاصة . ان أثاثها المصنوع من خشب أبيض على طراز عتيق ، يتألف من أريكة ذات مسند ضخيم له أقواس ، ومنضدة بياضوية الشكل موضوعة أمام الأريكة ، وكراسى مصفوفة على طول الجدران ، ولوحتين أو ثلاث لوحات لا قيمة لها ، موضوعة فى أطر مصفرة ، تمثل آسأت ألمانيات فى أيديهن طيور . ذلك هو الأثاث كله . وفى ركن من الأركان ، أمام أيقونة صغيرة ، كان يسطع سراج صغير . والمكان كله مسوده ظفافة قصوى . فالأثاث وأرض الغرفة قد دُكت بالشمع فهى تلمع . قال الفتى يحدث نفسه : « هذا من عمل اليزابت ا » . ما كان لأحد أن يستطيع العثور على ذرة غبار واحدة فى المسكن كله . عاد راسكولينكوف يحدث نفسه فقال : « لا يجد المرء نظافة كهذه النظافة الا عند الأرامل المعجائز الشريرات » . قال ذلك والتفت ببصره خلسةً يستطلع ستارة من قماش تحجب باباً يصل هذه الغرفة بغرفة أخرى فيها سرير المعجوز وخزائنها وهى غرفة لم يسبق له أن دخلها قط . ان المسكن كله لا يضم الا هاتين الغرفتين .

سألته المعجوز القصيرة وهى تدخل الغرفة بعده وتقف مرة أخرى أمامه لتفحصه وجهاً لوجه :

- ما هي الخدمة التي أستطيع أن أقدمها اليك ؟

قال الفتى :

- جئت بك بشيء أريد أن أرهنه • هوذا •••

قال ذلك وأخرج من جيبه ساعة عتيقة مصنوعة من فضة ، رُسمت على غطائها الكرة الأرضية ، ولها سلسلة من فولاذ •

قالت المرأة السجوز :

- ولكن مدة رهنك الأول قد انتهت • انقضى على الرهن الأول شهر منذ ثلاثة أيام •

- سأدفع لك الفائدة عن شهر آخر • اصبرى علىّ •

قالت :

- أنا التي أقرر أنصبر أم أبيع الرهن الآن • هذا شأنى أنا يا بنى •

- هل تقرضيننى مبلغاً كبيراً على رهن هذه الساعة يا أليونا
ايفاتوفنا ؟ * •

- انك تجيئينى دائماً بأشياء صغيرة تافهة ليس لها قيمة البتة •••
لقد أقرضتك فى المرة الماضية روبلين على رهن خاتمك ، مع أن فى امكان
اى انسان أن يشتري من عند الصائغ خاتماً جديداً من نوعه بروبيل
ونصف روبيل •

- أقرضينى أربعة روبلات على رهن الساعة • سأفكها قريباً •••
ورثتها عن أبى • وسيصلنى مبلغ من المال بعد مدة قصيرة •
- أقرضك على رهنها روبلاً ونصفاً ، والفائدة تُدفع سلفاً •
صاح الفتى متعجباً :

- روبلاً ونصفاً ؟

- لا مساومة • اما أن تقبل واما أن ترفض •

قالت العجوز ذلك ومدّت اليه الساعة ، فتناولها الفتى غاضباً حتى
لقد همّ أن ينصرف • ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك اذ تذكر أنه
جاء لغرض آخر أيضاً •

قال بلهجة خشنّة :

- هاتى !

فدست العجوز يدها فى جيبتها لتخرج مفاتيحها ، ومضت الى الغرفة
الأخرى وراء الستارة • فلما أصبح الفتى وحيداً وسط الغرفة ، أصاح
بسمعه مستظلاً ، وأطلق العنان لخياله • سمعها تفتح الخزانة • قال يحدث
نفسه : « أغلب الظن أنه الدُرُج الأعلى ••• هى تحمل مفاتيحها اذن
فى الجيب الأيمن ••• والمفاتيح كلها كتلة واحدة تضمها حلقة من فولاذ
••• وبين المفاتيح مفتاح مسنّن الرأس أكبر من سائرهما ثلاث مرات ،
ولكن من الواضح أنه ليس مفتاح الخزانة ••• اذن هناك أيضاً سحارة
أو صندوق ••• هذا أمر هام • ان لجميع الصناديق مفاتيح من هذا
النوع ••• على كل حال ، هذا كله كريبه بشع ••• »

وعادت العجوز •

- خذ يا بنى • اذا كانت الفائدة عشرة كوبيكات عن كل روبل فى
الشهر تُقْتطع مئلاً ، فان الفائدة عن روبل ونصف روبل تكون خمسة
عشر كوبيكاً • يضاف الى ذلك عشرون كوبيكاً عن الروبلين اللذين
اقتترضتهما فى المرة الماضية على أساس تلك الفائدة نفسها ، فيكون مجموع
ما يجب اقتطاعه خمسة وثلاثين كوبيكاً ، فيبقى لك عن رهن الساعة روبل
 وخمسة وعشر كوبيكاً • اليك المبلغ •

— كيف ؟ ألا يبقى لى الا روبل وخمسة عشر كويكاً ؟

— تماماً •

لم يناقشها الفتى ، وتناول المال • وكان ينظر الى المعجوز ولا يستجبل الخروج ، كأنما كان يريد أن يقول شيئاً ، أو أن يفعل شيئاً ، دون أن يدري ما هو هذا الشيء على وجه الدقة •

وقال لها أخيراً :

— ربما جئتك بشيء آخر فى الأيام القليلة القادمة يا أليونا ايفانوفنا
... هو شيء من فضة ... شيء ذو قيمة ... علبة سجائر ... نعم ،
سأجيتك بعلبة سجائر متى ردتها الى صديق لى ...

واضطرب الفتى وصمت •

فقالت المعجوز :

— طيب يا بنى ... سنتكلم فى الأمر فى حينه •
قال لها الفتى بلهجة منطلقة على قدر المستطاع ، وهو يتجه نحو
حجرة المدخل :

— أستودعك الله ... أأنت اذن وحيدة فى البيت دائماً دون أن
تكون أختك ممت ؟

— قيم يعنك هذا يا بنى ؟

— لا يعينى فى شيء ... ألقىت السؤال هكذا ... دون هدف ...
فاذا أنت ، على القور ... استودعك الله يا أليونا ايفانوفنا •

خرج راسكولنيكوف وهو فريسة اضطراب عميق ما ينفك يزداد ،
حتى توقف عدة مرات مذهولاً أثناء هبوطه السلم • فلما صار فى الشارع
آخر الأمر هتف يقول :



العجوز المرامية

• آه ... رباب ! ما أبشع هذا كله ! هل يمكننى ، هل يمكننى حقاً
أن ... •

ثم أضاف يقول بافتناع :

• لا ... هذه حماقة ... هذه سخافة ... هل يمكن حقاً أن
تكون فكرة تيطانيه كهذه الفكرة قد ساورت ذهنى ؟ ما أقدر ما فى قلبى
أذن من وحل ! ثم ان هذا كله وسخ جداً ، مقزز جداً ، قدر جداً !
كيف أمكنتى ، خلال شهر بكامله ، أن ... •

ولكن الفتى لم يجد الكلمات ولا هتافات التعجب التى كان يمكن
أن تعبر عن حالته العسية الرهية • ان الاحساس بالانتمزاز الذى
لا نهاية له والذى كان قد بدأ يجثم على صدره ويقبض قلبه ويخنقه
خفقاً أثناء ذهابه الى مسكن المجوز قد بلغ الآن أبعاداً عظيمة وأخذ يتجلى
بعنف شديد حتى صار الفتى لا يعرف كيف يتخلص من هذه النازلة التى
ألمت به وهذا الحزن الذى عصف بقلبه • كان يمشى على الرصيف
كالسكران لا يلاحظ حتى المارة الذين كان يصطدم بهم • ولم يشب الى
رشده الا فى الشارع التالى • فلما نظر حواله لاحظ أنه أمام خمارة
ينزل اليها النازل على سلم يؤدى من الرصيف الى القبو •

وفى تلك اللحظة نفسها كان يخرج من الخمارة سكرانان يسند كل
منهما الآخر ، ويتبادلان الشتائم أثناء صعودهما السلم • فلم يلبث
راسكولينكوف أن هبط الى الخمارة دون تردد • لم يسبق له أن دخل
خمارة فى يوم من الأيام ، ولكنه يشعر الآن بدوار فى رأسه ؛ كما أن ظمأً
لا يطاق كان يعذّبه • انتهى أن يشرب بيرة باردة ، لا سيما وأنه كان
يعزو ضعفه الى الجوع أيضاً • جلس فى ركن مظلم قدر امام مائدة صغيرة
متسخة بالدهن ، وطلب بيرة فشرّب كأساً أولى بشراة ، فلم يلبث أن

شعر بشيء من التخفف والراحة ، وأصبحت أفكاره أوضح . قال لنفسه وقد ارتد اليه الأمل : « ذلك كله سخافات ! لا داعي الى القلق ! هو انزعاج جسمي لا أكثر ! فما ان يشرب المرء كأساً من بيرة وما ان يأكل قطعة من بسكويت حتى يشتد فكره ويقوى ذهنه وتتضح أفكاره وتترسخ عزيمته . أوه ! ذلك كله باطل !... » . ولكن رغم بادرة الاستخفاف هذه ، كان راسكولنيكوف كمن تحرر الآن فجأة من حمل ثقل : ما هو ذا شيء من فرح يتجلى منذ الآن في نظراته التي أخذت تطوف على الحضور بمودة وصداقة . ومع ذلك أحس ، حتى في تلك الدقيقة ، احساساً غامضاً بأن حالة التفاضل التي صارت اليها نفسه حالة مرضية هي أيضاً .

لم يبق في الحمارة في تلك الساعة الا عدد قليل من الناس . فبعد السكرانين اللذين التقى بهما على السلم خرجت من الحمارة ، دفعة واحدة ، عصابة تتألف من خمسة شبان يجرون فتاة ومعهم أكورديون . فما ان انصرفوا حتى عاد الهدوء الى الحمارة ، فأصبح المرء يحس بحرية أكبر . لم يبق في القاعة الا شخص ثمل بمض الثمل ، جالس أمام مائدته ، أغلب الظن أنه بائع ، ومعه رفيقه وهو رجل طويل سمين له لحية شائبة كان قد بلغ السكر منه كل مبلغ ، فهو غاف فوق دكة ، وهو يأخذ يصفق بأصابعه من حين الى حين كأنه يخرج من نومه على حين بقة ، ويأخذ يباعد ذراعيه ، ويرجّح القسم الأسفل من جسمه ، دون ان ينهض عن الدكة ، مدمماً بكلام سخيف ، محاولاً أن يتذكر آياتاً من الشعر من هذا النوع :

لاعبت زوجتي طوال السنة

لا ٠٠ لعبت زوجتي طوا ٠٠ ل السنة

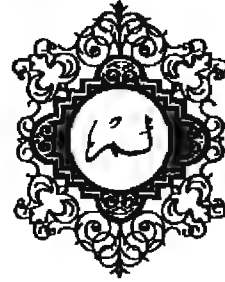
أو قائلًا بعد أن يستيقظ من جديد :

حين هربت بشارع بودياتشكاي *

التقيت بصديقتي القديمة الطيبة

ولكن لم يكن يشاركه أحد سعادته • حتى لقد كان رفيقه الصموت
يرد على هذه الانفجارات باتخاذ وضع عدائي ريبّاب • وكان هنالك رجل
ثالث يدل مظهره على أنه موظف صغير محال على التقاعد • كان هذا
الرجل منزوياً أمام كأسه يشرب من حين إلى حين ، ويطوف ببصره على
ما حوله ، وكان يبدو عليه أنه يعاني هو أيضاً حالة عصبية •

الفصل الثاني



يكن راسكولينكوف معتاداً صحبة الناس ، وكان
كما سبق أن قلنا يتحاشى كل مجتمع ، ولا سيما
منذ فترة من الوقت • غير أن شيئاً كان يجذب
الآن الى البشر على حين فجأة ، فكان انقلاباً قد
حدث في نفسه ؟ وكان يشعر في الوقت ذاته بشيء من الظمأ الى عقد
الصلوات بينه وبين أقرانه • ان ذلك الشهر الذي قضاه في قلق محموم
وغم ثقيل واهتياج كالح قد بلغ من استنفاد قواه أنه يتوق الآن الى
استرداد أنفاسه ولو لحظة من الزمن • في عالم آخر ، في أى عالم
آخر • لذلك شعر من بقائه الآن في الحمامة بلذة كبيرة رغم رداءة
المكان •

وكان صاحب الحمامة يجلس في غرفة مجاورة ، ولكنه يظهر
في القاعة الرئيسية مرة بعد مرة • وكان يصل الى هذه القاعة هابطاً بضلع
درجات ، فكان الجالس في هذه القاعة يرى ، أول ما يرى ، جزمته
الملمعتين اللتين لهما حافتان مقلوبتان حمراوان • وكان لا يضع رباط
عنق ، ولكن رذنجوته يسفر عن صديرة سوداء من قماش السائقان قد
بلقت من الاتساع حداً رهيباً • أما وجهه فكان يلتمع من الدهن التماع
قفل مزيت • ووراء البسطة كان يجلس صبي في نحو الرابعة عشرة من
العمر • وكان هنالك صبي آخر أصغر سناً ، يخدم الزبائن • وعلى

البسطة كانت تُعرض دوائر خبار ، وبسكويت أسود ، ونرائح سمك ، وكان ذلك كله ينشر رائحة كريهة • الجو خائق لا يكاد يُطاق ، والهواء يبلغ من التشبع برائحة الحمرة أنه يكفي أن يمكث المرء فيه خمس دقائق حتى يسكر •

يتفق للمرء أحياناً أن يلقي أناساً لا يعرفهم البتة فإذا هو يأخذ يهتم بهم منذ أول نظرة قبل أن يبادلهم كلمة واحدة • ذلك كان هو الاحساس الذي أحدثته في راسكولنيكوف الزبون المزوى الذى يدل مظهره على أنه موظف متقاعد • تذكر الفتى مراراً كثيرة ، فيما بعد ، ذلك الاحساس الأول ، حتى لقد عزاه الى نوع من النبوءة • كان راسكولنيكوف لا يحول بصره عن الموظف ، ولعل مرد ذلك أيضاً الى أن هذا الموظف كان يلح فى النظر الى راسكولنيكوف ، وكأنه راعب رغبة قوية فى عقد حديث معه • أما الأشخاص الحاضرون الآخر ، ومنهم صاحب الحمارة ، فقد كان الموظف ينظر اليهم نظرة جليس من جلساء الحمارة المزمين ، مع ضجر منهم ومع شيء من الاحتقار لهم والتعالى عليهم فى الوقت نفسه ، كأنه يعدهم أدنى كثيراً منه ، سواء من ناحية منزلتهم الاجتماعية أو من ناحية ثقافتهم وأدبهم ، فليس عليه أن يكلمهم . هو رجل تجاوز الخمسين من عمره ، متوسط القامة قوى البنية ، على راسه الأصلع قليل من شعر أبيض ، له وجه أصفر أو قل ضارب الى الخضرة ، قد ورّقه الشراب ، تسطح فيه تحت جفنين متفتحين عينا صغيرتان محمرتان حادتان • ومع ذلك كان فى هذا الوجه شيء غريب جداً • ان نظرتيه تلتصق بنوع من الحماسة لا تخلو خلواً مطلقاً من ذكاء وفكر ؛ ولكن تلم بها ومضات جنون فى بعض الأحيان • وكان يرتدى «فراكا» عتيقاً رثاً قد سقطت ازراه ، الا زراً واحداً ما يزال فى مكانه مهلهلاً يوشك أن يسقط ، ولكن الرجل قد أدخله فى العروة حتى لا يجافى آداب

اللياقة • ومن صديرتة المصنوعة من جوخ أصفر كانت تخرج حافة قميص
مجمّدة متسخة ملطخة • وكان حليق الذقن ، كما يليق بموظف ، ولكن
كان واضحاً أنه لم يكرر حلاقة ذقنه منذ مدة طويلة ، فشعرها القاسي قد
أخذ يزرقّ خديه • هذا عدا أن وضعه يكشف عن شيء من وقار هو
ما يتميز به موظف من الموظفين • ولكنه كان يظهر قلقاً شديداً ، وينفش
شعره ، ويضغط رأسه بيديه حزناً يائساً ، واضعاً كوعى كميّه المتقوين
على المائدة الرطبة اللزجة • وفي النهاية نظر الى راسكولنيكوف محدقاً
فى عينيه ، وقال يخاطبه بصوت عال ثابت :

- هل أجرؤ ، أيها السيد العزيز ، أن أوجه اليك بضع كلمات
با احترام ؟ فان تجربتي تكشف فيك ، رغم مظهرك البسيط المتواضع ،
عن انسان حسنت ثقافته ، ولم يألف أن يشرب • لقد كنت طوال حياتي
احترم الثقافة حين تقترن بعواطف القلب • وأنا عدا ذلك أحمل لقب
مستشار • اسمى مارملادوف ، ولقبى مستشار * • أأجرؤ أن أسألك
هل أنت موظف ؟

أجابه الفتى وقد أدهشته هذه اللهجة المتفخخة فى كلام الرجل ،
وأدهشه أن يخاطب عن عمد على هذا النحو :

- بل أنا أتابع دراستى •

وشعر راسكولنيكوف ، رغم ما أحسنه مند قليل من رغبة فى صحبة
أى انسان ، شعر فجأة منذ الكلمات الأولى التى خاطبه بها الرجل ، بذلك
النفور الأليم الذى كان يشعر به كلما قاربه انسان مجهول أو حاول أن
يقاربه •

- أنت اذن طالب ، أو طالب سابق ••• ذلك ما قدّرتة ! هى
التجربة يا سيدى العزيز ، تجربة طويلة متصلة !

ومن أجل أن يعبر عن احترامه لعاذ بصيرته وسداد حكمه ،
وضع اصبعاً على جبهته •
وأردف يقول :

– لقد كنت طالباً ، الا أن تكون قد حضرت عدداً محدوداً من
الدروس فحسب ••• ولكن اسمح لي •••

ونهض مترجحاً ، فتناول زجاجته وقده وجاء يجلس قرب
راسكولنيكوف مواردٍ قليلاً • لقد كان سكران • ولكنه يتكلم بوضوح
وثقة • كل ما هنالك أنه يرتبك من حين الى حين ، فيطو تدفق كلامه •
لقد هجم على راسكولنيكوف هجوماً يبلغ من الشراهة أن من يراه يعتقد
أنه لم يكلم أحداً منذ شهر كامل هو أيضاً •

بدأ يقول بلهجة توشك أن تكون ذات أبهة :

– أيها السيد العزيز ، ليس الفقر رذيلة ؛ ولا الادمان على السكر
فضيلة ، أنا أعرف ذلك أيضاً • ولكن البؤس رذيلة أيها السيد العزيز ،
البؤس رذيلة • يستطيع المرء في الفقر أن يظل محافظاً على نبل عواطفه
الفطرية ، أما في البؤس فلا يستطيع ذلك يوماً ، وما من أحد يستطيعه
قط • اذا كنت في البؤس فانك لا تطرد من مجتمع البشر ضرباً بالعصا ،
بل تطرد منه ضرباً بالكنيسة ، بغية اذلالك مزيداً من الاذلال •
والناس على حق في ذلك ، لأنك في البؤس أول من يريد هذا الذل
لنفسه بنفسه • وهذا سبب ادمانك على الشراب ! أيها السيد العزيز ، منذ
شهر ، ضرب السيد ليزياتنيكوف زوجتي ، وزوجتي تختلف عني اختلافاً
كبيراً ! هل تفهم ؟ اسمح لي أيضاً أن ألقى عليك سؤالاً ، هكذا ، ولو من
باب الفضول : هل حدث لك أن قضيت الليل في مركب علف على نهر
نيغا ؟



مارمیلادوف

أجاب راسكولنيكوف

— لا ... لم يحدث لى هذا ... ماذا تريد أن تقول ؟

— أما أنا فأتى آتٍ من هناك ، من مركب العلف ... وهذه هى الليلة الخامسة .

قال الرجل ذلك وصبَّ قدحاً ثم أفرغه فى جوفه وأخذ يفكر . وكان يرى فعلاً ، هنا وهناك ، على ملابسه ، وحتى على شعره ، تبنٌ ما يزال عالقاً . أغلب الظن لم يخلع ملابسه ولا غسل وجهه منذ خمسة أيام . وكانت يدها خاصةً قذرتين وسختين حمراوين طويلة أظافرهما .

ويبدو أن كلامه قد ايقظ فى نفوس الحضور اهتماماً عاماً ، وإن يكن هذا الاهتمام ممتزجاً بالاهمال . أخذ الصيَّان ، من وراء البسطة ، يضحكان . وتزل صاحب الحمارة من الطابق الأعلى خصيصاً ، من أجل أن يستمع للرجل « المازح » ، فجلس منزوياً بعض الانزواء ، وأخذ يتابع فى كسل ، ولكن بكثير من الوقار والكبرياء . لا شك أن مارمیلادوف معروف هنا منذ زمن طويل . وأغلب الظن من جهة أخرى أنه قد اعتاد حب الكلام المزوَّق فى أعقاب أحاديث ألف أن يجريها فى الحمارة مع أناس لا يعرفهم . ان هذه العادة تغدو حاجة قوية لدى بعض السكَّيرين ، ولا سيما لدى أولئك الذين بعاملون فى بيوتهم معاملة خشنّة . لذلك تراهم يحاولون متى سكرُوا فى صحبة الناس أن يدافعوا عن أنفسهم بخطب ، وأن يكسبوا اعتبار الآخرين اذا استطاعوا الى ذلك سبيلاً .

قال صاحب الحمارة بصوت عالٍ :

— ما أنت الا مازح ! لماذا لا تعمل ؟ ولماذا لا تواظب على عملك ما دمت موظفاً ؟

أجاب مارمیلادوف يقول مخاطباً راسكولنيكوف وحده ، كأن
راسكولنيكوف هو الذى ألقى السؤال :

- لماذا لا أواظب على عملى أيها السيد العزيز ؟ لماذا لا أواظب على
عملى ؟ ولكن هل تظن أن قلبى لا يتألم لمنظر خستى ، هل تظن أن قلبى
لا يتألم حين أرى أنتى امرؤ لا نفع فيه ولا جدوى منه ؟ حين حدث منذ
شهر أن ضرب السيد ليزياتنيكوف زوجتى ، وكنت أنا راقداً كالميت من
فرط السكر ، هل تظن أنتى لم أتألم ؟ اسمح لى أيها الفتى ، هل اتفق
لك ... هم ... نعم ... هل اتفق لك مثلاً أن طلبت من أحد أن
يقرضك مالاً دون أن يكون لديك أمل ؟

- وقع لى هذا ... ولكن ماذا تعنى بقولك : دون أن يكون
لديك أمل ، ؟ ...

- أعنى دون أن يكون لديك أى أمل ، فأنت تعلم سلفاً أن طلبك
لن يثمر شيئاً ! ... مثلاً : أنت تعلم سلفاً على وجه اليقين أن هذا المواطن
مهما يكن صالحاً ومهما تكن نيته حسنة لن يعطيك المال بحال من الأحوال
... ولماذا عساه يعطيك مالاً ما دام يعرف أنك لن تردده اليه ؟ أمن باب
الشفقة ؟ ان السيد ليزياتنيكوف ، وهو مطلع على الأفكار الجديدة
والآراء الحديثة ، قد شرح فى الآونة الأخيرة أن الشفقة فى أيامنا هذه
يحظرها العلم ، وأن الأمور تجري على هذا النحو منذ الآن فى بلاد
الانجليز التى يسودها الاقتصاد السياسى . فلماذا عساه يعطيك مالاً ؟
ومع ذلك ، رغم علمك سلفاً بأنه لن يعطيك مالاً ، فانك تمضى اليه ، و ..
قال راسكولنيكوف :

— ولماذا تمضى اليه ؟

— كيف لا أمضى اليه اذا لم يكن هناك أحد غيره ، واذا لم يكن هناك مكان آخر أذهب اليه ! لا بد لكل انسان من أن يجد ولو مكاناً يذهب اليه ، لأن الانسان تمر به لحظات لا مناص له فيها من الذهاب الى مكان ما ، الى أى مكان ! حين ذهبت ابنتى الوحيدة ، أول مرة ، للحصول على بطاقتها الصفراء * ذهبت أنا أيضاً ...

وأضاف مارميلادوف يقول مستطرداً وهو ينظر الى الشاب بشيء من القلق :

— ذلك أن ابنتى لها بطاقة .

وضج الصبيان بالضحك من وراء البسطة ، وابتسم صاحب الحمار ، فأسرع مارميلادوف يقول فوراً وهو يصطنع الهدوء :

— لا بأس يا سيدى ، لا بأس ... لا بأس ... ان هزّهم ربوسهم لا يث الاضطراب فى نفسى ، لأن الأمر أصبح معروفاً لدى جميع الناس . نعم : كل خبىء مآله الى ظهور * . وأنا لا أتعامل مع هذه الأشياء باحتقار بل بمذلة . طيب ... طيب ... هذا هو الانسان ! ، ... اسمع لى أيها الفتى : هل تستطيع ... لا ... يجب أن ألقى عليك هذا السؤال بقوة أكبر ، بطريقة أبلغ دلالة وأصدق تعبيراً ، يجب أن لا أقول « هل تستطيع » ، بل يجب أن أقول « هل تجرؤ أن تؤكد حين تأملنى فى هذه اللحظة ، أنتى لست خنزيراً ؟ »

لم يجب الشاب بكلمة .

وتابع الخطيب كلامه دون اضطراب بل وبمزيد من الرصانة ، بعد أن انتظر انتهاء الفهقهات التى أثارها أقواله الأخيرة ، تابع كلامه فقال :



صاحب المصارعة

- طيب ... فلنسلم بأننى أنا خنزير ، ولكنها هى سيدة ! حقاً
اننى أشبه «الوحش» * كل الشبه ، ولكن زوجتى كاترين ايفانوفنا انسانية
تملك حظاً عظيماً من الثقافة ، هذا عدا أنها ابنة ضابط كبير . لنسلم ،
لنسلم بأننى وغد دنى ، ولكنها هى ذات نفس كبيرة وروح جميلة ، ولها
بحكم تربيتها ونشأتها عواطف نبيلة ومشاعر كريمة . ومع ذلك ...
آه ... ليتها تشفق على ! سيدى العزيز ، سيدى العزيز ، لا بد لكل
انسان من أن يجد أيضاً ، فى مكان ما على الأقل ، شخصاً يشفق عليه !
ولكن كاترين ايفانوفنا ظالمة ، رغم أنها سيدة تفيض نفسها عظمة . ورغم
أننى أفهم أنا نفسى ، حين تضربنى ، أنها إنما تضربنى شفقة على وراقة
بى . لست أخجل من أن أكرر أيها الفتى أنها تضربنى (كذلك أكد
مارميلادوف بمزيد من الرصانة حين سمع انفجار الفهقهات من جديد) ،
فأننى أتمنى ، يارب ، أن يتفق لها مرة واحدة أن ... ولكن لا ، لا ،
هذا كله لا فائدة منه ، ولا طائل تحته ، ولا يستحق أن أتكلم عنه !
لا يستحق ! ... ذلك أنهم لم يشفقوا على مرة واحدة ، مرة واحدة .
ولكن هذه طبيعتى أيضاً . نعم ، اننى انسان فطر على الغلظة والفظاظة .

- جداً !

كذلك قال صاحب الحماره متائباً .

فضرب مرميلادوف المائدة بقبضة يده ضربة قوية ، وقال :

- هذه هى طبيعتى ! هل تعلم ، هل تعلم أيها السيد أننى شربت
خمرأ حتى بثمان جوربيها ؟ لا بثمان حذاءيها ، فلو قد شربت خمرأ بثمان
حذاءيها لكان الأمر طبيعياً بعض الشيء ، ولكننى شربت خمرأ بثمان
جوربيها ، نعم بثمان جوربيها ! حتى وشاحها الصغير المصنوع من شعر

الماعز ، بته أيضاً وشربت بنمنه خراً ، وكان قد أهدى إليها «من قبل» ،
فهو ملكها ، ملكها هي ، لا ملكي أنا . ونحن نعيش في غرفة باردة ،
وقد مرضت في هذا الشتاء ، وأخذت تسعل ، حتى أنها تبصق دماً منذ
الآن ... ولنا ثلاثة أولاد ؛ ان كاترين ايفانوفنا تعمل من الصباح الى
المساء : تمسح وتغسل ، وتنظف الأولاد ! ذلك أنها معتادة على النظافة
منذ صغرها . ان رثيها ضعيفتان ، وانها مهياة للاصابة بمرض السل ،
أنا أحس هذا . أأنا لا أحس هذا ؟ بالعكس ، كلما شربت مزيداً من
الحمرة ، أحسست به مزيداً من الاحساس . نعم ، اذا كنت أشرب ،
فانما أنا أشرب سعيّاً وراء الشفقة ، وراء العاطفة . أنا أشرب لأتألم ألماً
مضاعفاً ...

قال مارميلادوف ذلك ، وأسند رأسه على المائدة وقد عبّر وجهه
عن غاية الحزن والكرب . ثم عاد ينتصب ليكمل كلامه قائلاً :

- أيها القتي ، أحسب أنني أقرأ في وجهك حزناً . ولقد قرأت
هذا الحزن في وجهك منذ دخولك ، لذلك سارعت أخاطبك . فاذا كنت
أهمل اليك قصة حياتي ، فأنني لا أفعل ذلك لأحقّر نفسي أمام هؤلاء
الكسالى الذين يعرفون منها الكثير على كل حال ، بل لأنني أبحث عن
انسان حساس كريم النفس حسن الترية . اعلم أن زوجتي قد تربت
في مدرسة داخلية ارسقراطية بالأقاليم ، وأنها حين تخرجها من تلك
المدرسة قد رقصت رقصة الشال * أمام الحاكم وشخصيات أخرى ، وأنها
قد نالت على ذلك وساماً ذهبياً * وشهادة فخرية ... فأما الومام فقد بنه
أيضاً ... منذ زمن طويل ... هم ... وأما الشهادة الفخرية فهي
ترقد حتى الآن في صندوق ، وقد حرصت كاترين ايفانوفنا على أن تربها
صاحبة البيت ... نعم ... فرغم أن بينها وبين صاحبة البيت مشاجرات
مستمرة ، فقد راودتها الرغبة في أن تعتر أمام شخص ما ، أن تذكر

نخصاً ما بالأيام الجميلة من ماضيها . لست ألومها على ذلك ، لست ألومها ، لأن هذه الذكرى هي كل ما تملكه الآن ، أما الباقي فقد طار كله ! نعم . . . ان زوجتى سريعة الغضب ، شديدة الكبرياء ، صعبة المراس . انها تغسل أرض الغرفة بيديها ، وتكتفى بخبز أسود ، ولكنها لاتسمح أن ينقص أحد من احترامها . ذلك هو السبب في أنها لم تشأ أن تسكت للسيد ليزياتيكوف عن فظاظته ، فلما ضربها لذلك ، فانها لم تمرض بسبب الضربات التي كالتها لها بل بسبب الاساءة التي لحقت كرامتها . لقد تزوجتها أرمل ذات أولاد هم جميعاً صغار . . كانت قد تزوجت مرة أولى عن حب ، تزوجت ضابط مدفعية هربت معه من منزل أبيها . كانت تحب زوجها حباً غنياً ، ولكن زوجها اندفع في المقامرة ، وأحيل الى المحاكمة فمات . وكان في المدة الأخيرة بضربها ، ورغم أنها كانت لا تسكت له عن شيء . وهذا ما أعرفه من وثائق مفصلة يُرُكن اليها . فانها ما تزال تبكي حين تذكره ، وتعيّرنى بالمقارنة بينى وبينه . وأنا أبتهج بهذا ، ابتهج به ، فهذه الطريقة تعتقد على الأقل أنها كانت سعيدة في يوم من الأيام . . . وبعد موت زوجها بقيت وحيدة مع أولادها الثلاثة في مقاطعة نائية متوحشة كنت أعيش أنا فيها أثناء ذلك الوقت . كانت في بؤس يبلغ من الهول أنني لن أستطيع أن أصفه لك اذا أنا حاولت ذلك ، رغم أنني قد عانيت أنا نفسى أنواعاً كثيرة من البؤس . جميع أفراد أسرتها أداروا لها ظهورهم . وكانت هي شديدة الكبرياء . . . وفي ذلك الوقت ، يا سيدى العزيز ، انما طلبت أنا يدها ، وكنت أرمل أيضاً ، لى من امرأتى الأولى بنت فى الرابعة عشرة من عمرها . . . طلبت يدها لأننى لم أكن أستطيع أن احتمل عذاباً كذلك العذاب . فى وسعك أن تتخيل درجة الحزن الذى لا بد أنها كانت تعانيه حين ارتضت ، هي المرأة المثقفة التى تربت أحسن تربية والتي تنتمى الى



كاترين ايفانوفنا التي تزوجت
الموقف مارميلادوف

أسرة مرموقة ، حين ارتضت أن تتزوجني ! صحيح أنها وافقت على ذلك
بأكيدة متعجة عاقبة يديها من الحسرة والحزن ، ولكنها تزوجتني ، لأنها
كانت لا تعرف الى أين تذهب ! هل تدرك يا سيدى العزيز ، هل تدرك
ما معنى أن لا يعرف الانسان الى أين يذهب ؟ لا ، انك لا تستطيع أن
تدرك هذا بعد ... وخلال سنة كاملة ظللت أقوم بواجبي بشرف وأمانة
واخلاص ، دون أن أقارب هذه (هنا أشار مارميلادوف باصبعه الى
الزجاجة) ، لانتى انسان ذو عاطفة . ولكننى بهذا أيضاً لم أستطع أن
أقوز برضاها . واذ فقدت أثناء ذلك وظيفتى أيضاً ، دون أن يكون لى
فى هذا ذنب على كل حال ، وانما كان فقدى وظيفتى نتيجة لتغيرات
فى هيئة الموظفين ، فقد أخذت ألامس هذه !... ومنذ سنة ونصف تقريباً
انما هبطنا ، بعد ترحال كثير ومصائب لا حصر لها ، انما هبطنا هذه العاصمة
الرائثة ذات المباني التاريخية التى لا يحصى عددها . وهنا عثرت على
وظيفة . عثرت عليها ثم فقدتها من جديد . هل تفهم ؟ لقد كان الذنب فى
فقدائها هذه المرة ذنبى أنا ، لأن طبعى الحقيقية قد انتصرت ... ونحن نقيم
الآن فى ركن من بيت امرأة اسمها آماليا فيودوروفنا ليفكسل ، أما مم
نميش وكيف تدفع أجرة المسكن ، فذلك ما لا أعرف عنه شيئاً ! وفى
المسكن يقيم أناس كثيرون غيرنا ... نحن فى سودوم قضيعة ... هم ...
نعم !... وفى أثناء ذلك كانت بنتى من زواجى الأول تكبر . لن
أحدثك عن المعاملة التى تحملتها ابنتى من زوجة أبيها . ان كاترين
ايفانوفنا شديدة الغضب ، عنيفة ، سريعة الاندفاع ، رغم أن نفسها
تفيض بالمشاعر النبيلة ! ... نعم ! دعنا من هذا على كل حال .
ما فائدة تذكر هذه الأمور الآن ! تستطيع أن تتخيل طبعاً أن ابنتى صونيا
لم تصب حظاً من تعليم . صحيح أننى حاولت ، منذ أربع سنين ، أن

أعلّمها الجغرافيا والتاريخ العام ، ولكنني لم أكن قوياً في هذا الميدان ، وكانت تعوزني الكتب المناسبة من جهة أخرى ، فان الكتب القليلة التي كنت أملكها ... هم ... أصبحت لا أملكها ... لذلك توقفت دراسة ابنتي ... وصلنا الى الحديث عن سيروس ، ملك الفرس ... وبعد ذلك ، حين بلغت ابنتي سن الرشيد ، قرأت بعض الكتب الروائية ، ثم قرأت في الآونة الأخيرة ، بواسطة السيد ليزياتيكوف ، كتاب ليويس * « الفزيولوجيا » ، هل تعرف هذا الكتاب ؟ قرأته ابنتي بكثير من الاهتمام ، حتى لقد قرأت لنا فقرات منه بصوت عال . ذلك هو كل ما حصلته ابنتي صونيا * من تعليم . والآن أتوجه اليك ياسيدى العزيز ، فألقى عليك هذا السؤال بصفة شخصية تماماً : هل تستطيع فتاة فقيرة لكنها شريفة ، هل تستطيع فى رأيك أن تكسب مالاً كثيراً ؟ انها لن تكسب خمسة عشر كوبكاً فى اليوم ، اذا هى كانت شريفة واذا هى لم تملك أية هبة خاصة ، وهذا على شرط أن لا تترك العمل دقيقة واحدة أيضاً . ثم ان مستشار الدولة * كلوبستوك ، ايقان ايفانوفتش كلوبستوك - هل سمعت عنه؟ - لم يكتف بأن لا يدفع لها أجرها عن خمسة عشر قميصاً خاطتها له من حرير هولاندى ، بل زاد على ذلك فطردها شرّاً طردة وهو يقرع الأرض بقدمه ويصفها بأبشع النعوت ، بحجة أن احدى الساقات لم تكن على قياس عنقه ، وأنها قصتها مقلوبة . والمصغار فى أثناء ذلك جاثون .. وكاترين ايفانوفنا فى أثناء ذلك تمشى فى الفرقة ذاهية آية ، عاقفة يديها ، وقد أخذت البقع الحمراء تظهر على خديها ، كما يحدث ذلك دائماً للمصابين بهذا المرض . قالت كاترين ايفانوفنا لابنتي صوفيا : « كسلانة ، انك لا تزيدين هنا على أن تملئي بطنك طعاماً وشراباً ! » . كأن المسكينة قد أتيت لها أن تأكل وأن تشرب ، مع أنها لم تكن قد وضعت فى فمها كسرة خبز منذ ثلاثة أيام ! وكنت أنا راقداً ... نعم ... فعلاً ...

كنت راقداً كاليت من فرط السكر ... وهأنا ذا أسمع ابنتي صونيا تتكلم
(انها عزلاً لا تملك عن نفسها دفاعاً ... ما اعذب صوتها ... هي
شفراء كل الشقرة ... ووجهها شديد الشحوب والنحول دائماً)
قالت : « أحقاً يا كاترين ايفانوفنا ، أحقاً تريدان ان اعد نفسى لمثل هذا
الأمر ؟ » والموضوع أن داريا فراتسوفنا ، وهى امرأة سيئة النيات
تعرفها الشرطة جيداً ، كانت قد استعلمت عن صونيا ثلاث مرات بواسطة
صاحبة البيت . أجابت كاترين ايفانوفنا وهى تضحك ساخرة : « هه !
ألا ان كنزاً كهذا الكنز ليستحق أن تحافظى عليه ! » ولكن لا تتهمها ،
لا تتهمها يا سيدى العزيز ، لا تتهمها ! لم تكن تتكلم هادئة النفس مالكة
وعيا ... لقد كانت محطمة الأعصاب مريضة من رؤية صغارها يكون
جوعاً . ثم اتنا لا يجوز لنا أن نفهم أقوالها بمعناها الحقيقى ، وانما يجب
أن نفهم هذه الأقوال على أنها اهانة فحسب ... ذلك هو طبع كاترين
ايفانوفنا : حين يبكى أولادها ، ولو من الجوع ، فانها تأخذ تضربهم فوراً .
وهأنا ذا ، قبل الساعة السادسة بقليل ، أرى صوفيتشكا تنهض فتناول
وشاحها وبرنسها وتخرج ، ثم تعود قبل الساعة التاسعة . فلما دخلت مضت
الى كاترين ايفانوفنا قدماً فوضعت أمامها على المنضدة ثلاثين قطعة نقدية
من فئة الروبل ؛ ثم لم تزد ، حتى دون أن تنظر اليها ، ودون أن تقول كلمة
واحدة ، لم تزد على أن تناولت الشال الكبير الأخضر المصنوع من جوخ
السيدات (نعم ، عندنا شال من هذا النوع ، مصنوع من جوخ السيدات*
نستعمله جميعاً) ، ففطت به رأسها ووجهها تماماً ، ورقدت على السرير
متجهة برأسها نحو الحائط ، فكنا لا نرى الا ارتجاف كنفها وارتعاش
جسمها ... وكنت ما أزال على حالتى تلك نفسها ... فرأيت عندئذ ،
أيها الفتى ، رأيت كاترين ايفانوفنا تنهض ، دون أن تقول كلمة واحدة



صونيا مارمیلادوفا

هى أيضاً ، فتقرب من سرير ابنتى صوفيشكا ، وتظل هنالك طوال
السهرة راكبةً عند قدميها تقبلها ولا تريد أن تنهض . وبعد ذلك ، بعد
ذلك ، رأيتهما تمانى معاً متعافيتين ... معاً ... كليهما ... وكنت أنا
رافداً ... فى ركبي ... على حالة السكر تلك ذاتها ...

صمت ماريلادوف كأن صوته قد انقطع ، ثم ملأ كأسه فجأةً فأفرغه
فى جوفه دفعة واحدة ، وذلك حلقه ، وتابع يقول بعد لحظة صمت :

- ومنذ ذلك الحين ياميدى ، على أثر ظرف تعيس ونتيجةً لوشاية
أشخاص أشرار ، ولا سيما داريا فراتسوفنا ، بحجة أننا لم نراعها ،
اضطرت ابنتى صونيا سيميونوفنا أن تكون ذات بطاقة وأن تتركنا تبعاً
لذلك ، لأن صاحبة البيت ، آماليا فيودوروفنا ، لم تشأ أن تحتل هذا
الوضع (مع أن آماليا كانت قد ساعدتها فى الماضى) ، وكذلك
السيد ليزياتيكوف ... وحول موضوع صوفيا هذا انما جرت تلك
الحكاية بينه وبين كاترين ايفانوفنا . ففى بداية الأمر كان هو نفسه قد
حاول التقرب من صوفيشكا والتمس الخطوة بها ، ثم ها هو ذا يتور
قاتلاً : « كيف يمكننى ، أنا الرجل المستير ، أن أعيش فى نفس المسكن
الذى تعيش فيه هذه ال ... ، ولكن كاترين ايفانوفنا لم تستسلم ،
بل تدخلت ... فحدث ما حدث . والآن تزورنا صوفيشكا من حين الى
حين (بعد هبوط الليل) ، فتساعد كاترين ايفانوفنا وتمدها باللازم ...
انها تقم فى مسكن الحياط كابرناؤموف* الذى استأجرت غرفةً عنده .
وكابرناؤموف ، عدا أنه يبرج ويثأئى ، له أولاد كثيرون يثأئون جميعاً
كذلك . وامراته ثأئى أيضاً ... انهم يسكنون جميعاً فى حجرة واحدة .
ولكن صوفيشكا لها حجرة خاصة بها وراء حاجز ... هم ...
نعم ... أناس لا يتصور المرء أن يكون فى العالم من هم أفقر منهم ...
وهم الى ذلك ثأماون ... نعم ... ونهضت فى ذات صباح ، فارتدت



صبي الحمارة
الثناء اعترافات مارمیلادوف

أسمالي الباليه ، ورفعت ذراعى نحو السماء مبتهلاً ، ثم ذهبت الى عند صاحب السعادة ايفان آتانازيقتش . هل تعرف صاحب السعادة ايفان آتانازيقتش ؟ لا تعرفه ؟ اذن فأنت لا تعرف انساناً قلبه لله ، هذا رجل نقى نقاء السمع ، نقاء سميع بكر امام وجه الرب والسمع ينوب وقد ذاب هو دموعاً بعد ان تفضل فاصنى الى كلامى حتى النهاية . فلما فرغت من حديثى قال لى : « اسمع يا مارميلادوف ، لقد خيت ظنى مرة ولكننى سأوظفك هذه المرة أيضاً ، على مسئوليتى الخاصة - تلك كانت كانت أقواله - فتذكر هذا . والآن فى وسعك أن تنصرف » . قبلت موطىء قدميه - بالحيل طبعاً ، لأن هذا الموظف الكبير الذى آمن بالأفكار الجديدة التى تم تبنيها رسمياً ما كان له أن يسمح لى بأن أقبل موطىء قدميه بالفعل . وعدت الى مسكنى ، فلما زفت اليهم بشرى أتى سأعود الى وظيفتى وأتى سأقاضي راتباً آه رباه لا أستطيع أن أصف لك ما حدث

صمت مارميلادوف من جديد ، مضطرباً أشد الاضطراب . وفى تلك اللحظة دخلت عصابة كبيرة من السكرارى آتية من الشارع ؛ وعلى عتبة الحماره دوّت أصوات أرغن باربارى استؤجر لهذه المناسبة ، كما دوّى صوت نحيل هو صوت طفل فى السابعة من العمر كان يقنى أغنية « القرية الصغيرة » . ضجت القاعة بالصخب . وأسرع صاحب الحماره والخدم يحدقون بالقادمين الجدد ، ولكن مارميلادوف تابع سرد قصته دون أن ينتبه الى أحد . كان يبدو منذ ذلك الحين وكأن الحجرة قد حطمته ومسحته ، ولكن كلما ازداد سكره ازداد تدفقه فى الكلام . ان ذكرى النجاح الأخير الذى أصابه مسماه قد أتمشه بعض الاناش ، حتى لقد أضفى على وجهه نوعاً من الاشراق والاشعاع . وكان راسكولنيكوف يصفى اليه بانتباه

— حدث ذلك منذ خمسة أسابيع يا سيدى ... نعم ... فما ان علمت كاترين ايفانوفنا وصويتشكا بالنبا حتى حدث — يا رباه ! — ما يشبه أن أكون قد انتقلت الى السماء . قبل ذلك كنت ألبث راقداً على الأرض كبهيمة ، يا سيدى الطيب ، وأتلقى الشتائم وأبلغها ! أما الآن فانهما تسيران على رموس الأصابع ، وتسكتان الأولاد قائلتين : « لقد تعب سيمون زاخارتش اليوم فى مكتبه ، فهو الآن يستريح ... هست ! » وصرت قبل أن أذهب الى عملى ، أوتى بالقهوة وتسحق لى القشدة . صارتا تستطيعان الحصول على قشدة ... حقيقة ... هل تسمع ؟ وأين أمكنهما الحصول على أحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً لتجهزاني تجهيزاً لائقاً ؟ ذلك أمر لم أفهمه فى يوم من الأيام . حذاطان ، بزة رسمية ، قمصان ، ياقات ... ما كان أروع القمصان ! ... لقد اشترت هذه الأشياء كلها بأحد عشر روبلاً وخمسين كوبكاً ، وجعلناها حسنة المظهر لائقة . ماذا رأيت عند أول صباح ذهبت فيه الى المكتب ؟ أعدت كاترين ايفانوفنا طبقين ، حساءً ولحمً بقرٍ مملحاً مطبوخاً مع خضار ، وذلك أمر لم يحدث قبل ذلك فى يوم من الأيام . ثم انها لم تكن تملك ما تدثر بها ظهرها ... لم تكن تملك أى شئ . يمكن أن يسمى دناراً للظهر ... فها هى ذى فى ذلك الصباح مرتدية أجمل حلة ، كأنها كانت ذاهبة الى زيارة . نعم ... لقد رأيتها لابسة أجمل هندام ... لا كما اتفق ... انها تستطيع أن تخلق من العدم شيئاً . كانت وقد صفت شعرها تصفيفاً جميلاً ووضعت على رأسها قبعة أنيقة وأحاطت جيدها بياقة صغيرة بيضاء ، وزينت ذراعيها بكمين لطيفين ، قد أصبحت انسانة أخرى تبدو أصغر سنّاً وأحسن روثقاً وألطف جمالاً ! أما صويتشكا ، يمامتى الصغيرة ، فقد اكتفت بتقديم المال ، وقالت : « ولكننى أنا لن أستطيع أن أجيء اليكم كثيراً فى هذه الأيام ، فذلك ليس بلائق ، وإنما أجيء اليكم عند هبوط

الليل ، حتى لا يرانى أحد .. هل تسمع؟ هل تسمع؟ وبعد العشاء مضيت
أرقد على السرير . فهل تصدّق؟ ان كاترين ايفانوفنا لم تطلق صبراً .
لم يكن قد انقضى الى تشاجرهما مع آماليا فيدوروفنا الا ثمانية أيام فى أكثر
تقدير ، ومع ذلك دعتهما الى تناول فنجان من القهوة . وقضتا ساعتين
كاملتين تهامسان دون توقف . قالت لها : « ان سيميون زاخارتش * له
الآن وظيفة ، وهو يقبض الآن راتباً . لقد ذهب بنفسه الى صاحب
السعادة ، وهبَّ صاحب السعادة نفسه الى لقائه : جعل جميع الناس
ينتظرون ، وأمام جميع الناس تناول يد سيميون زاخارتش وقاده الى
مكتبه (هل تسمع؟ هل تسمع؟) وقال له صاحب السعادة طبعاً : انسى
أتذكر خدماتك الطيبة يا سيميون زاخارتش ، ورغم انقيادك لميلك
الطائش ، فاننى آمل ، ما دمت تعد بأن لا تنقاد بعد اليوم لذلك الميل
الطائش ، وما دام كل شيء ، من جهة أخرى ، قد جرى هنا أثناء غيابك
مقلوباً (هل تسمعين؟ هل تسمعين؟) ، فاننى آمل أن تفى الآن بوعده
وأن لا تخون العهد الذى تقطعه على نفسك . الحق أن هذا كله انما
اخترعته اختراعاً وارتجلته ارتجالاً - أنا أقول لك الآن ذلك - ولكنها
لم تعد الى هذا الاختراع والتلفيق انسياقاً مع ميول صيانية ، ولا حباً
فى اظهار قيمتها واعلاء شأنها . بالعكس : لقد صدّقت هى نفسها كل
ما تخيلته ، وما كان أعظم تلذذها به ... هيه ، هيه ... يا رب ! وأنا
لا ألومها ... لا ... أنا لا ألومها على هذا ... وحين أتيتها برائيتي
الأول كاملاً منذ ستة أيام ، نادتنى بقولها : يا حبيبى ... خاطبتنى قائلةً
« ما أجملك يا حبيبى ! » قالت لى هذا وكنا فى خلوة ، هل تفهم؟ يخيل
الىّ مع ذلك أنتى ... من ناحية حسن الصورة وجمال الهيئة ...
هه ... وهل أنا زوج على كل حال؟ الخلاصة ... لا ضير ... المهم
أنها فرصت خدى وقالت لى : « ما أجملك يا حبيبى ! » .

انقطع مارميلادوف عن الكلام ، وأراد أن يتسهم ، ولكن ذقه ارتجفت فجأة . ومع ذلك كبح جماح نفسه . وها هي ذى الحمار ، وسقوط هذا الرجل ، وجه المريض لامرأته وأسرته كلها ، واللبالي الخمس التي قضاها على العوامات ناقلات العلف ، ومنظر الزجاجة ، ها هي ذى تلك الأمور كلها تفرق راسكولنيكوف في ذهول . كان يريد أن يصغى بأكبر انتباه ممكن ، ولكنه أحس بضيق وانزعاج . ولام نفسه على أنه جاء الى هذا المكان .

صاح مارميلادوف يقول وهو ينتصب قائماً :

- أيها السيد العزيز ، أيها السيد العزيز ، ربما كانت هذه القصة تبعث على الضحك كسائر ماعداها ، ولعلني لا أزيد على أن أضيقك بهذا العرض النبى الأبله الأحمق لتفاصيل تافهة من تفاصيل حياتي المنزلية . ولكن هذا كله لا يضحكنى أنا ، لا يضحكنى أنا ، لا يضحكنى أنا ... لأن هذا كله انما أحسه أنا بكل جوارحي . لقد قضيت ذلك النهار كله وتلك السهرة كلها وأنا فى مثل الجنة أطير على أجنحة أحلامي . كنت أفكر فى الطريقة التي سأدير بها الأمور : كيف سأكسو هؤلاء الأولاد ، كيف سأهيى لها هي الهدوء والسكينة والطمأنينة ، كيف سأنتزع ابنتى الوحيدة من وهدة العار وأرداها الى أحضان الأسرة ... وكنت أحلم بأشياء أخرى أيضاً ، بأشياء كثيرة جداً . ذلك حق لى ياسيدى . فما الذى حدث أيها السيد العزيز ؟ (هنا ارتعش مارميلادوف فجأة ، ونصب رأسه وحدث الى محدته) ما الذى حدث ؟ حدث فى الغداة ، بعد جميع تلك الأحلام الجميلة ، أى منذ خمسة أيام على وجه الدقة ، أنتى عمدت الى أنواع الحيل والأكاذيب ، فسرقت من كاترين ايغانوفنا مفتاح صندوقها ، كلص الليل* ، فأخذت ما كان قد بقى من أجرى الذى أعطيتها أياه ... لا أدري كم كان المبلغ تماماً ... نعم ، ذلك ما حدث ... وأنظر أين أنا

الآن ... أنظروا الى أتم جميعاً !... لقد تركت البيت منذ خمسة أيام .
وهم هناك يبحثون عني . ولقد فقدت وظيفتي ، وبقيت بزتي الرسمية
مرهونة في خزانة ، على مقربة من « جسر مصر » * ... وانظروا الى
هذه الثياب الرثة التي أعطونيها بدلاً من بزتي الرسمية !... ان لكل
شيء نهاية .

لطم مارميلادوف جبهته بقبضة يده ، وكرّ أسنانه ، ثم أغمض
عينيه واستند بكوعه الى المائدة استناداً قوياً . ولكن وجهه تغير بعد دقيقة
تغيراً مفاجئاً مباغتاً ، فإذا هو بنوع من المكر والوقاحة انما ينظر الآن الى
راسكولينكوف . ثم أخذ يضحك وقال :

- واليوم ذهبت الى صونيا أطلب منها مالا ... لأقطع عن السكر
... ها ها ها ! ...

صاح يسأله أحد القادمين الجدد وهو يضحك ملء حلقه :
- وهل أعطتك مالا ؟

قال مارميلادوف متنجهاً بكلامه الى راسكولينكوف وحده :

- بما أعطيتني من مال انما اشتريت نصف الزجاجة هذه ، لقد
جاءتني صونيا بثلاثين كوبكاً قمعتها الى بيدها نفسها . وكان هذا المبلغ
كلّ ما بقي لها ... رأيت ذلك بنفسى . لم تقل شيئاً ، اكتفت بأن نظرت
الى صامتة ... نظرت الى لا كما يكون النظر في هذه الحياة الدنيا ، بل
في الحياة الآخرة ، في السماء ، حيث لا يوقظ الأشقياء في القلوب الا
عاطفة الشفقة ، حيث يبكي الناس على هؤلاء الأشقياء دون أن يوجهوا
اليهم كلمة تقريع ! وحين لا يقرّئك أحد ، فانك تشعر بألم أشد وعذاب
أقوى ! نعم ! تشعر بألم أشد وعذاب أقوى ! ثلاثون كوبكاً ... نعم ...
ولكنها كانت في حاجة الى هذه الثلاثين كوبكاً . أليس عليها الآن ،
يا سيدى ، أن تفتى بنفسها ، وأن تهتم بنظافتها . والنظافة ، تلك النظافة ،

تكلف نفقات كثيرة ، هل تفهم ؟ هل تفهم ؟ هناك دهنون يجب أن تشتريها
لتنظيف بها ... يستحيل عليها أن لا تفعل ذلك ! وهناك التوروات
المتصلة ، والآذنية الأنيقة التي تسمح باظهار القدم الصغيرة عند تجاوز
بركة ماء بخطوة كبيرة ! هل تفهم يا سيدي ماذا تعني نظافة كذلك
النظافة ؟ وهأنا ذا ، أنا أبوها ، اختلس الثلاثين كوبيكاً التي تملكها لأشرب
بها خمرآ . ولقد انفقت ذلك المبلغ فعلاً في الشراب ! ... فمن ذا الذي
يستطيع أن يرثي لحال رجل مثلي ؟ هل ترثي لحالي أنت الآن يا سيدي ؟ هل
ترثي لحالي ؟ تكلم يا سيدي ، تكلم : أترثي لحالي أم لا ؟ هيء هيء
هيء هيء ...

قال مارميلادوف ذلك وأراد أن يصب في كأسه خمرآ ، ولكن
الحمر كان قد نفذ ... كانت الزجاجاة فارغة !

وكان صاحب الحمار قد اقترب مرة أخرى ، فهتف يسأله :
- فيم عسى يرثي الناس لحالك ؟

وسُمت ضحكات وشتائم . كان يطلق الضحكات والشتائم أولئك
الذين سمعوا القصة كلها وأولئك الذين لم يسمعوها شيئاً البتة ولكنهم
ينظرون الى رأس الرجل الذي كان موظفاً .

زأر مارميلادوف فجأة ، وهو ينهض عن مقعده ، ماداً ذراعيه الى
أمام ، وقد وافاه الهام حقيقي ، كأنه لم يسمع الا تلك الكلمات ، زأر
يقول :

- لماذا عسى يرثي لحالي ؟ أهذا ما تقوله ؟ نعم ، نيس هناك ما يدعو
الى الرثاء لحالي ! وانما ينبغي أن أصلب ، أن أصلب على صليب ، لا أن
يرثي لحالي ! ولكن اصلبه ، أيها القاضي ، ثم ارث لحاله بعد أن
تصلبه . وعندئذ سأمضي اليك بنفسى ، أواجه العذاب مواجهة ، لأن

ظمئى ليس الى فرح ، بل الى حزن ودموع ! أتراك تظن أيها البائع أن نصف الزجاجة الذى اشتريته منك قد جاءنى بالفرح وحمل الى السرة ؟ ألا ان الألم ، ألا ان الألم هو ما كنت أنشده فى قرارة تلك الزجاجة نعم الألم والدموع ! ولقد ذقت فيها الألم ، لقد وجدت فيها ما كنت أنشده ! ولكن الله الذى يشفق على جميع الناس ويرأف بجميع الناس ، سيشفق علينا ، وسيرأف بنا لأنه يدرك كل شئ . انه هو الواحد الأحد . انه هو القاضى الأعلى . سيظهر فى يوم الحساب فيسأل : « أين هى تلك الفتاة المسكينة التى ضحت بنفسها فى سبيل امرأة أبيها الشريرة المصدورة ، فى سبيل أولاد امرأة أخرى ؟ أين هى تلك الفتاة المسكينة التى أشقت على أبيها الأرضى ، السكّير الذى لا يبرء له ، دون أن تدع لنفسها أن تشمئز من حيوانيته ؟ » وسوف يقول لها : « تعالى ! لقد سبق أن غفرت لك مرة سبق أن غفرت لك مرة والآن أعفو عن جميع خطاياك ، لأنت أحيت كثيراً ، وسيغفر لها ، سيغفر لابنتى العزيزة صونيا أنا أعلم أنه قد غفر لها شعر قلبى بهذا حين كنت عندها منذ قليل وسوف يحكم عليهم جميعاً . سيغفر للأخيار والأشرار ، سيغفر للحكماء والبسطاء على السواء . حتى اذا فرغ من الجميع ، خاطبنا نحن أيضاً فقال : « تعالوا ، تعالوا ! أتم أيضاً أيها السكّيون ، تعالوا أيها الضعفاء ، تعالوا أيها الفاسقون ! » . وسنقترب منه جميعاً ، دون شعور بالحزى والعار ، وسنقف أمامه ، وسيقول لنا : « أتم خنازير ! قد خلقتكم على صورة الوحش ، ودُمتم بخاتمته ! ومع ذلك اقربوا ! » . وسيقول الحكماء عندئذ ، سيقول العقلاء : « كيف يارب ؟ كيف تستقبلهم هم أيضاً ؟ » فيجيبهم : أنا أستقبلهم أيها الحكماء ، أنا أستقبلهم أيها العقلاء ، لأن أحداً منهم لم يحسب أنه جدير بأن يُستقبل ! » . وسوف يفتح لنا ذراعيه ، وسوف

نرتنى بين ذراعيه ... وسوف نبكى ... وسوف ندرك كل شيء ...
سوف ندرك عندئذ كل شيء ! ... وسوف يدرك جميع الناس عندئذ كل
شيء ... وسوف تفهم كاترين ايفانوفنا هى نفسها ... فليأت ملكوتك
أيها الرب ! ..

انهارت قوى مارميلادوف ، فتهوى على الدكة ، دون أن ينظر الى
أحد ، كأنه قد غرق فى أحلام عميقة ففسى كل ما كان يحيط به .
وأحدثت كلماته أثراً . فساد الصمت خلال دقيقة . ولكن القهقهات
والشتائم لم تلبث أن عادت تدوى .

— هكذا يكون الكلام !

— هو يثرثر !

— بوروقراطى !

الخ ، الخ ...

وقال مارميلادوف فجأة وهو يرفع رأسه مخاطباً راسكولنيكوف :

— هيا بنا يا سيدى . رافقنى الى عمارة كوزيل ... لقد آن الأوان
... خذنى الى كاترين ايفانوفنا !

كان راسكولنيكوف يتمنى منذ مدة طويلة أن ينصرف . وخطر
بباله من تلقاء نفسه أن يساعد مارميلادوف . وقد ظهر مارميلادوف أشد
وهناً وأضعف قياماً على ساقيه مما كان يمكن أن يتصور المرء بعد سماع
خطابه . اتكأ مارميلادوف اتكاء ثقيلاً على الشاب . وكان ينبئ قطع
مسافة مائتى خطوة أو ثلاثمائة خطوة . ان القلق والخوف يجتاحان السكير
بمزيد من القوة والمنف على قدر اقترابه من منزله .

ودمدم يقول منفصلاً :

- ليس خوفي من كاترين ايقاتوفنا • لست خائفا لانها ستشدني من
سعى • ما فيعه شعري ؟... ستشدني من سعى • انا أقول لك ذلك
... والأفضل ان تشدني من شعري ... لا ... ليس هذا ما يخيفني ...
انما أنا أخاف عينيها ... نعم ... انا أخاف عينيها ... وأخاف أيضاً
تنفسها !... والبقع الحمراء في خديها ... أخاف منها أيضاً ... هل
لاحظت كيف يتنفس المصابون بذلك المرض حين تور ثائرتهم ؟ وأنا
أخاف كذلك من الأولاد ، حين يكون • ذلك أن من الجائز أن لا تكون
صونيا قد أعطتهم ما يأكلون ... لست أدري ... لست أدري الآن ...
أما الضربات فلا أخافها ... اعلم أيها السيد أن هذه الضربات لا تقتصر
على أنها لا تخيفني ، وإنما هي تهيب لي لذة في بعض الأحيان ... لأنني
لا أستطيع الاستغناء عنها. ذلك أفضل ! ألا فلتضربني !... ألا فلتخفف
عن نفسي !... هذه هي العماره ، عماره كوزيل ... هو فقال ، فقال
ألماني غني جداً • أدخل معي !

اجتازا الفناء ، وصعدا الى الطابق الثالث • وكان ظلام السلم يزداد
حلكة كلما تقدما في الصعود •

الساعة أوشكت على الحادية عشرة ، ورغم أن مدينة بطرسبرج
ليس لها ليل حقيقي في مثل هذه الفترة من العام ، فقد كانت الظلمة
حالكة في آخر السلم •

في أعلى السلم كان باب صغير مدخّن مفتوحاً • وكان هنالك بقية
شمعة تضيء أقرع غرفة في المسكن ، طولها عشر أقدام • ان المرء يرى
الغرفة كلها من فسحة السلم • ان فوضى قصوى تسودها ، وان أسياء
لا حصر لأنواعها ملقاة على أرضها ، ولا سيما أسمال أطفال • وفي ركن
من الغرفة هو آخرها تقريباً ، قد شدّت ستارة ليل وراها سريراً •
ولم يكن في الغرفة نفسها الا كرسيان ، وأريكة خاسفة منجدة بقماش

مشمع بال رث ، أمامها مائدة مطبخ عتيقة من خشب الصنوبر ليست مدهونة ، لا وليس عليها غطاء . وفي آخر المائدة كانت بقية شمعة توشك أن تذوب كلها ، قد غرست في شمعدان من حديد . ان جميع المظاهر تشير الى أن مارميلادوف لا يحتل في هذا المسكن مكاناً من أركانه ، بل غرفة مستقلة هي في الواقع معمر أو دهليز . وكان الباب الذي يفضي الى الغرف الأخرى ، أو قل الى العلب الأخرى التي يتألف منها بيت آماليا لبيفكسل ، كان الباب مشقوقاً ، وكانت تصل منه جلبة وصيحات . كان الموجودون هناك يضحكون مقهقهين . يبدو أنهم يلعبون بالورق وهم يحسنون الشاي . وكان يستطيع المرء أحياناً أن يلتقط وسط الصخب ألفاظاً ليس فيها كثير تأدب .

لم يلبث راسكولنيكوف أن تعرّف كاترين ايغانوفنا . هي امرأة نحيلة نحولاً رهيباً ، دقيقة القسمات ، طويلة القامة ، حسنة الهيئة . وما يزال لها شعر كستناوى اللون رائع ؟ وكان على خديها بقعتان حمراوان فعلاً . انها تسير في الغرفة طولاً وعرضاً ، وقد شدّت يديها الى صدرها تضغطه بهما ؟ وكانت أنفاسها قصيرة مقطّعة ، وكانت عيناها تسطعان ببريق محموم ، ولكن نظرتها حادة ثابتة . ان هذه الوجه الذي التهمه مرض السل يحدث مرآه على ضوء الشمعة الصغيرة الذائبة أثراً في النفس أليماً .

قدّر راسكولنيكوف أنها في الثلاثين من العمر . ما هي في الحق بالمرأة التي تصلح زوجة للسكير مارميلادوف .

لم تتب الى وصولهما ، ولا سمعت وقع خطواتهما . كانت غارقة في نوع من الخيال ، فهي لا ترى شيئاً ولا تسمع شيئاً . ان حراً خانقاً يسود جو الغرفة . ومع ذلك لم تكن المرأة قد فتحت النافذة . ومن أدنى السلم كانت تتصاعد رائحة موبوءة ، ومع ذلك لم تغلق الباب المطل على

السلم . ومن خلال الباب الآخر كانت تصل سحب من دخان التبغ ،
ومع ذلك لم تغلق هذا الباب الثانى أيضاً .

وكانت صغرى البنات ، وهى طفلة فى السادسة من عمرها ، كانت
نائمة على الأرض قموذاً ، وقد تكيبت على نفسها وأسندت رأسها الى
الأريكة . وكان الصبى الصغير ، وهو أكبر منها بسنة واحدة ، يرتعش
ويبكى فى ركن من الأركان : لا شك أنه قد ضرب منذ قليل . أما البنت
الكبرى ، وهى طفلة فى نحو التاسعة من العمر ، طويلة نحيلة كعود
نقاب ، فكان كل ما يكسوها قميصاً رديئاً قد تمزق وتخرق فى كل
ناحية ، هو رداء عتيق من جوخ السيدات قد أُلقي على كفيها العاريتين ،
ولعله كان يناسب حجم جسمها منذ سنتين ، أما الآن فهو لا يكاد يصل
من قامتها الى الركبتين . وكانت البنت واقفة فى الركن تضم إليها أخاها
الصغير ، وتحيط عنقه بذراعها الطويلة النحيلة . يبدو أنها كانت تحاول
أن تسرّى عنه ، فهى تكلمه بصوت خافت جداً ، رجاء أن لا يستأف
بكاءه ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تتابع أمها وقد امتلأت رعباً ، تتابعها
بعينها الواسعتين القامتين اللتين تبدوان واسعتين مزيداً من السعة فى هذا
الوجه الهزيل المرتاع .

لم يدخل مارميلادوف الغرفة ، بل ركم على العتبة ، ودفع
راسكولنيكوف الى أمام . فلما رأت المرأة هذا الشاب المجهول ، وقفت
أمامه ذاهلة ، ثم خرجت من تأملاتها لحظة ، ربما لتحاول أن تفسر لنفسها
سبب مجيئه . ولكن لا بد أنها لم تلبث أن اعتقدت أنه ذاهب الى سكان
آخرين من سكان البيت ، لأن الغرفة ممر الى الغرف الأخرى . فلما
وصلت الى هذه النتيجة ، اتجهت نحو باب الدهليز تريد أن تغلقه ، فاذا
هى تصرخ على حين فجأة ، لأنها اكتشفت زوجها الراكع على الأرض .
صاحت تقول وقد بلغت ذروة الغضب :

- آ ... هانت ذا عدت ! يا لص ، يا شيطان ، يا مسخ ! أين المال ؟ ماذا فى جييك ؟ أرني ! ... وهذا اللباس الذى ترتديه ليس لباسك ، فأين رداؤك اذن ؟ أين المال ؟ تكلم !

قالت ذلك وهجمت عليه لتبش جيوبه • فسرعان ماباعد مارميلادوف ذراعيه خاضعاً طيعاً بقية أن يسهّل عليها تفتيش جيوبه • ولم يكن فى جيوب مارميلادوف كوبك واحد • هتفت تقول :

- أين المال ؟ أين المال ؟ آه ... يا رب ! ... هل يمكن أن يكون قد شرب خمراً بالمال كله ؟ كان ما يزال فى الصندوق اثنا عشر روبلاً مع ذلك ...

وألت بها سورة مسعورة من الفضب على حين فجأة ، فأمسكت بشعره ، وجرّته الى الغرفة • وسهّل هو عليها هذه المهمة ، فكان يزحف على ركبتيه وراءها طائماً ذليلاً •

صاح يقول لى بينما كان يُجرّ من شعره حتى لتصطدم جبهته بأرض الغرفة :

- هذه فرحة بالنسبة الىّ يا سيدى ، ليس هذا ألاً يا سيدى العزيز ! ...

واستيقظت البنية التى كانت نائمة على الأرض ، وأجهشت تبكى • ولم يتمالك الصبى الصغير نفسه فأخذ يرتعش ويصرخ وهرع نحو أخته مروّعاً تكاد تعجّاحه نوبة عصية • وكانت البنت ترتجف كورقة فى مهب الريح •

صاحت المرأة المسكينة تقول :

— شرب بالمال كله ، شرب بالمال كله • حتى رداؤه ليس رداؤه !
انهم يتضورون جوعاً ، يتضورون جوعاً •

قالت ذلك وهي تلوى يديها وتشير الى الأولاد ، ثم أردفت :
— لعن الله هذه الحياة ، لعن الله هذه الحياة !

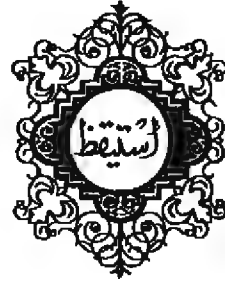
وزارت تخاطب راسكولنيكوف وهي ترتدى عليه فجأة :
— وأنت أيضاً خارج من الحمامة ! شربت معه ، أليس كذلك ؟
أنت أيضاً ... شربت معه ... اخرج من هنا ! ...

فأصرع الشاب يخرج دون أن يقول كلمة واحدة • وفي أثناء ذلك
كان الباب قد فُتح على كل سعة ، وظهر في فرجته عدد من المستطلعين •
كانوا يمدون رموسهم الوحشة الضاحكة ، وقد وضعوا عليها طاقاتهم ،
وراحوا يدخنون سجائر أو غلايين • وكانت تُرى قامات ترتدى معاطف
المنازل أو ملابس صيفية ليس فيها شيء من احتشام • وكان بين المستطلعين
أناس يحملون بأيديهم ورقاً من ورق اللعب ، وقد ضحكوا خاصة حين
جُرَّ مارميلادوف من شعره ، فصرخ يقول ان هذه فرحة له • حتى لقد
دخلوا الغرفة وسُمت أخيراً وعوعة غاضبة حاققة : انها آماليا ليفكسل
بنفسها قد شقت ممراً بين الجمهور لتعيد الهدوء ، بطريقتها الخاصة ،
ولترهب المرأة المسكينة بإبلاغها رسمياً ، للمرة المائة ، أمراً بأن عليها
إخلاء المسكن منذ الغد • اتسع وقت راسكولنيكوف ، قبل أن ينصرف ،
لأن يمس يده في جيبه فيخرج منها جميع النقود النحاسية التي بقيت له
من الروبل الذي صرفه في الحمامة ، وأن يضع هذه النقود خفية على
حافة النافذة • فلما صار في السلم ، عدل عن رأيه ، وأراد أن يرجع
أدراجه • قال يحدث نفسه : « حماقة ما فعلت ! ... هم لهم صوتيا ،
وأنا في حاجة الى مال » • ولكنه رأى أن من المستحيل عليه أن يسترد
الصدقة التي أعطاها ، وأنه لن يستردها ولو لم يكن استردادها مستحيلاً ،

فرح كفيه واتجه نحو مسكنه • وتابع حديثه مع نفسه أثناء سيره في الشارع وهو يتسم ابتسامة غريبة : « حقاً ان على صونيا أن تشتري أطيباً تدهن بها ... انها تكلف ثمناً باهظاً ، تلك النظافة ... هم ... ولكن من الجائز جداً أن يصيها اليوم أفلاس ... ان هذه المهنة معرضة لمخاطر كثيرة ، كصيد الوحوش الكاسرة والبحث عن مناجم الذهب سواء بسواء ... فبدون هذا المال الذي نفحتهم اياه يمكن أن يتضوروا في الغد جوعاً وأن يشدوا الأحزمة على بطونهم • آه ... نعم يا صونيا !... يا لك من منجم اكتشفوه ! ويا لها من فوائد يجنونها منه !... ذلك أنهم يجنون من هذا المنجم فوائد ! لقد اعتادوا أن يستفيدوا منه وأن يتفعوا به ! بكوا في أول الأمر ، ثم ألفوا وتعودوا • ان الانسان يعتاد كل شيء • يا له من حقير ! » •

ثم فكّر • فاذا هو يصبح قائلاً رغم ارادته على حين فجأة : « ماذا لو كنت على ضلال ! ماذا لو لم يكن الانسان في حقيقة الأمر حقيراً ... أعني الانسان عامة » ، أعني النوع الانساني ... سيكون معنى ذلك أن الباقي « كله » ليس الا أوهاماً ، ليس الا مخاوف خيالية باطلة ، وأنه ليس هنالك أي حد ينبغي الوقوف عنده • نعم ، ذلك ما يجب » •

الفصل الثالث



في الغداة متأخراً ، بعد نوم مضطرب لم يجلب له أية راحة . وشعر حين استيقظ بأنه معتكر المزاج سريع الاحتياج خيث النفس ، ونظر الى غرفته نظرة كره ومقت . ان هذه الغرفة أشبه بقصص صغير طوله ست خطوات ، يدل مظهرها على أشد الفقر والفاقة ، قد غطيت جدرانها بورق مصفر تراكم عليه الغبار وانتزع في جميع الجهات . وهي تبلغ من انخفاض سقفها أن رجلاً له قامة تكاد تفوق متوسط القامات ، لا بد أن يشعر فيها بأنه مكبوس ، ولا بد أن يخشى اصطدام رأسه بالسقف . وأثاث الغرفة يناسبها حقارة ورتانة : كان فيها ثلاثة كراسي عتيقة تعرج قليلاً ؛ وكان في ركن من أركانها مائدة مدهونة عليها دفاتر وبضعة كتب (يكفي المرء أن يرى طبقة الغبار التي تغطي هذه الكتب حتى يدرك أنها منذ مدة طويلة لم تمتد إليها يد) ؛ وكان فيها أخيراً ديوان كبير يشغل كل طول الحجرة ويشغل نصف عرضها تقريباً ، ديوان كان في الماضي منجداً بقماش هندي ولكن القماش قد أصبح الآن خرقاً رثة ومزقاً بالية . ان هذا الديوان هو سرير راسكولنيكوف . وكثيراً ما كان يتفق لراسكولنيكوف أن يزقده عليه مرتدياً جميع ثيابه بلا غطاء ، غير ملتحف الا بمعطفه العتيق ، معطف الطالب ، واضعاً رأسه على مخدة صغيرة كان يعليها بأن يمس تحتها جميع

ما عنده من ملابس نظيفة ومتسخة • وأمام الديوان توجد منضدة صغيرة •

انه لمن الصعب أن يهمل المرء نفسه اهمالاً أشد من هذا الاهمال • ولكن منظر مسكنه هذا ، وهو فيما هو فيه من حالة نفسية خاصة ، كان يعضى الى حدّ أن يولّد له شيئاً من لذة • كان قد انفصل عن العالم انفصلاً حاسماً ، وكان يعيش كالسلحفاة المحبوسة في قوقعتها • وحتى منظر الخادمة ، التي كانت تظهر في الصباح أحياناً لترى ماذا يجرى ، كان يبعث في نفسه كرهاً محموماً • هكذا شأن بعض الموسوسين الذين تحاصرهم فكرة واحدة ، ويسرف ذهنهم في التركيز على نقطة بعينها • لقد كفّت صاحبة البيت منذ مدة طويلة عن أن تبعث اليه بوجبات طعامه ، ورغم أنه أصبح مضطراً للصيام عن الطعام ، فانه لمّا يخطر بباله بعد أن يذهب اليها ليناقشها في الأمر • وكانت ناستاسيا ، الطباخة ، وهي الخادمة الوحيدة لدى صاحبة البيت ، كانت ، بمعنى من المعاني ، غير مستانة من الحالة النفسية التي كان عليها المستأجر ، وكانت قد انقطعت عن خدمة غرفته انقطاعاً كاملاً ، اللهم الا من حين الى حين ، مرة في الأسبوع ، وكانت في هذه المرة تكفي بأن تكنس الفرقة كسّاً سريعاً كيفما اتفق •

وهي التي أيقظته الآن • صرخت تقول له وهي تميل عليه :

— انهض • ما بك حتى تنام هذا النوم ؟ لقد دقت الساعة التاسعة •
هأنا ذا آتيك بشيء من الشاي ، هل تريد ؟ لسوف تموت جوعاً •
فتح الشاب عينيه ، وارتجف ، وتعرف ناستاسيا •
سألها ببطء :

— هل صاحبة البيت هي التي أرسلت اليّ هذا الشاي ؟

ثم نهض عن ديوانه وقد بدا عليه الألم •

قالت له الخادمة :

... صاحبة البيت ؟ هه !... ..

ووضعت أمامه ابريقها الخاص بها ، ابريقها المتصدع الذى يضم بقية
قديمة من شاي ، ووضعت قطعتين صغيرتين من سكر مصفر كل الاصفرار
قال لها بعد أن نبش جيبه (كان قد نام لابساً ثيابه) ، فأخرج منها
قطعة نقدية :

— خذى يا نامتاسيا ، خذى هذا ، أرجوك ... واذهبى فاشترى
لى رغيفاً صغيراً من الخبز ، واشترى لى كذلك من عند البقال سجقاً ،
سجقاً بخس الثمن

— سأتيك بالرغيف حالاً • ولكن ألا تريد ، بدلاً من السجق ،
أن تصيب شيئاً من حساء بالكرنب ؟ هو حساء بالكرنب صنعناه أمس ،
وادخرته لك مساء ، لكنك رجعت الى البيت متأخراً • هو حساء بالكرنب
طيب •

وحين جاءت نامتاسيا بحساء الكرنب ، فأخذ يأكل ، جلست الى
جانبه على الديوان ، وأخذت تترنر • انها فتاة قروية مكثارة مهذارة •
قالت له :

— ان براسكوفيا بافلوفنا تريد أن تشكوك الى الشرطة •
فأريد وجهه وسألها :

— تشكونى الى الشرطة ؟ ماذا تريد منى ؟

— أنت لا تدفع أجر السرقة ، لا ولا تجلو عنها ! ذلك ماتريده منك!
جميعهم يقول وهو يجلس :



ناستاسيا

- لم يكن ينقصني الا هذا ! حقاً ان ذلك يقع في اسوأ حين ...
في اسوأ أوان !... أفى هذه اللحظة ؟...

ثم أضاف يقول بصوت عالٍ :
- يا للحمقاء ! سأمرُّ بها اليوم فأكلّمها •
قالت :

- أما أنها حمقاء فهي حمقاء حقاً ، مثلك أنت تماماً ... ولكن ...
ما بالك أنت ، وأنت ذكى هذا الذكاء كله ، تبقى راقداً طول الوقت
كصُرّة ؟ لا يستطيع أحدٌ أن يحملك على شيء أو أن يستمد منك
شيئاً ! تقول انك كنت في الماضي تعطى الأولاد دروساً خاصة ، فلماذا
أصبحت لا تقوم الآن بأى عمل ؟...
- بل أقوم ...

كذلك نطق راسكولنيكوف رغم ارادته ، بلهجةٍ جافة •
سألته :

- ما الذى تقوم به ؟

- أقوم بعمل ...

- أى عمل ؟

أجابها جاداً بعد صمت :

- أفكر ...

اتتبت ناستاسيا نوبةً ضحك • انها متأهبةٌ دائماً لأن تنفجر ضاحكة.
ويكفى أن تُمازح أقلَّ مَمازحة حتى تأخذ في الضحك ، ولكن ضحكها
صامت ، فهي لا تزيد على أن تحرك وترجع جسمها كله ، الى أن يصيبها
من ذلك غثيان !...

وأفلحت فى أن تتطق أخيراً فقالت له :

ـ وهل جنيت من التفكير مالاَ كثيراً ؟

قال :

ـ كيف يستطيع المرء أن يمضى لاعطاء دروس حين لا يملك

حذاءين ؟ على أتى لا أكثرث بهذا كله !... ..

ـ لا تكثرث ؟ انك اذن لمخطىء .

ـ ماذا يجنى المرء من تعليم الأطفال ، ماذا يستطيع ان يفعل ببضعة

كوبكات ؟

كذلك تابع يقول بلهجة حزينة كالحة ، كأنه يجيب عمّا يدور

فى رأسه هو من خواطر وافكار .

سأله قائلة :

ـ ماذا ؟ أترارك تريد الحصول على ثروة طائلة دفعةً واحدة ؟

نظر اليها نظرة غريبة ثم أجابها بصوت جازم بعد صمتٍ قصير :

ـ نعم ، ثروة طائلة

ـ هيه رفقاَ رفقاَ ! انك تخيفنى : أأمضى لشراء الرغبة

الصغير ؟

ـ افعلى ما تشائين .

قالت فجأةً :

ـ ها نسيت معى رسالة لك وصلت أثناء غيابك .

ـ رسالة ؟ لى ؟ ممن ؟

ـ لا ادرى ممن . وقد نقدت ساعى البريد ثلاثة كوبكات من

جيبى . ستردها الىّ ، اليس كذلك ؟

صرخ راسكولنيكوف يقول وقد بلغ ذروة الاضطراب :

— هاتي الرسالة ! هاتيها ناشدتك الله ... آه ... يا رب ! ...

بعد دقيقة جاءت الرسالة • صدق ما كان يقدره : ان الرسالة آتية من امه التي تقيم في اقليم ر ...

اصفر وجهه وهو يتناول الرسالة • لقد أصبح لا يتلقى أية رسالة منذ مدة طويلة • ولكن شيئاً آخر يقبض الآن قلبه ويحجم على صدره •
قال :

— ناستاسيا ، اذهبي ... ناشدتك الله ... انصرفي ... اليك كويكائك الثلاثة ... اخرجي بسرعة ... ناشدتك الله ! •

كانت الرسالة ترتعش بين يديه • لم يشأ أن يفوضها امام الخادمة • كان يحرص على ان يبقى « وحيداً » مع هذه الرسالة • فما ان خرجت ناستاسيا حتى رفع الرسالة الى شففيه بحركة سريعة ، وقبلها • ثم لبث مدة يُنصم النظر في العنوان ، ويتأمل الخط العزيز الغالي الذي يعرفه حقاً المعرفة ، الخط الصغير المائل بعض الميل ، خطاً امه التي علمته القراءة والكتابة في الماضي منذ زمن بعيد • أحجم عن فض الرسالة بعض الوقت ، حتى لكأنه يخشى شيئاً ما • ثم فضها اخيراً • الرسالة طويلة كثيفة ثقيلة الوزن : صحيفتان من ورق تغطيهما كتابة مرصوفة وجهاً وقفا • وهذا نص الرسالة :

« عزيزي روديا * ! انقضى اكثر من شهرين دون أن أتحدث اليك كتابة ، وذلك امر عذبنى كثيراً ، حتى لقد حرمني من النوم ذات ليلة من فرط تفكيري فيه • ولكنني على يقين من أنك لن تؤاخذني على هذا

الصمت الطويل الذى لست مسؤولة عنه • انت تعلم كم احبك ! ليس لنا فى هذه الحياة ، أنا ودونيا * ، سواك • أنت عندنا كل شيء • أنت كل أملنا • أنت كل ايماننا بالمستقبل ! ليتك تعلم الحالة التى صرت ايتها حين علمت منذ بضعة اشهر أنك تركت الجامعة لعجزك عن الوفاء بسد حاجاتك ، وأنت فقدت الدروس التى كنت تعطيتها ، وفقدت مائر الموارد الأخرى ! كيف كان يمكننى أن اساعدك وانا لا أقبض الا خمسة وعشرين روبلاً فى السنة هى معاش التقاعد ! أنت تعلم ان الخمسة عشر روبلاً التى أرسلتها اليك منذ أربعة أشهر ، انما كنت قد اقترضتها سلفة على معاشى من تاجر فى بلدتنا هو فاسيلي ايفانوفتش فاختروشين • انه رجل طيب شهم كان صديق أبىك • ولكننى وقد خولته حق قبض المعاش نيابة عنى ، قد اضطررت أن انتظر الى ان ينتهى سداد الدين كاملاً ، وذلك بما لم يتم الا منذ برهة قصيرة • هذا هو السبب فى اننى لم أستطع أن أرسل اليك شيئاً طوال ذلك الوقت • أما الآن فأعتقد أننى سأستطيع ، والله الحمد ، أن أستأنف ارسال شيء من المال اليك • ثم اننا فى وسعنا ، على وجه أعم ، ان نبط انفسنا على ان الحظ قد وافانا قليلاً ، وذلك ما أسارع الى ذكره لك • هل يمكنك ، أولاً ، يا عزيزى روديا ، أن تحزر أن أختك تقيم معى منذ شهر ونصف شهر ، وأتينا لن تنفصل بعد اليوم أبداً ؟ لقد انتهت الآن جميع آلامها بفضل الله ، ولكن ينبغى أن أقص عليك كل شيء مرتباً متسلسلاً ، حتى تعرف كيف جرت الأمور ، وماذا كتماننا عنك الى الآن ! لقد كتبت الى منذ شهرين قائلاً انك علمت من احد الناس أن أختك دونيا تتألم كثيراً من قسوة المعاملة فى منزل الأسرة التى تعمل عندها ، وهى أسرة سفدرىجايلوف ، وسألتنى أن أبعث اليك بشروح دقيقة وتفاصيل وافية عن هذا الأمر • فهل كان فى وسعنى أن اجيبك فى ذلك الأوان ؟ لا ••• فلو قد كتبت اليك الحقيقة كاملة لكان

من الجائز ان تترك كل شيء وان تجيء النسا سيرا على الأقدام اذا لزم الأمر ، لأننى أعرف طبعك وأعرف عواطفك ، فما كان لك ان تدع لأحد ان يسيء الى أختك وأن يهين كرامتها . ولقد بلغتُ إنا نفسى عندئذ غاية الكرب واليأس . ولكن ما الذى كان يجب ان أفعله ؟ ثم اتى لم اكن اعرف الحقيقة كلها حينذاك . ولقد جاء البلاء أساساً من ان أختك دونيتسكا ، حين أخذت تعمل مربيةً عند آل سفيدريجايوف * ، فى السنة الماضية ، قد قبضت منهم سلفة مقدارها مائة روبل يقطعونها من أجورها شهراً شهراً . لذلك كان من المستحيل عليها ان تترك وظيفتها قبل ان تكون قد سددت ما لهم عليها من دين . وذلك المبلغ الذى قبضته (أستطيع الآن ان اعترف لك بذلك يا بنى العزيز) انما أخذته خاصة لترسل اليك الستين روبلاً التى كنت حيثئذ فى حاجة ماسة اليها والتى تلقيتها منا فى السنة الماضية . لقد خدعتك كلتنا حين كتبنا اليك عندئذ ان ذلك المال هو حصيلة مدخرات قديمة جمعتها دونيتسكا ؟ ولم يكن الأمر كذلك . وانما أنا أقول لك الحقيقة كلها الآن لأن الله قد أراد ان يبدل كل شيء وان نصير الى حال أفضل ، ولأن من الواجب أن تعلم مدى ماتحملة لك دونيا من حب ، وأن تعرف ما يتصف به قلبها من نبل لا يضارع ! خلاصة المسألة ان السيد سفيدريجايوف كان فى أول الأمر يعاملها معاملة شديدة الغلظة والفظاظة وكان يوجه اليها اثناء الجلوس الى المائدة أنواعاً شتى من الكلمات القارصة والأقوال الساخرة على أننى لا أريد أن أقضى فى الكلام على هذه التفاصيل الأليمة ، حتى لا أعذبك فى غير طائل ، بعد أن انتهى هنا كله الآن ! المهم ان وضع دونيتسكا كان شاقاً جداً رغم ان مارتا بتروفا ، زوجة السيد سفيدريجايوف وسائر أهل المنزل قد عاملوها معاملة فيها كثير من الرعاية والمداراة واللطف . وكان وضعها يزداد مشقة حين يصبح السيد سفيدريجايوف تحت سيطرة



سفر ریجایلو

باخوس* على ما ألف من عادة ترسخت فيه منذ كان في الجيش . ولكن ما الذى حدث بعد ذلك ؟ تصور ان هذا الرجل المأفون كان منذ مدة طويلة يهيم بأختك دونيا هياماً يخفيه تحت ستار موقف من الفظاظة والاحتقار يصطنعه اصطناعاً . ولعله كان يشعر بالحزى والعار فى نفسه ، أو لعله كان يحس بارتياح حين يرى أنه فى هذه السن ، هو رب الأسرة ، تراوده آمال تبلغ هذا المبلغ من الحماقة والطيش ، فاذا هو يحقد على دونيا رغم ارادته ، ويحصل لها الضئيلة والسخيمة فى قرارة قلبه ، أو لعله بفظاظة موقفه وغلظة سخرياته انما كان يريد ان يخفى الحقيقة عن الآخرين لا أكثر ، المهم أنه أصبح فى نهاية الأمر لا يطيق صبراً ، فاذا هو يتجرأ ويتجاسر فيعرض على دونيا عروضاً صريحة حقيرة ، باذلاً لها وعوداً بغوائد شتى ومنافع كثيرة ، مقترحاً عليها فوق ذلك كله ان يترك كل شئ . ليسافر معها الى قرية أخرى من القرى التى يملكها أو الى الخارج اذا هى أرادت ! فى وسعك ان تتخيل الآلام التى قاستها أختك: كان عليها ان لا تفكر فى ترك وظيفتها فوراً ، لا بسبب ما عليها من دين فحسب ، بل ايضاً من باب المراجعة والمداراة لما رتا بتروفا التى كان يمكن ان تساورها شكوك كثيرة على حين فجأة فيحدث فى الأسرة شقاق يمزقها شراً ممزق . ذلك عدا أن تركها لوظيفتها فوراً يمكن أن يكون لها فضيحة كبرى لا يمكن تحاشيها . وهناك أسباب أخرى كثيرة كانت تجعل دونيا عاجزة عجزاً مطلقاً عن ترك تلك الأسرة قبل انقضاء ستة أسابيع . لا شك فى انك تعرف دونيا وتعرف ما تتصف به من تعقل ومن ارادة قوية . ان دونيتشكا تستطيع أن تتحمل أشياء كثيرة ، وأن تجد فى نفسها ، مهما تكن الظروف حرجة ، قدراً كافياً من رفعة الروح ونبل القلب حتى لا تفقد رباطة جأشها وثبات جنانها ، لذلك لم تكتب الى "أنا نفسى شيئاً عن هذا

كله ، حتى لا تؤلمنى وتعذبنى ، مع أننا كنا نراسل كثيراً . وقد حدثت خاتمة القصة على نحو لم يكن فى الحسبان :

ان مارتا بتروفنا سمعت زوجها فى الحديقة ، مصادفةً ، يتوسل الى دونيتشكا ضارعاً مبتهلاً ، فظنت ان دونيتشكا سبب كل شئ ، فاذا بمشهد رهيب يحدث عندئذ فى الحديقة نفسها : لم تشا مارتا بتروفنا ان تسمع أى قول ، حتى لقد ضربت دونيا ، وظلّت تصرخ ساعة بكاملها ، ثم اصدرت امرها بنقلها الى فى المدينة على عربة حقيرة من عربات الفلاحين ، رُميت فيها جميع اشياء دونيا من ملابس وأثواب ، رُميت فوضى بغير نظام ، حتى دون أن تُربط او تُحزم . وقد اخذ المطر يهطل عندئذ هطولاً غزيراً ، فاضطرت اختك دونيا ان تقطع مع الفلاح فى عربته المكشوفة مسافة عشرة فراسخ على تلك الحال من المذلة والهوان . انك ترى الآن أنتى لم أكن استطيع ان اجيبك بشئ على الرسالة التى بعثت بها الى منذ شهرين : عمّ كان يمكننى ان احدثك وفيه كنت استطيع ان اكلمك ؟ لقد كنت انا نفسى فى غاية الكرب وذروة الكمد . لم أكن اجرؤ أن اكذب لك الحقيقة . فلو فعلت ذلك لشقيت انت شقاءً كبيراً ولشعرت بغضب شديد واضطراب كبير .

وما الذى كان فى وسعك ان تفعل ؟ لا شئ الا ان تنافق آلامك وتزيد عذابك ! ثم ان دونيا قد حظرت على أن أقفل . وأما ان املاً رسالتى اليك بترهات وسفاسف ، بينا انا مثقلة القلب بالحزن والكمد ، فذلك ما شعرت اننى لا أقوى عليه . وفى اثناء شهر كامل جرت فى المدينة عن تلك القصة شائعات وأقاويل ونعائم ، حتى لقد بلغت الأمور حداً أصبحت لا أستطيع معه ان اصحب دونيا الى الكنيسة بسبب نظرات الاحتقار والازدراء التى يلقيها علينا الناس وبسبب الهمسات الكثيرة التى يتبادلونها عند مرورنا ، حتى انهم كانوا لا يخرجون من ابداء ملاحظات

خينة بصوت عال في حضورنا . وأصبح جميع من يعرفونا يديرون لنا ظهورهم ويشيحون عنا بوجوههم ، بل لقد كفوا عن تحيتنا . وعرفت من مصدر مطلع أن عدداً من مستخدمي الدكاكين وصغار موظفي المكاتب أرادوا ان يرتكبوا في حقنا وقاحة سافلة ، هي ان يلطخوا باب منزلنا بالقطران ، فأخذ اصحاب البيت الذي نسكنه يطالبونا باخلائه . وكانت مارتا بتروفا سبب ذلك كله ، فقد اتسع وقتها لأن تذهب الى جميع البيوت تنهم دونيا وتوسخ سمعتها . انها تعرف جميع الناس في بلدنا . واذ أنها أمل الى الثروة ، واذ أنها تحب ان تقص شئونها المنزلية على كل قادم ، وأن تشكو زوجها خاصة ، وذلك أمر ليس بالجميل كثيراً ، فقد نشرت القصة خلال برهة وجيزة من الزمن ، لا في المدينة وحدها ، بل في المقاطعة كلها . وقد مرضت أنا من ذلك . ولكن دونيتشكا كانت أقوى مني عوداً ، وأصلب شكيمة ، وأشد بأساً . ليتك رأيت كيف استطاعت ان تحتمل هذا كله بجأش رابط وجنان ثابت حتى لقد كانت هي التي تعزيني وتواسيني ، وتهوى عزيمتي ، وتشد أزرى ! انها ملاك ! ولكن رحمة الله اختصرت عذابنا . فان السيد سفيدريجايلوف قد عدل عن رأيه ، وندم على ما بدر منه ، ولعله شعر بشقيقه نحو دونيا ، فقدّم لامرأته مارتا بتروفا الدليل القاطع والحجة الدامغة على براءة دونيا : كان هذا الدليل القاطع رسالة كانت دونيا ، قبل ان تفاجئها مارتا بتروفا في الحديقة بزم طويل ، قد اضطرت أن تكتبها وان تعطياها السيد سفيدريجايلوف لترفض جميع شروحه وعروضه ، وترفض جميع المواعيد السرية التي كان يضرع اليها ان تضربها له . وقد بقيت هذه الرسالة بين يدي السيد سفيدريجايلوف بعد رحيل دونيا . وفي هذه الرسالة كانت دونيا تعيب عليه بلهجة عنيفة نائرة عارمة ما يتصف به سلوكه نحو مارتا بتروفا من جور وظلم وعسف ، وتذكره بأنه زوج ، وبأنه أب لأمرة ، وتصور

له مدى ما يشتمل عليه سلوكه من خسة اذ هو يعذب ويُسقى فتاة فقيرة عزلاء لا تحتاج الى مزيد من العذاب والشقاء • الخلاصة يا بنى العزيز روديا ، ان تلك الرسالة تبلغ من رفعة النبل وشدة التأثير أتنى أجهشت باكية منتجة حين قرأتها ؟ وما أزال حتى الآن لا أعيد قراءتها الا وترقرق في عينيّ الدموع • وجاءت شهادات الخدم تبرئ دونيا مزيداً من التبرئة! والخدم كما يحدث دائماً فى مثل هذه الحالات قد عرفوا من الأمر ورأوا من المشاهد اكثر كثيراً مما ظن السيد سفيدريجايلوف •

• دُهلّت مارتا بتزوفنا أشدّ الذمول ، بل صعقت تماماً كما اعترفت لنا هي نفسها بذلك • ولكن لم يبق فى نفسها أى شك فى أن دوينتشكا بريئة كل البراءة • لهذا بادرت منذ الغد ، وكان يومَ أحد ، فذهبت رأساً الى الكنيسة حيث جثت على ركبتيها باكية وضرعت الى السيدة العذراء ان تهب لها من القوة ما يكفيها لاحتمال هذا الامتحان الجديد وما يمكنها من القيام بواجبها على خير وجه • ثم جاءت من الكنيسة قدماً الى منزلنا ، دون ان تمرّج على احد ، فقصت علينا كل شئ • ، وسكنت دموعاً حارة ، وعاققت دونيا زاحرة النفس بالندم ، مبتهلةً اليها أن تغفر لها وأن تغفو عنها • ومن منزلنا ذهبت رأساً دون ان تضيع لحظة واحدة ، ذهبت الى جميع بيوت المدينة ، فكانت تسكب سيولاً من الدموع ، وتكيل الثناء لابنتى ، دونيا ، وتشهد ببراءتها ، وتطرى نبل عواطفها ، وتشيد بحسن سلوكها • وأرادت ان تفعل ما هو خير من ذلك أيضاً ، فظهرت لجميع الناس على الرسالة التى كتبتها دونيا الى السيد سفيدريجايلوف بخط يدها ، حتى لقد قرأت عليهم تلك الرسالة بصوت عال ، بل وأذنت لهم بأن ينسخوها (وذلك أمر يبدو لى ان فيه شيئاً من الغلو) • وقد اضطرت ان تقضى عدة ايام متتالية تزور جميع من تعرفهم من الناس فى المدينة ، لأن بعضهم شكوا من اهمالها زيارتهم ، وساءهم ان تؤثر عليهم غيرهم •

على هذا النحو تالت زياراتها متعاقبة متلاحقة ، حتى أصبح الناس ينتظرونها في كل منزل ، وحتى أصبح يعرف أن مارتا بتروفنا ستقرأ الرسالة يوم كذا في مكان كذا ، فكان يحضر قراءة الرسالة في كل مرة حتى أولئك الذين سبق لهم ان سمعوها مرارا سواء في بيوتهم هم أو في بيوت اناس آخرين يعرفونهم . في رأيي ان ذلك كان فيه مغالاة ، كان فيه كثير من المغالاة ، ولكن هذا طبع مارتا بتروفنا ! مهما يكن من امر ، فان مارتا بتروفنا قد ردت الى دونيتشكا اعتبارها كاملاً ، فاذا يمار هذه القضية يرتد الى زوجها بخزى لا يحصى ولا يندثر ، ويجعله المجرم الأول حتى اخذتني به شفقة . لقد أسرفوا في القسوة على ذلك المأفون المسكين . بعد ذلك اسرعت أسر كثيرة تعرض على دونيا ان تعطى أولادها دروساً ، ولكن دونيا رفضت جميع هذه العروض . ونستطيع ان نقول بوجه عام ان جميع الناس قد صاروا يولونها احتراماً خاصاً على حين فجأة . وذلك كله قد سهل تسهلاً كبيراً حدوث الحادث الذي لم يكن في الحسبان ، والذي استطيع ان اقول ان مصيرنا قد تبدل بفضلته تبديلاً تاماً وتغير تنيراً كاملاً . اعلم يا بنى العزيز روديا ان خطيباً قد تقدم لاختك دونيا ، وأنها قد اعلنت له موافقتها ، وذلك ما أسارع فأثقله اليك الآن . أغلب الظن أنك لن تؤاخذنا ، لا أنا ولا أختك ، على ان الأمر قد تم دون الحصول على موافقتك ، فلسوف ترى بنفسك انه كان يستحيل علينا أن نتظر ، وان نرجى اتخاذ القرار الى حين وصول ردك الينا . هذا عدا أنه ما كان لك أن تستطيع ، من بعد ، ان تحكم في الامر حكم المعارف المطلع . واليك تفصيل ما حدث : الرجل مستشار قضائي* ، اسمه بطرس بتروفيتش لوجين . وهو يمت بقربى بعيدة الى مارتا بتروفنا التي شاركت في الامر مشاركة كبيرة . لقد بدأ الرجل بأن أظهر لمارتا بتروفنا رغبته في التعرف الينا ، فاستقبلناه كما ينبغي ان يُستقبل ، فشرّب عندنا

القهوة ، فما ان جاء الفد حتى بعث الينا برسالة يعرض فيها طلبه بكثير من الكياسة ، ويلتمس رداً سريعاً قاطعاً . انه رجل من رجل الاعمال ، مشغول جداً ؛ ولما كان عليه ان يسافر الى بطرسبورج قريباً ، فان لكل دقيقة قيمتها عنده . طبعي أننا ذُهلنا في أول الامر : لقد حدث ذلك كله على نحو مباغت مفاجيء ، بطريقة لم تكن في الحسبان ! بعد ذلك لبثنا معاً طوال النهار نفكر في الامر ونزن الاشياء . هو رجل يحتل مركزاً مرموقاً : يشغل وظيفتين في آن واحد ويملك منذ الآن رأس مال له . الحق أنه يبلغ الخامسة والاربعين من العمر ، لكن مظهره لطيف ، وما يزال يستطيع ان يرضى النساء . وهو عدا ذلك رجل رصين لائق جداً . كل ما هنالك انه متجههم المزاج قليلاً ، متعال بعض التعالي ، ولكن قد لا يكون ذلك الا شعوراً أول ماورنا حين رأيناه ؛ ولهذا أحذرك يا بنى العزيز روديا من ان تحكم عليه بسرعة مسرفة واندفاع عنيف حين ستلقاه في بطرسبورج قريباً (على عادتك في سرعة الحكم وعنف الاندفاع) اذا انت رأيت فيه عند الوهلة الاولى شيئاً يصدك شعورك . أقول لك هذا من باب الاحتياط لكل مصادفة ، رغم يقيني من انه سيحدث في نفسك اجل الأثر . أضف الى ذلك ان على المرء ، اذا هو اراد ان يصل الى معرفة انسان من الناس ، أيا كان هذا الانسان ، أن يتصرف ازاءه تصرفاً فيه كثير من التروى والتعقل والحكمة والحذر ، والا فقد يقع في الخطأ ، وقد ينجر الى التحيز ، فيصعب عليه كثيراً بعد ذلك ان يصحح ذلك الخطأ وان يزيل ذلك التحيز . ومهما يكن من امر فان قرائن كثيرة تحمل على الاعتقاد بأن بطرس بتروفيتش رجل جدير بالاحترام . لقد اعلن لنا منذ اول زيارة أنه رجل وضى عمل ، ولكنه في كثير من الامور يشارك « أجيالنا الجديدة آراءها » على حد تعبيره ، وأنه عدو لجميع الاوهام الاجتماعية ، ولقد قال أموراً أخرى كثيرة ، فهو اذا صدقت المظاهر رجل

لا يخلو من شيء من الضرور ، وهو يحب كثيراً أن يصفى الناس الى كلامه وان يسمعوا لحديثه . ولكن هل تلك آفة كبيرة حقاً ؟ هل ذلك عيب خطير فعلاً ؟ أنا لم أفهم من حديثه أشياء كثيرة بطبيعة الحال ، ولكن دونيا شرحت لي أنه على نقص ثقافته انسان ذكى ، وانه طيب فيما يبدو . انك تعرف طبع اختك ، يا بنى العزيز روديا . هي فتاة ثابتة صلبة عاقلة متابرة كريمة ، رغم أن لها قلباً حاراً ونعوراً متقدماً ، وذلك أمر استطعت ان أدركه فيها . طبعاً ، لا مجال للحديث عن حب حقيقي ، لا من جانبها هي ولا من جانبها هو . ولكن دونيا ، عدا أنها فتاة ذكية ، هي في الوقت نفسه نبيلة كملاك . ولا بد ان تلزم نفسها باسعاد زوجها الذى لن يسعه الا ان يسعدها هو أيضاً . فحول هذه النقطة الاخيرة ليس لدينا حتى الآن أى سبب جدى يدعو الى الشك ، رغم ان الامر قد تم بشيء من السرعة ، كما ينبغي ان نتعرف بذلك . يضاف الى هذا ان الرجل انسان حصيف الفكر سديد الرأى ، فلا شك في أنه سيرى بنفسه ان سعاده الزوجية نفسها ستكون مضمونة مزيداً من الضمان اذا سعدت دونيا بفضلها مزيداً من السعادة . أما عما هنالك من بعض الاختلافات فى المزاج والعادات القديمة وحتى من بعض الاختلافات فى الآراء (وذلك ما لا يمكن تجاهليه حتى فى أكثر حالات الزواج توفيقاً) فان دونيا كما قالت لي ذلك سوف تأخذ على عاتقها هذا الامر . انها تؤكد أنه لا داعى الى القلق ، وانها تستطيع احتمال اشياء كثيرة شريطة ان تبقى علاقتهما على الدوام شريفة صادقة عادلة قائمة على المساواة والانصاف . يجب ان اقول لك ان الرجل بدا لي انا أيضاً مسرفاً فى الصرامة بعض الاسراف . ولكن ذلك قد يكون ناشئاً عن أنه امرؤ صريح ، بل ان الأمر لكذلك حتماً . مثال : انه أثناء زيارته الثانية ، بعد حصوله على الموافقة ، قد اعلن أثناء الحديث انه حتى قبل ان يعرف دونيا كان قد قرر ان لا يتزوج الفتاة شريفة لا تملك

مهرا ، فتاة سبق أن عرفت تجربة الفقر وعانت مرارة اليأس ، لان الزوج يجب ان لا يشعر بأن لزوجته عليه فضلاً ، وانما يجب ان تشعر المرأة ان زوجها هو المحسن اليها وصاحب الفضل عليها . يجب أن أذكر أنه قد عبّر عن رأيه هذا تعبيراً أكثر دقة ولطافة ، وأقرب الى المودة والمحبة من الكلمات التي كتبها أنا الآن ، لأنني نسيت الالفاظ التي استخدمها ، وأصبحت لا أتذكر الا الفكرة التي افصح عنها . ثم انه لم يكن قد هيأ أقواله وحضر عباراته ، فلا شك أن ذلك الكلام قد أفلت منه افلاتاً . لذلك حاول بعدئذ ان يتدارك الامر ، وأن يلطف الأثر الذي أحدثته كلماته . ومع ذلك استنقلت كلامه قليلاً ثم فاتحت دونيا في هذا ، فأجابتنى دونيا ، وفي نفسها شيء من الغضب والحزن ، بان الأقوال لا تطابق الأفعال دائماً ، وواضح ان كلام دونيا صادق . يجدر ان اذكر ان دونيا ، قبل اتخاذ قرارها ، لم يغمض لها جفن طوال الليل ، وأنها حين ظنت انني غفوت قد نهضت عن فراشها وأخذت تمشي في الغرفة طويلاً وعرضاً الى ان طلع الصبح ، ثم ركعت على ركبتيها ، ولبست جانية امام الأيقونة تصلى مدة طويلة بكثير من الحرارة والخشوع ، حتى اذا طلع النهار اعلنت أنها قد اتخذت قرارها .

• سبق ان قلت ان بطرس بتروفيتش سيسافر الآن الى بطرسبورج . ان له هنالك اعمالاً مستعجلة ملحة : انه يريد ان يفتح مكتباً للمحاماة . هو يعنى بهذا النوع من الاعمال منذ زمن طويل . وقد انتصر في دعوى هامة في الآونة الاخيرة . وينبغي له ان يسافر الى بطرسبورج حتماً لسبب آخر هو أنه سيترافع هنالك امام مجلس الشيوخ* في قضية خطيرة . وهكذا ترى يا بنى العزيز روديا ، أنه سيكون في وسعه ان يفيدك كثيراً . لقد رأينا انا ودونيا انك ستستطيع منذ اليوم ان تبدأ مهنتك ، وأن تعد مستقبلك مضموناً ضماناً نهائياً . آه ألا ليت ذلك يتحقق ! ما أجمل ان

يتحقق ذلك ! سيكون علينا عندئذ ان نمد هذا انرا من اثار نعمة الله علينا .
ان دونيا اصبحت لا تفكر الا في هذا . ولقد جازفنا انا ودونيا ،
فاسمعتنا بطرس بتروفتش كلمة حول هذا الموضوع ، فتكلم عندئذ
بشيء من التروى والتعقل فاعلن انه ، بطبيعة الحال ، ما دام لا يستطيع ان
يستغنى عن سكرتير ، سيفضل ان يدفع أجورا لعضو من أعضاء الاسرة
على ان يدفع هذه الاجور لشخص غريب ، شريطه ان يبرهن القريب
على انه قادر على القيام بهذه الوظيفة وعلى أداء هذه المهمة (كأنك انت
عاجز عن ذلك !) . ولكنه لم يلبث ان ساوره شك أفصح عنه فقال انه
يخشى أن لا تدع لك دراستك في الجامعة متسعا من الوقت للعمل معه .
وقد وقف حديثنا عند هذا الحد ولكن دونيا لا يشغل بالها الآن أمر غير
هذا الأمر ، وهى منذ بضعة ايام فريسة حمى حقيقية ، حتى لقد بنت
لمستقبلك في خيالها مشروعا ضخما : انها تقدّر انك ستستطيع في المستقبل
ان تصبح مساعداً بل وشريكاً لبطرس بتروفتش في أعمال المرافعات التى
يقوم بها ، لا سيما وانك تدرس القانون . أما أنا ، يا روديا ، فانشى متفقة
مهما كل الاتفاق ، أشاركها آراءها واشاطرها آمالها ، وأرى ان ذلك ليس
بالمستحيل قط . ورغم ما يظهر الآن على بطرس بتروفتش من تحفظ ،
وهو تحفظ يمكن فهمه جداً (لأنه لا يعرفك حتى الآن) ، فان دونيا
مقتنعة اقتناعاً جازماً بانها ستصل الى تحقيق اهدافها بفضل التأثير الطيب
الذى تعرف كيف تستطيع ان تحدثه فى نفس زوجها . نعم ! انها من
ذلك على اقتناع كامل . لقد تحاشينا طبعاً ان نكشف امام بطرس
بتروفتش ، ولو بكلمة واحدة ، عن احلامنا البعيدة ، ولا سيما عن حلم
ان نراك شريكاً له فى المستقبل . انه رجل وضعى عملى ، فقد يصىء
النظرة الى هذا الأمر ، لأنه لن يرى فيه الا أحلاماً . كذلك لم نشر ،
لا أنا ولا دونيا ، لم نشر اية اشارة الى أن نراه يساعدنا فى أن نرسل

إليك ما أمت في حاجة إليه من مال أثناء دراستك بالجامعة . اننا لم نتكلم في هذا الامر ، أولاً لأنه سيتحقق من تلقاء نفسه في المستقبل ، ولأن بطرس بتروفيتش سيعرض عليك هذه المساعدة حتماً بدون اقوال زائدة (لن ينقصنا الا أن يأبى هذا على دونيا !) لا سيما وأنتك تستطيع أن تصبح ساعده الأيمن في المكتب ، وأن الأمر لن يكون اذن أمر نجدة أو هبة بل أمر أجر تحصل عليه بجهدك . على هذا النحو انما تريد دونيتشكا أن ترتب الأمور . وأنا متفقة معها في هذا كل الاتفاق . وثانياً : نحن لم نتكلم في ذلك لأنتى حرصت خاصة على أن أضحك في موقف المساواة معه منذ لقائكما القادم . فحين كلمته دونيا عنك بحماسة أجاب بأن على المرء اذا هو أراد أن يحكم على رجل من الرجال أن يراه من قرب ، وقال انه يحتفظ لنفسه بحق تكوين رأى عنك بعد أن يتعرف اليك .

هل تعرف يا روديا ، يا كنزى ، ما هو شعورى الآن ؟ يخيّل الى ، استأداً الى بعض الحواطر التى تساورنى (وهى لا تتعلق ببطرس بتروفيتش ، ولا تزيد على أن تكون أهواء امرأة عجوز) ، يخيّل الى أننى سوف احسن صنأاً اذا أنا لم أعش معهما بعد زواجهما اننى واثقة ثقة مطلقة بأنه يملك من الكرم واللطف مايكفى لأن يدعونى من تلقاء نفسه ، ولأن يقترح على أن لا أنفصل عن ابنتى . واذا كان قد سكت عن هذا الأمر حتى الآن ، فلأنه أمر بديهى لا حاجة الى الكلام فيه . ولكننى سأرفض . لقد أمكننى أن ألاحظ اكثر من مرة خلال حياتى أن الأصهار لا يحبون حمواتهم كثيراً . وأنا لا أكره أن أحدث أى ازعاج لأى انسان فحسب ، وانما أريد كذلك أن أحتفظ بحريتى كاملة ما ملكت ولو لقمة من خبز ، وما بقى لى أولاد مثلك ومثل دونيتشكا . سأسكن غير بعيد عنكما اذا أمكن ذلك . هأنذا احتفظت لنهاية رسالتى بأجمل شئ يمكن أن أرفقه اليك يا روديا . اعلم يا بنى الحبيب أننا ربما اجتمع شملنا كلنا ثانية في القريب ،

وأنا قد تعاقب نحن الثلاثة بعد هذا الفراق الذى دام قرابة ثلاثة أعوام .
نعم لقد أصبح « يقيناً » منذ الآن أننا سنسافر أنا ودونيا الى بطرسبورج .
أما متى سنسافر فلست أدري ، ولكننا سنسافر قريباً جداً ، ربما بعد
أسبوع . ان كل شئ رهن بالاستعدادات التى سيتخذها بطرس
بتروفيتش ، وسوف يبلغنا هذه الاستعدادات فور استقراره ببطرسبورج .
انه يحصر لأسباب معينة أن يتم الزفاف باقصى سرعة ويتعنى لو يتم
الاحتفال به فى غضون شهر اذا أمكن ، أو فى أقرب موعد على أكثر
تقدير ، أى بعد عيد الصوم الكبير فوراً . آه ! ما أعظم الفرح الذى
سأشعر به حين سأشدك الى قلبى ! ان دونيا تضطرب أشد الاضطراب
حين تتصور أنها ستسعد بقلبك . حتى لقد قالت مرة من باب المزاح انها
مستعدة لأن تزوج بطرس بتروفيتش لا لشيء الا هذا ! انها ملاك ، ملاك
حقاً ! ان ضيف دونيا الى رسالتى هذه شيئاً ، ولكنها ترجونى أن أقول
لك ان هناك أموراً كثيرة تريد أن تحدثك فيها ، أشياء تبلغ من الكثرة
أنها لا تستطيع أن تعزم أمرها على تناول القلم ، لأن المرء لا يمكنه أن
يقول ببضعة أسطر شيئاً ، فلو حاول أن يكتب لما زاد على أن يثير أعصابه .
وهى تكلفنى كذلك بأن أضحك الى صدرى ضحكاً قوياً ، أن أعانقك عناقاً
شديداً ، وأن أبعث اليك بقبلات لا حصر لها ولا عد .

« ولكن رغم أننا سنلتقى قريباً فان ذلك لن يعنى من أن أرسل
اليك بعض المال فى الأيام القريبة . سوف أرسل اليك ما أستطيع ارساله .
فالآن وقد علم جميع الناس أن دونيتشكا ستزوج بطرس بتروفيتش قريباً
أصبح فى وسعى فجأة أن استدين مبالغ أكبر من المبالغ التى كنت أستطيع
أن أستدينها من قبل ، ولقد علمت من مصدر مطلع أن آمانازى ايفانوفيتش
سوف يثق بى فيقرضنى مئلة على معاشى تبلغ ستين روبلاً ، فقد أستطيع
أن أرسل اليك اذن خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين . كان يمكن أن

أبعث اليك بمبلغ أكبر لولا أنني أخشى نفقات الطريق بعض الخشية
فرغم أن بطرس بتروفيتش رجل طيب وأنه سيتحمل جزءاً من النفقات
التي سيقتضيها سفرنا الى العاصمة ، أى رغم أنه عرض علينا أن يتولى
الانفاق على شحن أمتعتنا وصندوقنا الكبير (بفضل ما له من علاقات) فإن
علينا أن نحسب حساب وصولنا الى بطرسبورج ، فليس يستطيع المرء أن
يحيى الى هذه المدينة بلا قرش في جيبه ، ولا سيما في الأيام الأولى . على
كل حال ، لقد أجرينا أنا ودونيا حساباتنا بأكثر دقة ممكنة ، فظهر لنا أن
رحلتنا لن تكلف نفقات باهظة . ان المسافة بين بلدتنا وبين محطة السكة
الحديدية لا تزيد على تسعين فرسخاً * ، وقد اتفقنا منذ الآن مع فلاح
نعرفه على أن تقطع هذه المسافة بعربته كراءً . ومن هناك ، سنسافر سفراً
مريحاً جداً في الدرجة الثالثة من القطار . هكذا ترى أنني قد استطعت أن
أرسل اليك لا خمسة وعشرين روبلاً بل ثلاثين ... ثلاثين حتماً .

• ولكن حسبي هذا الآن ! لقد سودت ورقتين كبيرتين وجهاً وفقاً ،
ولم يبق فيهما متسع لمزيد من الكلام . ثم انك قد عرفت الآن قصتنا
كلها ... الله يعلم كم جرى لنا من أحداث ! والآن يا روديا ، يا كنزى
الحبيب ... أقبلك بانتظار لقاءنا القريب ، وأبعث اليك برضاى عنك
وبركتى لك ! أحبب أختك دونيا ، يا روديا ... أحبيها كما تحبك ...
واعلم علم اليقين أنها تحبك حباً لا نهاية له ، أنها تحبك اكثر كثيراً
مما تحب نفسها ! هى ملاك يا روديا ! ... وأنت كل شىء عندنا يا روديا
... أنت أملنا كله ، وأنت مستقبلنا كله ! حسبننا أن تسعد أنت حتى
نسعد نحن أيضاً ! هل تصلى لله دائماً كما كنت تصلى له يا روديا ؟
أما زلت تؤمن برحمة خالقنا وفادينا ؟ اننى أخشى فى قرارة قلبى أن تكون
الزندقة الراجحة فى هذا الزمان قد سرت عدواها اليك ! فإذا كان الامر
كذلك ، فاتنى اصلى من أجلك ، واستغفر الله لك . تذكر يا بنى الحبيب

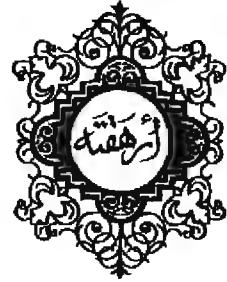
كيف كنت في طفولتك اثناء حياة ابيك، تذكر كيف كنت تتمتع صلواتك
جالسا على ركبتك ، وتذكر كم كنا سعداء في تلك الايام ...
استودعك الله يا روديا ، بل « الى اللقاء » ! اننى أشدك الى شدا قويا ،
أحضنك بذراعى ، أعانقك ، وأطبع على وجهك فبلان لا حصر لها ...

لك حتى الممات

« بولشيريا راسكولنيكوف »

منذ بدأ راسكولنيكوف قراءة الرسالة الى آن أمها ، لم تقطع
الدموع عن الجريان على خديه . ولكنه حين فرغ من قراءتها ارتعش
وجبه الذى اصفر على حين فجأة ، وطافت به ابتسامة أليمة حانقة خيثة
شنتجت شفوية . ونهاوى برأسه على وسادته الهزيلة القذرة ، وراح
يفكر ... راح يفكر ملياً ... كان قلبه يخفق خفقاناً قوياً ، وكانت
افكاره مضطربة أشد الاضطراب . وأحس أخيراً باختناق فى هذه الحجرة
الصفراء التى تشبه أن تكون خزانة أو صندوقاً . ان نظراته وأفكاره
تحتاج الى فضاء واسع . فتناول قبعته وخرج ... خرج دون أن يخشى
فى هذه المرة ان يلتقى بأحد على السلم ... أصبح لا يفكر فى هذا الأمر .
ومضى فى اتجاه جزيرة فاسيلفسكى سالكاً شارع ف ... ، كأن أمراً
ملحاً مستعجلاً كان يناديه الى هناك . ولكنه كان ، على عادته ، يسير دون
أن يلاحظ أى شىء أثناء الطريق ، وكان يدمدم بكلام بينه وبين نفسه ،
بل كان يتكلم أيضاً بصوت عال ، فيثير بذلك دهشة المارة ، حتى لقد
حسبه كثير من الناس سكران .

الفصل الرابع



رسالة أمه ارهاقاً شديداً . ولكنه فيما يتعلق بالنقطة الجوهرية الأساسية لم يساوره الشك لحظة واحدة حتى عند القراءة الأولى . كان قد اتخذ في جوهر القضية قراراً لا رجعه عنه .

« لن يتم هذا الزواج ماحيت. فليذهب السيد لوجين الى الشيطان! ».

كان يجمعهم قائلاً وهو يتنسم ويتلذذ منذ الآن تلذذاً خيئاً باتتصار فراره : « الأمر واضح لا لبس فيه . لا يا أماء ، لا يا دونيا ، لن تستطيعا أن تخدعاني ... وهي تمتد أيضاً عن أنها لم تستشرنى وعن أنها رتبت الأمر دون علمى ودون ارادتى ! وماذا أيضاً ؟ هما تخيلان اذن أنه لم يبق سبيل الى فسخ الخطوبة . طيب ! سوف نرى أهنالك سبيل الى ذلك أم لا ! وبإلهام من حجة غريبة : انه رجل مشغول جداً ، بطرس بتروفيتش هنا ... يبلغ وقته من الازدحام بالاعمال أنه لا يستطيع أن يتزوج الا على جناح السرعة ، حتى لكأنه يتعنى أن يتم الزواج فى عربة ان لم يكن فى القطار ! لا ، لا يا دونيتسكا ... واني لأعلم ما هى الأشياء « الكثيرة » التى تريدان أن تحدثينى عنها ... واني لأعلم أيضاً ما الذى فكرت فيه طوال الليل وأنت تذرعين الفرقة جيئة وذهاباً ، وما الذى طلبته فى صلواتك امام « عذراء قازان » التى توجد أيقوتتها فى غرفة نوم أمنا . ما أشد وعورة طريق الجلجلة ! ... هم ... هكذا

اذن ... كل شيء قد تقرر نهائياً ... تحسين أن من الخير يا أدفوتيا رومانوفا أن تزوجى رجلاً من رجال الأعمال ، رجلاً وضعياً عملياً ، يملك رأس مال له (أو فلنقل يملك « منذ الآن » رأس مال له ، فذلك أقرب الى الجدد والى فرض المهابة والاحترام) رجلاً هو « فيما يبدو » طيب (كما تلاحظ دونيا نفسها) • ما أبلغ هذا التعبير : « فيما يبدو » ! ان دونيتسكا هذه نفسها هى التى ستزوج ذلك الرجل ، الطيب « فيما يبدو » ، رائع ! رائع ! ...

• ... على أننى يهمنى أن أعرف لماذا حدثتني أمى فى رسالتها عن « الأجيال الجديدة » ؟ ترى أمى فعلت ذلك من اجل ان تصف لى طبع الرجل فحسب أم فعلته لغاية أبعد من ذلك هى أن تهينى لان أحكم على السيد لوجين حكماً حسناً وأن أرى فيه رأياً جيداً ؟ آه ... يا للمماكرتين ! وانه ليهمنى أيضاً ان اعرف الحقيقة فيما يتعلق بالنقطة التالية : الى أى حد كانت كل منهما صريحة مع الأخرى فى ذلك اليوم وفى تلك الليلة وفى سائر الوقت ؟ هل نطقت جميع « الكلمات » حقاً ، أم ان كلاهما قد فهمت ما يدور فى قلب الأخرى وما يجرى فى فكرها ، فكان كل كلام زيادة لا طائل تحتها ولا داعى اليها ؟ لعل الأمر كان كذلك ، فى جلته على الأقل ... هذا ما يدركه المرء حق الادراك من الرسالة نفسها : فالرجل قد بدا لأمى « مسرفاً فى الصرامة بعض الاسراف » ، ولا بد أن تكون أمى بسنابقتها المعهودة فيها قد أسمعت دونيا ملاحظتها الماعاً وتلميحاتاً ، ولا بد أن تكون الأخرى قد اغتاضت طبعاً فكان فى جوابها شيء من « الغضب والحزن » • ذلك طبعى ! من ذا الذى يمكن أن لا يفضب حين يكون الأمر واضحاً بفقاً العينين ، وحين لا يكون ثمة حاجة الى أية ملاحظة تقال ، وحين يكون كل شيء قد تقرر فلا داعى الى كلام ؟ ولماذا تكتب لى أمى قائلة : « أحب دونيا ... فهى تحبك أكثر من نفسها ؟ » •

أليس مرد هذا الى عذاب الضمير الذى يبرحها خفية ، لأنها ضحّت
فى سيل ابنها بابتها ؟ « انت املنا كله • انت عندنا كل شىء • آه يا أمه !
ان غضباً ما ينفك يشتد ويقوى كان يتجمع فى نفسه ويتراكم ،
فلو لقي السيد لوجين فى تلك اللحظة ، اذن لقتله فى اغلب الظن •
واصل يقول متابعاً اعصار أفكاره الذى كان يمصف فى رأسه :
« هم ••• هذا حق ••• هذا حق ••• من أراد أن يعرف أحداً فعليه
« أن يتصرف ازامه تصرفاً فيه كثير من التروى والتعقل والحكمة
والحذر ••• ولكن السيد لوجين واضح شفاف • هو قبل كل شىء • رجل
من رجال الأعمال ، وهو • طيب فيما يبدو • • ألا نرى أنه يتولى شحن
أمتعهما وصندوقهما الكبير على نفقته ؟ فكيف لا يكون اذن طيباً ؟ والخطية
والأم كلاتهما تستأجران فلاحاً يملك عربة ذات مظلة (أنا أعرف ما هذا
فقد بلوته ، وقطعت هذه المسافة بتلك الطريقة) • أى ضمير ؟ ان المسافة
لا تزيد على ٩٠ فرسخاً ، • ومن هناك مسافر سافراً مريحاً جداً فى الدرجة
الثالثة من القطار • • الف فرسخ فى الدرجة الثالثة ! معقول جداً : ان
كل انسان ينفق ما تسمح له موارده باتفاقه ! ولكن ما رأيك انت يا سيد
لوجين ؟ ما رأيك أنت ؟ الفتاة خطيبتك ••• ولا بد أنك تعلم أن الأم
ستقتضى سلفة على معاشها لتستطيع سداد نفقات الرحلة ! عقلك عقل
تجارى محض طبعاً ••• انت تنظر الى الأمر نظرتك الى مشروع تجارى
يشارك فيه طرفان يقتسمان ارباحه نصيبين متساويين ، فلا بد أن يسهم
كل منهما فى نفقاته بنصيبه كاملاً • لسان حالك يقول ما يقوله المثل
السائر • الحبز والملح لى ولك ، أما التبغ فلكل تبغه الخاص به • • ولكن
رجل الاعمال قد غشهما وغبنهما فى هذه النقطة أيضاً : نفقات شحن الأمتعة
اقل من نفقات السفر ، وقد يستطيع رجل الاعمال هذا ان يشحن الأمتعة
بالمجان • أهما لا تريان هذا أم هما لا تريدان أن ترياه ؟ والعجيب أنهما

راضيتان ، راضيتان ! وما هذه الا الازهار أما الثمار فستأتى بعد ذلك !
وأخطر ما فى الامر ليس هو البخل ، ليس هو الشح ، وانما هو هذا
« انطباع » العام الذى يطبع الامر كله مؤذنا بما ستصير اليه الاحوال بعد
الزواج وأمى : ما بالها تريد ارتكاب حماقات ؟ بماذا ستصل الى
بترسبرج ؟ بثلاثة روبلات فى جيبتها ، أو « بورقتين صغيرتين » * كما
تصور العجوز المسكينة ؟ . . . هم . . . وعلى أى تىء تعوّل من أجل أن
تعيش بعد ذلك فى بترسبرج ؟ ولقد استطاعت مع ذلك ، كما تدل بعض
القرائن ، أن تدرك أنه سيستحيل عليها أن تعيش مع دونيا حتى انتهاء
الآونة الأولى من الزواج . لا شك أن الرجل العزيز قد كشف القناع
عن نفسه بطريقة أو أخرى ، لا شك أنه قد أفهمهما الأمر ، رغم أن أمى
تستبعد هذا الافتراض بكلتا يديها قائلة : « أنا سأرفض » . فعلى أى شىء
تعوّل اذن ؟ أهى تعوّل على معاشها الذى يبلغ مائة وعشرين روبلاً
سيقتطع منها الدين المقرض من آتانا زى ايفانوفتش ؟ انها تقضى الشتاء كله
فى حياكة مناديل وتطريز الأكمام ، فترهق بذلك عينها النعبتين . ولكن
حياكة المناديل وتطريز الأكمام لا يضيفان الى المائة وعشرين روبلاً فى
السنة الا عشرين أخرى . أنا اعلم ذلك ! هى اذن تعتمد رغم كل شىء
على كرم القلب ونبل النفس لدى السيد لوجين : « سيعرض على من تلقاه
نفسه أن يساعدنى ، وسيلج » . لقد اخطأ ظنها فلن تنال ما تتمناه !
هكذا حال النفوس الرومانسية دائماً : تظل حتى آخر لحظة تزيّن الناس
بريش الطاووس ، تظل حتى آخر لحظة تفترض الخير لا الشر ؟ ورغم
تصورها وجود الشر فانها لا يمكن أن تعترف بذلك لنفسها بحال من
الأحوال : ان تصور هذا وحده يصدمها ويهزها هزاً قوياً . فهى بيديها
تحجب وجهها حتى لا ترى الحقيقة ، الى أن يأتى الانسان الذى زينته
بريش ملون من خيالها فيصفع وجهها ويذمى أنفها بيده نفسها . ليتنى

أعرف هل يحمل السيد لوجين أوسمة • اننى أراهن على أنه يملك وسام
« القديسة حنة » * وأنه يزير به عروته حين يذهب الى حفلة عشاء
يقيمها أحد من المقاولين أو كبار التجار • ولن ينسى أن يفعل ذلك أيضاً
يوم زفافه ! على كل حال ••• نيطان يأخذه !•••

« ووالله ... انى لأسامح أمى ، فهى كما هى ، كان الله فى عونها !..
ولكن ماذا أقول عن دونيا ؟ اننى اعرفك يا عزيزتى دونيتشكا ! كنت قد
بلغت العشرين من عمرك حين التقينا آخر مرة • وقد ادركت طبعك
وفهمت خصالك منذ تلك اللحظة • أمى تقول « ان دونيتشكا تستطيع
احتمال أشياء كثيرة » ••• نعم ••• هذا أمر اعرفه ، اعرفه منذ ستين
ونصف سنة ••• وانا منذ ستين ونصف سنة ، لا أفكر الا فى « هذا » ،
لا أفكر الا فى « هذا » نفسه ••• وهو أن دونيتشكا « تستطيع احتمال
أشياء كثيرة » • لئن استطاعت أن تحتمل السيد سفيدريجايلوف ، وأن
تحتمل كل العواقب التى ترتبت على سلوكه ، فهذا دليل على أنها تستطيع
فعلاً أن تحتمل أشياء كثيرة !••• وها هما الآن ، هى وأمى ، قد تخيلنا
أن فى الأماكن احتمال رجل مثل لوجين ، لا يتخرج من شرح مزايا
زواج الرجل بامرأة فقيرة لتشعر بفضلها عليه ، ولا يتخرج من شرح
هذه النظرية منذ أول لقاء ! طيب ••• لنسلم بأن ذلك قد « أقلت » من
لسانه على غير ارادة منه ، رغم أنه رجل وضعى عملى (فمن الجائز أن
شيئاً لم يفلت من لسانه افلاتاً وانما هو أراد عامداً أن يوضح الأمور دون
أن يضيع وقتاً) • ولكن ماذا أقول فى دونيا ؟ ماذا أقول فى دونيا ؟
لا شك أنها قد كشفت الرجل وأزاحت القناع عن وجهه وعرفه على
حقيقته ، ثم هى تقبل أن تعيش معه ! اننى اعرفها : انها تؤثر أن لا تأكل
الا خبزاً وأن لا تشرب الا ماءً ، على أن تباع روحها !••• انها لا يمكن
فى سبيل الحصول على الرخاء والدعة أن تباع روحها وأن تفقد حرمتها !

انها تأبى أن تتنازل عن هذه الحرية في سبيل دوقية شلفسفيج هولشتاين*
 كلها ، فكيف تتنازل عنها في سبيل السيد لوجين ؟ لا ! ان دونيا التي
 أعرفها لم تكن هكذا ولا يمكن أن تكون قد تبدلت هذا التبدل كله
 . . . ذلك مستحيل ! . . . فماذا أقول ؟ صحيح أنه أمر شاق عليها أن
 تحتل أمثال آل سفيدريجايلوف ، وأن تظل طوال حياتها تمضي من إقليم
 الى إقليم لتعمل مربية في سبيل أن تجني مائتي روبل . ولكنني أعلم أن
 اختي تؤثر أن تساء معاملتها كما يسيء مزارع معاملة زنجي أو كما يسيء
 الماني من مقاطعات البلطيق معاملة رجل ليتواني * ، على أن تدنس روحها
 وأن تفسد حسنها الأخلاقي بالارتباط الى الأبد برجل لا تحبه ولا يجمعها
 به شيء ! ولا بد أن ترفض أن تصبح خلية شرعية للسيد لوجين ولو
 كان السيد لوجين ذهاباً كله أو ماساً كله ! فلماذا تقبل هذا الزواج الآن؟
 ما هو مفتاح السر ؟ الأمر واضح ! لو كانت تشد مصلحتها هي ورعاها
 هي ، لرفضت أن تباع نفسها ولو لتجنب الموت . اما في سبيل شخص
 آخر فانها مستعدة لأن تباع نفسها ! نعم انها في سبيل شخص محبوب ،
 في سبيل شخص محبوب ، مستعدة لأن تباع نفسها ! ذلك هو مفتاح اللغز :
 انها في سبيل أخيها وفي سبيل أمها فادرة على أن تباع نفسها ، على أن
 تباع كل شيء ! آه . . . نعم اننا نستطيع عند اللزوم ان نخلق حتى احساسنا
 الاخلاقي ! اننا نستطيع عند اللزوم أن نحمل الى السوق كل شيء فنيعه
 فيها : الحرية ، الطمأنينة ، وحتى راحة الضمير ! ألا فلتحطم حياتنا اذا
 كان في ذلك سعادة لأولئك الذين نحبهم ! واكثر من ذلك أننا نلحق
 لأنفسنا عندئذ سفسطة خاصة تتعلمها من اليسوعيين فنبيع ضمائرنا الى
 حين ، مسوِّغين أعمالنا قائلين لأنفسنا : ان ما فعلناه هو ما كان ينبغي لنا
 ان نفعله ما دما نعمل في سبيل هدف نبيل وغاية شريفة ! نحن جميعاً
 هكذا . كل شيء واضح الآن وضوح النهار . لا شك أن روديون

رومانوفيتش راسكولنيكوف ، ولا أحد سواه ، قد احتل المقام الأول من الاعتبار فى هذه القصة . كيف لا ؟ ان من الواجب ان نعمل لتوفير السعادة له ، وأن نعيه ما ظل فى الجامعة ، وأن نجعله فى المستقبل شريكاً لرجل من رجال الاعمال ، أى أن نضمن له مستقبله ، فيصبح غنياً محترماً مرموقاً ، حتى لقد يصل فى أواخر أيامه الى المجد . والأم ؟ ما قولنا فى الأم ؟ كيف تضحي بابنتها هذه التضحية ؟ ولكن الأمر هنا امر ولدها الأول ، أمر ابنها روديا ، أمر ابنها القالى روديا ! فكيف لا تضحي فى سبيل مثل هذا الولد الأول بمثل هذه البنت ؟ يا لظلمك أيتها القلوب العزيزة ! أتجهلين اذن أن المرء قد تدفعه نية كهذه النية أن يشاطر صونيا مصيرها ؟ نعم صونيا ، صونيتشكا مارملادوفا ، صونيتشكا الخالدة ، الخالدة خلود العالم ! ولكن هل تصورتما كلتاكما مدى هذه التضحية ؟ هل هذه التضحية هى حقاً ما تفكران فيه ؟ هل تملكان القدرة على القيام بهذه التضحية ؟ وهل هذه التضحية مفيدة حقاً ؟ هل تعلمين يا دونيتشكا ان مصير صونيا ليس أفظع من مصير امرأة قضى عليها أن تعيش مع السيد لوجين ؟ ان امي تقول : « لا مجال للكلام عن حب حقيقي » ولكن ما عسى يحدث ، بصرف النظر عن قضية الحب هذه كلها ، اذا لم يكن هنالك أيضاً شئ من الاعتبار والاحترام ، بل كان هنالك منذ الآن نفور واحتقار واشمئزاز ؟ ما عسى يحدث حينذاك ؟ سيكون من الواجب عندئذ مرة أخرى « مراعاة النظافة » . أليس الأمر كذلك ؟ هل تفهمان ، هل تفهمان حق الفهم ماذا تعنيه هذه « النظافة » ؟ هل تدركان ان هذه النظافة لا تختلف فى نظر رجل مثل لوجين عن نظافة صونيتشكا ، بل من الممكن أن تكون أحقر منها وأدنى وأسفل ، لأنك يا دونيتشكا تستهدين مزيداً من الرخاء ، أما هنالك فالأمر لا يزيد على الرغبة فى تحاشي الموت جوعاً . انها تكلف نمناً باهظاً ، باهظاً جداً يا دونيتشكا ، تلك النظافة ! وماذا

إذا أصبح الحمل في المستقبل أثقل من أن تطيقه ، فاستبدت بك الندامة ؟
ما أشد ما ستشعرين به عندئذ من حزن ومن كرب ، وما أكثر ما سيلحق
ضميرك عندئذ من لعن ، وما أغزر ما ستدرفين عندئذ من دموع تخفيها
عن أعين الناس ، لأنك لست امرأة مثل مارتا بتروفسا على كل حال ؟
وما عسى تصير إليه انا حينذاك ؟ انها منذ الآن قلقة معذبة ، فكيف تكون
حالتها في المستقبل حين ترى كل شيء رؤية واضحة ؟ وأنا ؟ ... ما الذي
تظنيه فيّ إذن ؟ اننى لا أريد هذه التضحية يا دونيتسكا ! اننى لا أريدها
يا أماء ! لا ، لن يتم هذا الأمر ما حيت ، لن يتم ، لن يتم ! اننى
أرفضه ! ... ،

هنا تاب راسكولنيكوف الى رشده فجأة ، فتوقف عن السير ، ثم
واصل يخاطب نفسه : « لن يتم هذا الزواج ؟ ولكن ما عساك تفعل حتى
تحول دونه ؟ أتمنعهما ؟ ولكن بأى حق تمنعهما ؟ ما الذى تستطيع أن
تبدعهما به فى مقابل ممارسة مثل هذا الحق ؟ ان تقف عليهما حياتك كلها
ومستقبلك كله متى أنهيت دراستك ووجدت عملاً ؟ أغنية معروفة ! ...
ذلك كله هو المستقبل ، فماذا فى الحاضر ؟ يجب عليك إذن أن تعمل شيئاً
منذ الآن ، هل تفهم ؟ فماذا تفعل انت الآن ؟ انك تعيش عائلة عليهما .
والمال الذى تنفقاه عليك انما تقترضانه سلفةً على معاش التقاعد وعلى
أجور من أمثال سفديريجايلوف ! وكيف عساك تحميهما من أمثال
سفديريجايلوف وأمثال أتانازى ايفانوفيتش فاخروشين ؟ انت يا مليونير
المستقبل ، انت يا اله الأولب الذى تتحكم بمصيرها ، أبعد عشر سنين
تفعل لهما شيئاً ؟ ولكن امك ستكون بعد عشر سنين قد فقدت بصرها
من فرط اكبابها على حياكة المناديل ، وربما من فرط ذرفها للدموع ،
وسكون تكرور الصيام عن الطعام والحرمان من الغذاء قد انتصر عليها
فهدم جسمها ! ... أما اجثك ... فهياً تخيل قليلاً ما ستصير اليه بعد

عشر سنين ، هيّا تخيل قليلاً ما ستشول اليه حالها بعد عشر سنين !... ،
هكذا ، بهذه الأسئلة ، انما كان راسكولنيكوف يعذب نفسه ،
فكان الاهتياج الذي يحسّه من ذلك يستحيل الى نوع من تلذذ . على ان
هذه الأسئلة ليس فيها شيء غير متوقع . انها غير جديدة عليه ، بل هي
قديمة جداً ، وهي تعذبه منذ زمن طويل . نعم ، لقد كانت هذه الأسئلة
تعذبه وترهقه وتمزق قلبه منذ زمن طويل . لقد كان هذا القلق يشب
في نفسه وينمو ويتراكم منذ زمن طويل . ونضج هذا القلق في الآونة
الأخيرة ، وتركز وتكتف ، فاذا هو يتخذ صورة سؤال رهيب ، سؤال
وحش عجيب مسعور ، يضنى قلبه وفكره ، ويطلب جواباً لا سبيل الى
تحاشيه . وها هي ذى رسالة أمه تنقض عليه فجأة كما تنقض الصاعقة .
أصبح واضحاً أن الواجب الذي يقع على عاتقه الآن ليس هو أن يتشكى
وأن يتألم قاعداً لا يعمل ، وانما ينبغي له الآن أن يفعل شيئاً بأقصى سرعة
ممكنة ، بل وينبغي له أن يفعل شيئاً على الفور . ان من واجبه أن يتخذ
قراراً مهما كلف الأمر ، أيا كان هذا القرار ، أو أن ...

ثم صاح يقول فجأة بصوت عال وقد خرج عن طوره : « ... أو
أن أستغنى عن الحياة ، فأقبل مصيرى صاغراً الى الأبد ، وأخفق في نفسى
كل شيء ، وأتنازل عن حقى فى أن أعمل ، وأن أحيا ، وأن أحب ! »

وتذكر السؤال الذى ألقاه عليه بالأمس مارميلادوف ، فدمدم
يردّده : « هل تدرك يا سيدى العزيز ما معنى أن لا يعرف الانسان الى
أين يذهب ؟ ذلك أنه لا بد لكل انسان أن يستطيع الذهاب الى مكان ما »

وارتعش راسكولنيكوف على حين فجأة . ان فكرة آتية من الليلة
البارحة هي أيضاً قد ومضت في ذهنه مرة أخرى . ولكن لئن ارتعش ،
فانه لم يرتعش لأن هذه الفكرة قد ومضت في ذهنه . لقد كان يعلم ،

كان يوجس أن هذه الفكرة لا بد أن تعاوده ، فكان يتوقها وينتظرها •
غير أن هذه الفكرة ليست الآن ما كانت في الليلة البارحة ، والفرق بينها
وبين فكرة الليلة البارحة أنها لم تكن منذ شهر ، ولا في الليلة البارحة ،
الا حلمًا ، أما الآن ••• أما الآن فهي لا تعرض لفكره في صورة حلم ،
بل هي تعرض له في صورة جديدة ، في صورة رهبة مخيفة ، لا عهد
له بها من قبل ••• لقد أدرك ذلك على حين بقة ••• فأخذ الدم يدق
في صدغيه ، واسودَّ كل شيء أمام عينيه •

ألقي على ما حوله نظرة سريعة • كان يبحث عن شيء ما • كان
يريد أن يجلس ، فهو يبحث عن دكة يقعد عليها • انه الآن في شارع
ك ••• وعلى مسافة مائة خطوة توجد دكة •

اتجه راسكولنيكوف نحو الدكة بأقصى سرعة يستطيعها ، غير أن
حادثاً صغيراً وقع له أثناء الطريق ، فشدَّ انتباهه كله خلال بضع دقائق •

لقد لمح ، وهو يبحث بنظره عن الدكة ، لمح امرأة كانت تسير أمامه ،
على بعد عشرين خطوة تقريباً • غير أنه في أول الأمر لم يولها أى انتباه •
كما لم يتبه الى كل ما كان قد صادفه حتى الآن • لقد اتفق له ، مراراً
كثيرة ، أن رجع الى منزله دون أن يتذكر الطريق الذى سلكه • تلك
عادة أصبحت راسخة فيه • ولكن المرأة التى تسير أمامه الآن فيها شيء •
يلغ من الغرابة والشذوذ ومن القدرة على لفت النظر وخطف البصر ،
أن انتباهه قد تركز عليها شيئاً بعد شيء ، رغم ارادته وعلى ما يشبه المضض
فى أول الأمر ، ثم بقوة ما تنفك ترداد بعد ذلك • واستبدت به رغبة
مفاجئة فى أن يعرف ما هو الشيء الذى يبلغ فى هذه المرأة ذلك المبلغ كله
من الغرابة • وسرعان ما أدرك أنها لا بد أن تكون فتاة فى ريعان الشباب •
كانت الفتاة ، رغم الحر الشديد ، تسير حاسزة الرأس بلا مظلة

ولا قفازين ، مرجحة يديها بحركات غريبة مضحكة . وكانت ترتدى ثوباً صغيراً من حرير خفيف ، لكن فيه شيئاً من الغرابة والشنوذ هو أيضاً ، فلا يكاد يضم طرفيه ابزيم ، وقد انشق من الخلف عند الحصر ، وتمزق جزء كبير من أسفله فتهدل . وكانت تضع حول عنقها العاري منديلاً قد لُفَّ مقلوباً . وكانت الفتاة ، فوق ذلك ، تمشي مشية مضطربة ، فهي تتنثر وتترنح ذات اليمين وذات الشمال . ان هذا اللقاء أثار كل اهتمام راسكولنيكوف آخر الأمر . وقد أدركها لحظة كانت تقترب من الدكة ، ولكن الفتاة ما ان وصلت الى الدكة حتى تهالكت تجلس على أحد طرفيها ، وتقلب رأسها الى وراء فتسند الى ظهرها ، وتمض عينيها وقد ظهر عليها أنها محطمة من فرط التعب . فلما تأملها لم يلبث أن لاحظ أنها ثملة قد أخذ السكر منها كل مأخذ . وكان ظهورها على هذا النحو يبلغ من الغرابة والشنوذ أن راسكولنيكوف تساءل هل تصدقه عيناه . كان أمامه وجه بائس في ميعة الصبا ، وجه لا يزيد عمره على ستة عشر عاماً ، وقد لا يزيد على خمسة عشر عاماً ، دقيق نحيل يحف به شعر أشقر ، جميل ولكنه محقق حتى وكأنه متفخ متورم . وكان يبدو أن الفتاة لا تعي شيئاً . لقد وضعت ساقاً فوق ساق ، فأنكشف من ساقها ما لا يليق أن ينكشف ، وأغلب الظن أنها كانت لا تكاد تدرك أنها في الشارع .

لم يجلس راسكولنيكوف ، ولكنه لم يشأ أيضاً أن يتصرف ، فبقى واقفاً أمامها وقد استولت عليه الحيرة واستبد به الاضطراب . كان الشارع شبه خال : ففي الساعة الواحدة بعد الظهر من ذلك اليوم ، أثناء ذلك الحر الشديد ، لم يكد يمر في الشارع أحد . ومع ذلك فعلى بُعد خمس عشرة خطوة ، كان قد وقف سيد عند حافة الشارع يبدو واضحاً أنه يريد هو أيضاً أن يقترب من الفتاة لغاية واضحة . لا شك أنه كان هو

أيضاً قد لمحها من بعيد فتبعها • ولكن راسكولنيكوف يضايقه الآن
ويزعجه • ألقى السيد على راسكولنيكوف نظرات فيها كره وبغض ،
محاولاً مع ذلك أن لا يظهر من هذا شيئاً ، وأخذ ينتظر ، بفارغ صبر ،
انصراف هذا المتشرد الذي جاء في غير أوانه ليحتل مكانه • كان الأمر
أذن واضحاً • والسيد رجل في نحو الثلاثين من عمره ، بدين الجسم ،
سمين ، نضر الوجه ، يعلو شفتيه شاربان صغيران ، ويرتدى ثياباً أنيقة
كل الأناقة • غضب راسكولنيكوف غضباً رهيباً ، واستبدت به على حين
فجأة رغبة جامحة في أن يهين هذا السيد المتجمل المتأنق بطريقة أو
بأخرى ، فترك الفتاة لحظةً ، واقترب من السيد ، وصاح يقول وهو يشد
قبضتي يديه ضاحكاً مُزْ بَدْأ :

— هيه ! أنت ! مفيدريجايلوف !

فسأله الرجل بلهجة قاسية متعالية متكبرة وقد قطب حاجبيه وظهرت
الدهشة في وجهه :

— ما معنى هذا الذي تقول ؟

— معناه اغرب عن وجهي ! هذا معناه !...

— كيف تجرؤ أن تقول هذا الكلام أيها الوغد الخفير ؟

قال الرجل ذلك وشهر سوطه يلوّح به • فما كان من
راسكولنيكوف الا أن هجم عليه قابضاً كفيه ، حتى دون أن يقول لنفسه
ان هذا السيد السمين يستطيع بسهولة أن يجهز على شخصين من قَدْء •
ولكن أحداً قد أمسكه من خلف في تلك اللحظة نفسها امسكاً
قوياً : انه رجل من رجال الشرطة يتدخل في المشاجرة •

— هيه ! ما بالكما أيها السيدان ؟ هلاًّ امتنعتما عن الاقتال في الطريق

العام ؟

ثم قال يسأل راسكولنيكوف بلهجة قاسية بعد أن تفحص أسما له
البالية :

- ماذا تريد ؟ من أنت ؟

تفرس فيه راسكولنيكوف باقتباه • ان للرجل وجه جندى شجاع
طيب ، مع شاربين ولحيتين على العارضين قد وخط شعرهما الشيب ، وان
له نظرة تفيض تعبيراً عن الحس السليم والعقل الراجح •

صرخ راسكولنيكوف يقول وهو يمسك ذراع الشرطى :

- أنت أنت من احتاج اليه !

والتفت يخاطب السيد بقوله :

- اسمى راسكولنيكوف ••• اذا كنت تريد أن تعرف اسمى !•••

وعاد يخاطب الشرطى فقال :

- تعال معى ! سأريك شيئاً !

وقاد الشرطى من يده الى الدكة ، وأخذ يتدفق فى الكلام قائلاً له :

- انظر ! انها سكرى تماماً ••• كانت مارّة فى الشارع منذ قليل

••• لا يدري أحد من أين خرجت ••• ولكن لا يبدو عليها أنها محترقة

••• أغلب الظن أنهم اسكروها فى مكان ما ، ثم عبثوا بها ، لأول مرة

فى حياتها ••• هل تفهم ؟ ثم رموها فى الشارع ••• انظر الى ثوبها كيف

تمزق ••• انظر اليه كيف لبس ••• انها لم تلبس ثيابها بنفسها ، بل

ألبسها اياها ثيابها ••• ألبستها ثيابها أيدٍ غير خيرة ، ألبستها ثيابها أيدي

رجال ••• ذلك واضح ! ثم انظر الآن هناك : انظر الى ذلك الرجل

المتأنق الذى يحسب نفسه جميلاً ، والذى أردت أنا أن أضربه منذ لحظة

••• أننى لا أعرفه ••• ما رأيته فى حياتنى قبل اليوم ! لكنه لاحظها هو

أيضاً فى الطريق ، فأدرك أنها سكرى ، وأنها فاقدة شعورها كله . وهو الآن تحرقه رهية فى أن يقترب منها وأن يقودها الى مكان ما وهى على هذه الحالة ... ذلك هو ما يريده حتماً ... صدق أننى غير مخطئ... لقد رأيت بنفسى كيف رصدتها وتبعها ... ولكن وصولى أفسد عليه خطته ، فكان ينتظر أن أنصرف ، وما يزال ينتظر أن أنصرف ... انظر اليه ... لقد ابتعد قليلاً ... وها هو ذا يقف متظاهراً بأنه يلف سيجارة ... كيف نفعل حتى لا ندع له أن يستولى عليها ؟ ليتنا نستطيع أن نقودها الى منزلها ... ما رأيك ؟

سرعان ما أدرك الشرطى الموقف . ان حالة السيد السمين واضحة لا سبيل الى الشك فيها . بقى أن تُعرف حالة الفتاة . مال الشرطى الطيب عليها ليراها من قرب ، فارتسمت على قسماط وجهه عاطفة شفقة صادقة .

ودعهم يقول وهو يهز رأسه :

— يا للمسكينة ! ما تزال طفلة حقاً ! لا شك انهم عبثوا بها !

ثم أضاف بناديبها :

— اسمى يا آمنة ! اين تسكنين ؟

فتحت الفتاة عينيها المكدودتين المضطربتين الرائغتين ، وألقت نظرة مشدومة على الرجلين المزعجين ، وأجرت يدها بحركة كأنها تريد أن تطردهما .

قال راسكولنيكوف وهو ينبش جيبه فيخرج منه عشرين كوبكاً كانت ما تزال فيه :

— اسمع ! خذ هذه النقود ، وناد حوذاً ، ومُرّه أن يقودها الى

بيتها . ليتنا نستطيع ان نعرف عنوانها !...

عاد الشرطى يقول وهو يتناول النقود :

- يا آمنة ! هيه ! يا آمنة ! سأنادى عربية على الفور فأعود بك الى منزلك بنفسى ! الى اين يجب أن أقودك ؟ قولى ! اين تسكنين ؟
فجمجمت الفتاة تقول وهى تجرى يدها بتلك الحركة نفسها :
- دعونى وشأنى ! لا تشبثوا بى !

- آه ! ليس هذا بالمستحسن يا آمنة ! هذا عيب • هذا عيب حقاً •
وهز رأسه من جديد ، معبراً عن الحرج والشفقة والاستكار فى آن واحد ، ثم تابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف وهو يروزه مرة أخرى من أخص القدمين الى قمة الرأس (كان يستغرب أن يهب المرء نقوداً ثم هو يرتدى مثل هذه الأسمال الرثة البالية) :

- نعم ... العنوان .. تلك هى المسألة ! ...

وأضاف يسأله :

- هل التقيت بها فى مكان بعيد عن هنا ؟

- سبق أن قلت لك : كانت تسير أمامى مترنحة ، هناك ، فى الشارع ،
فما ان وصلت الى الدكة حتى تهاوت عليها !

- آه ! ما أكر العار الذى سقط على العالم يا رب ! أطفاله
وسكرى ؟ لا شك أنهم قد عبثوا بها ! ذلك واضح ... انظر الى توبها
كيف تمزق كل التمزق ... هه ... ان الدعارة تحقق تقدماً كبيراً فى
هذا الزمان ! ... ومن يدرى ؟ لعلها من أسرة طيبة جار عليها الدهر
فأصابها بالدمار ... أمثال هذه الحالات كثيرة فى هذه الأيام ... ان المرء
حين يراها لطيفةً هذا اللطف كله مرهفةً هذه الرهافة كلها ، يمكن
أن يحسبها آمنة •

قال الشرطى ذلك ومال عليها من جديد • لعل له هو أيضاً بنات

« تبلغ من اللطف والرہافة أن المرء يمكن أن يحسبهن آمسات »
يصطنعن آداب الفتيات الراقيات •

قال راسكولنيكوف :

— الأمر الأساسي هو ألا تتركها لهذا الوغد الدنيء ! ان من الممكن
أن يلحق بها اىذاءات جديدة • نيته واضحة وضوح النهار ! يا للوغد
القذر ! انه لا ينصرف •

كان راسكولنيكوف يتكلم بقوة وهو يومئذ الى السيد باصرار
عنيد • سمعه الرجل فأوشك أن يغضب من جديد ، ولكنه لم يلبث أن
عدل عن ذلك واكتفى بأن ألقى عليه نظرة احتقار ، ثم ابتعد ببطء مسافة
عشر خطوات ، وتوقف مرة أخرى •

أجاب الشرطى المعجوز واجماً مفكراً يقول :

— أن لا ندعها له فذلك يكون أمراً سهلاً اذا نحن عرفنا المكان
الذى ينبغي أن نقودها اليه ، ولكن ...

قال الشرطى ذلك ومال على الفتاة مرة أخرى وأخذ يناديها :

— يا آنسة ! هيه ! يا آنسة ! يا آنسة !

فمحت الفتاة عندئذ عينيها محمقة ، ونظرت بانتباه كأنما هي فهمت
شيئاً ما ، ثم نهضت عن الدكة واستأنفت سيرها فى الاتجاه الذى كانت آتية
منه • وجهجت تقول وهى تُجرى يدها بتلك الحركة نفسها كأنما
لتخلص من الرجلين : « آه ! انهم لا يتخرجون ولا ينفكون يتشبثون » •

كانت تمشى بسرعة ، ولكنها ترنح فى مشيتها كترنحها منذ قليل •
تبعها السيد الأنيق دون أن يحوّل بصره عنها ، سائراً فى ذلك الطريق
نفسه •

وأسرع الشرطى ذو الشاربين الكبيرين يمشى وراءهما قاتلاً
لراسكولنيكوف بلهجة جازمة :

ـ لا تخف ، لن أتركها !

وكرر يقول متهدأ :

ـ رباه ! ما هذا الفسق الذى نراه فى هذا الزمان !

فى تلك اللحظة نفسها أحس راسكولنيكوف فى داخله بما يشبه
أن يكون وخزة ، فإذا بكل شيء فى نفسه ينقلب رأساً على عقب ، وإذا هو
ينادى الشرطى صائحاً :

ـ هيه ! اسمع !

التفت الشرطى فقال له راسكولنيكوف :

ـ دعهما ! أى أذى يمكن أن يلحقك أنت من هذا ؟ دع الأمور
تجرى على أعنتها ! دع الرجل يتسلى ! (قال ذلك وهو يشير بيده الى
السيد الأنيق) • ما شأنك أنت وهذا كله ؟

لم يفهم الشرطى شيئاً وحملق متعجباً • وأخذ راسكولنيكوف
يضحك • قال ممثل الأمن العام وهو يحرك يده :

ـ ايه ! ايه !

وعاد يلاحق السيد الأنيق والفتاة الصغيرة • اغلب الظن أنه كان
يعد راسكولنيكوف مجنوناً أو شراً من ذلك •

فلما أصبح راسكولنيكوف وحيداً ، دمدم يقول فى خبث : « أخذ
منى أنا عشرين كوبكاً ، وسوف ينفحه السيد الأنيق مبلغاً صغيراً آخر
فيترك له البنية • نعم ••• هكذا ستتهى الأمور ••• لماذا أحضمت نفسى

فيما لا يعني ؟ لماذا تدخلت في سبيل أن أحميها ؟ هل عليّ أنا أن أفرض نفسي حامياً ؟ هل من حقّي أن أحمي أحداً أباً كان ؟ ألا فليتهم بعضهم بعضاً أحياءً ... ما شأنى أنا وهذا ؟ وكيف تجرأت أن أهب تلك الكويكبات العشرين ؟ أهى ملكى ؟ ، ،

ورغم هذه الأقوال الغريبة ، كان راسكولنيكوف يحس بقلبه ثقيلًا ثقيلًا . جلس على الدكة المهجورة وشردت افكاره ... كان يصعب عليه في تلك اللحظة أن يفكر في أى شىء . ودَّ لو يغيب عنه وعيه ... ودَّ لو ينسى كل شىء ، فما يشعر بشىء ... ثم يستيقظ بعد ذلك فيستأنف حياة جديدة .

قال لنفسه وهو ينظر الى طرف الدكة الذى اصبح الآن خالياً :
• يا للصغيرة المسكينة ! سوف تصحو فتبكي ، وسوف تعلم أمها بكل شىء .
... فتضربها أولاً ، ثم تجلدها الى أن تتفجر من جسمها الدماء ...
ستجلدها جلداً فيه أبلغ الازلال وأعرق الالهانة ... وقد تطردها من البيت ... وهبها لم تطردها ، فلا بد أن تعلم بالأمر امرأة من أمال داريا فرانسوفنا ... وستأخذ الفتاة تجرى هنا وهناك ، ستأخذ تدرج من هنا الى هناك ... ثم سرعان ما تُنقل الى المستشفى (تلك دائما حال البنات اللواتي يعشن مع امهات شريفات جداً ويتعاطين الفحش خفية) ...
ثم تُنقل الى المستشفى من جديد ... شراب وحانات ثم المستشفى دائماً ... وما ان تنقضى سنتان أو ثلاث حتى تصبح حطاماً ... ما ان تبلغ الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة حتى تنتهى ! ... ألم أَرَ فتيات كثيرات في مثل حالتها ؟ كيف كنَّ يصلن الى ذلك المصير ؟ بهذه الطريقة نفسها ! آه ... لا خير ! يقال ان الأمور يجب أن تجري هذا المجرى ... يقال ان هناك نسبة مئوية لا بد أن بُضحى بها كلَّ عام ... للشيطان فى أغلب الظن ... وذلك فى سبيل ضمانه راحة الأخريات ...

نسبة مئوية ! ان لهم تعبيرات فيها كثير من الجمال حقاً ... وهي فوق ذلك تعبيرات مطمئة جداً ، علمية جداً ! ما داموا يتحدثون عن نسبة مئوية ، فلا داعى الى أن يصدّع المرء رأسه ... آ ... لو قد استعملوا كلمةً أخرى ، فمن الجائز ... عندئذ ... أن يكون الأمر أدعى الى القلق ... هكذا ! ... وماذا لو كان على دونيا أن تدخل فى النسبة المئوية ، بطريقة أو بأخرى ... فان لم تدخل فى هذه النسبة دخلت فى تلك على الأقل ؟ ، .

وتساءل راسكولنيكوف فجأة : • ولكن الى أين أنا ذاهب ؟ ألا انه لأمر غريب ! لقد كان لى هدف حين خرجت الى الشارع . فما ان فرغت من قراءة الرسالة حتى نزلت أريد الذهاب الى عند رازوميخين ، فى جزيرة فاسيلفسكى ... نعم ، ذلك هو المكان الذى كنت ذاهباً اليه ... الآن تذكرت • ولكن لماذا أذهب الى رازوميخين ؟ لماذا خطر ببالي أن أذهب الى رازوميخين لا الى غيره ، فى تلك اللحظة لا فى غيرها ؟ نىء عجيب ! ، .

دُهِش هو نفسه من قراراته • ان رازوميخين هو أحد رفاقه القدامى فى الجامعة • انغريب أن راسكولنيكوف ، فى أيام الدراسة بالجامعة ، لم يكن له أصدقاء تقريباً ، وكان لا يعاشر أحداً من زملائه ، لا يزور أحداً منهم ولا يستقبل أحداً • ثم ان جميع رفاقه كانوا قد تحولوا عنه بسرعة • كان لا يشارك لا فى الاجتماعات ، ولا فى المناقشات ، ولا فى المتع والمباهج ، ولا فى أى شىء آخر • وكان يعمل بجهد واجتهاد ، دون أن يراعى نفسه ، وبذلك استطاع أن يحصل على احترام جميع رفاقه • ومع ذلك لم يكن يحبه أحد منهم • وكان راسكولنيكوف فقيراً كل الفقر ، ولكنه كان متمدناً قليل الكلام ، حتى لسكانه كان يريد أن يخفى شيئاً فى نفسه • وقد رأى بعض رفاقه أنه ينظر اليهم من

على ، كما ينظر المرء الى الأطفال قريباً ، وكما لو كان يفوقهم ذكاءً ونضجاً وفكراً وثقافة ورأياً . كانت اقتناعاتهم واهتماماتهم تبدو له دون مستواه كثيراً .

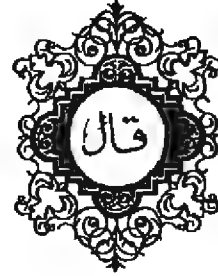
ومع ذلك ربطته صداقةٌ برفيقه رازوميخين ، مهما يكن سبب هذه الصداقة . على الأقل ، كان مع رازوميخين أقل امتناعاً عن الكلام ، وأكثر صراحةً مما كان كذلك مع أى رفيق آخر . وكان من المستحيل على كل حال أن يتصرف المرء مع رازوميخين غير هذا التصرف . كان رازوميخين فتى شديد المرح حلو المعاشرة ، وكان عدا ذلك طيب القلب الى حد السذاجة ، ولكنها سذاجة تخفى وراءها عمقاً صادقاً وكرامة لا سبيل الى جحودها ، وكان خير رفاهه يعترفون له بذلك ويجونه . ولم يكن رازوميخين بالنبي ، رغم أنه كان يبدو فى بعض الأحيان بسيطاً بعض البساطة . وكان مظهره "يخطف الانتباه : كان طويلًا ، نحيلًا ، أسود الشعر ، قليل العناية بخلاقته دائماً . وكان يتفق له أن يحدث شغباً ، وكان يُعدُّ أشبه بهرقل ، بعض الشيء . فى ذات ليلة ، أثناء جولة مع رفاهه ، قلب رجلاً من رجال الأمن طوله ستة أقدام . وكان يستطيع أن يشرب دون قصد ولا اعتدال ، ولكنه كان يستطيع كذلك أن لا يشرب البتة . وكان فى بعض الأحيان يدبر لغيره المكائد ، ولكنه كان يعرف كيف يحمى نفسه منها . وكان رازوميخين يتصف أيضاً بهذه الصفة البارزة : ما من خيبة يمكن أن تثبط عزيمته وتقل شجاعته قط ، وما من ظرف سيء من الظروف يمكن أن يحمله على الانهيار . وكان يستطيع أن يسكن فى أى مكان ، ولو تحت السقوف ، وأن يتحمل آلام الجوع وأهوال البرد . كان فقيراً جداً ، فكان ينفق على نفسه بنفسه ، حاصلاً على المال من تعاطى شتى أنواع الأعمال الصغيرة . كان يعلم أن فى وسع المرء دائماً أن يتدبر أمره فىفى بحاجاته ، على شرط أن يعمل

طبعاً ... وقد اتفق له أن قضى شتاء بكامله دون أن يدفع غرفته ، حتى
لقد أكد أن لعدم التدفئة فوائد ومزايا ، لأن المرء ينام في الجو البارد نوماً
أفضل .

وقد اضطر رازوميين ، في ذلك الأوان ، أن يترك الجامعة هو
أيضاً ... ولكن الى حين ، فيما كان يعتقد . فكان يحاول ، بكل ما يملك
من قوة ، أن يصلح الحال بغية أن يستطيع مواصلة دراسته .

ان راسكولنيكوف لم يذهب اليه منذ أربعة أشهر . وكان رازوميين
يجهل حتى عنوان راسكولنيكوف . مرة واحدة ، منذ شهرين ، التقيا
في الشارع مصادفةً ، ولكن راسكولنيكوف أشاح بوجهه ، حتى لقد
انتقل الى الرصيف من أجل أن لا يرى . أما رازوميين فإنه مضى في
طريقه رغم أنه لمح راسكولنيكوف ، وذلك لأنه لا يريد أن يزعم
« صديقه » .

الفصل الخامس



راسكولنيكوف يحدث نفسه : « فعلاً ، لقد كنت منذ مدة وجيزة أريد أن أطلب من رازوميخين أن يجد لي عملاً ، أن يهيئ لي دروساً ، أو أى شيء آخر ... ولكن فيم يمكن أن يفيدني الآن ؟ هبه وجد لي دروساً ، بل هبه قاسمني آخر كوبك معه ، اذا كان ما يزال يملك كوبكاً ، بحيث أستطيع أن أشتري خذائين وأن أصلح ملابسى ، فأتمكن من اعطاء دروس ... هم ... عظيم ... ولكن ماذا بعد ذلك ؟ ما عساني صاعداً بقروش قليلة ؟ أهذا ما أنا فى حاجة اليه الآن ؟ حقاً انها لفكرة سخيفة مضحكة أن أذهب الى رازوميخين ... »

لماذا يذهب الآن الى رازوميخين ؟ ذلك سؤال أصبح يقلقه أكثر مما كان يترامى له أنه يقلقه . كان يتساءل بكثير من الهم والغم ومن الخوف والقلق ما هو المعنى الغيبى الشرير الذى يكمن وراء هذه الخطوة التى أراد القيام بها ، والتى تبدو مع ذلك بسيطة عادية تافهة ! ...

« هل يمكن حقاً أن لا أكون قد أردت الا أن أدبّر جميع الأمور وأرتب جميع الأشياء بفضل رازوميخين وحده ، وأن لا أكون قد اهتمت الى حل الا الاستعانة برازوميخين ؟ ، كذلك كان يتساءل مدهوشاً .

وكان يفكر ويفكر ، ويحكّ جبينه ، فاذا بفكرة غريبة تومض

في ذهنه فجأة ، بما يشبه المصادفة • أمر عجيب ! قال بفتةً بلهجة هادئة كل الهدوء ، كانما هو قد اتخذ في تلك اللحظة قراراً حاسماً : « الى رازوميخين ! نعم ، سأذهب الى رازوميخين حتماً ... ولكنني لن أذهب اليه الآن ... » وانما اذهب اليه في يوم آخر ، بعد أن أكون قد أتممت القيام بذلك « الأمر » ، بعد أن يكون ذلك « الأمر » قد انتهى ، بعد أن يبدأ كل شيء على أسس جديدة •

ثم تاب الى رشده على حين فجأة ، فقال صائحاً وهو يتزع نفسه من الدكة انتزاعاً : « بعد أن يكون « الأمر » قد انتهى ؟ ولكن هل سيتحقق ذلك « الأمر » ؟ هل من الممكن أن يتحقق ذلك « الأمر » ؟

وابتعد عن الدكة ، وانصرف مسرعاً كأنه يركض ركضاً • ودّ لو يعود أدراجه ، ويرجع الى مسكنه ، ولكنه حين تصور نفسه راجعاً الى البيت ، شعر بنفور شديد : فهناك ، في ذلك المكان نفسه ، في ركنه ذاك ، في تلك الحجرة الكريهة الرهيبة ، انما نضجت فكرة ذلك « الأمر » ، منذ أكثر من شهر •

ومضى راسكولنيكوف يمشي قدماً لا يلوى على شيء • لقد تحول اضطرابه العصبي الى ارتعاشات حتمية ، حتى لقد أحس أنه يرتجف من البرد • انه يشعر ببرد أثناء ذلك القبط الشديد •

وأخذ راسكولنيكوف يتفحص جميع الأشياء التي يلقاها في طريقه ، باذلاً في ذلك جهداً كبيراً ، ولكن على غير شعور منه تقريباً ، مدفوعاً الى هذا بضرورة داخلية • لكأنه يحاول بأية وسيلة من الوسائل أن يسلو ، ولكن سعيه هذا الى السلوى لم ينجح كثيراً ، فهو ما يلبث في كل لحظة أن يعود الى الاسترسال في أحلامه ؛ فاذا هزته رعشة جديدة فرفع رأسه ونظر فيما حوله ، نسي على الفور ما كان يفكر فيه ، بل ونسى الطريق

الذى كان قد سلكه . على هذا النحو انما قطع جزيرة فاسيلفسكى كلَّها ،
ووصل الى نهر «نيفا الصغير» * ، فعبر الجسر واستدار الى جهة الجزر .
ان الحضرة وطراوة الهواء قد أراحنا فى أول الأمر عينيه المكدودتين اللتين
ألقنا غبار المدينة ، والكلس ، والمباني الضخمة المرهقة . هنا لا اختناق ،
ولا عفونة ، ولا خمارات . ولكن هذه الاحساسات الجديدة الممتعة سرعان
ماصارت هى أيضاً مرضية تثير الأعصاب . كان فى بعض الأحيان يقف أمام
«فيللا» مدفونة فى الحضرة فينظر من خلال السياج ، ويرى من بعيد ، على
الشرفات ، نساء ترتدى أجمل اللؤلؤ ، ويرى أولاداً تركض . وكانت
الأزهار تجذبها خاصة ، فكان يتلبث أمامها ويأخذ يتأملها . وكان يلتقي
بين الفينة والفينة بعربات أنيقة ويبصر رجالاً يمتطون صهوات الحيل ونساء
على ظهور الأفراس ترتدى سراويل الأمازون ، فكان يتبعهم نظراته ،
ولكنه ما يلبث أن ينسأهم حتى قبل أن ينبسوا . وفى ذات مرة توقف ليعد
نقوده ، فعرف أنه لم يكن قد بقى معه الا نحو ثلاثين كوبكاً . قال
لنفسه : « أعطيت الشرطى عشرين كوبكاً ، وأعطيت ناستاسيا ثلاثة
كوبكات مكافأة لها على أنها جاءتتى برسالة أمى ؛ معنى ذلك اذن أتى
أعطيت أسرة مارميلادوف سبعة وأربعين أو خمسين » . لا شك أن هناك
سبباً يدفعه الى أن يحصى ما معه من نقود على هذا النحو ، ولكنه سرعان
ما نسى هذا الأمر ، حتى لقد نسى أنه أخرج النقود وعدّها . ثم تذكر
النقود حين مرّ أمام مطعم حقير . لقد أحسّ عندئذ أنه جائع ، فدخل
المطعم ، فشرّب قدحاً من الفودكا ، وأخذ فطيرة محشوة ، فبدأ أكلها
فى المطعم ثم أنهاه فى الشارع . انه لم يشرب فودكا منذ زمن بعيد جداً .
لذلك أثرت فيه الفودكا فوراً رغم أنه لم يشرب الا كأساً صغيرة .
وتراخت ساقاه وثقلتا على حين فجأة ، وأحس برغبة قوية فى النوم . فناد
يتجه نحو بيته ، ولكنه ما ان وصل الى جزيرة بتروففسكى حتى توقف

خائر القوى تماماً ، فترك الطريق ، ودخل في الأدغال وتهاوى على
العشب ، فسرعان ما نام .

في حالات المرض ، تتميز الأحلام ببروز قوى وشسدة خارقة ،
وتتميز كذلك بتشابه كبير مع الواقع . قد يكون مجموع اللوحة عجيبيّاً
شاذّاً ، ولكن الاطار ومجمل تسلسل التصور يكونان في الوقت نفسه
على درجة عالية من المعقولة ، ويشتملان على تفاصيل مرهفة جداً ،
تفاصيل غير متوقعة ، تبلغ من حسن المساهمة في كمال المجموع أن الحالم
لا يستطيع أن يبتكرها في حالة اليقظة ولو كان فناناً كبيراً مثل بوشكين أو
تورجنيف . وهذه الأحلام ، أعني الأحلام المرضية ، تخلف دائماً ذكرى
باقية ، وتحدث أثراً قوياً في الجسم المضضع المهتر المختل .

كان حلماً مرعباً ، ذلك الحلم الذي رآه راسكولنيكوف . لقد حلم
بطفولته ، هناك ، في مدينتهم الصغيرة . ان عمره سبع سنين . وها هو ذا ،
في يوم عيد ، يتنزه مع أبيه في ظاهر المدينة . الجو دافئ ، والهواء خافق ،
والمكان هو المكان الذي انطبعت ذكراه في خياله تماماً ، ولكنه يبدو
في الحلم أشد وضوحاً وأكثر تميزاً مما هو في الذاكرة . المدينة الصغيرة
تمتد مكشوفة كأنها مبسوطة على راحة الكف ؛ فليست ترى حوايلها حتى
صفافقة بيضاء واحدة ؛ وفي مكان ما ، مكان بعيد جداً ، عند آخر
الأفق ، تلوح بقعة سوداء هي غابة صغيرة . وعلى مسافة بضعة خطوات من
آخر بستان من بساطين الخضار التي تحيط بالمدينة ، توجد حانة كبيرة
كانت دائماً تحدث في نفسه أثراً أليماً ، حتى لتخيفه حين يمر بها متنزهاً
مع أبيه . كان في هذه الحانة دائماً جمهور كبير ، وضحك مجلجل ؛
والناس يشاتمون هنالك ، ويفنون بأصوات جشَاء أغاني قبيحة بذئنة ،
وهم خاصة يشاجرون ويقتلون في كثير من الأحيان ؛ وحول الحانة
يتجول دائماً أفراد مخمورون لهم وجوه مرعبة ، ما ان يصادقهم الطفل

فى طريقه حتى يلتصق بأبيه ويشدّ جسمه اليه وقد أخذت أعضاؤه كلها ترتعش ... وفى مكان غير بعيد من الحانة توجد طريق أو قل يوجد زقاق عرضانى أسودٌ كثير الغبار ، يستمر متعرجاً متلوياً ، وينعطف يميناً بعد ثلاثمائة متر فيحيط بمقبرة المدينة . وفى وسط المقبرة تنتصب كنيسة مبنية بالحجر ، لها قبة خضراء ، كان الطفل يذهب إليها للصلاة مع أبيه وأمه مرة أو مرتين فى السنة ، وذلك حين إقامة قداس على روح جدته التى ماتت منذ مدة بعيدة ولم يعرفها فى يوم من الأيام . وكانوا فى تلك المناسبة يحملون الحلوى التقليدية على طبق أبيض موضوع فوق منشفة : انها حلوى من الرز والسكر والزبيب المحقق المغروس فى الرز على شكل صليب . كان الصبى يحب تلك الكنيسة ، ويحب أيقوناتها التى يخلو أكرها من الزينة ، ويحب أيضاً ذلك الكاهن الشيخ الذى كان يرتعش رأسه . وإلى جانب قبر جدته الذى تغطيه بلاطة كبيرة ، كان يوجد قبر أخيه الأصغر الذى مات فى الشهر السادس من عمره والذى لم يعرفه أيضاً فلا يستطيع اذن أن يتذكره ؛ غير أن أهله قد ذكروا له أنه كان له أخ صغير ، فكان كلما زار المقبرة يرسم على نفسه اشارة الصليب فى كثير من التقى والخشوع ، وينحنى أمام القبر ويقبله . واليكم الآن الحلم الذى رآه : رأى نفسه يسير مع أبيه فى الطريق المؤدية الى المقبرة ، فيمران أمام الحانة . انه ممسك أباه من يده ، ينظر الى الحانة مذعوراً . ان هنالك أمراً خاصاً يجذب انتباهه ! لكنّ ثمة عيداً شعبياً كبيراً يحتفل به الناس : انهم عدد كبير من صغار البرجوازيين بلباس العيد ، وفلاحات مع أزواجهن ، وخليط كبير من البشر . هم جميعا سكارى وهم جميعا يغنون ؛ وامام باب الحانة تُرابط عربية ، ولكنها عربية عجيبة غريبة هى عربية من تلك العربات التى تجرها فى العادة خيول قوية ، والتى تنقل أنواعاً كثيرة من البضائع وبراميل الخمرة . كان الصبى دائماً ينظر بكثير

من اللذة والمسرّة الى تلك الخيول الضخمة ذات الأعرف الطويلة والسيقان
القوية ، التي تسيّر بخطى هادئة موزونة جاريةً وراءها حملاً كأنه الجبل
ضخامةً ، دون أن يبدو عليها أنها تشعر بوجود هذا الحمل ، حتى لكأن
الحمل يجعل سيرها أسهل وأيسر . أما الآن فإن الشيء الغريب هو أن هذه
العربة الكبيرة قد قرّنت بها فرس ضعيفة واهنة هزيلة شبيهة بتلك
الأفراس التي كثيراً ما رآها تضى بجرجل من الحشب أو العلف على
طرق متحفرة تفرّص فيها عجلاتها الى المحاور ، ويضربها الفلاحون
بسياطهم على 'خطمها بل وعلى أعينها ضرباً قوياً مبرحاً . لقد كان قلبه
ينقبض انقباضاً شديداً حين يرى تلك الأفراس على تلك الحال من
الشقاء ، حتى ليكاد يبكي حزناً وألماً . وكانت أمه تضطر عندئذ الى
أقصائه عن النافذة . وها هي ذى جلبة كبيرة تعلو : ان عدداً
من الفلاحين الأقوياء السكارى يخرجون من الحانة صارخين ، مفتين ،
غازفين على البالالايكاء ، مرتدين قمصاناً حمراء وزرقاء ، رامين أرديتهم
على أكفهم . وهذا واحد منهم ، وهو رجل ما يزال فى شرخ الشباب
سميك الرقبة ، سمين الوجه ، أحمر اللون كجزرة ، يصرخ قائلاً لهم :
« اركبوا ، اركبوا جميعاً ! سأثقل الجميع ، هيا اصعدوا ! » فسرعان
ما توجيه قهقهات وصيحات تهول :

— أبفرس ضعيف كهذه الفرس تقودنا جميعاً ؟

— هه ! ماذا دهالك يا ميكولكا ؟ * أتقرن دابة صغيرة هذا الصغر

بعرية ضخمة هذه الضخامة ؟

— يميناً ان الدابة تبلغ من العمر عشرين عاماً يا أخى !

— اجلسوا ! سأثقل جميع الناس !

كذلك صرخ يقول ميكولكا من جديد ، وهو يشب الى العربة أول

الوائين ، فيمسك بزمام الفرس ، وينتصب في الأمام يقامته كلها ، ثم يردف قائلاً وهو في العربية :

- لقد سافر الكميث منذ هنيهة مع ماتفاى • وهذه الفرس يا اخوتي تغيظني كثيراً ، وتحطم قلبي تحطيماً • اننى مستعد لأن أقتلها • انها لا تصلح لنير انتزاع لقمة الجز من فمي • اقول لكم : اركبوا ! اجلسوا ! سأجعلها تعدو ولسوف تعدو !
وأمسك بسوطه وهو يتلذذ سلفاً بالمتعة التي سينوقها حين يأخذ يضربها •

قال بعضهم ضاحكاً :

- طيب ! اصعدوا ألم تسمعون ؟ سوف تعدو الفرس •
- انها لم تعرف العدو منذ عشر سنين !
- لسوف تعدو !
- لا تأخذنكم شفقة أيها الاخوة ! فليتناول كل منكم سوطاً وليتها !
- هيا بنا ! هلموا ! اضربوا !

ركب الجميع عربية ميكولكا مقهقهين مازحين • ركب ستة رجال وما يزال في المكان متسع • أركبوا معهم امرأة مسمينة حمراء الوجه • انها ترتدى صدره من قماش هندي أحمر ، وتنتعل حذاءين ساقاهما طويلتان ، وتضع على رأسها قلنسوة مزدانة بلآلىء ، وتقضم حبات بندق وتنفجر ضاحكة من حين الى حين ، والجمهور من حولها يضحك كذلك • وكيف لا يضحكون ؟ كيف تستطيع فرس ضعيفة ضامرة هزيلة أن تنجز مثل هذا الحمل عَدْواً ؟ وسرعان ما تناول صبيان في العربية سوطاً لمساعدة ميكولكا • ودوت في الجو صيحات تهيب بالفرس أن تسير • أخذت

الفرس تبذل كل ما تستطيع من جهد لتسير • ولكن أنى لها أن تعدو •
انها لا تكاد تقوى على التحرك من مكانها • فهي تراوح وتئن وتئن تحت
ضربات سياط ثلاثة تهوى عليها • تضاعفت الضحكات في العربة وفي
الجمهور • ولكن ميكولكا غضب • وها هو ذا من شدة حنقه وغيظه يجلد
الفرس بمزيد من القوة كأنما هو يعتقد حقاً بأن في وسع دابته أن تجرى
عدواً •

صاح شاب صغير من بين الجمهور وقد فتنه هذا المشهد :

— هل تسمحون لي بأن أجيء معكم ؟

فصرخ ميكولكا يجيبه بقوله :

— اركب ! اركبوا جميعاً ! سوف أعرف كيف أجعل الفرس تعدو !

وأخذ يضرب ويضرب وقد استبد به حنق بلغ من الشدة أنه لم
يلبث أن اصبح لا يعرف بماذا يضرب •

صاح الطفل يسأل أباه :

— أبت ! أبت ! ماذا يفعلون ؟ أبت ! لماذا يضربون الفرس
المسكين ؟

قال الأب :

— تعال ، تعال ، انهم سكارى يرتكبون حماقات • تعال !

لا تنظر اليهم ؟

وأراد الأب أن يقتاد الابن ، ولكن الطفل آفلت من يديه ، ثم لم
يطلق صبراً فركض نحو الفرس الشقية • كانت الفرس المسكين قد ساءت

حالتها وخارت قواها • انها تلهت وتتوقف لحظة ثم تستأنف بذل ما تستطيع
يذله من جهد لتجر العربة ، فترنج وتكاد تسقط •

صرخ ميكولكا يقول :

اجلدوها الى أن تفتس ! انتظر قليلاً ! سوف ترى !
هتف شيخ من بين الجمهور يسأله :

— ما هذا ؟ أنت مسيحي ؟ يا لك من متوحش !
وأضاف آخر يقول :

— هل رأى احد فى حياته دابة هزيلة كهذه الدابة تنجر حملاً
ثقيلاً كهذا الحمل ؟
وساح ثالث يقول :

— سوف تقتلون الدابة أخيراً !
قال ميكولكا :

— ما تدخلك أنت ؟ الدابة دابتي ! ما أريده أفعله ! اركبوا جميعاً !
أريد حتماً أن تجرى الفرس عدواً •

وفجأة ، انفجر ضحك عريض غطى كل شيء • لم تستطع الفرس
أن تحتمل الضربات المتكررة ، فاذا هى تأخذ ترفس وتلبط • حتى
الشيخ نفسه لم يستطع أن يمتنع عن التبسم • حقاً ان هنالك ما يبعث على
الضحك : كيف ترفس وتلبط فرس ضعيفة مسكينة لا تكاد تقوى على
الوقوف •

خرج من الجمهور شابان فتاولا سوطين ، وركضا نحو الفرس
ليجلداها من الجهتين •
قال ميكولكا :

— على الحُطَم ، على العينين ، على العينين !

وهتف أحد ركاب العربى :

— أغنيةً أيها الاخوة !

فأخذ الجميع فى العربى يفتون بصوت واحد • هى أغنية مسعورة
تصدح بها الحناجر ، وتصاحبها قرعات طبل ، ويتخللها صفير عند تكرار
اللازمة • والمرأة السمينة تفضم البندق وتتفجر ضاحكة •

ركض الطفل نحو الحصان ، وأسرع الى أمام • رأى كيف كانت
الدابة تجلد على عينيها ، على عينيها تماماً !... فأخذ يبكى • انقبض قلبه
وسالت دموعه • لامس واحد من الضارين وجهه بسيوط • ولكنه لم
يشعر بشيء • لوى يديه ألماً • صرخ • اندفع نحو الشيخ ذى اللحية
الشيء الذى كان يهز رأسه مستكراً هذا كله • امسكت يده فلاحه ،
وأرادت أن تبعده • لكنه تملص منها ، وركض نحو الفرس من جديد •
لقد انهارت قوى الفرس ، ومع ذلك حاولت أن ترفس وأن تلبط مرة
اخرى •

صاح ميكولكا يقول وقد استولى عليه حنق شديد :

— شيطان يأخذك !

ورمى سيوطه ، وانحنى الى تحت ، فتناول من قاع العربى خشبة
طويلة ثقيلة ، فقبض على طرفها بيديه ، وأشهرها فوق رأس الفرس بجهد •

صاح ميكولكا يقول :

— سوف يقتل الفرس !

— سوف يهشمها !

صرخ ميكولكا :

- مى ملكى ، ولا شأن لأحد بها !

وهوى بالحسبة على الفرس بكل ما أوتى من قوة ، فدوى فى الجو
صوت أصم •

صرخ بعضهم :

- اجلدوا الفرس ! اجلدوها ! مالكم توقفتم عن جلدها ؟

فاشتعلت حماسة ميكولكا مزيداً من الاشتعال ، وهوى على ظهر
الفرس الضعيفة بضربة قوية جديدة + نهالت الفرس عند مؤخرتها ،
ولكنها ما لبثت أن انتصبت ، وحاولت أن تجر بكل ما تملك من قوة +
أخذت تجر فى كل اتجاه من الاتجاهات عسى أن تتحرك العربة • غير
أن ستة سياط هاجمتها من جميع الجهات ، وارتفعت الحسبة من جديد
فهوت عليها بضربة ثالثة ثم بضربة رابعة ، وتالت الضربات قوية مطردة +
لقد اشتد خنق ميكولكا لأنه لم يقتل الفرس بضربة واحدة •

صرخ بعضهم :

- عمرها طويل !

فصاح واحد فى الجمهور :

- لم يعد عمرها طويلاً أيها الاخوة ! لم يبق لها من حياتها الا
دقائق معدودة !

وصرخ ثالث :

- فلتضرب بساطور ! فلنته منها دفعة واحدة !

قال ميكولكا مرغياً مزيداً والغيط يخنقه خنقاً :

- نعم فلتذهب الى الشيطان ! أبعدوا !

ورمى الحشبة ، ثم انحنى مرة أخرى الى تحت ، فتناول من قاع
العربة قضيباً من حديد ، وصرخ يقول مخاطباً الفرس :

- تستحقين ! ثم هوى بقضيب الحديد على الفرس المسكينة ، بكل
ما أوتي من قوة ، فترجعت الدابة من شدة الضربة ، وتهالكت ، وحاولت
ان تجرّ العربة مرة أخرى ، ولكن قضيب الحديد هوى على ظهرها من
جديد ، فسقطت على الأرض كأن قوائمها الأربع قد قُطعت قطعاً !

صاح ميكولكا يقول :

- أجهزتُ عليها !

ونفذ صبره ، فوثب من العربة الى الأرض . وها هم أولاء فتیان
حمر سكارى يمسون بكل ما يقع تحت أيديهم من سياط أو عصي أو
أخشاب ، ويهرعون نحو الفرس المحتضرة . وقف ميكولكا الى جانب
الدابة ، وأخذ يضربها بقضيب الحديد على ظهرها . فمدّت الفرس
خطمها ، وزفرت زفرة عميقة ، وماتت .

صاح الجمهور يقول :

- فطست !

- لماذا لم تشأ أن تعدو ؟

قال ميكولكا صارخاً محتقن العينين بالدم ، ممسكاً قضيب الحديد
بيديه :

- هي ملكي !

وكان واقفاً منتصب القامة كأنه يأسف على أنه أصبح لا يعرف
من ذا يضرب !

هتفت عدة أصوات في الجمهور تقول :

.. طيب ! اصبحنا الآن على يقين من انك لست مسيحياً !

ولكن الطفل أصبح لا يسيطر على نفسه ، وها هو ذا يشق لنفسه طريقاً بين الجمهور وهو يصرخ صراخاً شديداً ، حتى اذا وصل الى الدابة أحاط بذراعيه خطمها الميت الدامي ، وأخذ يقبلها على عينيها وعلى شفيتها ... ثم اجتاحه حنق قوى ، فهاجم على ميكولكا قابضاً أصابعه الصغيرة . ولكن أباه الذي كان يلاحقه منذ مدة ، أدركه في تلك اللحظة ، فأمسك به ، وجرّه الى خارج الجمهور قائلاً له :

.. تعال ! تعال ! فلنعدّ الى البيت .

دمدم الطفل يقول بين شهقتين سائلاً أباه :

.. أبت ... لماذا ... الحصان المسكين ... فعلوا به ؟ ...

ولكن أنفاسه تقطعت ، وكانت الكلمات تدفق من صدره المختنق مع صرخات !
قال الأب :

.. هم سكارى يرتكبون حماقات . ليس هذا شأننا . تعال !

أحاط الطفل أباه بذراعيه ، ولكن كان صدره ما يزال مختنقاً ... ما يزال مختنقاً اختناقاً شديداً ... وحاول الطفل أن يسترد أنفاسه ، وأطلق صرخة قوية ... واستيقظ راسكولنيكوف من النوم ...
استيقظ من النوم مبتلاً بالعرق مخضلاً الشعر لاهناً . ونهض منعوراً .

قال وهو يجلس تحت الشجرة ويتنفس ملء رئتيه : « الحمد لله على أن هذا لم يكن الا حلماً ! ولكن ماذا حدث ؟ أأكون هذا بداية حمى ؟ يا للحلم العجيب ... »

كان جسمه كله كالمحطم ، وكانت نفسه لا تضم ، الا ظلمات واضطراباً وابهاماً . وضع كوعيه على ركبتيه وتناول رأسه بيديه ، وهتف يقول مخاطباً نفسه : « رباه ! هل من الممكن ، هل من الممكن حقاً أن أتناول ساطوراً فأضرب به رأسها وأحطم جمجمتها ؟ ... أغرق في الدم اللذج البارد ... اكسر القفل ... أسرق ... أرتش ... احتبى ، ملطخاً بالدم ؟ ... ضربات ساطور ! ... رباه ، أهذا ممكن ؟ .. » وكان راسكولنيكوف يرتش كورقة في مهب الريح حين كان يخاطب نفسه بهذا الكلام .

وتابع يقول محدثاً نفسه كأنما قد استبد به خور عميق : « ولكن ماذا دهاني ؟ لقد كنت أعلم حق العلم أنني لن أطيق ذلك ، فلماذا عذبت نفسي هذا التعذيب كله حتى الآن ؟ بالأمس ، بالأمس ... حين مضيت إليها ، « لأمرن » على فعلتي ، أدركت حق الإدراك أنني لن أطيق ذلك ... فلماذا أعبود الى الامر الآن ؟ بالأمس ، حين كنت أهبط السلم ، قلت لنفسي انها فعلة حقيرة ، دنيئة ، خسيئة ، خسيئة جداً ... ولم أكن نائماً ... كان يكفي ان تساورني تلك الفكرة حتى ينقبض صدرى وحتى أشعر بذعر شديد ... لا ، لن أطيق هذا الفعل ، لن أطيقه ، ولو لم يكن هناك أى شئ ، ولو كانت حساباتي كلها صحيحة ، ولو كان ما عزمته عليه في هذا الشهر واضحاً وضوح النهار دقيقتاً دقة الرياضيات ... فأنى لن أقدم عليه مع ذلك ، لن أطيقه ، لن أطيقه ... فما بالى حتى الآن ... » .

ونهض راسكولنيكوف ذاهلاً ، ونظر حواليه . كان يبدو عليه أنه مندهش من وجوده في هذا المكان . واتجه نحو جسر « ت ... » . كان صاحب الوجه ، وكانت عيناه تحترقان ، وكان يشعر بالتعب في جميع أعضائه ، ولكنه لم يلبث أن أخذ يتنفس تنفساً حراً طليقاً على حين فجأة .

شعر انه ازاح الحمل الرهيب الذى كان يسحقه منذ مدة طويلة ، فتخففت نفسه واطمأنت روحه ، وعادت اليه السكينة بفتة • قال يدعو الله مبتهلاً : « أرنى طريقى يا رب فأعدل عن تلك ... الفكرة اللعينة ... عن تلك الفكرة اللعينة ... » •

وفىما كان يعبر الجسر ، نظر صامتاً هادئاً الى نهر نيفا ، والى حمرة الشمس الغاربة • فاذن هو ، رغم ضعفه ، قد اصبح لا يحس بالتعب • فكأن الدم الذى تضح فى قلبه خلال شهر بأكمله قد انفق الآن على حين فجأة • الحرية ! الحرية ! لقد تخلص الآن من السحر ، تحرر من الرقية ، انتق من الفتنة •

فى المستقبل ، حين سيتذكر راسكولنيكوف هذه الفترة ، وحين سيستعرض كل ما وقع له فى تلك الأيام دقيقة دقيقة ونقطة نقطة ، فان ظرفاً معيناً سيظل يجتذب انتباهه ، ويأمر اهتمامه ، ويكسب فى نظره معنى خرافياً • ان ذلك الظرف رغم أنه لا يشتمل فى ذاته على أى شىء خارق ، سيصبح فى نظر راسكولنيكوف فى المستقبل نوعاً من نبوءة تصوّر مصيره وتحدد قدره •

اليكم الأمر : لم يستطع راسكولنيكوف أن يعطى لنفسه قط لماذا عاد أدراجه فى ذلك اليوم الى « سوق العلف » دون أى سبب يحضه على الذهاب الى هناك ، ورغم أنه ، هو المتعب المكثود المرهق المشعث ، كان فى حاجة الى أن يسلك للمودة الى بيته أقصر طريق بلا تعرج ولا التواء • صحيح أن الدورة التى دارها لم تكن طويلة ، ولكن من الواضح انه لا داعى اليها ولا فائدة منها البتة • وصحيح أنه اتفق له عشرات المرات ان يرجع الى مسكنه دون ان يتذكر الشوارع التى سلكها • ولكن راسكولنيكوف ظل يتساءل دائماً : لماذا وقع له ذلك اللقاء فى ميدان « سوق العلف » (الذى لم يكن هناك أى داع يحضه على الذهاب

اليه) لماذا وقع له ذلك اللقاء الذى يبلغ ذلك المبلغ كله من خطورة الشأن والذى كان له ذلك التأثير الحاسم كله فى حياته ، وكان فى الوقت نفسه عرضاً طارئاً ، لماذا وقع له ذلك اللقاء فى تلك اللحظة نفسها ، فى تلك الدقيقة ذاتها من حياته ، فى تلك الدقيقة ذاتها اننى كان لا يمكن ، بسبب حالته النفسية وبسبب الظروف ، الا أن تؤثر فى مصيره ذلك التأثير الحاسم الذى لا مناص منه ولا راد له ؟ • سوف يبدو له أن ذلك اللقاء الذى وقع له انما كان كميناً يتربص به شراً •

كانت الساعة قريبة من التاسعة حين اجتاز راسكولنيكوف « سوق العلف » • كان جميع التجار والباعة المتجولين وأصحاب الدكاكين يغلقون محالهم ، ويرتبون بضائعهم ، ليعودوا الى منازلهم ، وكذلك كان يفعل زبائنهم • وحول المطاعم الفقيرة ، وفى الأقبية ، وفى الأقبية المتنتنة من منازل « سوق العلف » كانت تتكاثر أنواع شتى من فقراء الناس وصغار المتكسبين • كان راسكولنيكوف يحب ارتياد هذه الأماكن كثيراً كما يحب ارتياد جميع الأثرة المجاورة حين كان يخرج من بيته لغير هدف محدد • فهناك كانت أسماؤه البائسة لا تلفت الانتباه ولا تثير الاستهجان • ان المرء يستطيع أن يسير فى هذه الأماكن مرتدياً ملابس مضحكة على ما يشاء له هواه ، دون أن يتعرض لاستهزاء أحد به •

فلما وصل راسكولنيكوف الى ناحية شارع ك • • • ، رأى بائساً وامرأته يبعان ، كل على بسطة خاصة به ، خيوطاً وأشرطة ومناديل من قطن وما الى ذلك • كان الزوجان يستعدان هما ايضاً للعودة الى منزلهما ، ولكنهما ما يزالان يثرثران مع امرأة يعرفانها كانت قد اقترنت منهما • ان هذه المرأة هى اليزابت ايغانوفنا أو قل باختصار هى « اليزابت » كما كان يسميها جميع الناس • انها الأخت الصغرى لتلك العجوز نفسها آليونا ايغانوفنا ، أرملة الموظف المرابية ، التى ذهب اليها راسكولنيكوف أمس

ليرهن عندها ساعته و • يتمرن ، على فعلته ••• كان راسكولنيكوف يعرف منذ مدة طويلة أموراً كثيرة عن اليزابت هذه التي كانت تعرفه هي أيضا بعض المعرفة • انها بنت في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، طويلة القامة خرقاء السلوك ، خجول الطبع ، متواضعة رقيقة ، يدها الناس شبه بلهاء ، قد استعبدتها اختها استعباداً كاملاً ، فهي تعمل لها ليلاً نهاراً ، وترتجف أمامها خوفاً ، حتى لتحتمل منها أن تضربها أحياناً • كانت اليزابت في تلك اللحظة قد وقفت مترددة قلقة أمام البائع وامرأته ، وفي يدها صرة ، وكانت تصفي اليهما باتبهاء شديد • ان الرجل وامرأته يقصان عليها أمراً من الأمور بكثير من الحرارة والحماسة • فلما لمحها راسكولنيكوف على حين فجأة اجتاحه احساس غريب هو نوع من الانشداء رغم أن اللقاء لا يشتمل في ذاته على أى شيء يدعو الى الدهول •

قال لها البائع بصوت عال :

— ستعزمين أمرك بنفسك يا اليزابت ايغانوفنا • تعالى غداً ، في نحو الساعة السابعة • سيحضرون هم أيضاً •
— غداً ؟

كذلك قالت اليزابت بصوت بطيء ، وكانت واجمة مفكرة ، كأنها لا تستطيع أن تعزم أمرها •

قالت لها زوجة البائع بلهجة طليقة صريحة :

— انها لتخيفك كثيراً ، آليونا ايغانوفنا هذه ! حين يراك المرء ويسمك ، يحسبك طفلة صغيرة • هذا مع أن آليونا ليست أختاً وانما هي نصف أخت ، ولكنها مسيطرة عليك مستبدة بك •••

قاطع الرجل زوجته قائلاً لاليزابت :

— ليس عليك الا أن لا تذكرى لآليونا ايغانوفنا هذه المرة شيئاً •



اليزابت

ذلك ما أنهضك به ! تعالى الينا دون أن تستأذنيها ! الصفقة رابحة •
وستدرك أختك ذلك فيما بعد •

— حقاً ••• يجب على أن •••

— نعم ••• غداً ••• في نحو الساعة السابعة • وسيحضر أحد من
عندهم أيضاً • ستعزمين أمرك بنفسك •

وأضافت زوجة الرجل تقول :

— وسنضع السماور •

قالت اليزابت وهي ما تزال مترددة :

— طيب ، سأتي •••

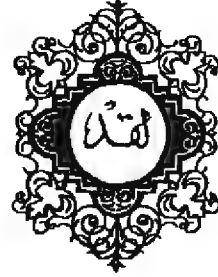
وانصرفت بخطى بطيئة •

ان رأسكولنيكوف الذي مرّ في تلك اللحظة لم يسمع أكثر من
ذلك • لقد مرّ صامتاً ساكناً دون أن يلفت اليه الانتباه ، ولكنه حاول ألا
تفوته من الحديث كلمة واحدة • وشيئاً فشيئاً ، حل الذعر في نفسه
محلّ الانشداء ، وأحس بقشعريرة باردة تسرى في ظهره • لقد علم
فجأة ، على نحو لم يكن في الحسبان ، أن اليزابت ، أخت العجوز ورفيقتها
الوحيدة في دارها ، ستغيب عن البيت غداً في الساعة السابعة تماماً ،
وأن العجوز ستكون اذن في الساعة السابعة تماماً « وحيدة في مسكنها » •

لم يكن قد بقى عليه الا أن يسير بضع خطوات حتى يبلغ منزله •
عاد كإنسان حكم عليه بالمولود • لقد أصبح لا يفكر ، بل أصبح عاجزاً عن
التفكير ، ولكنه كان يحس ، بكل كيانه ، أنه أصبح محروماً من حرية
الرأى مجرداً من الارادة ، وأن كل شيء قد تقرر فجأة على نحو حاسم
لا رجعة عنه •

يقيناً ، لو كان عليه في سبيل انفاذ مشروعه أن ينتظر سنين طويلة ،
لما كان في وسعه أن يعوّل على ظرف يناسب نجاح مشروعه أكثر من هذا
الظرف الذي يعرض له الآن ، وما كان ليسهل عليه في كل حال أن يعلم
علم اليقين ، بمثل تلك الدقة ، وبدون مخاطر يشتمل عليها اضطراره
الى السؤال والتقصي ، أن العجوز التي كان قد قرّر أن يقتلها ستكون ،
في الغداة ، وحيدةً بمسكنها ، وحيدةً تماماً ...

الفصل السادس



أتيج لراسكولنيكوف فيما بعد أن يعرف السبب الذي جعل البائع وزوجته على أن يدتوا الزبانت ابفانوفنا الى منزلهماء ان الأمر عادى بسيط تافه لا يشتمل على أى شىء خاص : هناك أسرة

وفدت من الأقاليم منذ مدة قصيرة ، فأصبحت فى حالة عوز شديد ، فأخذت تبيع بعض ما تملك من ملابس النساء • ولما كان عرض هذه الملابس للبيع فى السوق يؤدى الى خسارة كبيرة ، فقد سأل هؤلاء الناس عن امرأة تكون وسيطة بينهم وبين الراغبين فى الشراء • وكانت الزبانت تقوم بمثل هذه الأعمال ، وكان لها زبائن كثيرون لأنها امرأة مستقيمة ، فهى تحدد السعر العادل دائماً ، ولا تدع مجالاً للمساومة فيه مهما يكن ، فما على المشتري الا أن يأخذ أو أن يدع • وكانت قليلة الكلام عامةً ، وكانت تبدو ، كما سبقت الاشارة الى ذلك ، متواضعة فى جميع الأحيان •

ولكن راسكولنيكوف كان قد أصبح فى الآونة الأخيرة يؤمن بالخرافات ويتأثر بالأوهام ، وقد خلف هذا الوهم فى نفسه آثاراً لم تمنح خلال مدة طويلة • ثم انه ظل يميل دائماً الى أن يرى فى هذا الأمر كله شيئاً غريباً سريراً ، وسلسلةً من المؤثرات والمصادفات العجيبة الخاصة •

كان طالبٌ من معارفه اسمه بوكوريف ، قد اعطاه في الشتاء الماضي أثناء حديث عارض جرى بينهما قيل سفره الى خاركوف ، عنوان العجوز آليونا ايفانوفنا ، ليلجأ اليها اذا هو احتاج الى اقتراض مبلغ من المال على رهن .

وخلال مدة طويلة لم يذهب راسكولنيكوف الى العجوز ، لأنه كان في ذلك الوقت يعطى دروساً ، وكان يدبر أموره بطريقة أو بأخرى . ثم تذكر العنوان بعد شهر ونصف شهر . كان يملك شيئين يمكن رهنهما لاقتراض مبلغ من المال : الساعة الفضية القديمة التي ورثها عن ابيه ، وخاتماً ذهبياً صغيراً يزدان بثلاثة أحجار حمراء كانت أخته قد أعطته اياه تذكراً حين افترقا . قرر راسكولنيكوف أن يرهن الخاتم ، فما ان رأى العجوز حتى شعر نحوها من أول نظرة ، ودون أن يعرف أى شئ خاص عنها ، بكره لا سبيل الى التغلب عليه . وتلقى منها « ورقتين قديتين صغيرتين » . وبينما كان راجعاً الى بيته دخل في الطريق حانة صغيرة حقيرة ، فطلب شاياً ، وجلس ، واسترسل في احلام عميقة . ان فكرة غريبة كانت تحاول أن تثقف في رأسه كما يتقف الفرخ في البيضة ، وكانت تشغل باله كثيراً جداً

على مقربة منه ، الى جانبه تقريباً ، كان يجلس حول مائدة أخرى ، ضابط شاب وطالب لم يكن يعرفه ولا يتذكر أنه رآه في حياته . كان الشابان قد لعبا البلياردو قليلاً ، فهما الآن يحتمان الشاي . وها هو ذا راسكولنيكوف يسمع الطالب محدثاً الضابط عن مرابطة اسمها آليونا ايفانوفنا هي أرملة أحد الموظفين ، ثم يذكر له عنوانها آخر الأمر . ان هذه الحادثة وحدها قد بدت لراسكولنيكوف غريبة بعض الغرابة : لقد كان عند العجوز منذ هنيهة ، وها هو ذا يسمع شخصين يتحدثان عنها هي نفسها . لا شك أن الأمر مصادفة ، ولكن فيما كان راسكولنيكوف

يحاول قبل سماع الحديث أن يتخلص من شعور يمكن أن تعدّ على وجه
الاجمال عادياً تافهاً ، اذا بشخص يأخذ يعزز في نفسه هذا الشعور كأنما
على عمد : لقد أخذ الطالب يذكر لرفيقه ، فجأة ، بعض التفاصيل عن
آلونا ايفانوفنا . قال :

— هي عظيمة ... يستطيع المرء في كل لحظة أن يحصل منها على
مال ... غنية كيهودي ! قادرة على أن تقرض خمسة آلاف روبل
دفعة واحدة ، ولكنها لا تحتقر رهنًا قيمته روبل واحد . كثيرون منا
مروا بها . ولكنها جيفة حقًا .

وطفق الطالب يتكلم عن العجوز . وصفها بأنها شريرة خبيثة ، وقال
انها صاحبة نزوات : يكفي أن يتأخر المدين عن سداد الدين في الموعد
المضروب يوماً واحداً حتى يفقد الرهن . لا تقرض من المال الا مبلغاً
يساوى ربع قيمة الرهن . تقاضى فائدة شهرية مقدارها خمسة في المائة
بل وسبعة ، النخ النخ ...

كان الطالب يتدفق في الكلام على هذا الموضوع ويفيض فيه افاضة
لا ينضب معينها . وقد أضاف أن للعجوز أختاً اسمها اليزابت ، تضربها
العجوز في كل مناسبة ، رغم أن العجوز ضئيلة هزيلة هي نفسها ؛
والعجوز تستعبد اليزابت استعباداً تاماً ، كطفلة صغيرة ، رغم أن اليزابت
لا يقل طولها عن ستة أقدام بل يزيد .

وصاح الطالب يقول مقهقها :

— وهذه أيضاً امرأة عجيبة !

جرى الحديث عندئذ على اليزابت . كان الطالب يشعر من الكلام
عنها بلذّة خاصة فهو لا يكف عن الضحك . أما الضابط فكان يصغى الى
رفيقه بكثير من الاهتمام ، حتى لقد طلب منه أن يرسل اليه اليزابت ،

لترقّع له غسيله • لم يفوّت راسكولنيكوف كلمة واحدة من هذه المحادثة • عرف كل شيء دفعة واحدة : عرف أنّ اليزابت هي الأخت الصغرى لآليونافانوفنا ، ولكنها ليست شقيقتها وانما هي اختها من أم أخرى ، وعرف أنها قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمرها • عرف أنها تعمل في سبيل اختها نهائراً وليلاً ، تنهض في منزلها بأعباء الطباخة والغسالة ، وتقوم في الوقت نفسه بأعمال الحياطة ، حتى لقد تتولى مسح الأرض في المنازل مأجورة • وعرف أنّ كل ما تجنيه من مال انما يذهب الى اختها ، وأنها لا تجرؤ على قبول أى تكليف أو القيام بأى عمل ، دون استئذان المعجوز • وكانت المعجوز قد كتبت وصيتها ، وكانت اليزابت تعرف أنّ هذه الوصية تنص نصّاً صريحاً على أنها لن تترك شيئاً ، اللهم الا عدداً من قطع الأثاث والكراسى وما الى ذلك • أما المال كله فموقوف على دير بمقاطعة ن • • • ، سيصلّى فيه الرهبان على روح آليونافانوفنا • ان اليزابت تنتمى الى البرجوازية الصغيرة لا الى طبقة الموظفين وهى بشعة القوام جداً ، يزيد طولها على متوسط الطول كثيراً ، لها قدمان كبيرتان تبدوان معقوفتين وتنتعلان دائماً حذاءين مشينين • ولكنها تعنى بنظافتها اكبر العناية •

والأمر الذى كان يدهش الطالب ويفجّر ضحكه خاصة هو ، أنّ اليزابت حبلى دائماً •

قال الضابط :

— ولكن ألم تقل انها مشوهة ؟

أجاب الطالب :

— نعم ••• ان لها بشرة مسودّة دائماً ، حتى لكأنها جندى متكرر ، ولكنها ليست مشوهة البتة ! ••• ان وجهها مليح جداً ، وان عينيها خاصة

طيتان حلوتان ! الدليل على ذلك أنها تعجب كثيراً من الناس ، وهي
هادئة مسالمة وديعة مستعدة لأن تقنع بأي شيء • وان لها ابتسامة يمكن أن
توصف حتى بأنها ... فاتمة !•

سأل الضابط ضاحكاً :

– أهي اذن تعجيك ايضاً ؟

قال الطالب :

– نعم ، لأن فيها غرابة ! واسمع الآن ما سأقوله لك : يميناً اتنى
مستعد لأن أقتل أختها ، تلك العجوز اللعينة ، وأن أسرق مالها طامعاً
مختاراً ، مرتاح البال هادئ الضمير !•••

ذلك ما أضافه الطالب متكلماً بحماسة وعنف •

انفجر الضابط يضحك ضحكاً ارتعش له راسكولنيكوف •
ما أعرب هذا ؟

قال الطالب وقد ازدادت حرارته :

– اذا أذنت فسألقي عليك سؤالاً جاداً : أنا انما قلت ذلك كله من
باب المزاح طبعاً ولكن فكر قليلاً : هناك من جهة أولى امرأة عجوز
غنية مخيفة شريرة خبيثة مريضة لا قيمة لها ولا فائدة منها لأحد بل هي
ضارة لجميع الناس ، لا تعرف حتى لماذا تعيش ، وستموت في القريب
ميتها الطبيعية • هل تفهم ؟ هل تفهم ؟

أجاب الضابط وهو يحدث بابتهاه شديد الى رفيقه الذي كانت
حماسته ما تنفك تتأجج :

– طبعاً أفهم !

واصل الطالب كلامه فقال :

– فاسمع السمة اذن : هناك تلك المرأة من جهة أولى ، وهناك من

جهة ثانية قوى فنية شابة نضرة ، تضع لأنها محرومة من المساعدة ، وتعد بالآلاف ، في كل مكان . ان ثمة مائة أو ألف عمل خير أو مبادرة رائدة يمكن انتحريض عليها أو اصلاح حالها بمال العجوز ، بهذا المال الموقوف على دير ! ! ان ثمة مئات وربما ألوفاً من الافراد الذين يمكن وضعهم بهذا المال على الطريق القويم . ان ثمة عشرات من الأسر يمكن انقاذها بهذا المال من الفقر المدقع ، والتحلل الأخلاقي ، والدمار والفساد ، ومستشفيات الأمراض التناسلية ! فماذا لو قُتِلَت هذه العجوز ، وأُخذ مالها ثم وقِفَ على خدمة الانسانية بأسرها ، على خدمة قضية جميع البشر ؟ ماذا ؟ ألا تعتقد أن جريمة طفيفة كهذه الجريمة ستمحوها ألوفاً الأعمال الخيرة ؟ أنا بقتل فرد واحد نستطيع أن ننقذ حياة ألوفاً غيره من العفن والفساد والتحلل ! يموت واحد يعيش مئات . مسألة حسابية ! وأي وزن في ميزان الحياة العام يمكن أن يكون لتلك العجوز الشقية المصدورة النية الشريرة ؟ ألا انها ليس لها من الوزن اكثر مما لقملة أو خنفساء . لا بل ان وزنها دون ذلك ، لأن هذه العجوز ضارة . انها تمتص حياة الآخرين . انها شريرة . منذ مدة قصيرة عشت اختها اليزابت في اصبعها ، فلو قد شدت أسنانها قليلاً ، لاضطروا الى قطع الاصبع .

قال الضابط :

— ما هي جديرة بالحياة طبعاً ، ولكن هذا نظام الطبيعة ...

قال الطالب :

— نظام الطبيعة ، يا أخى ، يمكن تقويمه وتوجيهه ، والا غرقنا في الأوهام والأباطيل . ثم انه بدون ذلك لا يكون ثمة انسان عظيم واحد . يقولون : « الواجب ، الضمير » — وأنا لا اعترض بشئ على الواجب

والضمير ، ولكن يجب أولاً أن تتفق على معاني الألفاظ • اسمع :
سألقى سؤالاً آخر ، هل تصغي الى ؟

قال الضابط :

- بل أنا الذى سألقى عليك سؤالاً ، أصغ الى !

- هيه !...•••

- أنت الآن تتكلم وتحدث ، ولكن قل لى : أأنت مستعد لأن تقتل
العجوز • بنفسك • •

- لا ، طبعاً !...••• فانما أنا أتكلم من وجهة نظر العدالة ، ولست
أتحدث عن نفسى •

- فى رأى أنه ليس هناك ظل من عدالة ، ما دمت غير مستعد لأن
تقرر تنفيذ هذا الفعل • بنفسك • • والآن هلم بنا نلعب البلياردو !...•••

كان رامسكولنيكوف مضطرباً أشد الاضطراب • ان الأحاديث التى
سمعتها لم تكن الا أحاديث عادية كثيراً ما سمع شباباً يتبادلونها فى ضور
مختلفة بعض الاختلاف بصدد موضوعات شتى • ولكن لماذا وقع له أن
يسمع هذه المناقشة وأن يسمع هذه الآراء فى عين اللحظة التى كانت
هذه الآراء نفسها تثبت فى ذهنه هو ؟ لماذا وقع له أن سمع ، فى نفس
اللحظة التى تلبث فيها فكره على العجوز ، حديثاً عن تلك العجوز
نفسها ؟ لقد ظلت هذه المصادفة تبدو له غريبة • وكان لهذه الثثرة
العابرة التافهة التى يجرى أمثالها بين الناس فى الحانات ، تأثير عميق
على تسة الأحداث ، فكأن ذلك كان نذيراً بقدر محتوم •••

عاد رامسكولنيكوف من • سوق العلف • الى بيته ، فارتدى على
أريكة ، ولبت ساعة بأكملها لا يتحرك • هبط الظلام أثناء ذلك • ولم

يكن عنده شمعة ولا خطر بباله أن يشعل شمعة على كل حال • لم
يستطع راسكولنيكوف في يوم من الأيام أن يعرف هل فكّر في شيء من
الأشياء أثناء ذلك الوقت • وأخيراً أحس بقشعريرة الحمى تلك نفسها
التي أحسها في النهار ، وسرّ أن يعرف أن في إمكانه أن يرقد على
الأريكة • وسرعان ما استبد به نعاس ثقيل كالرصاص ، فنام •

نام راسكولنيكوف أكثر مما اعتاد أن ينام ، نام بغير أحلام • وحين
دخلت عليه نامتاسيا في الساعة العاشرة من صباح الغد ، بذلت كثيراً من
الجهد ولقيت كثيراً من العناء في سبيل إيقاظه • كانت تحمل إليه شايًا
وخبزاً • وكان الشاي في هذه المرة أيضاً بقية شاي ، وفي هذه المرة أيضاً
كان الأبريق إبريقها هي •

هتفت نامتاسيا تقول مفتاحاً :

— ما أكثر ما يستطيع أن ينام ! نعم انه لا يقطع عن النوم ! • •
نهض راسكولنيكوف بجهد كبير • كان يشعر بصداع في رأسه •
وقف منتصباً وسار بضع خطوات ، ثم لم يلبث أن تهالك على الأريكة
من جديد •

هتفت نامتاسيا :

— ماذا ؟ أتريد أن تنام أيضاً ؟ أتراك مريضاً ؟

لم يجب راسكولنيكوف •

— هل تريد شايًا ؟

قال بجهد وهو يضمض عينيه من جديد ويستدير نحو الحائط :

— فيما بعد •

لبث نامتاسيا ماثلة عليه لحظة ثم قالت :

- ربما كان مريضاً !

واستدارت وخرجت •

وعادت اليه في الساعة الثانية تحمل حساء • كان ما يزال راقداً ،
حتى انه لم يكن قد مسَّ الشاي •

اغتاظت ناستاسيا ، فهزَّته غاضبةً ونهرته قائلة له وهي تنظر اليه
باشمئزاز :

- ما بالك تبقى غافياً على هذه الحال ؟

فهض وجلس ، ولكنه لم يجب بشئ • ، وكان يحدث الى الأرض •
مأله ناستاسيا :

- أأنت مريض ؟

ولكنها في هذه المرة أيضاً لم تحصل على جواب • استأنفت تقول
بعد صمت :

- حقاً ان عليك أن تخرج قليلاً الى الشارع ! سينفك الهواء
الطلق ! أصب شيئاً من الطعام على الأقل ! ...

قال لها بصوت ضعيف واهن :

- فيما بعد ... اذهبي الآن ...

قال لها ذلك وصرفها بحركة من يده •

بقيت لحظة قصيرة أخرى تتأمله في شفقة ثم خرجت •

وبعد بضع دقائق ، رفع عينيه ، ونظر الى الشاي والحساء ملأ ،
ثم تناول الحبز والملقعة وأخذ يأكل •

بلع ثلاث ملاعق أو أربعاً دون شهوة ، بطريقة آلية تقريباً • قلَّ
صداع رأسه • حتى اذا فرغ من الطعام استلقى على الأريكة من جديد ،

لكنه لم يستطع أن ينام مرة أخرى • لبث جامداً ، مضطجعا على بطنه ،
دافئاً وجهه في الوسادة • وبدأت تغزوه الأحلام • كانت جميع أحلامه
غريبة جداً ، ها هو ذا يرى نفسه في مكان ما بأفريقيا ، في مكان ما بمصر ،
في واحة من الواحات • القافلة تستريح • الجمال راقدة بهدوء وسكون •
ومن حوله حلقة من أشجار النخيل • جميع الناس يأكلون • اما هو
فلا يزيد على أن يشرب ماءً من جدول يجري هناك على مقربة منه
مصطخباً • ما أعظم الانتعاش الذي يشعر به المرء حين يشرب هذا الماء
الأزرق البارد العجيب الذي يسيل بين الحصى المتعدد الألوان فوق الرمل
اللمتّع المذهب!... ولكن ها هو ذا يسمع على حين فجأة دقات ساعة
حائط ، واضحة متميزة • ارتعش رامكولنيكوف وثاب الى نفسه ، فلما
رفع رأسه ، ونظر من النافذة ، عرف الساعة التي لعله فيها ، فاذا هو
يشب عن أريكته ، صاحي الذهن كل الصحو ، ثم يتجه نحو الباب ،
سائراً على رموس أصابعه ، فيفتح الباب برفق ، ويصيح بسمعه الى
الضجبات الآتية من السلم • كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً • ولكن كل
شيء كان في السلم هادئاً ، حتى لكأن جميع الناس قد ناموا... بدا له
أمراً عجيباً وأمرأ شاذاً في الوقت نفسه أن يكون قد استطاع أن ينام على
هذا النحو منذ البارحة ، وأن يكون قد لبث على هذه الحال من الحذر ،
بينما هناك أشياء كثيرة يجب عليه أن يعملها ، أن يهيئها • لعل الساعة التي
سمع رنينها منذ هنيهة قد دقت السادسة... وهذا تعجل خارق
محموم مضطرب يستولى عليه بعد النوم والحذر والتواني • على أن
الاستعدادات ليست كثيرة • جهد رامكولنيكوف أن يتنبأ بكل شيء وأن
لا ينسى شيئاً • الا أن قلبه قد بلغ من شدة الحفقان أنه كان يتنفس في كثير
من العناء • كان عليه قبل كل شيء أن يصنع ابزيماً وأن يخطط الابزيم
الى المعطف : ذلك عمل يستغرق بضع دقائق • نبش صرة الملابس التي

توجد تحت وسادته ، فسلّ منها قميصاً عتيقاً ، فذراً ، مهترئاً كل
الاهتراء ، غير صالح للاستعمال ، فانتزع من خرقة عصابة عرضتها بوصه
وطولها ثمانى بوصات • حتى اذا تى العصابة ثنتين ، خلع معطفه الواسع
المصنوع من نسيج قطنى سميك متين (وهو الرداء الوحيد الذى كان
يرتديه فوق ثيابه) وأخذ يخطط اليه طرفى العصابة من الداخل تحت
الابط الأيسر • كانت يدها ترتجفان وهو يخطط العصابة الى المعطف •
ولكنه قد أحسن القيام بهذه المهمة على خير وجه ، فلما عاد يرتدى معطفه
كان الابرزيم لا يظهر من الخارج • ان راسكولنيكوف قد أعدّ الابرة
والحيط منذ مدة طويلة : لفهما بورق وأودعهما درج منفذته الصغيرة •
أما الابرزيم فكان اختراعاً بارعاً جداً ابتكره خياله هو : كان على الابرزيم
أن يحمل الساطور • ان من المستحيل على راسكولنيكوف أن يتجول
فى الشارع وهو يحمل بيده ساطوراً • ولو قد أخفى الساطور تحت
المعطف لكان مضطراً مع ذلك الى ان يسنده ، وهذا أمر لا بد أن يلفت
اليه انتباه الناس • أما الآن فليس عليه الا أن يدخل نصل الساطور
فى الابرزيم ، فيبقى الساطور طوال الطريق معلقاً بالابرزيم فى داخل المعطف
بهدهوء ؛ عدا أن فى وسع راسكولنيكوف ، حين يغمد يده فى جيب المعطف
من خارج ، أن يسند طرف المقبض ليمنع الساطور من التارجج •
ولما كان المعطف واسعاً جداً حتى لكأنه كيس ، فلن يستطيع الناظر أن
يلاحظ من الخارج أن راسكولنيكوف يسند شيئاً من خلال جيبه • ان
فكرة صنع هذا الابرزيم قد وافت ذهن راسكولنيكوف منذ خمسة عشر
يوماً •

فلما انتهى راسكولنيكوف من عمله هذا دسّ أصابعه فى الفراغ
الضيق الذى يفصل الأريكة « التركية » عن أرض الحجرة ، وأخذ يتلمس
الزاوية اليسرى من هذا المكان ، فأخرج « الرهن » الذى كان قد هبأه

وخباه هناك منذ مدة طويلة . الحق أن هذا الرهن لم يكن رهنا ، وإنما هو شريحة ملساء من خشب ، يحجم عليه فضية للسجائر . كان راسكولنيكوف قد غر على هذه الشريحة الخشبية عَرَضاً أنشاء إحدى جولاته ، وذلك في فناء منزل كانت تشغل أحدَ أجنحته ورشةُ نجارة . وقد ضمَّ إلى الشريحة فيما بعد صفيحةً من حديد ، رقيقةً ملساء ، انتقطها من الشارع أيضاً . حتى إذا شدَّ هذين الشئين المتفاوتين سمكاً ، أحدُهما إلى الآخر ، عُنِيَ بربطهما بخيط متصالب ، ثم لَفَّهما لفاً أنيقاً بورقة بيضاء نظيفة جداً ، ثم عقد الخيط على اللفة عقداً محكمًا يجعل فكَّها أمراً صعباً ، وذلك بغية أن يحوَّل اتباه العجوز برهةً من الزمن . لأن العجوز ستهلك في حل العقد . فيختار هو اللحظة المواتية . ولقد كان هدفه من إضافة الصفيحة الحديدية هو أن يزيد وزن اللفة فيمنع العجوز من أن تكتشف ، في الوهلة الأولى على الأقل ، أن « الشيء » ليس إلا قطعةً من خشب . وكانت اللفة مخبأةً تحت الأريكة منذ مدة .

فما ان وضع راسكولنيكوف يده على « الرهن » حتى سمع صياحاً في الفناء يقول :

— دقت الساعة السادسة منذ مدة طويلة !

فقال راسكولنيكوف مخاطب نفسه :

— منذ مدة طويلة ! رباه !...

واندفع نحو الباب ، وأصاخ بسمعه ، ثم تناول قبعته ، وأخذ يهبط درجات السلم الثلاث عشرة ، محاذراً صامتاً كقطعة . ما يزال عليه أن يفعل أهم شيء : أن يسرق الساطور من المطبخ . فلما أن عليه أن يستعمل ساطوراً فذلك أمر كان قد قرره منذ مدة طويلة . وكان راسكولنيكوف يملك كذلك نوعاً من مقصٍ يُستعمل مِقْرَضاً في الحدائق

ولكنه كان غير واثق بالمقص ، وكان غير واثق بقواه خاصة . لذلك وقع اختياره على الساطور . ولذكر في هذه المناسبة صفة تميزت بها جميع القرارات التي اتخذها راسكولنيكوف لانفاذ خطته : لقد كانت هذه القرارات تبدو له عجيبة شاذة مستحيلة بمقدار ما كانت تصيح حاسمة قاطعة . ان راسكولنيكوف ، رغم الصراع المقلق الذي كان يشب في نفسه دقيقة بعد دقيقة ، لم يستطع قط أن يصدق أن مشاريعه يمكن أن توضع موضع التنفيذ في يوم من الأيام . ولو قد اتفق له أن توصل يوماً الى أن يحسم جميع تلك المسائل ، فيبدد جميع الشكوك ويمهد جميع العقبات لكان من المحتمل أن يعدل فوراً عن مشروعه ذلك ، عدوله عن شيء مستحيل عجيب سخيف ! ولكن الواقع أنه كان ما يزال هنالك عدد كبير من المسائل التي يجب حلها ومن الشكوك التي يجب تبديدها .

أما طريقة الحصول على ساطور ، فذلك أمر تفصيلي تافه لا يشغل باله كثيراً ، اذ لا شيء أسهل منه . ذلك أن ناستاسيا كانت تنغيب كثيراً عن البيت ، ولا سيما في المساء : فهي تذهب الى الجيران تارة وتمضي الى الدكاكين تارة أخرى ، وترك الباب مفتوحاً أثناء ذلك ؛ وهذا بعينه هو السبب فيما كان يقع بينها وبين مولاتها من تشاجر . كان يكفي اذن أن يدخل راسكولنيكوف المطبخ بهدوء ورفق ، وأن يأخذ الساطور متى أُرِف الوقت ، ثم أن يرجع بعد ساعة (متى أنهى كل شيء) ، فيعيد الساطور الى مكانه . غير أن شكوكاً كثيرة كانت تنبجس في ذهن راسكولنيكوف: ماذا لو رجع بعد ساعة ليرد الساطور الى مكانه فكانت ناستاسيا قد عادت الى البيت مصادفة أثناء غيابه ! سيكون عليه طبعاً أن يستمر في طريقه ، وأن ينتظر خروجها من جديد . فماذا لو احتاجت أثناء ذلك الى الساطور فأخذت تبحث عنه ، وأخذت تصيح وتصرخ ؟ ان ذلك سيولد شبهة أو هو سيولد فرصة لشبهة في أقل تقدير .

على أن هذه الأمور كلها تفاصيل لم يكن راسكولنيكوف قد فكر فيها فعلاً بعد . لقد كان راسكولنيكوف يفكر في الشيء الأساسي ، ويرجئ التفكير في التفاصيل الى اللحظة « التي يكتمل فيها اقتناعه » . ولكن كان يلوح له أن هذه اللحظة لن تجيء قط ، أو ذلك ما كان يعتقد به راسكولنيكوف في قرارة نفسه . كان لا يتخيل مثلاً أنه في لحظة معينة سوف يكف عن التفكير ، وسوف ينهض ، وسوف يذهب الى هناك ، بكل بساطة !... فحتى زيارته الأخيرة للمعجوز (وهي الزيارة التي استهدف منها دراسة المكان وقام بها على سبيل « التمرين ») ، حتى هذه الزيارة لم تكن في الواقع الا محاولة ، ولم يكن فيها جد . كل ما هنالك أنه قال لنفسه : « والله ... سأذهب ، وسأحاول ، ما دام الأمر لا يبدو أن يكون حليماً » ، ثم لم يسعه بعد ذلك فوراً الا أن يبصق ويولي هارباً وقد امتلأ استمزازاً أمام نفسه . ولكن كان يبدو أنه قد أوغل في التحليل الى النهاية ، وأنه حلَّ المشكلة الأخلاقية التي تطرحها هذه القضية . لقد كان منطقاً حاداً قاطعاً كسكين مسنونة ، ولم يبق لفكره أى اعتراض واعٍ يمكن أن يقدمه . غير أنه لم يكن واثقاً بنفسه فكان يلتمس اعتراضات من الخارج ، على نحو غامض عنيد ، كأن شخصاً يدفعه الى ذلك ويجبره عليه . وهذا يوم ' الأمس الذي جرت أحداثه جريئاً ليس في الحسبان وكان يوماً حاسماً ، قد أثر فيه تأثيراً يشبه أن يكون آلياً : لكأن شخصاً قد أسكه من يده وأخذ يجبره ، معصوب العينين ، بقوة خارقة ، جرأ لا فكاك له منه ، ولا سبيل له الى الاعتراض عليه ! أو كأن آلة قد التقطت طرف توبه فدارت به عجلاتها ، وأخذت تجذبه اليها جذباً لا حيلة له في دفعه !

في أول الأمر (منذ مدة طويلة) كان هنالك سؤال يشغل باله كثيراً ، وهو : لماذا تنكشف جميع الجرائم ويُفتضح أمر جميع المجرمين

بسهولة ويسر ؟ لماذا يُعثر على آثار جميع المجرمين تقريباً فى غير عناء ؟
وقد توصل راسكولنيكوف شيئاً فشيئاً الى نتائج متنوعة شائقة . قال لنفسه
ان السبب الأساسى فى ذلك لا يرجع الى استحالة اخفاء الجريمة
استحالة مادية بقدر ما يرجع الى المجرم نفسه . فجميع المجرمين انما
يشعرون ، لحظة تنفيذهم جريمتهم ، بنوع من انهيار الارادة وسوء
الرأى ، فاذا بالارادة والرأى يحل محلّهما طيشٌ صيانيّ تماماً ،
فى الوقت الذى يكون فيه المرء أحوج ما يكون الى العقل والحكمة
والحذر . كان راسكولنيكوف مقتنعاً بأن غياب الرأى السديد وانهيار
الارادة الصلبة يستوليان على الانسان كما يستولى عليه مرضٌ من
الأمراض وينموان مزيداً من النمو شيئاً بعد شيء ثم يلبقان ذروتها
قيل تنفيذ الجريمة . وكان مقتنعاً بأنهما يلبثان على هذه المرحلة عند
ارتكاب الجريمة ، ويلبثان عليها بعد ارتكاب الجريمة بزمان يختلف طوله
 باختلاف الأفراد ، ثم يزولان كما تزول جميع الأمراض . أما هذا
التساؤل : « هل المرض هو الذى يولد الجريمة ، أم أن الجريمة يصاحبها
دائماً ، بحكم طبيعتها انصح التعبير ، شيءٌ من مرض ؟ » فذلك مسألة
لم يشعر راسكولنيكوف أنه قادر على حلّها .

فلما انتهى الى هذه النتائج ارتأى أن امثال هذه الاضطرابات
المرضية لا يمكن أن تعتريه هو ، واعتقد بأنه سيظل محافظاً على سلامة
الرأى وقوة الارادة طوال فترة تنفيذ خطته ، وذلك لسبب بسيط هو
أن ما ينوى القيام به « ليس جريمة »

لندع جانباً طريقة وصوله الى هذه النتيجة ، فلقد استبقنا منذ الآن
أشياء كثيرة .

وحسبنا أن نضيف الى ما ذكرناه أن المصاعب الواقعية والعقبات
المادية لم يكن لها فى ذهنه الا دور ثانوى . كان يقول لنفسه : سوف

يكفيني أن أظل مسيطراً على ارادتي وعلى فكري حتى تذلل جميع هذه الصعاب متى أزف الوقت فأصبح على أن أدقق في أيسر تفاصيل القضية ، • ولكن القضية لم تبدأ ، فكان اقتناع راسكولنيكوف بأن قراراته حاسمة يضيف شيئاً بعد شيء • حتى إذا أزفت الساعة ، جرت جميع الأمور على غير ما تنبأ به ، حتى لكأنه لم يتبأ بشيء في يوم من الأيام •••

هناك ظرف من أبسط الظروف أذهله حتى قبل أن يهبط السلم : انه حين وصل الى فسحة المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً كما يكون كذلك دائماً ، قد ألقى على الباب نظرة محاذرة مواربة ليتأكد من أن صاحبة البيت ليست في المطبخ أثناء غياب ناستاسيا ، أو ليتأكد من أن باب غرفتها مغلق تماماً بحيث لا تستطيع أن تلمحه حين يدخل الى المطبخ لأخذ الساطور • فما كان أشد ذهوله حين رأى أن ناستاسيا لم تكن حاضرةً فحسب بل كانت مشغولة كذلك ، فهي تخرج القسيل من سلة وتشره على حبال • فلما رآته قطعت عملها والتفت نحوه ثم لم تحوّل بصرها عنه الى أن غاب • وقد أثناع راسكولنيكوف عينيه وابتعد كأنه لم يلاحظ شيئاً ، ولكن مهمته كانت قد أخفقت : ما من ساطور ! وأسودّت الدنيا في عينيه •

قال يحدث نفسه وهو يجتاز باب المنزل : • من أين جئت بهذه الفكرة وهي أن ناستاسيا لا بد أن تكون في هذه اللحظة غائبة حتماً ؟ لماذا اتخذت هذا القرار موقناً هذا اليقين كله ؟ • وشعر بأنه مسحوق مُذل • كان من شدة غضبه يشتهي أن يسخر من نفسه • ان حنقاً غيياً حيوانياً أخذ يغلي في أعماقه •

توقف تحت باب المنزل حائراً متردداً • انه يكره أن يمضي الى الشارع هكذا ، قعيداً بالشكل ، ولكنه يكره اكثر من ذلك أيضاً أن

يعود الى غرفته • جمجم يقول على نحو آلى : « يا لها من فرصة أضعتها ،
أضعتها الى الأبد ! » ، قال ذلك وهو تحت قبة المدخل ، ولكن ها هو ذا
الآن أمام حجرة البواب الصغيرة التي كان بابها مفتوحاً أيضاً • ارتعش
راسكولنيكوف فجأة • لقد لمح فى هذه الحجرة ، على بعد خطوتين منه ،
تحت دكة ، فى اليمين ، شيئاً يسطع ! نظر حواله : لم ير أحداً •
اقرب من الحجرة سائراً على رموس أصابع قدميه ، وهبط درجتين ،
ونادى البواب بصوت ضعيف • لم يجبه أحد • قال يحدث نفسه :
« نعم ! البواب غائب • لا بد أن يكون غائبا ! على كل حال ، أغلب
الظن أنه فى مكان ما بالفناء ما دام الباب مفتوحاً • واندفع نحو الساطور
بوثة واحدة (ان الشيء الذى يسطع كان ساطوراً) • سحب الساطور
من تحت الدكة حيث كان موضوعاً بين حطبتين ؛ وقبل أن يغادر الحجرة
أسرع يضع الساطور فى الابزيم داخل المعطف ، ودس يده فى جيبه
وخرج • لم يره أحد • قال يحدث نفسه وهو يتسم ابتسامة غريبة :
« لأنك محروم من العقل عاونك الشيطان ! » وشجعت هذه المصادفة
كثيراً •

سار فى الشارع بهدوء ووقار ورصانة دون أن يتعجل ، وذلك
حتى لا يوقفه حوله شبهات • كان لا يكاد ينظر الى المارة ، حتى لقد
كان يجهد أن لا يرفع عينيه ، بغية أن لا يراه أحد اطلاقاً • وتذكر
عندئذ قبسته فقال يحدث نفسه : « ما أغبانى ! كان معى مال أول
أمس ، ثم لم أشتري قبعة ! » وأفلتت منه شتيمة •••

وألقى نظرة على داخل احد الدكاكين عرضاً فلمح ساعة معلقة
فى الجدار تشير الى الساعة • كان عليه أن يقف الخطى ، ولكن كان عليه
كذلك أن لا يمضى الى منزل العجوز رأساً ، وانما ينبغي له أن يدور
دورة • ان من الأفضل أن يدخل المنزل من الباب الآخر فى الجهة الثانية.

فى الماضى ، حين كان يتفق له أن يتصور هذا كله ، كان يقدر أحيانا أنه سيشعر بخوف شديد • ولكنه الآن لا يشعر بهذا الخوف الشديد بل لا يشعر بخوف البتة • الآن تشغله أفكار ليس لها أى شأن بالموضوع ، وما اكرر تبدلها وتغيرها ! فحين اجتاز حديقة يوسوبوف مثلاً انبثقت فى ذهنه فكرة توقف عليها ملياً ، هى أن من الواجب وضع نوافير مياه من شأنها أن ترطب الهواء ترطيباً لذيذاً فى الميادين العامة • شيئاً فشيئاً انتهى الى الاعتقاد بأنه اذا وسّعت حديقة الصيف ، بحيث تشمل كل « ساحة مارس » ، واذا ضُمَّت هذه الحديقة الى حديقة « قصر ميشيل » ، فسيكون ذلك تجديدأ فى المدينة ممتعاً ومفيدأ فى آن • وهذا سؤال آخر يشده اليه بقوة :- تسأل راسكولنيكوف : لماذا يجب الانسان فى المدن الكبرى ، لا بحكم الضرورة بل بدافع الميل ، أن يملك خاصة فى الأحياء التى ليس فيها حدائق ولا نوافير مياه ، ولا يسودها الا الحماة والغنى ؟ وتذكر عندئذ جولاته خلال « سوق العلف » ، فارتدّ لحظة الى الشعور بالوضع الذى هو فيه ، فقال يحدث نفسه : « يا للسخف ! ان من الأفضل أن لا افكر البتة ! » •

وومضت فى ذهنه هذه الفكرة : « لا شك أن الذين يقادون الى المقصلة يتشبث فكرهم هذا التشبث بجميع الأشياء التى يصادفونها فى طريقهم » • ولكن هذه الفكرة التى ومضت فى ذهنه بسرعة كسرعة البرق ، لم تلبث أن اختفت بسرعة كسرعة البرق أيضا • لقد استطاع هو نفسه أن يحملها على الاختفاء • • • ولكن ها هو ذا قد اقترب • • • هذا هو المنزل • • • هذا هو مدخل العمارة ! وفى مكان ما ، رتبت ساعة حائط على حين فجأة • قال راسكولنيكوف متسائلاً : « ماذا ؟ أتكون هى الساعة والنصف ؟ أهذا ممكن ؟ مستحيل • • • لا شك أن هذه الساعة متقدمة ! • • • » • وابتمسم له الحظ مرة أخرى حين اجتاز المدخل.

ان عربة ضخمة محملة بالعلف كانت تدخل ، فى تلك اللحظة نفسها ،
أمامه تماماً ، فتخفيه اخفاءً كاملاً طوال مدة مروره . فما ان نفدت
العربة الى الفناء حتى كان هو قد استطاع أن يتسلل يمنة . وسمع عدة
أصوات آتية من الجهة الأخرى وراء العربة . كان هنالك أناس يصرخون
ويتشاجرون . ولكن أحداً لم يلاحظه ، ولم يلتق بأحد البتة . وكانت
نوافذ كثيرة مغلقة على الفناء المربع الواسع مفتوحة فى تلك اللحظة .
ولكن راسكولنيكوف لم يرفع رأسه . لقد كان لا يملك من القوة ما يمكنه
من رفع رأسه . والسلم الذى يفضى الى بيت العجوز يقع على اليمين
قرب المدخل ، فسرعان ما كان راسكولنيكوف على ذلك السلم

حبس راسكولنيكوف أنفاسه ، وضغط باحدى يديه خفقات قلبه ،
بينما كانت الأخرى تتلمس الساطور وتعديل وضعه . وأخذ يصعد محاذراً
صامتاً مصيحاً بسمعه فى كل لحظة . ولكن السلم كان خالياً كل الخلو
هو أيضاً . ان جميع الأبواب مغلقة . لم يلتق راسكولنيكوف بأحد .
صحيح أن باب شقة غير مسكونة ، فى الطابق الأول ، كان مفتوحاً .
ان عدداً من الدهانين يعملون فى تلك الشقة ، ولكنهم لم يلاحظوه .
توقف راسكولنيكوف لحظة ، وفكّر ، ثم تابع الطريق وهو يحدث
نفسه قائلاً : طبعاً . . . من الأفضل أن لا يوجدوا هنا . . . ولكن . . .
ما يزال ثمة طابقان !

هذا هو الطابق الثالث أخيراً . . . هذا هو الباب . . . هذا هو
المسكن المقابل . . . انه ما يزال خالياً . . . وأغلب الظن ان المسكن
الذى يقع تحت مسكن العجوز فى الطابق الثانى خال أيضاً . ان البطاقة
المسمرة على الباب قد زالت . . . معنى ذلك أن سكانه قد رحلوا . . .
كان راسكولنيكوف يشعر باختناق . وومضت فى ذهنه فكرة سريعة
سرعة البرق : ماذا لو انصرفت ؟ . . ولكنه لم يجب عن هذا

السؤال ، وأنصت يصنى الى ما يجرى فى بيت العجوز : لا شئ ، الا الصمت صمت كصمت الموت . واستدار مرة أخرى نحو السلم ، وتسمّع مدة طويلة بانتباه شديد ! وبعد ذلك ، ألقى على ما حوله نظرة أخيرة ، وجمع شتات أفكاره ، ونهياً ، وعدل مقبض الساطور فى الابریم مرة أخرى . تسامط بينه وبين نفسه : « ألسنت مسرفاً فى الشحوب ، مسرفاً فى توتر الأعصاب ؟ انها شكّاكة ربابة أفلا ينبغى لى والحالة هذه أن أنتظر . . . الى أن يهدأ قلبى ويسكن روعى ؟ » .

ولكن قلبه لم يهدأ . بالعكس : كان قلبه ، كأثما على عمد ، يدقّ دقاً قوياً ، قوياً ، قوياً . . . لم يطق صبراً ، فمد يده ببطء الى حبل الجرس ، وشدّه ، وبعد نصف دقيقة قرع الجرس مرة أخرى بقوة أكبر .

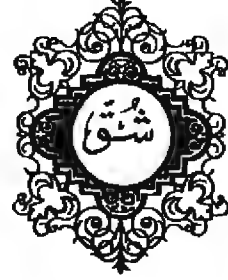
ما من جواب . فیمّ قرع الجرس بنير طائل ؟ ثم ان هذا ليس بالمستحسن . لا شك أن العجوز فى منزلها ، ولكنها لكونها الآن وحيدة لا بد أن تكون اكثر شكاً وحذراً . لقد كان راسكولنيكوف يعرف بعض عاداتها وما هو ذا يضع أذنه على الباب مرة أخرى . أكانت حواسه مشحوزة شحذاً قوياً الى هذا الحد - وذلك ما يصعب أن يسلم به الناس عامة - أم أن الضجة كانت مسموعة حقاً ؟ المهم أنه قد میّز ، على حين فجأة ، خشخشة يدٍ محاذرة على الباب وحفيف ثوبٍ يلامسه . لا شك أن أحداً يختبئ وراء هذا الباب ، ويصيح بسمعه من الداخل ، مثلما يصيح هو بسمعه من الخارج ، حابساً أنفاسه مثله ، واضعاً أذنه على الباب مثله أيضاً

تعمّد راسكولنيكوف أن يتحرك ، ودمدم بصوت عالٍ بغية أن

لا تحسن العجوز أنه يختبئ ، ثم قرع الجرس مرة ثالثة ، ولكنه قرعه
فى هذه المرة برفق وهدوء ورصانة ورزانة ، بغير تعجل يدل على نفاذ
الصبر •

ان ذكرى هذه اللحظة ستعاوده فى المستقبل واضحة مضيئة ،
لأنها قد انطبعت فى ذهنه الى الأبد • ان راسكولنيكوف لم يستطع أن
يفهم فى يوم من الأيام بعد ذلك ، من أين جاء ذلك المكر كله ، لاسيما
أن فكره كان قد أظلم ، وأنه أصبح لا يكاد يشعر بجسمه ...
وبعد لحظة سمع صوت المزلاج يُسحبُ لفتح الباب •

الفصل السابع



الباب قليلاً كما حدث في المرة الماضية ،
وحدثت الى راسكولنيكوف من قرارة الظلام
عينان ريتابتان • هنا فقد راسكولنيكوف
عدوه أعصابه فارتكب خطيئة أو شكت أن تفسد عليه كل شيء •

لقد خشى راسكولنيكوف أن تخاف المعجوز من وجودها وحيدة
معه ، وكان لا يأمل أن يرد إليها مظهره طمأنينتها ، فأمسك الباب وشدّه
إليه ، حتى لا يخطر ببالها أن تغلقه من جديد ؛ فلما رأت المعجوز ذلك لم
تشدّ الباب الى جهتها ، ولكنها لم تترك قبضته أيضاً ، فأوشكت أن تنجرّ
الى فسحة السلم • وحين رآها راسكولنيكوف ما تزال واقفة في العتبة
لتسد الطريق ، مشى إليها قدماً ، فاذا بدعر شديد يستولى عليها ، واذا
هي تنقهقر الى الوراء بوثة واحدة ، وتحاول أن تقول شيئاً فلا تستطيع ،
وتشخص اليه بكل عينها •

قال لها وهو يصطنع هيئة طليقة بقدر ما يستطيع ذلك :

— نهارك سعيد يا آليونا ايغانوفنا •

ولكن صوته لم يطعمه ، فقد كان متقطعاً مرتجفاً • وتابع كلامه
يقول لها :

— جئت بالرهن ••• ولكن فلنمض الى هناك حيث الضوء أكثر ••

ولم ينتظر ان تدعوه الى الدخول بل نفذ الى الغرفة بخطى حازمة •

جرت العجوز وراءه • وانحلت عقدة لسانها فقالت :

— رياه ! ما هذا ؟ من أنت ؟ ماذا تريد ؟

— عجيب يا آيلونا ايفانوفنا •• أنا راسكولنيكوف ••• انك تعرفيني منذ مدة طويلة ••• خذى ••• لقد جئتك بالرهن الذى وعدتك به آخر مرة •••

قال لها ذلك ومد اليها الرهن •

أخذت العجوز تفحص الرهن ، ولكن سرعان ما عادت عيناها تحدقان الى عيني الرجل الغريب • كانت تنفرس فيه باقتباء وخبث وخشية • انقضت دقيقة ، حتى لقد خيل الى راسكولنيكوف أنه يرى فى عينيها نوعاً من السخرية ، كأنما هى قد أدركت كل شيء • شعر راسكولنيكوف بأنه يفقد سيطرته على نفسه ، وأن خوفاً شديداً يفتروه ، خوفاً يبلغ من الشدة أنه سوف يولى هارباً اذا هى ظلت تحدق اليه هذا التحديق نصف دقيقة أخرى دون أن تقول كلمة واحدة •

قال فجأة ، بخبث أيضاً :

— ما بالك تنظرين الىّ هكذا كأنك لم تعرفينى ؟ خذى الرهن اذا شئت ••• والا لجأت الى غيرك ! ليس فى وقتى متسع •••

ان راسكولنيكوف لم يشأ أن ينطق بهذه الأقوال ، ولكنها أفلتت منه من تلقاء نفسها فجأة •

استردت العجوز هدوءها • ان اللهجة الجازمة فى كلام الرجل الغريب قد اعادت اليها الثقة •

سألته وهى تنظر الى الرهن :

- ولكن ، يا صديقى ، لماذا تفاجئنى هكذا ؟... وما هو هذا الشيء الذى تريد أن ترهنه ؟

قال راسكولنيكوف :

- هو علبة سجائر مصنوعة من الفضة • تعرفين ذلك حق المعرفة • حدثتك عنها فى المرة الماضية •

مدت العجوز يدها وقالت :

- ولكن ما أنشد شحوبك ! ويداك ما بالهما ترتجفان ! مريض ، هه ؟

أجابها بصوت متقطع :

- نعم ... بى حمى !...

ثم أضاف يقول بمشقة كبيرة :

- وحين لا يملك المرء ما يأكله فلا بد أن يشحب لونه !...

لقد بارحته قواه من جديد • ولكن جوابه كان معقولا • تناولت العجوز الرهن •

سألت العجوز راسكولنيكوف ، وهى تنفّس فيه مرة أخرى ، وتروّز الرهن بيدها :

- ما هذا ؟

- علبة سجائر ... من فضة ... أنظري •

- لا يبدو أنها من فضة !... لكنك لفتتها لفاً أنيقاً جميلاً •

قالت ذلك وأخذت تحاول حل عقدة الحيط مقتربة من النافذة (كانت جميع النوافذ فى بيتها مغلقة رغم الحرارة الحاققة) • تركت راسكولنيكوف اذن يضع لحظات ، وأدارت له ظهرها • فكَّ راسكولنيكوف أضرار معطفه وسلَّ الساطور من الابرزيم ، ولكنه لم يخرجها اخراجاً تاماً ، فهو ما يزال يمسكه بيده اليمى تحت المعطف • لقد اعترى ذراعيه ضعفٌ شديد ، وهو يحس أنهما تزدادان تخذراً وثقلاً لحظةً بعد لحظة ، وتصبحان أشبه بقطعتين من خشب • خشى أن يرخى الساطور وأن يتركه يسقط ••• وأخذ رأسه يدور فجأة ••• هتفت العجوز تقول بحدة وهى تتقدم خطوةً نحوه :

— من ذا يخطر بباله حقاً أن يربط صرةً هذا الربط ؟

لم يبق فى وقت راسكولنيكوف متسع للحظة يضعها • وها هو ذا يخرج الساطور ، ويشهره بكلتا يديه ، ويسقطه على رأس العجوز وهو لا يكاد يعى ماذا يعمل ، ولا يكاد يبذل جهداً ، حتى لتوشك أن تكون الحركة التى قام بها حركةً آلية • لقد تمت هذه الحركة من تلقاء نفسها دون أن تتدخل فيها قواه ، ولكنه ما ان أسقط الساطور حتى عادت اليه قواه • كانت العجوز عارية الرأس على عادتها • وكان شعرها الشائب ، المتناثر ، المدَّهن ، المزَيَّت كثيراً ، المصفور على صورة ذيل فأرة ، المشدود ببقية مشط ، كان يبرز نائماً على قفا رقبتها • ولأن قامتها قصيرة فإن ضربة الساطور قد سقطت على قمة جمجمتها • أطلقت العجوز صرخة ، ولكنها صرخة ضعيفة جداً • وكانت العجوز ما تزال تمسك الرهن باحدى يديها • هوى راسكولنيكوف على رأسها بضربة جديدة ، ثم بضربة أخرى ، باذلاً كل ما يملك من قوة ، وذلك يظهر الساطور أيضاً ، وعلى قمة الجمجمة كذلك • انبجس الدم من الرأس كأنه ينسكب من كأس ، وتهاوى الجسم الى وراء • تقهقر راسكولنيكوف ليخلى لها

مكانا ، ثم أسرع يميل على وجهها : كانت العجوز قد ماتت . لكن عينيها المحمقتين تريدان أن تخرجا من حجابيهما . والوجه كله ، ولا سيما الجبين ، تبدو عليه علامات الانقباض والتشنج التي تصاحب الاحتضار .

وضع راسكولنيكوف الساطور على أرض الحجر قرب المينة ، وأسرع يدس يده في جيبيها متحاشياً أن تسخ يدها بملامسة الدم . دس يده في ذلك الجيب نفسه الذي أخرجت منه العجوز مفاتيحها في المرة الماضية . كان راسكولنيكوف محتفظاً بصحو ذهنه ، كان لا يشعر بخور في عزيمة أو بدوار في رأسه . ان يديه وحدهما ما تزالان ترتجفان . سوف يتذكر راسكولنيكوف في المستقبل أنه كان في تلك اللحظة شديد الانتباه كبير الحذر ، وأنه قد عرف كيف يتحاشى أن يلمس يديه بالدم . سرعان ما أخرج راسكولنيكوف المفاتيح . كانت المفاتيح ، كما في المرة الماضية ، مجمعة في حزمة واحدة تضمها بعضها الى بعض حلقة من فولاذ . حمل راسكولنيكوف المفاتيح بيديه وهرب مسرعاً الى غرفة النوم لا يضع لحظة واحدة . انها غرفة صغيرة جداً تنتصب فيها أيقونات في داخل خزانة كبيرة ذات زجاج . وعند الحائط المقابل يوجد سرير كبير ، نظيف جداً ، له غطاء من حرير ، مبطن بالقطن ومصنوع من عدة أقمشة مجمعة . وعند الجدار الثالث توجد الخزانة ذات الأدراج . شيء غريب : ما ان أخذ راسكولنيكوف يدخل أحد المفاتيح في قفل الخزانة ، وما ان سمع صريف المفاتيح ، حتى سرى في كيانه كله نوع من قسرية أو رعدة . وثنى فجأة أن يدع كل شيء وأن ينصرف . ولكن ذلك لم يدم الا لحظة . لقد فات أوان الانصراف . وسخر راسكولنيكوف من نفسه حين وافته فكرة أخرى تنبهه الى الخطر . لقد خيل اليه بفتة أن العجوز ربما كانت ما تزال حية وربما تصحو من

غيوبتها • فإذا هو يترك المفاتيح والحزاة ، ويمود الى الجثمان راكضاً ، ويتناول الساطور ويشهره فوق العجوز مرة أخرى ، ولكنه لا يسقطه عليها • لقد كانت العجوز ميتة • لم يبق مجال للشك في هذا • وحين مال راسكولنيكوف عليها ليدقق النظر فيها من قرب ، رأى رؤية واضحة أن الجمجمة كانت قد انكسرت وأن قمتها كانت قد انحرفت قليلاً • انتهى أن يضع هنالك اصبعه ، ولكنه منع نفسه عن ذلك : يكفيه ان يرى • وكان الدم قد شكّل على أرض الغرفة أتماً ذلك بركة كبيرة • ولح راسكولنيكوف ، على حين فجأة ، حبلاً صغيراً في عنق العجوز ، فشدّه ، ولكن الحبل كان متيناً فلم ينقطع ، وكان الى ذلك مشرباً بالدم • حاول راسكولنيكوف أن ينزع الحبل • ولكن شيئاً ما كان يشبه • تارت نائرة راسكولنيكوف ، فشهّر الساطور من جديد ، عازماً على أن يقطع الحبل فوق جسم العجوز ، لكنه لم يجرؤ أن يفعل ؛ واستطاع ، بعد دقيقتين من الجهد ، أن يقطع الحبل دون أن يحزّ الجثمان ، ملطّخاً بالدم يديه والساطور معاً ، ثم سحب الحبل • لم يخطئ ظنه : هي صرّة مال • لقد علّق بالحبل صليبان ، أحدهما من خشب السرو ، والثاني من نحاس ، وعلّق به وسامٌ مطلي بالبنفسج ، وحافظة نقود من جلد الوعل ، متسخة كل الاتساخ ، ولها قفل من فولاذ • كانت حافظة النقود تبدو محشوة • وضعها راسكولنيكوف في جيبه دون أن يدقق فيها • ثم ألقى الصليبين على صدر العجوز • وركض الى غرفة النوم من جديد ، حاملاً الساطور في هذه المرة •

وبسرعة محمومة ، أمسك المفاتيح ، وعاد ينهمك في معالجتها ، ولكن دون أن يفلح أيضاً ، فما من مفتاح من هذه المفاتيح كان يبدو أنه ملائم للقفل • ليس يرجع ذلك الى أن يديه كانتا ترتجفان ، وإنما يرجع الى أنه كان يخطئ في كل مرة • كان يدرك مثلاً أن هذا المفتاح من

المفاتيح ليس هو المفتاح المطلوب ، وأنه لا يدخل فى القفل ، ومع ذلك كان يستمر على محاولة ادخاله . وفجأة تذكر وفهم أن المفتاح المسنن الذى يتأرجح الآن بين سائر المفاتيح ، لا يناسب الحزانة ذات الأدراج حتماً (وذلك ما سبق أن قاله لنفسه فى المرة الماضية) ، بل يناسب صندوقاً ما ، وأن كل شيء ربما كان مودعاً مخبئاً فى ذلك الصندوق . ترك راسكولنيكوف الحزانة ذات الأدراج ، وأسرع يندس تحت السرير ، لعلمه بأن من عادة النساء العجائز أن يخفين صندوقهن فى هذا المكان . وكان يوجد تحت السرير فعلاً صندوق كبير ، يبلغ طوله أرشيناً ، وله غطاء محدودب منجد بجلد أحمر تزينه مسامير صغيرة من فولاذ . انطبق المفتاح المسنن على القفل انطباقاً تاماً ، وفتح الصندوق . هذا معطف من جلد الأرنب مبطن بقماش أحمر ، يملو سائر الأشياء التى يضمها الصندوق ، ويحميه غطاء أبيض ثم شال . وفى قرارة الصندوق لا يبدو أنه يوجد الا خرق . أخذ راسكولنيكوف يسمح بالبطانة الحمراء يديه الملطختين بالدم ، قائلاً لنفسه : « هى حمراء ، والدم لا يرى على قماش أحمر كما يرى على غيره » ، ولكنه سرعان ما عدل عن ذلك ، وتساءل منعوراً : « رباه ! أنا بسيل أن أصبح مجنوناً ؟ » .

غير أنه ما كاد يحرك الخرق الموجودة فى قرارة الصندوق حتى انزلقت من تحت المعطف ، على حين فجأة ، ساعة ممصم . فقلب راسكولنيكوف عندئذ كل ما يضمه الصندوق . كان بين الخرق ، فعلاً ، أنواع شتى من أشياء ذهبية (لعلها أشياء رهنها أصحابها عند آليونا ايغانوفنا ثم لم يستردها) : فهناك أساور وأقراط وديابيس لرباط العنق وغير ذلك . ان بعض هذه الأشياء موضوع فى علب ، وبعضها ملفوف بورق جرائد لا أكثر ، ولكن ورقة الجريدة مزدوجة ومربوطة بخطه

أسرع راسكولنيكوف يحشو بهذه الأشياء جيوب سرواله ومعطفه،
مهملاً حتى أن يفض الصُرر ويفتح العلب . ولكن وقته لم يتسع لأخذ
مقدار كبير من هذه الأشياء .

ذلك أنه سمع على حين فجأة أصوات وقع أقدام في الغرفة التي
يرقد فيها جنان المعجوز . تجمّد وانسلّ من الذعر حتى لكأنه ميت .
ولكن السكون لم يلبث أن عاد يخيم . فظن أنه كان ألوبةً وهمٍ من
أوهام الخيال . وما هي إلا برهة وجيزة حتى سمع صرخةً ضعيفة تنطلق
على حين بفته ، ثم عاد الصمت يخيم من جديد . ان صمتاً كصمت الموت
قد ساد أجواءً خلال دقيقة أو دقيقتين . كان راسكولنيكوف جانباً قرب
الصندوق ينتظر ، وهو لا يتنفس الا بكثير من العناء . ثم نهض بوثبة
واحدة ، فأمسك الساطور ، واندفع يخرج من غرفة النوم .

في وسط الترفة كانت اليزابت واقفةً وفي يدها سلة كبيرة .
انها تنظر الى أختها الميتة مذعورةً مصعوقة . كان وجهها شاحباً شحوباً
شديداً ، وكانت كأنها لا تملك من القوة ما يمكنها من أن تصرخ . فلما
رأت راسكولنيكوف أخذت ترتعش كورقة في مهب الريح . وسرت في جسمها
كله رعدة قصيرة متقطعة . وتقبّض وجهها بتشنجات . رفعت ذراعيها ،
وفتحت فمها ، دون أن تصرخ مع ذلك ، وأخذت تتقهقر الى الوراء
بخطى بطيئة أمام راسكولنيكوف ، محاولةً أن تلتو في ركن من
الأركان . وكانت أثناء ذلك تحديق اليه وتفرس فيه ، ولكنها ما تزال
خرساء لا تنطق ، كأنما انقطعت أنفاسها . هجم راسكولنيكوف عليها
مسلحاً بساطوره . تقلصت شفتا اليزابت من الألم ، وكأنها طفل من
أولئك الأطفال الصغار جداً الذين اذا رأوا الشيء الذي يخيفهم ، همّوا
أن يصرخوا . مسكينة اليزابت ! كانت تبلغ من ضعف العقل ومن فرط

ما عاتته من اضطهاد فى حياتها أنها لم ترفع حتى ذراعها لتحمى وجهها ، مع أن هذه الحركة هى الحركة الطبيعية فى مثل تلك اللحظة ، لأن الساطور انما كان مصوباً الى رأسها • اكتفت اليزابت بأن رفعت قليلاً يدها اليسرى التى لا تحمل شيئاً ، فمدتها يبطه نحو راسكولنيكوف كأنما لتدفعه عنها • هوى راسكولنيكوف عليها بحدّ الساطور ، فأصابته الضربة جمجمتها ، وشقت أعلى جبينها حتى النافوخ تقريباً • سقطت اليزابت على الأرض ككتلة واحدة ، قتلوا راسكولنيكوف سلّتها ، وقد طار صوابه كله ، فرماه وأسرع راكضاً الى حجرة المدخل •

كان الذعر يستولى عليه بمزيد من القوة شيئاً بعد شيء ، ولا سيما بعد جريمة القتل الثانية هذه التى لم تكن فى الحسبان قط • انه الآن يتمجّل مفادرة المكان بأقصى سرعة • ولو كان عندئذ فى حالة تمكنه من أن يرى رؤية أوضح وأن يفكر تفكيراً أسلم ؛ لو استطاع أن يدرك صعوبة وضعه الذى يتصف بأنه يائس عجيب مستحيل ؛ لو استطاع أن يتصور ، عدا ذلك ، العقبان الكثيرة التى ما يزال عليه أن يجتازها ، وربما الجرائم الكثيرة التى سيرتكبها لاتتزعج نفسه من هذا الليث والعودة الى مسكنه ، اذن لكان من الجائز جداً أن يترك كل شيء ، وأن يبادر فوراً الى تسليم نفسه ، لا عن خوف ، بل عن شعور بالهول والاشمئزاز مما فعل • لقد كان الاشمئزاز ، خاصةً ، يزداد دقيقةً بعد دقيقة • ما كان له الآن ، بحال من الأحوال ، أن يقترب من الصندوق ، أو حتى من العرفة •

ولكن نوعاً من الدهول ، بل ومن الحلم ، قد استولى عليه شيئاً بعد شيء ؛ حتى لكأنه فى بعض اللحظات قد نسي نفسه ، أو قل نسي الأمر الأساسى وتشبّث بالتفاصيل وحدها • ثم انه حين ألقي نظرة على المطبخ لمح قادوساً موضوعاً على دكة ، وممتلئاً نصفه بالماء • فارتأى أن يغسل

فيه يديه والساطور • كانت يدها الملطختين بالدم لزجتين • أغطس حدّ الساطور في الماء ، وتناول من على حافة النافذة قطعة صغيرة من صابون كانت موضوعة في صحن مثلم ، وأخذ يوصل يديه داخل القادوس • فلما انتهى من غسلهما ، سحب الساطور ، فنظف نصله ، ثم لبث ثلاث دقائق كاملة يدلك مقبضه في المواضع الملطخة بالدم ، حتى لقد استعمل في تنظيفه الصابون • وبعد ذلك مسح الساطور كله بخارقة كانت تجف على مقربة منه فوق جبل مشدود في المطبخ • ثم اقترب من النافذة ، وراح يفحص الساطور بانتباه شديد • لم يبق على الساطور أى أثر ، ولكن مقبضه ما يزال رطباً • دسّ راسكولنيكوف الساطور في الابزيم الذى خاطه في داخل معطفه ، ثم أخذ يفحص المعطف والسروال والحذاءين ، بالقدر الذى أتاحه له النور الضعيف • لا شيء ، من النظرة الأولى ، يبدو على مظهره من خارج • على الحذاءين وحدهما كان يمكن أن يرى الناظر بضع بقع • بللّ راسكولنيكوف خارقة ومسح الحذاءين • على أنه كان يعرف أنه لا يرى رؤية واضحة ، وأنه ربما كان هناك شيء يخطف الأبصار ولكنه لا يلاحظه • وقف في وسط الغرفة حائراً مضطرباً • وهذه فكرة مظلمة قاتمة تفزوه ، وهى أنه يتصرف نصف مجنون ، وأنه لا يملك فى هذه اللحظة لا القدرة على التفكير ولا القدرة على الدفاع عن نفسه ، وأن ما يجب عليه أن يفعله قد يكون غير هذا تماماً • دهم يقول : « رباه ! ان على أن أهرب ، أن أهرب ، أن أهرب ! » • واندفع نحو حجرة المدخل • ولكن هناك انما كان ينتظره رعب لم يشعر بمثله فى حياته !...

لبث راسكولنيكوف جامداً لا يتحرك ، وأخذ ينظر فلا يصدّق عينيه : ان الباب الذى يفضى الى فسحة السلم ، هذا الباب الذى قرع جرسه ودخل منه منذ قليل ، هو الآن مفتوح ، مفتوح تماماً • لا مفتاح

ولا مزلاج اذن ، طوال الوقت الذى انقضى ! ان المعجوز لم تفلق الباب اذن بعد دخوله ، ربما من باب الاحتياط والحذر ! ولكن ما هذه الحواطر ؟ ألم يرَ الزابت بعد ذلك ؟ فكيف لا يخطر بباله أنها لا بد أن تكون قد دخلت من مكانٍ ما ؟ انها لم تخترق الجدران على كل حال ! •

وأسرع راسكولنيكوف الى الباب فأوصد المزلاج •

ثم سرعان ما قال يحدث نفسه : « لا ، لا ، ليس هذا ما يجب على أن أفعله • ينبغي أن أنصرف ، أن أنصرف ! » •

وسحب المزلاج ، وفتح الباب ، وأخذ ينصت الى ضججات السلم متجسساً •

لبث يتجسس هذا التجسس مدةً طويلة • هناك ، فى بعيد ، ربما عند باب العمارة ، أصوات رجلين صارخين معولين ، يتشاجران ويتشتمان • تسأل راسكولنيكوف : « ما بالهما ؟ » • وانتظر صابراً • وصمت كل شيء فى آخر الأمر دفعةً واحدة : افترق الرجلان • استعد راسكولنيكوف للخروج ، فاذا بباب فى الطابق الأسفل يُفتح على حين فجأةً صاحباً ، فيخرج منه أحدٌ ويأخذ يهبط درجات السلم وهو يدندن لحناً من الألحان • قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ولكن ما بالهم يحدثون مثل هذه الضجة جميعاً ؟ » وعاد يفلق الباب عليه من جديد ، وانتظر • وأخيراً انقطعت كل ضجة ، فما من حركة ومن من تأمة • خرج راسكولنيكوف • ولكنه ما ان وضع قدمه على أول درجة من درجات السلم حتى سمع مرةً أخرى أصوات وقع أقدام • ان أصوات وقع الأقدام هذه آتية من بعيد ، من أسفل السلم ، ولكن راسكولنيكوف تذكر فيما بعد ، تذكر تذكراً واضحاً جداً ، أنه منذ سمع صدى أول خطوة ، أوجس فوراً أن « ذلك آت الى هنا ، حتماً ، الى الطابق الثالث ،

الى مسكن المجوز • ماذا كان فى تلك الضجة من شىء خاص ذى دلالة الى هذا الحد ؟ كانت الخطوات ثقيلة ، موزونة ، أميل الى البطء • ها هو ذا « القادم » يجتاز الطابق الأرضى ، ها « هو » ذا يستمر فى الصعود ، ان صوت وقع خطاه يزداد قوة ، وما ينفك يزداد قوة ! ان راسكولنيكوف يسمع الآن لهاته • ها هو ذا يبلغ الطابق الثانى • أحس راسكولنيكوف بتجمد فى جسمه • ان الأمور تجري كما تجري فى الأحلام تماماً ، حين يرى النائم نفسه ملاحقاً مطارداً ، فيحذف به خصمه ، ويصبح هو مهدداً بالموت ، فيظل مسمرّاً فى مكانه ان صح التعبير ، عاجزاً عن تحريك ذراعيه •

ولم يشب راسكولنيكوف الى رشده الا حين أخذ القادم يسير الى الطابق الثالث • فاستطاع عندئذ أن يرجع الى البيت مسرعاً محاذراً ، وأغلق على نفسه الباب ، ثم أمسك المزلاج فدفعه دفعاً رقيقاً بلا ضجة ، تقوده فى ذلك غريزته ، ثم التصق بالباب حابساً أنفاسه • وكان القادم المجهول قريباً من الباب هو أيضاً • ان كلا من الرجلين يقف الآن امام الآخر على نحو ما كان يقف راسكولنيكوف والمجوز منذ قليل ، حين لم يكن يفصل بينهما الا سمك الباب ، وحين كان راسكولنيكوف مصحفاً سمعه يهتنت •

تنفس الزائر عدة مرات بمشقة كبيرة • قال راسكولنيكوف يحدث نفسه وقد تقلصت يده على الساطور : « لا بد أنه طويل وضخم » • حقاً ان ذلك كله يشبه الأحلام شبيهاً كبيراً • أمسك الزائر جبل الجرس ، وشدّ شداً قوياً •

فنا ان دوى رنين الجرس حتى أحسّ الزئر المجهول بأنه يسمع ضجة خفيفة فى العرفة كأن أحداً قد تحرك ؟ حتى لقد أنصت جاداً

خلال بضع ثوان ؛ وقرع الزائر المجهول الجرس مرة أخرى وانتظر
ثم اذا هو يثور على حين فجأة ويأخذ يهز قبضة الباب بكل ما أوتى من
قوة . فكان راسكولنيكوف ينظر مذعوراً الى المزلاج الذى أخذ يتهزز
فى الرزة . ان راسكولنيكوف يتوقع ، وقد شلَّه الرعب ، أن يرى المزلاج
ينخلع من لحظة الى أخرى . والحق أن انخلاع المزلاج لم يكن
مستحيلاً . فلقد كان الرجل يهز الباب هزاً قوياً يمكن أن يخلع
المزلاج . خطر ببال راسكولنيكوف فى لحظة من اللحظات أن يسند
المزلاج بيده . ولكنه أمسك عن ذلك ، لأن الرجل كان سيلاحظ هذه
الحركة . أخذ راسكولنيكوف يشعر بدوار ، وقال يحدث نفسه : « ها أنا
ذا أوشك أن أقع » . ولكن الزائر المجهول أخذ يتكلم ، فسرعان ما تاب
راسكولنيكوف الى رشده .

صاح الرجل المجهول يقول بصوت أجش :

— هيه ! ماذا ؟ هل الجيفتان نائمتان هناك أم أن أحداً ذبيهما ؟
هيه ! أنت يا آليونا ايفانوفنا ! يا عجوز النحس ! وأنت يا اليزابت
ايفانوفنا ، يا جمالاً لا يضارع ! افتح الباب ! آه ... يا للجيفتين !
أهما نائمتان حقاً ؟

وجنَّ من الغضب مرة أخرى فشدَّ حبل الجرس بكل قواه عشر
مرات متتالية . لا شك أنه رجل خطير الشأن ، وأنه فوق ذلك من رواد
هذا المنزل الذين ألفوا التردد اليه .

وفى تلك اللحظة نفسها سُمع صوت وقع خطوات صغيرة متعجلة
قرب السلم .

كان شخص آخر يقترب . ولم سمع راسكولنيكوف ضجة بجيئه
فى أول الأمر .

صاح القادم الجديد يقول بصوت رنان مرح مخاطباً الزائر الأول
الذى كان لا يزال يشد الحبل :

- هل يمكن أن لا يكون فى البيت أحد ؟ نهارك سعيد يا كوخ !
قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « صوته يدلُّ على أنه شاب فى
ريحان الشباب . »

أجاب كوخ :

- لا يعلم الا الشيطان ماذا جرى !

لقد أوشكتُ أن اكسر القفل . ولكن كيف تعرفنى أنت ؟

- ما هذا الكلام ؟ ألم أغلبك أمس الأول ثلاث مرات متتالية فى
البلياردو بمقهى جامبرينوس ؟

- آ . . .

- أليستا اذن فى البيت ؟ هذا شيء غريب ! وهو فوق ذلك شيء
مزعج ! أين عساها ذهبت ، هذه المعجوز ؟ لقد كنت آتياً إليها لأعمال . . .

- أنا أيضاً آتٍ إليها لأعمال ، يا صديقى ! . . .

صاح الشاب يقول :

- ماذا تفعل اذن ؟ يا لسوء الحظ ! كنت احسب أننى سأحصل

على بعض المال .

- طبعاً لم يبق لنا الا أن تنصرف ، ولكن لماذا حددتُ لى موعداً ؟

بالمعجوز الشمطاء ! هى التى حددت لى هذا الموعد ! ثم اننى قد اضطررت
من أجل الوصول أن أدور دورة طويلة . أين عساها ذهبت ؟ اننى
لا أفهم ! انها تبيع فى بيتها طول العام ، هذه المعجوز الشمطاء . . .

وتعفن فى مكانها لا تبارحه ... لأنها تشكو من أوجاع فى ساقها
فما بالها تمضى تتجول الآن على حين فجأة ؟ ...

- ما رأيك الآن فى أن نسأل البواب ؟

- نسأله عماذا ؟

- نسأله عن المكان الذى ذهبت إليه، وعن الوقت الذى ستعود فيه!

- هم ... نسأل ؟ ولكن كيف نسأل عن المكان الذى ذهبت

إليه وهى لا تذهب الى أى مكان فى يوم من الأيام ؟

قال الرجل ذلك وشد قبضة الباب مرة أخرى ، ثم أضاف :

- لا فائدة ! لم يبق الا أن نتصرف !

صرخ الشاب على حين فجأة قائلاً :

- انتظر ! أنظر ... ان الباب يتحرك حين يُهز .

- على أى شىء يدل هذا ؟

- يدل على أن الباب ليس مقفلاً بالفتاح ، وانما هو موصد

بالمزلاج وحده . ألا تسمع صرير المزلاج ؟

- وعلى أى شىء يدل هذا ؟

- كيف لا تفهم ؟ هذا يدل على أن احدهما ، فى أقل تقدير ،

موجودة فى البيت ؟ فلو انهما خرجتا كلتاهما لأغلقتا الباب بالفتاح من

خارج ، لا بالمزلاج من داخل . انك تسمع صرير المزلاج ... ألا

تسمعه ؟ ومن أجل اغلاق الباب بالمزلاج من الداخل لا بد أن يكون

فى البيت أحد . هل فهمت ؟ هما اذن فى بيتها ، ولكنهما لا تريدان

أن تفتحا .

صاح كوخ يقول مدهوشاً :

- حقاً ... حقاً ! ترى ماذا تصنعان ؟

وراح يهز الباب غاضباً من جديد •

هتف الشاب يقول مرة أخرى :

- انتظر ! كفالك هزاً للباب ! ان في الأمر سرّاً ! لقد قرعت

الجرس وهزرت الباب فلم تفتحا ! ... معنى هنا : اما أنهما مغشّى
عليهما ، واما أنهما ...

- واما أنهما ماذا ؟

- هلم نستدعي البواب • الأفضل أن يتولى هو ايقاظهما !

- موافق •

وأخذ الرجلان يهبطان على السلم • ولكن الشاب ما لبث أن قال :

- انتظر ! ابقى انت هنا ، وأنا استدعي البواب •

- أبقى هنا ؟ لماذا ؟

- لا يدري أحد ماذا يمكن أن يحدث •

- لك ما تشاء •

قال الشاب بلهجة صارمة :

- أرايت ؟ انني أهى • نفسي لوظيفة قاضي تحقيق ! الأمر واضح ،

وا ... ضح ! لا شك أن هناك سرّاً •

واندفع الشاب راكضاً على السلم •

فلما أصبح كوخ وحيداً شداً جبل الجرس برفق ، فرن الجرس
رنةً واحدةً ، ثم هزّ قبضة الباب مرة أخرى ببطء ، كمن يفكر أو
يحاذر ، فهو يشدها اليه ويرخيها ليتأكد من أن الباب ليس موصداً الا
بالمزلاج • ثم زفر زفرة قوية ، ومال الى صحت ، ونظر من ثقب القفل ،

ولكن المفتاح كان مدموساً فى القفل من الداخل ، فلا يمكن أن
يُرى شئ .

لبث راسكولنيكوف ساكناً جامداً ، قابضاً على ساطوره . كان فى
حالة قريبة من الهذيان . حتى لقد كان يتهاى لأن يقاتلها متى دخلا .
ولقد خطر بباله مراراً حين كانا يقرعان ويتشاوران أن يحسم الأمر
دفعاً واحدة فيناديهما من خلال الباب . واستبدت به فى بعض اللحظات
رغبة مجنونة رعاء فى أن يسخر منهما ، وان يستهزئ بهما ، وأن
يمطرهما بوابل من الشتائم قبل أن يفتح الباب . لقد ومضت فى ذهنه
بمثل سرعة البرق هذه الفكرة : « يجب أن أحسم الأمر بأقصى سرعة » .
وكان الوقت ينقضى . مضت دقيقة ، ومضت دقيقة أخرى ...
دون أن يرجع أحد . أخذ كوخ يضطرب .

وها هو ذا يهتف فجأة :

— ما شأنى أنا !

ونفد صبره ، فترك مكانه ، وهبط بسرعة هو أيضاً . ان أصوات
وقع حذاءيه تدوّى على السلم . ثم انقطعت هذه الأصوات .
— ما العمل يا رب ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم سحب المزلّاج وشقّ الباب . لم يسمع
أية نائمة . ويدون أن يفكر مزيداً من التفكير ، خرج وأغلق الباب
وراه برفق ، واندفع يهبط السلم .

حتى اذا اجتاز طابقين تقريباً سمع صخباً يدوّى تحت . أين
بختبى ؟ لم يسرف أين يستطيع أن يختبئ . حتى لقد تهاى لأن يقفل
راجعاً وأن يعود الى بيت العجوز ركضاً .

— هيه ، لعنة الله عليه ! يا للشيطان ! أوقفوه !

ان الشخص الذى أطلق هذه الصرخات قد وثب من شقة
فى أسفل ، وأخذ يصعد السلم تدرجاً ان صح التعبير ، صاعداً بأعلى
صوته :

— ميتكا ! ميتكا ! ميتكا ! * شيطان يقشر جلدك! باللمجنون!
وانتهى الصراخ بصويل حاد ، فكانت اصداؤه ترجع فى فناء
المنزل ثم صمت كل شيء . ولكن فى تلك اللحظة نفسها أخذ عدة
رجال يصعدون السلم محدثين ضجة كبيرة وهم يتكلمون كثيراً بصوت
عال . لعل عددهم ثلاثة أو أربعة . وميز راسكولنيكوف ذلك الصوت
الرنان ، صوت الشاب الذى كان يربط على الباب مع كوخ منذ قليل .
قال لنفسه : « انهم هم » .

شعر راسكولنيكوف بئأس مطلق فمضى الى لقائهم قدماً قائلاً
لنفسه : « لكن ما يكون ! » . لقد ضاع كل شيء : اذا استوقفوه فقد
ضاع كل شيء ، واذا تركوه يمر فقد ضاع كل شيء أيضاً لأنهم
سيتذكرونه

أوشكوا أن يلتقوا . ليس يفصلهم الآن الا طابق واحد ! ولكن
ها هو ذا راسكولنيكوف ينجو فجأة ! فبعد بضع درجات ، على اليمين ،
كان هناك بيت خال مفتوح بابيه ، هو ذلك البيت نفسه الذى يقع
فى الطابق الاول والذى كان يعمل فيه الدهانون . لقد غادره الدهانون
منذ قليل ، بمصادفة تشبه أن تكون عمداً . لا شك أنهم هم الذين خرجوا
منذ قليل محدثين ضجاً شديداً . ان خشب الأرض فى هذا البيت ما يزال
طلاؤه غصاً . وفى وسط الغرفة الأولى طشت ووعاء مملوء دهاناً
وفرشاة كبيرة . تسلل راسكولنيكوف الى البيت من الباب المفتوح
فى مثل لمح البصر سرعة ، ولطا على الحائط . وفى ذلك الوقت نفسه

كان الرجال قد وصلوا الى صفحة السلم ، فداروا وصعدوا الى الطابق الثالث ، وهم ما يزالون يتكلمون بصوت عال . انتظر راسكولنيكوف بضع لحظات ثم خرج سائراً على رموس الأصابع وأخذ يهبط السلم راكضاً .

ما من أحد كان على السلم ! وما من أحد كان تحت قبة مدخل العمارة ! اجتاز العتبة مسرعاً ، حتى اذا سار في الشارع ، التفت يسرة . كان يعلم حق العلم ، كان يعلم علم اليقين أنهم في هذه اللحظة نفسها موجودون في بيت العجوز ، وأنهم قد دهشوا أشد الدهشة حين رأوا الباب مفتوحاً بعد أن كان مغلقاً منذ قليل ، وأنهم ينظرون الى الجنتين ، وأنهم لن يحتاجوا الى اكر من دقيقة واحدة من أجل أن يدركوا حق الادراك أن القاتل قد بارح المكان منذ برهة وجيزة ، وأنه أفلح في الاختباء بمكان ما ، وأنه قد تسلل من بين أصابعهم ان صح التعبير . ولعلهم قدروا أيضاً أن هذا القاتل قد اعتصم بالبيت الخالي بينما كانوا يصعدون السلم .

ومع ذلك لم يجرؤ راسكولنيكوف ان يعجل سيره ، رغم أنه ما يزال هناك مائة خطوة عليه أن يقطعها حتى يصل الى المنعطف التالي . تسام : « ماذا لو تسللت فاختبأت تحت أحد الأبواب ؟ ماذا لو انتظرت الأحداث في سلم منزل مجهول ؟ » ثم أجاب عن سؤاله بقوله : « لا ، هذا رأى فاسد ! » وتسام ايضاً : « ماذا لو رميت الساطور في مكان ما ؟ ماذا لو ركبت عربة ؟ » ثم أجاب عن سؤاله بقوله : « لا ، هذا رأى فاسد ، رأى فاسد ! » .

كانت أفكاره مضطربة مختلطة . وها هو ذا يصل أخيراً الى شارع صغير ، فيدخل فيه وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة . انه في هذا

الشارع لا يثير حوله الشبهات كما يمكن أن يثيرها هناك . ثم ان الناس يذهبون ويحيثون هنا كثيراً .

ضاح راسكولنيكوف فى الجمهور كحبة رمل ، ولكن تلك المحن كلها كانت قد هدأت قواه ، فهو لا يكاد يستطيع أن يسير . كان العرق يسيل منه ، وكانت عنقه مبتلة مخضلة ، حتى ان أحد المارة صرخ يقول حين وصل راسكولنيكوف الى القناة : « يا للسكران ! » .

أصبح راسكولنيكوف لا يعى نفسه كثيراً ، وكانت حاله تزداد سوءاً عند كل خطوة جديدة . ان اللحظة الوحيدة التى بقيت فى ذاكرته هى اللحظة التى وصل فيها الى رصيف القناة ، فأرعبه أن يرى أن الناس هناك قليل ، فمن الممكن أن يلاحظ . فأوشك عندئذ أن يعود أدراجه الى الشارع الصغير . ومع ذلك ، ورغم أنه قد بلغ من الضعف أنه لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، فقد دار دورة طويلة ، ورجع الى بيته من جهة أخرى تماماً .

وحين اجتاز مدخل العمارة التى فيها بيته ، لم يكن قد استرد صحو ذهنه بعد . ومهما يكن من أمر فانه لم يتذكر الساطور الا حين صار فى السلم ، مع أن هذه المسألة هى من أخطر المسائل التى كان عليه أن يحلها . لقد كان عليه أن يعيد الساطور الى مكانه مهما كلف الأمر ، وذلك على أخفى نحو ممكن . يجب أن نذكر أنه كان بطبيعة الحال عاجزاً حتى أن يتصور أن من الأفضل له ، بدلاً من إعادة الساطور الى مكانه ، أن يرميه ، ولو بعد مدة ، فى أى مكان ، فى فناء عمارة من العمارات .

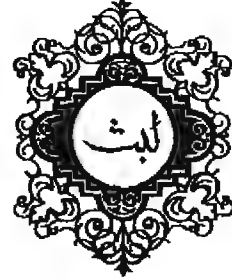
جرى كل شئ على خير وجه . كان باب غرفة البواب مغلقاً ، ولكنه ليس مغلقاً بالمفتاح . معنى ذلك أن البواب لا بد أن يكون

فى غرفته • ولكن راسكولنيكوف كان قد بلغ من المعجز عن التصير
فى أى شىء أنه أقبل على غرفة البواب بخطى حازمة ، وفتح الباب •
ولو قد سأله البواب عندئذ : « ماذا تريد ؟ » اذن لكان من الممكن أن
لا يزيد على أن يمد اليه الساطور • ولكن البواب كان غائبا فى هذه المرة
أيضاً ، واتسع وقت راسكولنيكوف لأن يعيد الساطور الى مكانه تحت
الدكة ، حتى انه لم يفته أن يضع فوقه الحطبة التى كانت موضوعة عليه
حين أخذه • واستطاع بعد ذلك أن يبلغ غرفته دون أن يصادف
فى طريقه أى مخلوق • وكان باب صاحبة البيت مغلقاً •

حين دخل راسكولنيكوف حجراته ارتعى على الأريكة دون أن
يخلع ملابسه • ولم ينم ، لكنه ظل مكباً على وجهه وهو فى حالة تشبه
التخدر ، فلو قد دخل عليه أحد فى ذلك الوقت ، لأسرع يشب عن
سريره واقفاً ، ولأخذ يصرخ • ان شذرات من أفكار تصادم فى رأسه ،
ولكنه ، رغم الجهود التى بذلها ، لم يستطع أن يقبض على أية فكرة من
تلك الأفكار ، ولم يستطع أن يتلبث على واحدة منها •

الجزء الثاني

الفصل الثامن



راسكولنيكوف راقداً هذا الرقاد زمناً طويلاً .
وكان يتفق له أن يستيقظ نصف استيقاظ ، فكان
يلاحظ أثناء تلك الدقائق القليلة أن الليل يتقدم ،
ولكن لم يخطر بباله قط أن ينهض . ورأى أخيراً

أن النور قد انتشر فكأنه النهار .

كان مستلقياً على ظهره ، وهو ما يزال على تلك الحال من التخدر .
ومن الشارع ، كانت تصل اليه أصوات عويل رهيبية ، وهي أصوات
كان يسمعها كل ليلة تحت نافذته في الساعة الثانية من الصباح ، وكانت
هي التي توقظه من نومه . قال راسكولنيكوف لنفسه : « آه ! ها هم
السكرارى يخرجون من خيماتهم . لا شك أنها الساعة الثانية ! » .
وبوئبة واحدة ، نهض عن الأريكة وقال يخاطب نفسه : « ماذا ؟ أتكون
هي الساعة الثانية ؟ » ثم عاد يجلس على الأريكة ، وسرعان ما عاد الى
ذهنه كل شيء ، فاذا هو يتذكر كل ما حدث ، دفعة واحدة في لحظة
قصيرة .

اعتقد في أول الأمر أنه فقد عقله . وها هي ذى رعدة باردة
تسرى في جسمه . ولكن هذه الرعدة ناشئة أيضاً عن الحمى التي انتابته
منذ مدة بينما كان نائماً ؟ وهي تهزه الآن هزاً يبلغ من القوة أن أسنانه
تصطك . فتح الباب وأصاح بسمعه : كان كل شيء في المنزل ينام نوماً

عميقاً . دُهِشَ ، وألقى نظرة على نفسه وعلى ما حوله . لم يستطع أن يفهم كيف أمكنه ، فى الليلة البارحة ، حين دخل غرفته ، أن لا يوصدها بالكلاّبة ، وأن يرتقى على أريكته دون أن يخلع ملابسه ، بل ودون أن يخلع قبعته . كانت القبة قد تدرجت على الأرض فهى ترقد الآن قرب الوسادة . تساءل راسكولنيكوف : « لو دخل على أحد ، فماذا كان يمكن أن يظن ؟ أكان يمكن أن يظن أنني سكران ، ولكن ... » . وهرع نحو النافذة . كان الضوء منتشرأ . وأسرع يتفحص نفسه من القدمين الى الرأس ليرى ألا يزال على ثيابه آثار . ولكنه لم يلبث أن قال لنفسه ان هذه الطريقة ليست هى الطريقة التى يجب عليه أن يتبعها ، ثم نضا عنه ثيابه وأخذ يفتشها وهو يرتجف من الحمى ارتجافاً شديداً . قلب ثيابه ثم قلبها ، متقبأ فى كل درزة . ثم لم يثق بحسن ملاحظته ، فأعاد فحصها ثلاث مرات . ولكن لم يكن ثمة شيء . كان يبدو فعلاً أنه لم يبق أى أثر ، الا بضغ قطرات من دم متخثر فى أسفل سرواله المهترى المتسَل .

تناول مقرضاً كبيراً فقصَّ به حاشيتى السروال . كان يبدو حقاً أنه ليس ثمة آثار غير هذه الآثار . وتذكر فجأة أن حافظة النقود والأشياء التى أخرجها من صندوق المجوز ما تزال حتى الآن فى جيبه . لم يكن قد خطر بباله أن يخرجها من الجيب وأن يخبئها ، لا ولا فكرأ فيها منذ قليل ، حين كان يفتش ثيابه . ما معنى هذا ؟ وما هو ذا قد أخذ يسلتها من الجيوب بمثل لمح البصر سرعة ، ثم يرميها على المنضدة . حتى اذا فرغ من اخراج كل شيء ، ثم قلب الجيوب ليتأكد مزيداً من التأكد أنه لم يبق فى الجيوب شيء ، مضى يضعها جميعاً فى أحد الأركان . ففى ذلك الركن يوجد ثقب تحت الورق الذى يغطى الجدار والذى كان متزوعاً ممزقاً . فما هى الا لحظات حتى دسَّ جميع الأشياء فى الثقب

تحت الورق ، وقال يحدث نفسه : « حسن ! دخل كل شيء ! لا أحد رأى ولا أحد عرف ! حتى حافظة النقود اختفت ! » . قال ذلك فرحاً وهو ينهض عن الأرض وينظر مدهوشاً الى الركن الذى أصبح ورق الحائط فيه منتفخاً مزيداً من الانتفاخ . ولكنه لم يلبث أن ارتعش من الرعب على حين فجأة ، ودمدم يقول يائساً : « رياه ! ماذا فعلت ؟ أهكذا يخبأ نىء من الأشياء ؟ » .

الحق أن راسكولنيكوف لم يكن يقدر أنه سيأخذ من عند المعجوز أشياء ، وانما كان يتصور أن لا يجد الا مالا ، لذلك لم يهيء مخبأ يخفى فيه ما قد يأخذ من أشياء . قال يسأل نفسه : « ولكن هل هناك الآن ما يدعو الى الابتهاج ؟ أهكذا يخبأ نىء من الأشياء ؟ حقاً لقد ذهب عقلى ! » . وتهالك على الأريكة مهدود القوى خائر العزم ، وسرعان ما عادت اليه تلك الرعدة التى لا تطاق . وها هو ذا يشد اليه ، على نحو آلى ، معطفه القديم الذى كان يرتديه طالباً ، والذى يوجد الآن على كرسى ، وهو معطف شتوى دافئ ، لكنه قد أصبح منذ الآن أشبه بخرقه بالية . شدّ راسكولنيكوف المعطف ، وغطى به جسمه . فاستولى عليه النوم والهذيان من جديد ، وغاب عنه شعوره .

فما ان انقضت خمس دقائق حتى وثب عن أريكته مرة أخرى ، وعاد يسرع الى ثيابه سائلاً نفسه : « كيف أمكنتنى أن أنام بينما أنا لم أفعل شيئاً بعد ؟ نعم ، انتهى لم أفعل شيئاً بعد ! حتى الازيم لم أنزعه من تحت الابط حتى الآن ! كيف أمكنتنى أن أنسى أمراً هاماً كهذا الأمر ، كيف أمكنتنى أن أنسى قرينة خطيرة كهذه القرينة ؟ » . وانتزع الازيم ، ثم أسرع يقطعه قطعاً صغيرة يرميها واحدة بعد واحدة تحت الوسادة بين الفسيل : « ان قطعاً ممزقة من قماش لا يمكن أن تثير الشبهات بحال من الأحوال ، أو هذا ما يخيل الى » ذلك ما كان يردده

راسكولنيكوف واقفاً في وسط الترفة . ثم أخذ يجيل بصره حواله ، على أرض الترفة ، في جميع الجهات ، ليرى هل أغفل شيئاً من الأشياء . فعل ذلك وهو يشعر بتوتر نفسى أليم . لقد كان على يقين من أن كل شىء يارحه ، حتى ذاكرته ، وحتى أية قدرة على التفكير ، فكان ذلك يعذبه عذاباً لا طاقة له به . قال يسأل نفسه : « ماذا ؟ أأكون «الأمر» قد بدأ منذ الآن ؟ أأكون هذا هو العقاب ؟ » نعم ، نعم ، هذا هو العقاب !

وعثر فعلاً على بقايا من قصاصات السروال كانت ملقاةً على الأرض يستطيع أن يراها أول قادم . فصرخ يقول وقد تاه عقله من جديد : « ماذا فعلت ؟ » .

هنا راودته فكرة غريبة : ربما كانت ثيابه نفسها منقطة بالدم ، ربما كان ثمة بقع كثيرة ولكنه لا يراها ولا يلاحظها لأن رأيه قد فسد ولأن فكره قد أظلم وتذكر فجأة أن حافظة النقود أيضاً قد تلطخت بالدم فقال لنفسه : « معنى هذا أنه لا بد أن يكون فى الجيب دم ، لأننى دسست حافظة النقود فى الجيب رطبةً مخضلةً » وقلب جيبه فى مثل لمح البصر سرعةً ، فتحقق من صدق ظنه : كان فى بطانة الجيب بقع دم فعلاً . قال لنفسه : « اذن لم يذهب عقلى ذهاباً تاماً ، اذن ما زلت احتفظ بفكرى وذاكرتى ولولا ذلك لما استأنفت التدقيق ، ولما كنت قادراً على استنتاج تلك النتيجة ! » ، قال ذلك وهو يشعر بالانتصار ، حتى لقد أقلت من صدره تنهيدة فرح . وأردف يخاطب نفسه : « لم يكن ذلك اذن الا ضعفاً عابراً ، لم يكن الا وهناً ناشئاً عن الحمى ! » وانتزع من سرواله كل بطانة الجيب الأيسر . وفى تلك اللحظة نفسها سقط شعاع شمس على حذائه الأيسر فأثاره ، فرأى راسكولنيكوف على الجورب الذى كان خارجاً من الحذاء ، رأى آثار دم . نعم ، هى آثار دم . ان

كل طرف الجورب مرتوي بالدم ! أغلب الظن أنه لم يحاذر فمضى على
بركة الدم ، وكان حذاءه مثقوبين تسأل راسكولنيكوف : « ولكن
ما العمل بهذا ، الآن ؟ أين أضع هذا الجورب ، وقصاصات حافة السروال
وبطانة الجيب ؟ » .

لم كل شيء ، وأمسكه بيده ، ولبت واقفاً جامداً في وسط الغرفة .
قال يحدث نفسه : أأرميه في المدفأة ؟ لا فانهم سيفتششون المدفأة
قبل أن يفتشوا أى مكان آخر ! أأحرقه ؟ ولكن بماذا أحرقه ؟ ليس عندي
عيدان كبريت . خير من ذلك أن أخرج فأمضى أرمي هذا كله في مكان ما !
نعم ، الأفضل أن أرمي هذا كله ! « ذلك ما ردّده راسكولنيكوف وهو
يجلس على الأريكة من جديد . وأضاف : « ويجب أن أرميه فوراً ، يجب
أن لا أضيع وقتاً ، يجب أن أرميه في هذه الدقيقة نفسها ولكن
رأسه هوى على الوسادة من جديد ؟ ومن جديد عاودته الرعدة الباردة
التي لا تطاق ؟ ومن جديد شدّ اليه معطفه يغطى به جسمه . وقد ظلت
هذه الفكرة الواخزة توافيه مدةً طويلة ، خلال ساعات عدة ، وهي
« أن عليه فوراً ، بلا إبطاء ، أن يخرج فيرمى هذا كله في مكان ما ،
حتى لا يراه أحد ، وأن عليه أن يفعل ذلك بسرعة ، بسرعة كبيرة ،
بأقصى سرعة ممكنة ! » . وحاول عدة مرات أن ينهض عن الديوان .
ولكنه أصبح الآن لا يقوى على النهوض . وهذه ضربة شديدة على الباب
تردّد اليه شعوره .

— هلاًّ فتحت الباب أخيراً ! أنت حيٌّ أم لا ؟ انه لا يفعل شيئاً
غير أن ينام . نعم ، انه ينام أياماً بكاملها ، مثل كلب . يا له من كلب !
افتح ! هلاًّ فتحت ! لقد دقت الساعة العاشرة !

كذلك كانت تصبح ناستاسيا وهي تفرع الباب بقبضة يدها .

قال صوت رجل :

- قد لا يكون فى غرفته !

قال راسكولنيكوف لنفسه : « هذا صوت البواب • ماذا يريد منى ؟ »
واتنفض واثباً ، وجلس على الأريكة • كان قلبه يدق دقاً قوياً الى حد
الألم •

قالت ناستاسيا ترد على الرجل :

- لولا أنه فى غرفته فمن عسى يوصل الباب بالكُلاَّبة ؟ عجيب !
هو الآن يجلس نفسه ! أهو يخاف أن يُخطف ؟ افتح يا نوأم ! استيقظ
يا كسلان !

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ماذا يريدان منى ؟ لماذا يجيئ
البواب ؟ لقد اكتشف اذن كل شئ • ! أأقاوم أم أفتح ؟ ... » •
وأنهض جسمه ، ومال الى أمام ، وسحب الكُلاَّبة دون أن يفادر
مريره •

صدق ظنه : كان البواب وناستاسيا واقفين على عتبة الباب •
ألقت عليه ناستاسيا نظرة غريبة ، وشخص هو بصره الى الحفير
وقد بدا عليه التحدى واليأس • مدَّ اليه الحفير ورقة سمراء مطوية
مختومة بالشمع ، وقال له وهو يناوله الورقة :

- استعاء من المكتب !

- أى مكتب ؟

- الشرطة تستدعيك الى المكتب ... ما من أحد يعجل ما هو
المكتب ! ...

- الشرطة ؟ ... لماذا ؟ ...

- أنا أعلم ؟ هم يستدعونك ، فاذهب اليهم !

قال الحفير ذلك ، وتفرد في وجه راسكولنيكوف ، وألقى نظرة حوالية ، ثم استدار لينصرف .

كانت ناستاسيا تنظر الى راسكولنيكوف ، ولا تحوّل بصرها عنه .
وها هي ذى تسأله الآن :

— أحسب أنك مريض جداً ، أليس كذلك ؟

التفت الحفير . وأضافت ناستاسيا قولها :

— ان بك حمى منذ أمس !... .

لم يجيبها راسكولنيكوف . وما يزال يمسك الورقة التي لم يفضّها بعد .

واصلت ناستاسيا كلامها مشفقةً عليه حين رآته يهم أن ينزل عن السرير :

— لا ... لا تنهض ! أنت مريض ! لا تذهب الى الشرطة اليوم!...
ما من أمر خطير يدعو الى الاسراع . ما هذا في يدك ؟

نظر راسكولنيكوف الى يده . كان لا يزال ممسكاً قصاصات حافة السروال ، والجورب ، وبطانة الجيب المنزوعة . لقد نأى وهو ممسك بهذا كله . سوف يتذكر في المستقبل ، حين سيفكر في هذا الأمر ، أنه استيقظ نصف استيقاظ أثناء نوبة الحمى ، فضغط على هذه الأشياء بيده ضغطاً قوياً ، وعاد ينام وهو على هذه الحال .

— عجب أمره ! لمّ هذه الحرق من الأرض ، ثم هو ينام معها كأنها كثر ثمين

قالت ناستاسيا ذلك وانفجرت تضحك ضحكها العصية الكبيرة .
أسرع راسكولنيكوف يمسّ الأشياء كلها تحت معطفه ، وحدث

الى الحادمة بنظرة نافذة ، فشعر ، رغم أنه لم يكن في تلك اللحظة قادراً
على أن يحكم على الأمور حكماً صحيحاً دقيقاً ، شعر أن من سيُقبض
عليه ويُعتقل لا يُعامل هذه المعاملة • ومع ذلك تسائل : ولكن لماذا
تستدعيني الشرطة ؟ •

قالت له ناستاسيا :

- عليك أن تشرب شيئاً من الشاي على الأقل • هل تريد ؟
في وسعي أن أجيثك بشاي • ما يزال عندنا بقية !

دمدم راسكولنيكوف مجيئاً وهو يقف :

- لا بل سأذهب الى الشرطة ••• سأذهب الى الشرطة فوراً •

قالت ناستاسيا :

- لن تقوى حتى على هبوط السلم !

- سأذهب !

- افعل ما تشاء !

قالت ناستاسيا ذلك وانصرفت في اثر الحفير • فلم يلبث
راسكولنيكوف أن أسرع يفحص الجيوب وحافة السروال في الضوء ، ثم
قال لنفسه : « هناك بقع ، لكنها لا تكاد ترى ، فكل شيء متسخ متآكل
ممحور • فمن لا يعرف شيئاً لن يرى شيئاً • الحمد لله على أن ناستاسيا لم
تستطيع أن تلاحظ شيئاً البتة » قال راسكولنيكوف لنفسه ذلك ثم فُضَّ
الورقة وهو يرتعش ارتعاشاً شديداً وأخذ يقرأ • لبث يقرأ مدة طويلة ،
مدة طويلة ، ثم فهم أخيراً أنه استدعاء عادي من قسم الشرطة بالحى ،
يُطلب منه فيه أن يحضر الى مكتب مفوض الشرطة في الساعة التاسعة
من هذا اليوم نفسه •

تسائل راسكولنيكوف وهو يعاني حيرة أليمة : « هل رأى أحد

شيئاً ؟ أنا لا شأن لى بالشرطة شخصياً ! ولماذا فى هذا اليوم ذاته ؟ ربه !
ألا فلينته هذا كله بأقصى سرعه ! » •

قال ذلك وهم ان يركع ليصلى ، ولكنه لم يلبث ان عدل عن رايه
وقهقه ساخراً ، لا ساخراً من الصلاة بل من نفسه • واخذ يرتدى ثيابه
مسرعا ، قائلاً لنفسه : « ان كنت قد هلكت فلاهلك ! يستوى عندى كل
شئ ! ولكن يجب أن ألبس الجوارب (هذا ما خطر بباله فجأة) •
سوف يتسخ بالتراب مزيداً من الاتساخ ، فيختفى ما بقى عليه من آثار
الدم • • • ولكنه ما ان لبس الجوارب حتى انتزعه على الفور مشمئزاً
مذعوراً • ثم تذكر أنه لا يملك جوارب أخرى ، فالتقطه من الأرض ،
وعاد يلبسه • ومرة أخرى - مرة أخرى - انفجر يضحك مقهقهاً •
« ما هذا كله الا مواضع اجتماعية ، مواضع شكلية ! كل شئ
نسبى ! » ، قال لنفسه ذلك وهو يفكر بجزء من عقله ، ولكنه يرتعش
بكل جسمه ، وأردف يقول لنفسه : « لقد لبست الجوارب مع ذلك !
لبسته أخيراً مع ذلك ! » وحين قال هذا الكلام ، كان ضحكه يتحول الى
يأس • وأضاف يقول : « لا ، ان هذا فوق طاقة قواى • كانت ساقاه
تصطكان • فدمدم قائلاً : « هو الخوف ! » وألمَّ به دوار وأخذ يشعر
بصداع من شدة الحر • تابع كلامه يقول وهو يتجه نحو السلم :
« هذه حيلة ! انهم يريدون استدراجى الى هناك بالحيلة ، ليواجهونى
بعد ذلك بالوقائع كلها • والمصيبة أمتى فى حالة تشبه الهذيان فقد تفلت
منى حماقة ما • • • » •

وفيما كان يبهط السلم تذكر أنه ترك جميع الأشياء فى الثقب وراء
ورق الجدار فتساءل : « ماذا لو فتشوا الثقب أثناء غيابى ؟ » • وتوقف
عن السير • ولكن اليأس والاستهتار - ان صح التعبير - اللذين كانا
يستوليان عليه حين يتصور أنه هالك قد بلغا من القوة أنه لم يزد عندئذ

على أن حرك يده بإشارة تدل على قلة الاكتراث وتابع سيره قائلاً
لنفسه : « اما المهم أن أنتهى من هذا الأمر بأقصى سرعة ممكنة ! » .

كان الحر في الخارج شديداً لا يطاق . ما من قطرة مطر هطلت
منذ أيام . هو جوُّ القبار والآجر والكلس مرةً أخرى ؛ هو جو المطاعم
العفنة والحمارات الكريهة من جديد . وها هم أولاء السكرى والخوذيون
المكدودون يطالعونه عند كل خطوة يخطوها . وانبهرت عيناه من أشعة
الشمس حتى أوجعته . وأخذ يحس بدوار في رأسه ، كما يحدث هذا
كثيراً للمرء حين يخرج أثناء الحمى فجأةً في يوم شديد القيط .

فلما بلغ منعطف شارع « الليلة البارحة » ، نظر الى « تلك »
العمارة ، ثم لم يلبث أن حوّل عنها عينيه فوراً . وحين اقترب من قسم
الشرطة قال لنفسه : « اذا استُجِبتُ فقد اعترف ! » .

ان قسم الشرطة يقع على بعد مائتين وخمسين متراً من بيته قريباً .
لقد نُقل قسم الشرطة هذا منذ مدة وجيزة الى مقر جديد يقع في الطابق
الثالث من عمارة بُنيت حديثاً . كان راسكولنيكوف قد ذهب مرةً الى
المقر القديم ، ولكن هذا حدث منذ مدة طويلة جداً . حين اجتاز مدخل
العمارة لمح على اليمين سلماً كان يهبطه رجل يحمل يده سجلاً فقال
لنفسه : « لا بد أنه بواب ، ولا بد اذن أن يكون قسم الشرطة في هذه
الجهة » . وصعد السلم على غير هدى . كان لا يريد أن يسأل أحداً
عن شيء .

وقال لنفسه وهو يصعد الى الطابق الثالث : « سأدخل فأجثو على
ركبتى وأروى كل شيء » . السلم ضيق ، وعمره ، مليء بالقاذورات .
مطابخ جميع المساكن تطل على هذا السلم ، وأبوابها تظل مفتوحة طول
النهار قريباً . لذلك يكون الجو في السلم خائفاً . بوابون يحملون

سجلات تحت الابط ، ورجال شرطة ، واشخاص كثيرون من الجنسين يصعدون وينزلون بغير انقطاع . باب المكتب مفتوح على مصراعيه هو أيضاً .

دخل راسكولنيكوف ، ووقف فى حجرة المدخل . الحجرة مزدهجة بأناس من سواد الشعب ينتظرون « دورهم » . الحر خانق هنا أيضاً . تضاف الى ذلك رائحة الدهان (لقد أعيد دهن الغرف وما يزال الدهان طرياً) التى تبعث فى النفس شعوراً بالنشيان .

انتظر راسكولنيكوف لحظة ثم قرر أن يمضى الى المكتب التالى . ان جميع الغرف صغيرة ، واطىء سقفاً جداً .

كان راسكولنيكوف نافذ الصبر الى درجة رهية وكان نفاد صبره هذا يدفعه الى أن يوغل مزيداً من الايفسال !... لم يلاحظه أحد . فى المكتب التالى كان يكتب كتابٌ لا يكادون يرتدون ثياباً خيراً من ثيابه ، ولا يوصف مظهرهم الا بأنه مظهر غريب عجيب فى أقل تقدير . اتجه راسكولنيكوف الى أحدهم . سأله هذا :

— ماذا تريد ؟

فأراه راسكولنيكوف الاستدعاء الذى تلقاه من مكتب الشرطة . قال الموظف بعد أن ألقى نظرة على الورقة :

— آآ... هل أنت طالب ؟

فأجابه راسكولنيكوف :

— نعم ، طالب سابقاً .

تفرس فيه الموظف ، ولكن بدون أى فضول . هو رجل « مشعث الشعر » توحى نظرتة بأن هناك فكرة ثابتة تحاصر ذهنه .

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « من هذا الرجل لن أعرف شيئاً
ان جميع الأمور عنده سواء . . . »

قال الموظف وهو يشير بإصبعه الى الباب الثانى :
- اسأل السكرتير !

دخل راسكولنيكوف الغرفة التى دله عليها الرجل (وهى الثالثة
فى صف الغرف) . انها صغيرة جداً كذلك ، تزدحم بأناس ثيابهم خير
قليلاً من ثياب الجالسين فى المكتب السابق . وبينهم سيدتان . فأما الأولى
وهى ترتدى ملابس حداد فقيرة ، فقد كانت جالسة امام منضدة قبالة
سكرتير يُعَلَى عليها فتكتب . وأما الثانية فهى امرأة ضخمة الجسم حراء
الوجه ، صارخة الزينة ، مترفة التبرج ، تضع على صدرها حلية كبيرة
كأنها صحن . وكانت هذه المرأة الثانية وافقة ، متعجبة بعض التحنى ،
بدو عليها أنها تنتظر شيئاً . مدَّ راسكولنيكوف ورقته الى السكرتير ،
فألقي عليها السكرتير نظرة سريعة وقال له : « انتظر » وواصل اهتمامه
بالسيدة التى ترتدى ثياب الحداد .

تنهد راسكولنيكوف متخففاً من قلقه وقال يحدث نفسه : « لم
يستدعونى اذن من أجل « ذلك » الأمر » . وأخذ يسترد شجاعته ،
ويحاول أن يستعيد هدوءه وطمأنينته . قال لنفسه : « أن أيسر حماقة
ارتكبتها وأبسط زلة آقع فيها يمكن أن تفضحنى فضحاً تاماً » . ثم
أضاف : « هم !... خسارة أنه لا هواء هنا ... ان رأى يدور ...
وفكرى أيضاً ... » شعر راسكولنيكوف باضطراب غريب يفزو كيانه
كله . خشى أن لا يستطيع السيطرة على نفسه . حاول أن يتشبث بأى
شئ . لا علاقة له بهيمومه ، ولكنه لم يفلح . كان السكرتير يشغل باله
كبيراً : ان راسكولنيكوف ما بنفك يحاول أن يقرأ فى وجهه شيئاً ،
أن يوحس فى وجهه شيئاً .

هو شاب في نحو الثانية والعشرين من عمره ، له وجه مسمرٌ كثير الحركة ، يوهم مظهره بأنه أكبر من سنه ، شديد العناية بهندامه ، يحترم «الموضة» احتراماً واضحاً ، مدهن الشعر ، له فرق يهبط حتى النقرة ، في أصابعه البيضاء المؤنقة تسطح عدة خواتم ، وصدرته تزدان بسلاسل من ذهب ... حتى لقد خاطب أجنبياً كان هناك ، ببضع عبارات بالفرنسية ، فكان كلامه بالفرنسية حسناً .

قال الشاب للمرأة السمينة ذات الوجه الأحمر والهندام الصارخ التي كانت ما تزال واقفة كأنها لا تجرؤ أن تجلس من تلقاء ذاتها رغم أن كرسيها كان يوجد الى جانبيها ، قال لها :

- اجلسي يا لويزا! ايقانوفنا !

فأجابته السيدة قائلة باللغة الألمانية :

- شكراً .

وجلست ، فخشخش حرير . ان ثوبها الأزرق كزرقة السماء ، المزدان بتخاريم بيضاء ، المتفتح كمنطاد ، قد انتثر حول الكرسي ، فشغل نصف الغرفة تقريباً ، وانتشرت منه روائح عطر ، ولكن السيدة أظهرت انزعاجها من احتلال كل هذا المكان ، ومن نشر كل هذا العطر ، فكان في نظرتها التي ظاهرها الوقاحة كثير من القلق .

انتهت المرأة التي ترتدي ثياب الحداد ، فنهضت أخيراً . فاذا بضابط يدخل على حين فجأة ، ضابط متعاطف يصطنع القوة والبسالة ويرنح كفيه كلما خطا خطوة .

ألقى الضابط على المنضدة قلنسوته المزدانة بشريط معقود ، وجلس على مقعد . ووثبت السيدة ذات الثوب المخشخش عن كرسيها منذ لحته ،

وانصحت تحييه تحية عميقة بنوع من الافتان ، ولكن الضابط لم يولها
أىّ انتباه . ومع ذلك لم تجرؤ أن تعود الى الجلوس بحضوره .

ولم يكن هذا الضابط الا مساعد مفوض الشرطة . ان له شارين
أحمرين مديين يستويان أفقياً على جانبي وجهه ، وهو وجه لا تعبر
قسماته الدقيقة عن شيء ، الا أن تعبرا عن الغطرسة . ألقى الضابط على
راسكولنيكوف نظرة شزراء فيها استياء : ذلك أن ملابس راسكولنيكوف
كانت زرية حقاً ، وكان وجهه ، رغم حالة الانهيار التي هو فيها ،
لا يتفق وهذه الملابس ، حتى لقد تجرأ فرشق الضابط بنظرة طويلة
بعض الطول ، مدققة بعض التدقيق ، فشعر الضابط بانزعاج شديد ،
وصاح يسأل راسكولنيكوف :

- وأنت ، ماذا تريد ؟

لا شك أنه قد أدهشه أن لا يخطر ببال شخص يرتدى مثل هذه
الأسمال الرثة أن ينفض طرفه ويطرق أمام نظراته الكاسرة .
أجابه راسكولنيكوف مضطرباً :

- استدعيت الى هنا ؟ هو استدعاء ...

فأسرع السكرتير يتدخل تاركاً أوراقه :

- بشأن المطالبة بدفع مال . هذا هو « الطالب » !

قال السكرتير ذلك ودفع الى راسكولنيكوف دفترأ وهو يشير له
الى موضع منه ، وأضاف يقول :
- اقرأ !

تساءل راسكولنيكوف : « بشأن المطالبة بدفع مال ؟ أى مال ؟ اذن
ليس الأمر « ذلك » الأمر ... » . وارتعش من الفرح . شعر فجأة
بتخفف كبير لا يوصف . ان حملاً ثقيلأ قد سقط عن كتفيه .

صرخ الليوتان يسأله :

- قيل لك أن تحضر في أية ساعة أيها السيد ؟ لقد ورد في ورقة استدعائك أن تحضر في الساعة التاسعة ، والساعة الآن هي الحادية عشرة ، أليس كذلك ؟

لا يدري الا الله لماذا كان هذا الضابط يشعر بمزيد من الاستياء شيئاً بعد شيء .

أجابه راسكولنيكوف بصوت عالٍ ، ومن فوق كفه :

- لم أستلم ورقة الاستدعاء الا منذ ربع ساعة . أحسب أنني يكفيني أن أجيء رغم الحمى ...

ان راسكولنيكوف أيضاً قد اعتراه غضب مفاجيء لم يكن في الحسبان ، ولكنه يجد في هذا الغضب لذةً ومثمة .

- لا تصرخ ، أرجوك !

- لست أصرخ . بالعكس : أنا أتكلم بكثير من الرصانة والرزانة، وأنت تصرخ . ولما كنت طالباً ، فأنتى لا أسمع بأن ...

بلغ غضب مساعد مفوض الشرطة من الشدة أنه لبث دقيقة بكاملها لا يستطيع أن ينطق كلمة واحدة ، فلم يزد على أن يرغبى ويزيد . ثم اذا به ينهض بوثبة واحدة كمن وُخز ، ويصبح قائلاً لراسكولنيكوف :
- اسكت . أنت هنا في جلسة محاكمة . لا تكن فظاً أيها السيد !

فصرخ راسكولنيكوف :

- وأنت أيضاً في جلسة محاكمة ، ومع ذلك تصرخ ، بل وتدخن سيجارة ، وهذا دليل على أنك لا تولينا جميعاً أى اعتبار !

وشعر راسكولنيكوف ، حين قال هذه الكلمات ، بلذة لا تقاوم
ولا تُغلب •

وكان السكرتير ينظر اليهما مبتسماً • واضح أن الليوتنان الذى
كان يغلى ويفور قد أُفحم •

وأخيراً صرخ الضابط يقول بصوت بلغ من العلو أنه كان لا يبدو
طبيعياً :

— ليس هذا شأنك • تفضل بالادلاء بالافادة المطلوبة منك • آره
الشكوى يا الكسندر جريجورييفتش • أنت مطالب بمال تهرب من
دفعه • يا للمحتال !...

ولكن راسكولنيكوف كان قد انقطع عن الاصغاء اليه : أمسك
الورقة بشراهة ، محاولاً أن يكتشف التلفز بأقصى سرعة • قرأ الورقة
مرة أولى ، ثم قرأها مرة ثانية ، ولكنه ظل لا يفهم شيئاً • فقال
للسكرتير يسأله :

— ما هو الموضوع ؟

— أنت مدين بمال عليك أن تدفعه • هناك سند تتعهد فيه بسداد
الدين عند المطالبة به • وعليك الآن اما أن تدفع كل شيء ، بما فى ذلك
التفقات والغرامات ، النخ ؛ واما أن تحدد ، كتابةً ، الموعد الذى ستكون
فيه قادراً على دفع المال ، وأن تتعهد بأن لا تغادر العاصمة ، وبأن لا تباع
أمتعتك وأن لا تخفيها قبل سداد الدين • أما الدائن ففي وسعه أن يبيع
أمتعتك ، وأن يلاحقك وفقاً للقانون •

— ولكن ... ولكنى لست مديناً لأحد بشيء !

— ذلك أمر ليس من شأننا • لقد تلقينا سنداً مستحق الدفع وفقاً
للقانون ، كنت أنت قد وقعت به باسم السيدة زارتيشين ، أرملة أحد

الموظفين ، ثم انتهى هذا السند الى يدى المستشار تشيياروف ، ومن أجل هذا انما استدعيناك ، وعليك الآن أن تدلى بإفادتك .

- ولكن هذه السيدة هى صاحبة البيت الذى أقيم فيه ...

- هل يغير هذا من الأمر شيئاً ؟

كان السكرتير ينظر اليه وهو يتسم ابتسامة تسامح توشك أن تشتمل على عطف وشفقة ، ولكنها تشتمل كذلك على شعور بالانتصار مردّه الى أن أمامه شاباً غراً يتولى هو تعليمه . وسأله : « هيه ! كيف صحتك الآن ؟ » . سأله هذا السؤال ، كما لو كان راسكولنيكوف قادراً على أن يهتم أى اهتمام بالسند أو تحصيله ! حقاً ان هذا لا يستحق ، « الآن » ، أقل قلق ، ولا يستحق أيسر انتباه ! لبث راسكولنيكوف واقفاً يقرأ أو يصفى أو يجيب أو حتى يسأل ، ولكنه يفعل ذلك كله على نحو آلى . ان فرحه الناشئ عن شعوره أخيراً بأنه فى أمان ، وبأنه قد نجا من الخطر الرهيب الذى كان يترصد به ، هو ما كان يملأ كل كيانه فى هذه اللحظة . فأى مكان يمكن أن يبقى فى نفسه للتبصر ، والتحليل ، والاحتياطات الواجب اتخاذها فى المستقبل ، والافتراضات ، والشكوك ، والاستجابات ؟ هذه دقيقة فرح ملىء ، فرح مباشر ، فرح غريزى صرف . ولكن فى تلك الدقيقة نفسها دوى فى المكتب ما يشبه أن يكون رعداً وصاعقة . ان الليوتنان الذى كان ما يزال يغلى ويفور من الاهانة التى ألحقت به منذ قليل ، قد انفجر انفجار الرعد والصاعقة على السيدة ذات الثوب المخشخش التى كانت تأمله منذ دخل ، وعلى شفيتها ابتسامة بلهاء .

صرخ يقول لها فجأة بصوت عال ، وكانت السيدة التى تلبس ثياب الحداد قد خرجت :

- آ ... هانت ذى أخيراً يا ... ماذا جرى عندك فى الليلة الماضية ، هه ؟ لقد عدت تلحقين العار بالحى ، وتعرضين دعاراتك فى عرض الشارع ! عدت تخلفين المشاجرات وتشجعين السكر ! أترك تحلمين بأن تقضى أيامك فى سجن من السجون ؟ لقد سبق أن قلت لك ، سبق أن نبهتك عشر مرات الى أننى سأكون فى المرة الحادية عشرة بغير رحمة ولا رأفة ولا شفقة ، وهانت ذى تستأنفين .. تستأنفين .. يا ... يا ...

كادت الورقة التى يحملها راسكولنيكوف أن تسقط من يديه . نظر مبهوراً الى السيدة المخشخشة التى تعامل بمثل هذه الفظاظلة . ولكنه سرعان ما فهم الموضوع ، وسرعان ما أخذت القصة تسليته ، فكان يصغى مثلنذاً ، حتى لقد أحس برغبة فى أن يضحك ، فى أن يضحك مقهقهاً ، فالى هذا الحد كانت أعصابه مهتزة !

بدأ السكرتير يتكلم فقال بلهجة تفيض توسلاً :

- ايليا بتروفتش ...

ولكنه انقطع عن الكلام ، لأنه رأى أن من الأفضل أن ينتظر لحظة مناسبة أكثر من هذه اللحظة ، لأنه كان يعرف بالتجربة أن من المستحيل كبح جماح الليوتنان العنيف ، اللهم الا باللجوء الى القوة .

أما السيدة المخشخشة فانها أخذت ترتجف منذ انطلق الرعد ودوت الصاعقة . ولكن الشئ الغريب هو أن تعبير وجهها كان يزداد ترققاً وتلطفاً ، وأن ابتسامتها لليوتنان الرهيب كانت تزداد حسناً وظرفاً على قدر ما كانت الشتائم الموجهة اليها تزداد كثرة وشدة . كانت تنهزر فى مكانها ، ولا تنهى احتراماً لليوتنان ، منتظرة مع ذلك ، بصبر نافذ ، أن يتبع لها أن تقول كلمة . وكوفى صبرها فعلاً ، فما ان سكنت

الليوتنان حتى أسرع تحول بنبرة ألمانية ظاهرة ، رغم أنها تكلمت
الروسية بطلاقة :

— لم يحدث فى بيتى عريضة ولا مشاجرة ، يا سيدى الكابتن ،
ولا حدثت فضيحة او جرسة ، لم تحدث أية فضيحة أو جرسة ! كل
ما فى الأمر أنهم جاؤا سكارى ... ساقص عليك كل هذا يا سيدى
الكابتن ... حقاً أنا لست مذنبه ... ان بيتى بيت لائق يا سيدى
الكابتن ، والسلوك فيه سلوك لائق يا سيدى الكابتن ... وأنا نفسى ،
أنا نفسى ، لم أسمع بأية فضيحة ، فى أى يوم من الأيام ، فى أى يوم
من الأيام . ولكنهم وصلوا سكارى ، ثم طلبوا ثلاث زجاجات ، ثم رفع
أحدهم قدمه فى الهواء وأخذ يعزف بها على البيانو ... ذلك أمر
لا يستحسن أبداً فى بيت لائق . ثم خرب لي البيانو . قلت له : ماهذه
آداب مستحبة ، ماهذه آداب مستحبة ... فتناول عندئذ زجاجة وأخذ
يضرب بها جميع الناس على قفاهم ... عندئذ ناديت البواب ... فجاء
كارل ... وحين جاء كارل ، ورّم الرجل عين كارل ، وورّم أيضاً عين
هنرييت ، وصفغنى أنا نفسى ، أنا نفسى ، خمس صفعات ! ... ليس من
الظرف فى شيء أن يفعل أحد ذلك فى بيت لائق يا سيدى الكابتن .
عندئذ صرخت ... ولكنه مضى عندئذ الى النافذة المطلة على القناة
ففتحها ، وأخذ ينخر نخير نخير صغير ، وذلك عيب حقاً ... كيف
يرضى أن يقف الى النافذة فيأخذ ينخر نخير نخير صغير ؟ هذا عيب ،
عيب ، عيب ! ... شدّه كارل من رداء « الفراك » الذى كان يرتديه ،
شدّه ليعده عن النافذة ... وعندئذ يا سيدى الكابتن — أعترف لك
بذلك ، نعم أعترف لك بذلك — مزّق له كارل رداءه ... ولكنه أخذ
عندئذ يصيح قائلاً انه يطالب بخمسة عشر روبلاً ، تعويضات وفوائد ،
لأن رداءه تمزق . فدفعت له ، يا سيدى الكابتن ، دفعت له بنفسى ،

دفعت له خمسة روبلات تمويضاً له عن ردايه . ما هو بالزائر اللائق
يا سيدى الكابتن . ان الزائر اللائق لا يقوم بفضيحة كهذه الفضيحة .
وقد قال لى : " سوف ترين ... لأنشرون هجاءً مقنعاً لكم . ان
لى صلات بجميع الجرائد . وأستطيع أن أقول فيها عنكم ما أشاء . .
أهذا كلام يقال لى ؟

- آ ... هو اذن كاتب ؟ .

- نعم يا سيدى الكابتن ، وهو أيضاً زائر غير لائق ، لأنه لم
يتورع ، فى منزل لائق ، أن ...

- كفى ، كفى ، سبق أن قلت لك وكررت ان ...

عاد السكرتير يتكلم فقال :

- ايليا بتروفتش !

ولكن الليوتنان رشقه بنظرة سرية ، فكفَّ عن الكلام ، وهز
رأسه بحركة خفيفة .

وتابع الليوتنان كلامه فقال :

- اسمعى آيتها المحترمة لويزا ايفانوفنا ! اليك كلمتى الأخيرة !
أقول لك آخر مرة : اذا حدثت فى بيتك اللائق ، بعد الآن ، فضيحة
واحدة ، فسأتولى بنفسى وضعتك فى قفص سلطنة ، كما يقال بالأسلوب
الرفيع . مفهوم ؟ ما ... اذن هكنا ... أديب ... كاتب ... أخذ
فى منزلك اللائق خمسة روبلات تمويضاً عن تمزيق ردايه . آ ...
هؤلاء هم المؤلفون ! (قال الليوتنان ذلك وهو يرمى راسكولنيكوف بنظرة
احتقار) . وأسس الأول ، فى حانة من الحانات ، حدثت قصة أخرى :
تفدّى واحد من هؤلاء المؤلفين ، ورفض أن يدفع ثمن الوجبة التى
أصابها ، وقال لصاحب الحانة : " اذا كنت غير راض ، فسأكتب مقالة "

أهجوك فيها هجاء لاذعاً ، • وفي الأسبوع الماضي ، على ظهر سفينة من السفن ، قام كاتب آخر بقذف أسرة مستشار من مستشارى الدولة بأشنع الشتائم ، وتناول بالشتيم امرأته وابنته خاصة • ومؤلف ثالث ، لم يمكن طرده من أحد محال بيع الحلوى الا ركلاً بالارجل !... هؤلاء هم الأدباء ، هؤلاء هم الكتاب ، والطلاب ! أف !... أما أنت فانصرفى الآن ، ولكن اعلمى أننى أراقبك ، فاياك ثم اياك ... مفهوم ؟

أخذت لويزا ايفانوفنا ، وقد ازدادت تلطفاً وتودداً عن ذى قبل ، أخذت تتحنى انحاء الاحترام فى جميع الاتجاهات ، وما زالت تتقهقر الى وراء أثناء هذا الانحاء حتى بلغت الباب • ولكنها حين بلغت الباب صدمت بمؤخرتها ضابطاً مهيباً يزدان وجهه النظر المتفتح بلحيتين شقراوين على الوجنتين • انه نيكوديم فومتش ، مفوض الشرطة بذاته • أسرع لويزا ايفانوفنا تتحنى احتراماً له ، حتى كادت تلامس الأرض من شدة الانحاء ، ثم ولّت هاربة من المكتب بخطوات صغيرة متواثبة • قال نيكوديم فومتش يخاطب ايليا بتروفتش ، بلهجة محبة ودود :

— ماذا ؟ أعاد هزيم الرعد ، أعاد قصف الصاعقة ، والعاصفة ، والاعصار ؟ هل أغضبوك مرة أخرى فاستسلمت للغضب ؟ لقد سمعت كل شيء وأنا أصعد السلم !

قال ايليا بتروفتش باهمال نبيل وهو ينتقل من منضدة الى أخرى ، متقلّ الذراعين بأوراق ، مرتجحاً عطفه تريحاً جميلاً ، عند كل خطوة ، على عادته :

— ما جيلتى ؟ انظر الى هذا السيد مثلاً : هو كاتب ، هو طالب أو

طالب سابق ، يرفض أن يدفع ما عليه من ديون ، يوقع مستندات ، يرفض اخلاء المكان ؛ ثم هو ، رغم الشكاوى الكثيرة التى أودعت ضده ، ينزعج لأننى أدخّن سيجارة بحضوره • ألا فانظروا قليلاً الى حملة الأقلام هؤلاء • هذا نموذج لهم ، هذه عيّنة تمثلهم بحسنها وروعتها أجمل تمثيل !

قال نيكوديم فومتش :

- ليس الفقر عاراً يا صديقى • ونحن نعلم أنك لا تطيق احتمال أى انزعاج ...

ثم اتجه الى راسكولنيكوف فقال له بكثير من اللطف والمودة :
- أغلب الظن أنك توهمت أنه أراد الاساءة الى شعورك ، فلم تستطع أن تسيطر على نفسك • ولكنك أخطأت : ثق أن هذا الرجل من أنبل الرجال • ولكننى أعترف لك بأنه عنيف ، عنيف كالبارود ، كالبارود ... يشتعل ، يفرقع ، ينفجر ، ولكن كل شئ ينتهى بعد ذلك! ولا يبقى الا قلبه الذى هو من ذهب ... حتى لقد أطلق عليه لقب « الليوتنان بارود » منذ كان ضابطاً فى الكتيبة •

صاح ايليا بتروفتش يقول وقد أرضت هذه الكلمات غروره ، ولكنه ما يزال عابساً بعض العبوس :
- ويا لها من كتيبة !

شعر راسكولنيكوف برغبة مفاجئة فى أن يخاطبهم جميعاً بكلام لطيف ودود الى أبعد حدود اللطف والود • فبدأ يقول بلهجة طليقة ، متجهماً بكلامه الى نيكوديم فومتش :

- انظر يا كابتن ، ضح نفسك فى مكائى ... أنا مستعد لأن أعذر الى السيد الليوتنان ، اذا كنت قد أخطأت فى حق أى خطأ • أنا

طالب فقير ، مريض ، مرهق (هذا ما قاله .: مرهق) بالبؤس . أو قل
انتى كنت طالباً فى الماضى ، ثم أصبحت عاجزاً عن سدّ حاجتى فتركت
الدراسة . ولكننى سألتقى مالاَ بعد قليل . ان أمى وأختى تعيشان
فى اقليم س . . . ، وسوف ترسلان الىَ مالاَ فأدفع ما علىَ . ان لصاحبة
البيت الذى أقيم فيه قلباً طيباً كريماً ، ولكنها غضبت كثيراً ، لأننى
فقدت موردى من اعطاء دروس خاصة ، فأصبحت لا أدفع لها أجر
مسكنى منذ أربعة أشهر تقريباً ، حتى لقد بلغ الغضب بها أنها أصبحت
لا تبعث الىَ بوجبات الطعام . لذلك ترانى لا أفهم من أمر هذا السند
شيئاً . أهى طالبينى بمال مستعينةً بهذا السند الذى وقته لها ؟ ولكن
من أين أجيء بمالٍ أدفعه ؟ احكموا فى الأمر بأنفسكم !

عاد السكرتير يقول من جديد :

— هذا أمر ليس من شأننا !

فاستأنف راسكولنيكوف كلامه مخاطباً نيكوديم فومتش ،
لا السكرتير ، ومجاولاً أن يخاطب فى الوقت نفسه ايليا بتروفتش ،
رغم أن هذا كان منهمكاً بأوراقه، وكان يقابله بقلة الاكتراث وبالاحتقار،
قال :

— اسمع لى ، اسمع لى ، أنا أوافقك كل الموافقة ، ولكن اسمع
لى أيضاً أن أشرح ظروفى ؛ اسمع لى أن أذكرك من جهتى أنتى
أسكن عندها منذ ما يقرب من ثلاث سنين ، منذ وصلت من الأقاليم ،
وأنتى قبل كل شيء ، قبل كل شيء . . . الأمر . . . نعم ، لماذا لا أعترف
أنا أيضاً بأننى منذ البداية قد وعدتها بأن أتزوج ابنتها ؟ . . . نعم لقد
وعدتها بذلك كلاماً . . . وكانت ابنتها فتاة . . . أعجبتنى على كل حال ،
وان لم أكن قد تولعت بحبها ! هو الشباب ، باختصار ! فكانت صاحبة

البيت تمهلنى فى الدفع كئيراً ٠٠٠ وكنت أعيش حياة تتصف بكثير من
٠٠٠ نعم ، كنت منقلب الهوى ٠٠٠

قاطعہ ايليا بتروفتش بفظاظه ، شاعراً بالاتصار :

- ما من أحد يسألك أن تذكر تفاصيل من هذا النوع عن حياتك
الخاصة أيها السيد ، ثم ان وقتنا ليس فيه متسع للاصغاء اليك ٠٠٠
ولكن راسكولنيكوف سارع يقاطعه بعنف ، رغم أنه أصبح يشق
عليه الى أبعد حدود المشقة أن يقول أى شئ . قال يرد :

- لا ، اسمح لى ، اسمح لى أن أروى لك من جهتى كيف جرت
الأمر ٠٠٠ وأن أرويها لك مرتبة ، رغم أنني أوافقك على أنه ليس من
المفيد أن أقص عليكم هذا كله ٠٠٠ اليكم ما حدث : منذ سنة ، ماتت
تلك الفتاة بمرض التيفوس ، وبقيت أنا مستأجراً للمسكن الذى أقيم
فيه ، فلما جاءت صاحبة البيت تقيم حيث تقيم الآن قالت لى (قالت لى
ذلك بصدقة ومودة) : انها تثق بى ثقة مطلقة، ولكنها سألتنى ألا أستطيع
أن أوقع لها سنداً بمبلغ مائة وخمسين روبلاً ، هو المبلغ الذى تعتقد
أننى مدين لها به ؟ اسمح لى ٠٠٠ لقد قالت لى بالحرف الواحد انها ستظل
تمهلنى بعد تسليمها هذا السند ، ستظل تمهلنى فى الدفع ما شئت ،
وانها لن تستخدم بحال من الأحوال ، بحال من الأحوال - هذه أقوالها
هى - لن تستخدم هذا السند اذا لم أدفع من تلقاء نفسى . وها هى ذى
الآن ، بعد أن فقدت موردى من الدروس ، وبعد أن أصبحت لا أملك
ما أقتات به ، تقدم السند للسلطات من أجل تحصيله . فما رأيكم
فى هذا ؟

قال له ايليا بتروفتش بوقاحة :

- ان هذه التفاصيل المؤثرة لا تعيننا فى شئ . أيها السيد ! عليك أن

توقع الافادة والتمهد ... أما أنك كنت مولهاً بحب الفتاة أو أنك لم
تكن مولهاً بحبها ، وأما الظروف المحزنة التي أعقبت ذلك ... فهذا كله
لا شأن لنا به البتة !

دمدم نيكوديم فوميتش يقول لصاحبه الليوتسان وهو يجلس الى
مكتبه ويمضى يوقع بعض الأوراق :
- أحسب أنك تقسو كثيراً !

لقد شعر نيكوديم فوميتش بشيء من الحرج .
قال السكرتير لراسكولنيكوف :

- اكتب !

فسأله راسكولنيكوف بلهجة فظة :

- ماذا اكتب ؟

- سأملئ عليك ...

دخل الى راسكولنيكوف أن السكرتير اصبح يعامله بمزيد من
الازدراء والاحتقار بعد تلك الاعترافات التي أوردها . ولكن الشيء
الغريب هو أن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة لا يبالي بالرأى
الذى قد يراه غيره فيه . وقد حدث له هذا الانقلاب بمثل لمح البصر
سرعة ، حدث له فى ثانية واحدة ، فلو شاء أن يفكر لحظة واحدة
لأدهشه فى أغلب الظن أن يكون قد حدث هؤلاء الموظفين على هذا
النحو ، وأن يكون قد أجبرهم على سماع مُسارَّاته . من أين جاءته
هذه الحالة النفسية الجديدة ؟ لو امتلأت الفرقة الآن لا برجال شرطة بل
بأصدقاء حميمين لكان عاجزاً عن أن يوجه اليهم كلمة فيها شيء من مودة
وصدق ، وذلك من فرط الفراغ الذى أصيب به قلبه . ان احساساً
غامضاً بالوحدة ، احساساً مبهماً بعزلة أُلْمَة لا نهاية لها ، قد اجتاح

شعوره على حين فجأة . لا ، ليس صفار اعترافاته العاطفية امام ايليا بروفيتش لا ولا صفار انتصار الليوتنان عليه هو الذى هز قلبه هزاً يبلغ هذا المبلغ من العمق . آه . . . انه ليس يعنيه الآن أن يكون فيه صفار ، وأن يكون فى الآخرين صفار ، وليست تعنيه المطامع ، ولا الرجال الذين هم برتبة ليوتنان ، ولا النساء الألمانيات ، ولا تحصيل السندات ، ولا المكاتب ، ولا غير ذلك ! . . . انه لو حكم عليه بالحرق حياً فى هذه اللحظة ، لما قام بحركة واحدة ، ولما زاد على أن يصفى الى الحكم الذى صدر عليه ، اذا هو أصفى . ان شيئاً جديداً كل الجدة قد تحقق الآن فى كيانه ، شيئاً لم يعرفه حتى ذلك الحين ، شيئاً هو حادث لا يتبأ به ولا سابقة له . ان راسكولنيكوف لم يدرك ذلك الشيء ، ولكنه كان يحس احساساً واضحاً بأنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب هؤلاء الناس ، هؤلاء الموظفين فى قسم الشرطة بالحى ، لا يستطيع أن يخاطبهم بأى كلام فضلاً عن الافضاء اليهم بعواطفه الشخصية ومشاعره الحميمية كما فعل منذ قليل . بل لقد أحسن راسكولنيكوف أنه أصبح لا يستطيع أن يخاطب أقرب اقربائه بحال من الأحوال ، ولو كانوا اخوة وأخوات . ان راسكولنيكوف لم يكن قد شعر حتى تلك الدقيقة ، فى يوم من الأيام ، باحساس يبلغ هذا المبلغ من الهول . والأمر الذى كان يؤلمه مزيداً من الألم هو أن ما يشعر به كان احساساً ولم يكن فكرة . نعم كان احساساً مباشراً ، كان احساساً أشد ايلاًماً من جميع الاحساسات التى شعر بها طوال حياته .

ألمى عليه السكرتير صيغة الاقرار المستعملة فى هذه الحالة :
« لا أستطيع أن أدفع . أتعهد بالدفع بتاريخ كذا . لن أغادر المدينة .
لن أبيع أشياءي ، ولن أتنازل عنها لأحد ، الخ ، .
قال له السكرتير وهو ينظر اليه متعجباً :



واسکولنیکوف

- أرى أنك لا تستطيع الكتابة ، وأن القلم يسقط من يدك .
أنت مريض ؟

- نعم ... اشعر بدوار فى رأسى ... ولكن أكمل مع ذلك
- انتهى ! لم يبق عليك الا أن توقع .

وقع راسكولنيكوف الاقرار ، فتناول السكرتير الورقة وانصر
عنه الى الاهتمام بأشخاص آخرين .

رد راسكولنيكوف الريشة الى مكانها ، ولكنه بدلاً من أن ينهز
ويذهب ، وضع كوعيه على المنضدة ، وضغط رأسه بين يديه . كان يشـ
كان مسماراً قد دُق فى قمة جمجمته . ووافقه فكرة غريبة على ر
فجأة : أن ينهض فوراً فيقترب من نيكوديم فوميتش ويقص عليه
ما حدث فى الليلة البارحة ، كل ما حدث ، حتى أيسر التفاصيل ، و
يقوده بعد ذلك الى غرفته ، فيريه الأشياء هناك ، عند الركن ، فى القبر
وبلغت رغبته فى ذلك من القوة أنه نهض ليضع مشروعه موضع التنفـ
لكنه لم يلبث أن قال لنفسه : « ربما كان علىّ أولاً أن افكر لحظة » ،
ثم سرعان ما أضاف يقول : « لا بل الأفضل أن لا افكر البتة وأن أتخذ
من كل شىء دفعة واحدة » . وها هو ذا يتوقف فجأة كمن تسمـ
مكانه : كان نيكوديم فوميتش يتحدث بحرارة الى ايليا بتروفيتش
فاستطاع راسكولنيكوف أن يلتقط من حديثهما هذه الجملة :

- لا ، مستحيل ، سوف يخلى سبيلهما كليهما ! أولاً ، هناك تناقض
احكم فى الأمر بنفسك : لو كانا هما القاتلين فلماذا يستدعيان البواب
ألفضحا أمرهما وليشيا بنفسيهما ؟ أم تراهما استدعياه من باب المكر
ألا ان هذا ليكون اسرافاً فى المكر ! ثم ان الطالب بسترباكوف قد ر
البوابان ورأته امرأة قرب باب العمارة لحظة دخوله . وكان فى صحـ

ثلاثة أصدقاء ودّعهم عند المدخل . وبحضور اصدقائه هؤلاء انما سأل اين يوجد مسكن العجوز . فكّر قليلاً : أكان يلقي هذا السؤال لو أنه جاء لهدف كهذا الهدف ؟ أما كوخ فقد قضى نصف ساعة تحت ، عند بائع الجواهر ، قبل أن يصعد الى بيت العجوز ، وهكذا يكون قد ترك بائع الجواهر وصعد الى بيت العجوز فى الساعة الثامنة الا ربعاً على وجه التحديد ففكر الآن

– اسمح لى ! فكيف نفسّر هذا التناقض الشديد فى أقوالهما ؟ هما يؤكدان أنهما قرعا الباب ، وأن الباب كان مغلقاً ، ثم يؤكدان أن الباب كان مفتوحاً بعد ثلاث دقائق حين عادا يصعدان فى صحبة البواب . فما تفسير هذا التناقض ؟

– هنا انما يكمن سر القضية : لقد كان القاتل فى داخل البيت حتماً ، وكان قد أوصد الباب بالمزلاج ، ولا بد أننا كنا سنكتشفه لولا أن كوخ قد ارتكب تلك الحماقة فمضى يبحث عن البواب هو أيضاً . وفى تلك الفترة بعينها ، أعنى الفترة التى انقضت بين نزول كوخ وصعود الثلاثة انما تمكن القاتل من هبوط السلم ، واستطاع أن يتسلل من بين أيديهم بطريقة أو بأخرى . ان كوخ الآن يرسم على نفسه اشارة الصليب بكتفا يديه قائلاً : « لو قد لبثت فوق ، اذن لوئب علىّ وقتلتى بساطوره ! » ان كوخ ينوى أن تقام له فى الكنيسة صلاة شكر لله على ما خصه به من نعمة النجاة ! هـ . هـ . هـ

– والقاتل ، ألم يره أحد ؟

– كيف يمكن أن يراه أحد ؟ ان المنزل أشبه بسفينة نوح .
بهذا عقّب السكرتير الذى كان يصفى الى الحديث من مكانه .
وكرر نيكوديم فوميتش يقول بحرارة شديدة :

- أقول لكم ان القضية واضحة ، واضحة جداً !

فقال ايليا بتروفيتش مرعداً :

- لا ، ليست واضحة البتة !

رفع راسكولنيكوف قبعته ، واتجه نحو الباب ولكنه لم يبلغه ...

فلما أفاق من غيبوته رأى نفسه جالساً على كرسى ، ورأى رجلاً
يسنده من يمين ، وآخر يسنده من شمال ، ورأى كأساً مملوءة بماء
أصفر ، ورأى نيكوديم فوميتش واقفاً أمامه يحدثق اليه ويتفرس فيه .

نهض راسكولنيكوف عن كرسیه .

فسأله نيكوديم فوميتش بلهجة مباغتة :

- ماذا بك ؟ أنت مريض ؟

فقال السكرتير وهو يرجع الى منضدته ويرتد الى أوراقه :

- انه ، منذ كان يكتب الاقرار ، كان لا يكاد يستطيع تحريك
قلمه !

وصاح ايليا بتروفيتش من مكانه وقد عاد يرتب أوراقه هو أيضاً ،
صاح يسأله :

- أنت مريض منذ مدة طويلة ؟

كان ايليا بتروفيتش قد لاحظ المريض طبعاً أثناء اغماثه ، ولكنه
ابتعد فوراً منذ رآه يفيق .

لم يزد راسكولنيكوف فى الاجابة عن سؤال ايليا بتروفيتش على أن
دمدم يقول :

- منذ أمس ...

- وهل خرجت أمس ؟
- نعم خرجت •
- مريضاً •
- مريضاً •
- فى أية ساعة ؟
- فى الساعة السابعة من المساء •
- الى أين ذهبت ؟ اسمح لى أن ألقى عليك هذا السؤال •
- الى الشارع !
- جواب مختصر مفيد !
- كان راسكولنيكوف شاحباً شحوباً شديداً • وقد أجاب عن تلك الأسئلة بصوت خشن منقطع دون أن يفض عينيه السوداوين المشتعلتين أمام نظرات ايليا بتروفيتش •
- هو لا يكاد يستطيع الوقوف على قدميه ، وأنت ...
- فأجابه ايليا بتروفيتش بنبرة غريبة بعض الغرابة :
- لا ... بأ ... س ! ...
- أراد نيكوديم فوميتش أن يضيف شيئاً آخر ، ولكنه أمسك عن الكلام حين ألقى نظرة على السكرتير الذى كان يحدق اليه من مكانه •
- وصمت الجميع فجأة • شئ غريب •
- ثم قال ايليا بتروفيتش يختم الحديث :
- طيب ! فى وسعك أن تنصرف •

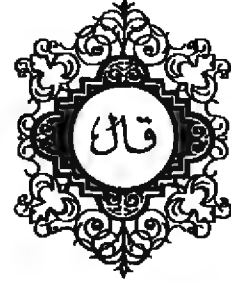
خرج راسكولنيكوف • ولكنه استطاع أثناء خروجه أن يسمع
استئناف الحديث حاراً محتملاً • وبين جميع الأصوات كان صوت نيكوديم
فوميتش ، المتسائل المستفسر ، أكثرها وضوحاً وتميزاً • حتى اذا صار
راسكولنيكوف فى الشارع تاب اليه كل وعيه وعاد اليه كل شعوره •

– تفتيش ! تفتيش ! سيقومون بتفتيش فوراً ! يا للصوص ! انهم
يشبهون فى !...•

كذلك كان يردد راسكولنيكوف بينه وبين نفسه مغذاً خطاه للرجوع
الى بيته •

لقد عاد الخوف يستبد به من أخمص قدميه الى قمة رأسه •

الفصل الثاني



راسكولنيكوف متسائلاً : « وماذا لو كان التفتيش قد تم ؟ ماذا لو وجدتهم في بيتي ؟ » .

ولكن راسكولنيكوف عاد الى بيته فلم يجد فيه أحداً ، ولا كان أحد قد جاء يفتشه . حتى نامتاسيا لم تلمس شيئاً . ولكن رياه ! كيف أمكنه أن يدع هذه الأشياء في الثقب منذ قليل ؟

أسرع راسكولنيكوف نحو الركن ، ودسَّ يده وراء الورق ، وأخذ يخرج منه الأشياء فيدسّها في جيوبه واحداً تلو آخر . عرف أن مجموع الأشياء ثمانية : علبتان صغيرتان تضمان أقراطاً للأذان أو ما يشبه ذلك (لم يدقق كثيراً) ، ثم أربع علب صغيرة من الجلد ، فيها جواهر ؛ ثم سلسلة كانت ملفوفة بورقة من ورق الجرائد ؛ ثم شيء آخر ملفوف بورقة من ورق الجرائد أيضاً ، وأغلب الظن أنه وسام

وزرّع هذه الأشياء على مختلف جيوب معطفه ، ووضع بعضها في الجيب الأيمن من سرواله ، وهو الجيب الوحيد الذي بقي للسروال ؛ وجهد أن يدسّها في هذه الجيوب بحيث لا تمكن رؤية شيء من خارج . وتناول حافظة النقود أيضاً . ثم خرج من الغرفة مسرعاً حتى لقد ترك بابها في هذه المرة مفتوحاً تماماً .

كان يمشى بخطى سريعة ثابتة . ورغم أنه كان محطماً فقد كان

يعنى الحالة التى هو فيها • كان يخشى أن يلاحق ويطارد ، كان يخشى أن يبدأ التحقيق معه بعد نصف ساعة ، وربما بعد ربع ساعة • فلا بد له إذن ، مهما كلف الأمر ، أن يفتب هذه الأشياء التى تبث ارتكابه جريمة القتل ؛ لا بد له أن يتخلص منها ما ملك بعض قوة ، وبعض تفكير ... ولكن الى أين يذهب ؟

كان قد عزم على هذا الأمر وبت فيه : « أن يرمى جميع الأشياء فى القناة ، فسقط الانبثات فى الماء ، وتسقط معها القضية ! » • ذلك ما كان قد عزم عليه فى الليلة السابقة ، أثناء هذيانه ، فى تلك اللحظات التى كانت تلوذ فيها ذاكرته من حين الى حين ، فيحاول أن ينهض وأن يخرج قائلاً لنفسه : « أسرع ، أسرع ، ، تخلص من هذا كله ! » •

ولكن التخلص من هذه الأشياء لم يكن سهلاً •

ظل راسكولنيكوف يتجول مدة ربع ساعة على طول قناة كاترين ، ونظر مراراً الى السلاالم التى تهبط الى الماء ، فكان لا يجوز أن يخطر بباله أن يضع مشروعه موضع التنفيذ ، فاما أن قارباً يوجد عند أسفل الدرجات وعليه نساء يغسلن غسيلهن ، واما أن مراكب قد ربطت هنالك بالأفلاس ... أى أن جميع الأمكنة تعج بالناس • هذا عدا أن فى الامكان أن يرى وأن يراقب من على أرصفة الشاطئ • أليس أمراً يبعث على الشبهة والريبة أن ينزل رجل الى تحت ، عمداً ، ثم يتوقف ليرمى شيئاً من الأشياء فى الماء ؟ وماذا لو طافت العلب على سطح الماء بدلاً من أن تنوص الى القاع ؟ لا شك أنها ستطفو ، ولا شك أن جميع الناس سيرونها ! بل ان جميع من لقيهم فى طريقه حتى الآن كانوا يتفرون فيه كأنهم لا هم لهم سواء ! قال لنفسه : « لماذا يتفرون فى هذا التفرس ؟ اللهم الا أن يكون هذا دعماً منى لا أكثر ! »

وخطر بباله أخيراً أنه ربما كان الأفضل أن يذهب الى مكان ما على شاطئ "نهر نيفا" ان شاطئ "نهر نيفا" لا يسبح بالناس كما يسبح بهم شاطئ "القناة" فهناك لن يلاحظ كما يلاحظ هنا ، وهناك يكون رمى الأشياء في الماء أسهل منه هنا على كل حال ؛ وهو هناك أبعد عن "المكان" الذي وقعت فيه الحادثة منه هنا ؛ نعم ، هذا خاصة ؛ وسرعان ما دهنس على حين فجأة : كيف أمكنه أن يظل يطوف مدة نصف ساعة ، قلقاً خائفاً ، في أمكنة خطيرة هذا الخطر كله ، دون أن يدرك هذا الأمر قبل هذه اللحظة ؟ كيف يظل يطوف طول هذه المدة لا شيء الا أن ينقذ مشروعاً تصوره في نومه أثناء هذيان ؟ اذن لقد أصبح ذاهلاً الى أبعد حدود الذهول ، ولقد أصبح شديد النسيان ! انه يعرف هذه الحقيقة الآن ! لا شك أن عليه أن يسرع . نعم ، ان عليه أن يسرع حقاً !

اتجه نحو نهر نيفا عن طريق شارع "ف" ، غير أن فكرة أخرى وافقه أثناء سيره : " لماذا نهر نيفا ؟ لماذا الماء ؟ أليس الأفضل ان أذهب الى مكان بعيد جداً ، ولو الى الجزر مرة أخرى ، فأختار مكاناً في الغابة خالياً من الناس ، فأدفن كل شيء تحت إحدى الأشجار ، بعد أن أضع على المكان علامة تهديني اليه في المستقبل ؟ ورغم شعوره بأنه عاجز عن التمعن في هذا كله تمعنأ واضحاً ، فان الفكرة قد بدت له سليمة لا اعتراض عليها .

ولكن لم يكتب له أن يبلغ الجزر أيضاً ، وانما جرت الأمور مجرى آخر . فما ان خرج من شارع "ف" الى احد الميادين ، حتى رأى على يساره ، فجأة ، مدخل فناء محاط بجدران كبيرة من جميع الجهات ، ورأى على اليمين ، بعد المدخل مباشرة ، سوراً "طويلاً" بغير ملاط ، هو سور عمارة مجاورة ذات ثلاثة طوابق ؛ ورأى على اليسار ؛ حاجزاً من خشب يوازي ذلك السور ، ويقع بعد المدخل مباشرة ، ويبلغ

طوله نحو عشرين قدماً ثم ينعطف • هذه أرض خلاء تكس فيها أنواع شتى من مواد متروكة مهجورة • فإذا نظر الناظر الى آخر الفناء بعد الحاجز ، رأى ركن سقيفة من حجر ، واطئة ، مسودة من الدخان ، لعلها كانت جزءاً من ورشة • فلا بد أن مصنعا للعجلات أو للأقفال أو شيئاً من هذا القليل كان يقوم هنا ، لأن الأرض سوداء من غبار الفحم فى كل مكان تقريباً منذ باب المدخل • قال راسكولنيكوف لنفسه فجأة : « وجدت ضالتي ! أرمى كل شئ هنا ثم أنصرف ! » • وإذا لم ير أحداً فى الفناء ، أسرع بيجتاز الباب ، فإذا هو يلمح ، فى تلك اللحظة نفسها ، مزراباً مثبتاً بالحاجز الخشبي ، بمثابة مبولة (كما يوضع مثله كثيراً فى المحلات التى من هذا النوع ، حيث يكثر العمال وأصحاب الحرف والحوذون وأشبههم) : وفوق المزراب كُتبت على السياج ، بالطباشير ، الجملة التى تكتب عادة من باب المزاح ، بخط ردىء وأخطاء املائية : « ممنوع الوقوف هنا » • قال راسكولنيكوف يضبط نفسه : لهذا المكان هذه الميزة على الأقل ، وهى أن أحداً لن يشتبه فى أتتى دخلته ووقفت فيه • وأضاف : « أرمى هنا كل شئ ، كل شئ ، دفعة واحدة ، كدسة واحدة ، ثم أمضى ! » •

وألقي على ما حوله نظرة أخرى ، وفيما كان يدخل يده فى جيبه إذا هو يرى ، حذاء الجدار ، فى المسافة التى تفصل الباب عن المبولة ولا يزيد طولها عن خطوتين ، صخرة غير منحوتة يمكن أن يكون وزنها نحو عشرة كيلوجرامات • ان الرصيف يقع خلف الجدار فى الشارع • وان وقع أقدام المارة ، وهم كثر دائماً فى هذا المكان ، يُسمع فى الداخل • ولكن أحداً لا يستطيع أن يراه فى هذه الجهة من الباب الا اذا دخل ، وذلك أمر يمكن أن يحدث ، فلا بد لراسكولنيكوف انذن أن يصرع •

مال راسكولنيكوف على الصخرة فأمسك أعلاها بيديه كليهما
امسكاً قوياً ، واستجمع قواه كلها ، فزحزح الصخرة من مكانها . ان
حفرة صغيرة كانت قد تشكلت تحت الصخرة . فسرعان ما أخذ
راسكولنيكوف يرمى في هذه الحفرة كل ما كان في جيوبه ، وكانت
حافطة النقود آخر شيء رماه ، فكان مكانها فوق سائر الأشياء الأخرى
وبقى في الحفرة متسع . ثم أمسك بالصخرة من جديد ، وردها الى
وضعها الأصلي مرة واحدة ، فلا يكاد يبدو أنها ارتفعت عن وضعها
الأصلي الا قليلاً . ولكن راسكولنيكوف نبش الأرض ، وكوم قليلاً
من التراب حول الصخرة حتى أصبح من المستحيل أن يُلاحظ أى
تغير . وبعد ذلك خرج واتجه نحو الميدان ، فاذا هو مرة أخرى ،
كما حدث له في مكتب الشرطة منذ قليل ، يشعر بفرح قوى جارف
يستبد به لحظة . قال يحدث نفسه : « ما هي ذى الالباتات قد دفنت
في باطن الأرض ! منذ ذا الذى يخطر على باله أن يبحث عنها تحت هذه
الصخرة ؟ لعل هذه الصخرة موجودة في هذا المكان منذ وجد المنزل ،
ومتظل باقية ما بقى ! وهبهم اكتشفوا الأشياء ، فمن ذا الذى يمكن
أن يشتبه في ؟ انتهى الأمر ! لا براهين بعد الآن ! » وأخذ يضحك .
سوف يتذكر في المستقبل أنه ضحك ضحكاً عصيباً صغيراً أخرس
متصلاً ، وانه كان ما يزال يضحك حين اجتاز الميدان . ولكنه ما ان
دخل شارع ك . . . الذى التقى فيه ليلة أمس الأول بالفتاة ، حتى انقطع
ضحكه فجأة . ان خواطر أخرى توافى ذهنه الآن . بدا له على حين
فجأة أنه سيسمر باشمئزاز لا سبيل الى التغلب عليه حين يمر قرب الدكة
التي جلس عليها بعد انصراف الفتاة ، وأنه سيؤله أشد الايلام أن
يصادف ، من جديد ، الشرطى ذا الشاربين الذى أعطاه حينذاك عشرين
كوبكاً . ودمدم يقول : « شيطان يأخذه ! » .

كان يسير وهو يرمق ما حوله بنظرة ذاهلة خيثة . ان جميع أفكاره تدور الآن حول نقطة واحدة يحس هو نفسه أنها « النقطة الرئيسية » ، وأنه الآن ، الآن على وجه التحديد ، يقف وجهاً لوجه أمام هذه « النقطة الرئيسية » ، وذلك لأول مرة منذ شهرين . ثم اذا هو يقول لنفسه فجأة وقد اعتراه حنق رهيب : « لا شيطان يأخذ هذه القصة . دعنا ! ما دامت القصة قد بدأت ، ما دامت قد بدأت ، فلتذهب الى الشيطان ... هي و « الحياة الجديدة » ! ما أغباني ! ما اكر ما صنعت اليوم من أكاذيب ! ما اكر ما ارتكبت اليوم من حقايات ! ما أبشع ما أظهرته من تزلف وصغار ، منذ قليل ، أمام ذلك التفاه ايليا بتروفيتش ! ... على كل حال ... لا خير ... اتى لا أكثر بهم ، لا أكثر بهم ولا بأنى أظهرت لهم تزلفاً وصغاراً ! ليس هذا هو الأمر ... ليس هنا هو الأمر البتة ! » .

وتوقف فجأة . ان سؤالاً جديداً لم يكن في حسبانته قط ، سؤالاً بسيطاً غاية البساطة ، يحيره الآن ويصعقه صعباً . قال يسأل نفسه : « لو كنت قد نفذت هذا الأمر عن وعى حقاً ، لا على نحو يبلغ هذا المبلغ من البلاء ، لو كانت لك غاية محددة تماماً مرسومة تماماً ، فكيف تفسر أنك الى هذه اللحظة لم تلق نظرة واحدة على ما تحويه حافظة النقود ، وأنت لا تعرف ما الذى أردت أن تحنيه ولا تدرك الهدف الذى ارتضيت فى سبيله أن تحتل كل هذا العذاب وارتضيت فى سبيله عامداً أن ترتكب عملاً يبلغ هذا المبلغ من الحقايرة والحسنة والدناية ؟ ألم تكن تريد منذ لحظة أن ترمى فى الماء حافظة النقود هذه وجميع تلك الجواهر التى لم تكلف نفسك حتى عناء النظر اليها ؟ كيف تفسر هذا كله ؟ » .

نعم هذه هى الحقيقة ! هذه هى الحقيقة تماماً ! وكان هو يعلم هذه

الحقيقة منذ مدة • ان هذا السؤال ليس جديداً عليه • انه حين قرر في الليل أن يرمى كل شيء في الماء ، انما قرر هذا القرار بدون أى تردد ، وبدون أية محاكمة ، كما لو كان ينبغي له أن يفعل هذا نفسه لا أى شيء سواه ••• نعم انه يعلم كل هذا ، وانه يتذكر كل هذا ، حتى ليكاد يكون قد اتخذ قراره ذاك منذ البارحة ، لحظة كان ينشئ صندوق المعجوز ويخرج منه العلب ••• اذن ماذا ؟! •••

• اذن أنا مريض جداً (الى هذه النتيجة وصل راسكولنيكوف جازماً) • لقد عذبت نفسي ومزقت نفسي وصرت أنا نفسي لا أعرف ماذا أفعل ••• وامس ، وأمس الأول ، وفي جميع تلك الأيام الأخيرة ، كنت امزق نفسي بغير انقطاع • حين سأشفي من مرضي ، فلن ••• لن أمزق نفسي بعد ذلك ••• ولكن ماذا ••• ماذا اذا لم يكتب لي الشفاء يا رب ؟ آه ! ان هذا فوق طاقتي ! ••• •

كان راسكولنيكوف يسير بلا تردد • كان يرغب رغبة رهية في أن يسلمو على أى نحو من الانحاء ، ولكنه لا يعرف ماذا يعمل من أجل أن يسلمو • وهذا احساس جديد لا يستطيع تحديده يحتاج نفسه شيئاً بعد شيء ويشد في كل دقيقة • هو نوع من اشمزاز لا حد له ، اشمزاز يشبه أن يكون جسمياً ، اشمزاز من كل ما يحيط به ومن كل ما يراه في طريقه ، اشمزاز عنيد ، كاسر ، حاقد ، مبغض • ان جميع المارة الذين يلقاهم كريهون ، كريهة وجوههم ، كريهة حركاتهم ، وحتى مشيتهم كريهة • لو توجه أحد اليه بكلام في هذه اللحظة ، لما زاد على أن يبصق في وجهه ، ولربما عضه •

وتوقف عن السير فجأة ، لحظة صار على رصيف « نيفا الصغير » في جزيرة فاسيلفسكي قرب الجسر • قال لنفسه : « انه يسكن هنا في هذا البيت ! ما معنى هذا ؟ لقد جئت اذن الى رازوميين رغم ارادتي !

ها قد تكرر اليوم عين ما حدث في ذلك اليوم ... ولكن هذا أمر عجيب جداً : أنا جئت الى هنا واعياً عامداً أم أنتى مشيت على غير هدى فاذا بى أصل الى هذا المكان مصادفة ؟ ... لا بأس ! كنت أقول ... أمس الأول ... انتى سأذهب اليه غداً قيامى بذلك * العمل ، ... طيب ... أى ضير فى هذا ؟ سأذهب اليه ! ماذا جرى ؟ لكأتى الآن لا أجزؤ أن أذهب اليه ... *

وصعد الى الطابق الرابع حيث يسكن رازوميخين *

كان رازوميخين فى بيته ، فى غرفته الصغيرة ، يعمل ، يكتب * فتح الباب بنفسه * انهما لم يلتقيا منذ أربعة أشهر * كان رازوميخين يرتدى ثوباً مهترئاً يكاد يكون خرقه بالية ، وكان عارى القدمين الا من بابوچ ؟ ولم يكن قد حلق ذقنه ولا غسل وجهه ، ولا مشط شعره *

عبرت هيبته عن الدهشة والاستغراب حين رأى رفيقه داخلاً عليه ، فهتف يقول وهو يتفرس فيه من قمة الرأس الى أخمص القدمين :

— ماذا ؟ أنت ؟

ثم صمت وصفراً ، ثم أردف يقول وهو ينظر الى اسمال راسكولنيكوف الرثة :

— هل من الممكن أن تكون احوالك سيئة الى هذا الحد ؟ اجلس ، اجلس ! لا بد أنك متعب !

وحين تهالك راسكولنيكوف على الأريكة التركية المنجدة بقماش مشمع ، وهى أسوأ حالاً من أريكته ، أدرك رازوميخين فجأة أن رفيقه مريض فقال له :

- هيثك تدل على انك مريض فعلاً !
وجسَّ بنضه ، فسحب راسكولنيكوف يده بفظاظة ، وقال له :
- لا داعى الى ذلك • لقد جئت ••• اليك السبب الذى دفعنى الى
الـمـجـىء : فقدت جميع الدروس التى كنت أعطيها ••• أود أن احصل ••
ولو على ••• لكن لا داعى الى ذلك ••• أصبحت فى غير حاجة الى
دروس •••

سأله رازوميخين وهو يتفرس فيه باتباه :

- ولكن قل لى ، أأنت تهذى ؟

- لا ••• لست أهدى !

قال راسكولنيكوف ذلك ونهض عن الأريكة • انه حين صعد الى
رازوميخين لم يخطر بباله أنه سيكون عليه أن يراه وجهاً لوجه •
وها هو ذا يلاحظ الآن على حين فجأة أنه لا نى • يضايقه أكثر مما يضايقه
أن يرى أى انسان من الناس وجهاً لوجه • ان كل ما فى نفسه من بغض
قد تار الآن • ولقد أوشك أن يختنق غضباً من نفسه منذ أن اجتاز عتبة
بيت رازوميخين •

قال فجأة :

- وداعاً !

- واتجه نحو الباب •

- ولكن انتظر ! انتظر يا مختل !

فعاد راسكولنيكوف يقول وهو يسحب يده من جديد :

- لا داعى !

سأله رازوميخين :

— فلماذا جئت اذن ؟ أتراك جئت ؟ ان فى سلوكك هذا ما يشبه
أن يكون اهانة لى • لن أدعك تنصرف وأنت على هذه الحال •
— اذن فاسمع ! لقد جئت اليك لأننى لا أعرف أحداً غيرك يمكن
أن يساعدنى ••• نعم جئت اليك لأنك أفضل منهم جميعاً ، لأنك أذكى
منهم جميعاً ، ولأنك حصيف الرأى شديد الحكم • ولكننى أرى الآن
أننى لست فى حاجة الى شئ • هل تسمع ؟ لست فى حاجة الى شئ •
اطلاقاً ••• لا الى خدمات أحد ولا الى عطف أحد ••• سأدبر أمورى
••• بنفسى ، وحدى • نعم ••• يكفى هذا • دعونى وشأنى أتم
جميعاً ! •••

— ولكن انتظر لحظة يا سخيـف ! أنت مجنون ، مجنون تماماً !
لن ترحزخنى عن اعتقادى هذا ! ولكن اسمع قليلاً : أما الدروس فأنا
نفسى لا أعطى الآن دروساً ، لا ولا أكثر بالدروس ! غير أن عندى
فى السوق صاحب مكتبة اسمه خيروفيموف ، هو فى رأى خير درس ،
ولو ساومنى تجاراً على أن أبيعهُ بخمسة دروس لما فعلت ! انه ينشر كتباً
عن العلوم الطبيعية ! لا تستطيع أن تتخيل مدى رواج هذا النوع من
الكتب • ان الناس يتخاطفونها تخاطفاً ! العناوين وحدها تساوى وزنها
ذهباً ! أنت تدعى دائماً أننى غبى ، فاعلم يا عزيزى أن هنالك أناساً أغبى
منى ، أقسم لك على ذلك ! لقد أخذ هو أيضاً يجارى التيار ، ويتبع
الاتجاهات الجديدة • انه شخصياً لا يفهم شيئاً البتة ، ولكننى أشجعه
طبعاً على السير فى هذه الطريق • أنظر مثلاً الى هاتين الملتزمين الكبيرتين
(أقول ملتزمين ولكن هنالك عدداً كبيراً من الملائم) المطبوعتين باللغة
الألمانية • فى رأى أن الكلام الذى تضمنانه ليس الا دجلاً وشعبذة • ان
الكاتب يطرح هذا السؤال : هل المرأة انسان أم هى ليست انساناً • وقد
انتهى الى أن يبرهن بفخامة وجلال على أن المرأة انسان ••• ان



رازو میخین

خيروفيموف يهبي. هذه الأشياء لملاحظتها بقضية المرأة التي تناقض كثيراً في هذه الأيام ؛ وأنا أتولى الترجمة ... وسوف نطيل النص الألماني الذي يتألف من ملزمتين ونصف ملزمة فنجعله ست ملازم ، ونجعل له عنواناً فخماً يملأ نصف صفحة ، ثم نحدد نحن سعر النسخة الواحدة من الكتاب بخمسين كوبكاً . وأنا أتناقش عن ترجمة الملزمة الواحدة ستة روبلات ، أي خمسة عشر روبلاً عن هذا الكتاب . ومتى انتهينا من هذا الكتاب ، فستترجم كتاباً عن الحيتان . وقد اخترنا من كتاب « الاعترافات » عدداً من النماذج التي سترجمها أيضاً . لقد قال أحدهم لخيروفيموف ان روسو يشبه رادتشف * وأنا أتحاشى طبعاً أن أعارضه تيطان يأخذه! ها نحن اذن نصل الى الأمر الأساسي : هل تريد أن تترجم الملزمة الثانية من كتاب « هل المرأة انسان ؟ » اذا كنت تريد أن تفعل ذلك ، فخذ النص على الفور ، وخذ مع النص أفلاماً وورقاً - كل ذلك على نفقة الناشر - واقبل هذه الروبلات الثلاثة ، فاني قد تناقشت سلفاً عن ترجمة الملزمة الأولى والملزمة الثانية ، فتكون هذه الروبلات الثلاثة من حقك . حتى اذا فرغت من ترجمة ملزمتك ، قبضت ثلاثة روبلات أخرى . وانتي لأرجوك خاصة أن لا تتصور أن ما أفعله الآن هو خدمة أقدمها إليك . بالعكس : فاني ما ان رأيتك داخلاً على حتى قلت للنفس : سوف يفيدني كثيراً . فأنا أولاً ضعيف في الاملاء ، وأنا ثانياً أقرب الى الضعف في اللغة الألمانية ؛ لذلك تراني في أكثر الأحيان ألقق وأخترع ، وأعزى نفسي قائلاً ان النتيجة تكون بذلك أفضل . ولكن من يدري ؟ قد لا تجيء النتيجة أفضل بل أسوأ ! هيه ، أتعلم أم لا ؟

تناول راسكولنيكوف النص الألماني صامتاً ، وأخذ الروبلات الثلاثة أيضاً ، ثم خرج وهو ما يزال ساكناً لا ينطق بكلمة واحدة .

وتابعة رازوميخين بنظرانه مشدوهاً • ولكن ما ان وصل راسكولنيكوف الى ناصية الشارع الأول حتى قفل راجعاً على حين فجأة ، وصعد ثانية الى بيت رازوميخين ، فبعد أن وضع الملزمة والروبلاات الثلاثة على المنضدة ، خرج مرةً أخرى دون أن ينطق بكلمة واحدة أيضاً •

قال رازوميخين وقد ثارت نائثرته أخيراً :

— لا شك فى أنك مصاب بحمى حارة ! ما هذه المهزلة التى تمتلها؟
انك تفقدنى صوابى • لماذا رجعت ؟

قال راسكولنيكوف وقد أخذ يهبط السلم :

— لست فى حاجة الى ••• ترجمة !•••

فصرخ رازوميخين يسأله من أعلى :

— أنت فى حاجة الى ماذا اذن ؟

لم يجب راسكولنيكوف •

— اسمع ! أين تسكن الآن ؟

— شيطان يأخذك !

ولكن راسكولنيكوف كان قد صار فى الشارع • وعلى جسر نيقولا * ، اضطر أن يثوب الى رشده مرةً أخرى ، بسبب حادث مزعج وقع له : لقد هوى حوذى على ظهره بضربة سوط أليمة ، لأن راسكولنيكوف لم ينتبه الى تحذيراته التى كررها ثلاث مرات أو أربعاً فكادت تدوسه خيول العربة • وقد أخرجته هذه الضربة عن طوره ، فغضب غضباً بلغ من الشدة أنه صرف بأسنانه ، ووثب الى الافريز (لقد كان يمشى فى وسط الجسر لا حيث يمشى المشاة ، لا يدرى المرء لماذا !) • فانطلقت من حوله الضحكات والتعليقات :

— عظيم !

— لا بد أن يكون مجنوناً !

— حيلة معروفة : يتظاهرون بالسكر ويرتمون عامدين تحت
المجلات ليتزوا تعويضاً !

— من هذا يعيشون يا أصدفائي ، هذا مصدر رزقهم !

ولكن فى تلك اللحظة التى رأى فيها راسكولنيكوف نفسه قرب
الأفريز أخذَ بحكَّ ظهره ، متابعاً بنظرته المشدوّهة الحائقة ، ابتعاد
العربة ، أحسَّ فجأةً بأنَّ أحدًا يدسُّ مالاَ فى يده . ففطر فرأى أمامه
سيدة متقدمة فى السن قليلاً — أغلب الظن أنها زوجة تاجر — على
رأسها قلنسوة من نسيج ، وقدامها فى حذاءين كبيرين ، ومعها فتاة تلبس
قبعةً وتحمل بيدها سمسية خضراء ، ولعلها بنتها . قالت له السيدة وهى
تدس المال فى يده : « خذ هذا يا صاحبي من مال الله . » . أخذ
راسكولنيكوف الصدقة ، وتابعت المرأتان طريقهما . وكانت الصدقة
قطعة نقد فضية قيمتها عشرون كوبكاً . لا شك أنهما ظنّتا من زيه
الغريب ومظهره الزرى أنه شحاذ مخترق . أما المشرون كوبكاً — وهى
مبلغ ضخم بالقياس الى صدقة — فأغلب الظن أنهما أنعمتا بها عليه بسبب
ضربة السوط التى أثارت شفقتهم .

قبض راسكولنيكوف على قطعة النقد بيده ، وسار عشر خطوات ،
ثم التفت يواجه نهر نيفا فى اتجاه « القصر » . كانت السماء صافية
لا يسكرها سحب ، وكان الماء أزرق اللون تقريباً ، وذلك ما لا يتفق الا
فى القليل النادر . وكانت قبة الكاتدرائية * ، التى لا تبرز هذا البروز الا
حين يُنظر إليها من هذا المكان من الجسر ، كانت متألفة ساطعة ، وكان

الناظر اليها يستطيع ، بفضل شفافية الهواء ، أن يميّز أدق زخارفها .
هدأ ألم راسكولنيكوف ، ونسى ضربة السوط التي هوى بها الحوذي على ظهره . ان فكرةً مقلقة مضطربة تشغل الآن ذهنه كله . حدّق ملياً الى هذه الأماكن التي كانت مألوفة له . لقد حدث له في الماضي ، حين كان ما يزال يتردد الى الجامعة * ، حدث له مراراً كثيرة قد تُعدُّ بالمئات ، ولا سيما أثناء عودته الى بيته ، أن وقف في هذا المكان نفسه ، فأخذ يتأمل المشهد الرائع ، فكان يُدهش دائماً من الأثر البهيم الذي يحدثه هذا المشهد في نفسه . لقد كان دائماً ، بعد أن يتأمل هذا المشهد ، يشعر بعاطفة برود غريبة . كان هذا المشهد الفخم يبدو له خالياً من الروح ، يبدو له أخرس عقيماً وكان راسكولنيكوف يُدهش في كل مرة من الاحساس القاتم الملفز الذي يشعر به ، وكان لشكّته في نفسه يرجيء دائماً شرح أسباب ذلك لنفسه . وقد تذكر الآن فجأةً ، بدقة حادة ، جميع المسائل التي هاجمته وحاصرتها ، فبدأ له أنه لا يتذكر هذا كله مصادفةً . ان مجرد توقفه في هذا المكان نفسه الذي كان يتوقف فيه سابقاً قد بدا له غريباً مضحكاً . أكان يظن حقاً أنه ما يزال يستطيع أن يفكر في نفس الأمور وأن يهتم بنفس المشاهد وأن يعنى بنفس الموضوعات التي كانت تستهويه في الماضي وفي الآونة الأخيرة أيضاً ؟ أو شك راسكولنيكوف أن ينفجر ضاحكاً . ولكن قلبه قد انقبض في الوقت نفسه انقباضاً يبلغ درجة العذاب . بدا له أن ماضيه كله ، وأفكاره كلها ، وجميع المسائل والمواقف التي كان يعالجها في الماضي ، ترقد الآن في أسفل ، تحت قدميه ، في قرارة هوةٍ سحيقة لا نهاية لها وأن هذا المشهد نفسه ، وأنه هو ذاته ، وأن كل شيء كل شيء يظير الى مكان ما في الأعلى . كان يبدو له أن كل شيء يختفي ويزول ويغيب نعم ، كل شيء . . . !

وعلى اثر حركة غير ارادية أحسَّ بقطعة النقد الفضية مشدودة
بقبضته ، فبسط يده وتأمل قطعة النقد ملياً ، ثم رماها فى الماء بحركة
يسيرة ، ثم استدار على عقبه وعاد يسير فى طريق بيته • كان يحس فى
نلك اللحظة أنه قطع بالمقص كل صلة بينه وبين العالم •
ولم يرجع الى بيته الا عند هبوط الليل ؛ أى انه ظل يسير سنت
ساعات كاملة • ولو سأله عن الطرق التى سلكها لما استطاع أن يجيبك
بشيء •

خلع ثيابه وهو يرتجف ارتجاف حصان عاجز ، ثم استلقى على
الأريكة ، وغطى نفسه بمعطفه ، فلم يلبث أن غاب عن شعوره •
وأفاق فى وسط ظلام كامل ، حين أيقظته صرخة كريهة ! ماهذه
الصرخة يا رب ! لم يسبق له فى يوم من الأيام أن سمع جلبة رهيبة
بشعة الى هذا الحد : عويل ، ونشيج ، وصريف أسنان ، وصرخات ،
وشتائم لا يتصورها العقل ! ما كان له أن يتخيل همجية كهذه الهمجية ،
ووحشية كهذه الوحشية ! انتصب على أريكته مروّعاً مهدود القلب •
ولكن التشاجر والصخب والشتائم ما تنفك تقوى وتشتد • وها هو ذا
يتعرف صوت صاحبة البيت فجأة ، فيصاب بدھشة كبيرة وذهول
شديد • كانت تعول وتئن وتعيث وتضرع ، وتشوه الألفاظ حتى
ليستحيل على المرء أن يدرك جملة واحدة من كلامها • لعلها كانت تنهل
الى من يضربها أن يكف عن ضربها ؛ ذلك أن أحداً كان يضربها على
السلم ، نعم ••• ان أحداً يضربها هنالك ضرباً مبرحاً بلا شفقة
ولا رحمة • وهذا صوت الرجل الذى يضربها قد بلغ من شدة الغضب
والهول أنه أصبح نوعاً من صراخ أبع • كان هذا الرجل يقول
كلاماً ، ولكن كلامه هو أيضاً كان لا يفهم من فرط سرعته واحتياقه !
••• وأخذ راسكولنيكوف يرتجف على حين بقة : تمرق صوت

الرجل • انه صوت ايليا بتروفتش • ماذا ؟ ايليا بتروفتش هنا ، يضرب صاحبة البيت ؟ نعم ، انه يضربها بقدمه ، ويطلق برأسها درجة السلم : هذا واضح ، تدل عليه الضججات والصرخات والضربات ، ولا تخطئ في الدلالة عليه • ماذا جرى اذن ؟ هل انقلب العالم عاليه سافله ؟ وهذا راسكولنيكوف يسمع في جميع الطوايق ، من أعلى السلم الى أدناه ، أصوات جمهور من الناس يحتشد صارخاً صائحاً • أناس يصعدون ، وأناس ينزلون ، والجلبة تزداد ، والأبواب تقرقع وأناس آخرون يهرعون مسرعين • • لماذا ؟ لماذا ؟ أهذا ممكن ؟ • كذلك كان يتسائل راسكولنيكوف وهو يعتقد صادقاً بأنه قد أصبح مجنوناً ، ولكن لا ، انه ما يزال يسمع ذلك كله واضحاً كل الوضوح لا بد اذن أنهم آتون اليه أيضاً ، • لأن نعم لأن كل شيء يرجع الى أنتى بالأمس قد رباة ! • • أراد أن يفتح الباب بالكلاية ، ولكن يده رفضت أن تطيعه ، ولو قد أغلق الباب بالكلاية لما أجده ذلك شيئاً من جهة أخرى • لقد كان الخوف يطوّق نفسه كدرع من جليد ، ويعذبه ويشلّه ولكن ها هي ذى الجلبة كلها تهدأ رويداً رويداً بعد أن دامت ست دقائق طويلة ان صاحبة البيت شن الآن وتتهدد • أما ايليا بتروفتش فاستمر يهدّد ويتوعد ويشتم وبدأ أخيراً أنه هداً هو أيضاً ، ثم أصبح صوته لا يُسمع البتة • • أترأه انصرف ؟ يا رب ! • • نعم ، لقد انصرف • وهذه صاحبة البيت تنصرف أيضاً وهي ما تزال تن وتبكي • هذا بابها يُنلق مقرقاً هؤلاء هم الناس ينفرون جميعاً فيعود كل منهم الى مسكنه انهم يصيحون ويتناقشون ويستوضحون تارةً بأصوات قوية جداً (توشك أن تكون صراخاً) وتارةً بأصوات خافتة جداً (توشك أن تكون همساً ، لا شك أن عددهم كبير جداً

يكاد يضم جميع سكان المنزل • تسامل راسكولنيكوف : • ربه ! أهذا كله ممكن ؟ ولماذا ، لماذا جاء الى هنا ؟ •

تهالك راسكولنيكوف على أريكته من جديد ، ولكن جفته لم يعرف الى القمض سيلاً بعد ذلك • ولبت راقداً هذا الرقاد مدة نصف ساعة وهو يعاني عذاباً ورعباً أكبر من كل ما عرف في حياته من عذاب ورعب • وهذا ضياء شديد ينير غرفته فجأة • لقد دخلت عليه ناستاسيا مع شمعة وطبق حساء • فلما نظرت اليه ملياً فعرفت أنه ليس نائمًا ، وضعت الشمعة على المنضدة ، وأخذت ترتب على المائدة ما كانت تحمله اليه : خبزاً ، وملحاً ، وصحنًا ، وملعقة •

قالت :

— لم يأكل شيئاً منذ أمس ! ظل يتسكع هنا وهناك طوال الليل ، وهذه حمى شديدة تنتابه الآن !

قال راسكولنيكوف لناستاسيا :

— ناستاسيا ، لماذا ضربوا صاحبة البيت ؟

فأجابته وهي تنظر اليه مبهوتة :

— من ضرب صاحبة البيت ؟

— منذ قليل ، منذ نصف ساعة ••• ضربها ايليا بتروفتش مساعد

مفوض الشرطة ، هنا ، في السلم ••• لماذا ضربها هذا الضرب ؟••• ولماذا جاء ؟•••

تفرست فيه ناستاسيا صامتةً مقطبةً مدة طويلة • لقد آلمها هذا ، ثم شعرت بخوف •

سألها راسكولنيكوف وجلاً ، بصوت واهن :

— ناستاسيا ، لماذا تصمتين ؟

فقال توجيه بعد لحظة بصوت خافت كأنها تكلم نفسها :

— هو الدم ؟

— الدم ؟ أى دم ؟

كذلك تمتم وقد اصفر وجهه وأخذ يتقهقر فليتصق بالحائط •
فلأخذت ناستاسيا تنظر اليه صامتةً من جديد • ثم قالت بعد لحظة بلهجة
قاسية واثقة :

— لم يضرب أحد صاحبة البيت •

فنظر إليها وهو لا يكاد يتنفس ، وقال لها بمزيد من الوجع :

— سمعت الجلبة بنفسى ••• لم أكن نائماً ••• جاء مساعد مفوض
الشرطة ••• وخرج الجميع من بيوتهم ، وهرعوا الى السلم •

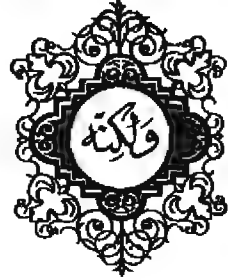
— لم ينجى أحد • الدم هو الذى يصرخ فيك • حين لا يجد الدم
مخرجاً فيأخذ يسد الكبد ، تراهى للمرء عندئذ رؤى ••• أتريد أن
تأكل أم لا ؟

لم يجب راسكولنيكوف • وظلت ناستاسيا واقفةً الى جانبه ،
لا تتكلم ، وما تزال تنفّس فيه •
— امسينى يا ناستامينكا •••

نزلت ناستاسيا ، ثم عادت بعد دقيقتين تحمل جرةً صغيرة من
الفخار الأبيض فيها ماء •

لا يتذكر راسكولنيكوف ما جرى بعد ذلك • كل ما يتذكره هو
أنه شرب جرعة من ماء بارد ، وأنه قلب ماء الجرة على صدره • ثم أغشى
عليه •

الفصل الثالث



لم يفقد وعيه كله طوال مدة مرضه • كان يعاني حالة حمى مصحوبة بهذيان ، ولكن هذه الحالة قد تركت له نصف وعى • وقد تذكر بعد ذلك أشياء كثيرة •

كان يترامى له تارة أن أناساً كثيرين قد احتشدوا حوله ، وأنهم يريدون أن يأخذوه ، أن ينقلوه الى مكان ما ، وأنهم يتناقشون ويشجرون في أمره • وكان تارة أخرى يجد نفسه وحيداً في غرفته على حين فجأة : فقد ذهب الناس جميعاً لأنهم خافوا منه ، فهم يشقون الباب من حين الى حين لينظروا اليه ، وليهدّدوه ؛ وهم يتأمرون عليه ، ويضحكون منه ، ويزدرونه ، ويستفزونته •

وقد تذكر راسكولنيكوف أنه رأى ناستاسيا ساهرةً عليه قرب سريره مراراً • واستطاع كذلك أن يميّز رجلاً لا بد أنه كان يعرفه جيداً ، ولكنه لا يملك أن يقول من هو هذا الرجل على وجه التحديد • وكان ذلك يحزنه ويؤله ، حتى لقد كان يبكي • وكان يترامى له في بعض الأحيان أنه راقد في سريره منذ شهر ، وكان يترامى له في أحيان أخرى أن هذه المدة كلها يوم واحد يتصل ويستمر • ولكن ما باله نسي « ذلك الأمر » ، ما باله نسي « ذلك الأمر » نسياناً تاماً ! على أنه كان يتذكر في كل لحظة أنه قد نسي شيئاً لا يجوز له أن ينساه • وكان

عندئذ يبذل جهداً كبيراً من أجل أن يتذكر ، ويتعذب ويئن ، ثم اذا هو يستولى عليه حنق مسعور أو يسنبد به دعر شديد ، فينهض عن أريكته ، ويحاول أن يهرب ، غير أن أحد الناس يمنعه من ذلك بالقوة ، فيهورى الى ضعفه من جديد ، ويغيب عنه شعوره مرةً أخرى • ثم عاد اليه وعيه تماماً •

حدث ذلك فى الساعة العاشرة من أحد الاصباح • كانت الشمس فى مثل تلك الساعة من أيام الصحو يسقط منها شعاع طويل على الجدار الأيمن من غرفته ، ويضيء الركن القريب من الباب • هذه ناستاسيا واقفة قرب سريره ، وهذا شخص آخر يتفرس فيه بكثير من الاستطلاع ، رجل لا يتذكر راسكولنيكوف أنه رآه قبل اليوم قط • هو فتى يرتدى قفطاناً ، وله لحية صغيرة ، وتدل هيئته على أنه مستخدم فى محل تجارى • ومن خلال الباب المشقوق ، تنظر صاحبة البيت •

نهض راسكولنيكوف ، وسأل وهو يومئ الى الشاب :

— من هذا يا ناستاسيا ؟

قالت ناستاسيا :

— صحا من غيبوته !

فأمّن المستخدم على كلامها قائلاً :

— نعم ، صحا !

وكانت صاحبة البيت تنظر من خلال شق الباب ، ففهمت أن راسكولنيكوف صحا من غيبوته ، فأغلقت الباب بسرعةً وغابت • ان هذه المرأة كانت دائماً خجولة ، لا تطيق النقاش والعتاب • هى فى نحو الأربعين من عمرها ، لها حاجبان سوداوان ، وعينان سوداوان ، وهى بدينة سمينة ، ولعلها طيبة بسبب هذه السمنة ، وبسبب كسلها أيضاً ؟

وانها لتمتاز بكثير من البشاشة على كل حال ، ولكنها مفرطة في العفة ...
عاد راسكولنيكوف يسأل من جديد ، وهو يتجه بسؤاله الى
المستخدم رأساً :

- من ... أنت ؟

ولكن الباب فُتح في تلك اللحظة واسماً ، ودخل رازومихين
منحنياً بسبب طول قامته . وهتف يقول وهو يدخل :

- مسكنك هذا يشبه أن يكون حجرة في مقبنة . أهذا مسكن ؟
لا يدخله المرء مرة الا ويصطدم جبينه ! اذن لقد أفقت من غيوبتك
يا صاحبي ، هه ؟ أحسنت صنعاً . لقد أعلمتني بأشئنا * منذ هنيهة
أنت أفقت ...

قالت ناستاسيا :

- نعم ، أفاق الآن .

وردّد المستخدم قائلاً وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

- نعم ، أفاق الآن ...

سأل رازومихين وهو يتجه الى المستخدم فجأة :

- ولكن ... من أنت ؟ أنا ، مثلاً ، اسمي فرازومихين ،

لا رازومихين كما اعتاد الناس أن يسموني ، بل فرازومихين ... وأنا

ابن رجل من السادة . ولكن ، أنت ، من أنت ؟

- أنا مستخدم في محل التاجر شيلوباييف ، وقد جئت هنا لأعمال .

- هلاًّ تفضلت فجلست على هذا الكرسي !

قال رازومихين ذلك وجلس على كرسي آخر في الجهة الأخرى

من المائدة . وتابع كلامه يخاطب راسكولنيكوف :

— أحسنت صنعا يا عزيزى بالصحو من غيبوبتك • فأنك منذ اربعة أيام لم تطعم شيئا ، غير قليل من الشاى جُرْعته بالملقعة • وقد جئتكَ يزوسيموف مرتين • هل تذكر زوسيموف ؟ فحصك بكثير من الاهتمام والانتباه ، ثم قال انك سليم معافى ، الا من ضربة أصابت رأسك • وأضاف ان الأمر لا يعدو أن يكون انزعاجا عصبيا بسيطا مردّه الى سوء التغذية • فقد كنت فى حاجة الى بيرة وفجل ، فلما حرمت منهما مرضت • ولكنه يؤكد أن ذلك كله سينقضى بسرعة ، وأنت ستبرأ فى القريب أحسن مايكون البرء • يا له من رجل لامع ، زوسيموف هذا • لقد نجح نجاحا فاقها منذ الآن •

تم أضاف رازوميخين يخاطب المستخدم من جديد :

— لا تريد أن تؤخر ك • هلا تفضلت فذكرت لنا غرضك من هذه الزيارة !

وتابع يكلم راسكولنيكوف :

— لاحظ يا روديا أن هذه هى المرة الثانية التى يوفد فيها مكتبهم مندوبا • ولكن مندوبهم فى المرة الماضية لم يكن هذا الشاب ، بل كان رجلا آخر ، ومع ذلك الرجل الآخر انما تباحثنا •

وعاد يسأل المستخدم قائلا :

— من ذلك الذى جاء فى المرة الماضية ؟

فأجابه المستخدم :

— لا شك أنك تقصد الذى جاء منذ ثلاثة أيام • انه ألكسى سيميونوفتش • هو يعمل فى المحل أيضا •
— أرى أنه أبرع منك • ما رأيك ؟

- نعم ، انه أكثر وقاراً ؟

- أهتاك ! طيب ، أكمل !

بدأ المستخدم كلامه مخاطباً راسكولنيكوف مباشرة :

- اليك الموضوع : بواسطة أتانازى ايفانوفتش فاخروشين الذى أرجو أن تكون قد سمعت عنه ، ويطلب من السيدة والدتك ، وصلت الى مكتبنا حوالة مالية لك ؟ فاذا كنت فى حالة تمكنك من الفهم ، فسوف أدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً تلقاها سيميون سيميونوفتش من آتانازى ايفانوفتش بناءً على طلب من السيدة والدتك . هل أبلغت هذا الأمر ...

قال راسكولنيكوف حالماً مفكراً :

- نعم ، أذكر ... فاخروشين ...

هتف رازومихين يقول :

- هل سمعت ؟ انه يعرف التاجر فاخروشين ، فكيف لا يكون فى حالة تمكنه من الفهم ؟ ثم اننى ألاحظ أنك رجل عاقل ، فهياً أكمل حديثك . انه ليحلو للمرء دائماً أن يسمع أقوال رجل عاقل .

فتابع المستخدم كلامه فقال :

- نعم ، ان فاخروشين هذا نفسه ، أتانازى ايفانوفتش فاخروشين ، لم يتردد ، حين طلبت منك أمك ذلك - وهى التى أوصلت اليك بواسطة ، فى مرة سابقة ، مبلغاً من المال - لم يتردد فى هذه المرة أيضاً أن يكتب الى سيميون سيميونوفتش طالباً منه أن يدفع لك مبلغ خمسة وثلاثين روبلاً ، بانتظار أن يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل .

- عيناً ان قولك . بانتظار ان يدفع لك أكثر من ذلك فى المستقبل .

هى خير ما خرج من فمك • ولا بأس كذلك فى قولك • السيدة
والدتك • ما رأيك الآن ؟ أهو يملك شعوره كاملاً أم لا ؟

- أتمنى ذلك ••• كل ما أريده هو أن يعطينى ايصالاً صغيراً
يشهد باستلامه المبلغ •

- سيكتب لك الايصال فوراً • ما هذا الذى معك ؟ أهو سجل ؟
- نعم ، سجل •

- هاته • هيا يا روديا ! انهض قليلاً • سأسندك • وقّع له اسمك
دفعه واحده • خذ القلم يا صاحبي ، لأن حاجتنا الى المال ماسة ،
ماسة •••

قال راسكولنيكوف وهو يدفع القلم :

- لست فى حاجة •••

- لست فى حاجة الى ماذا ؟

- لن أوقّع •

- ولكن كيف يمكن أن ••• بغير توقيع •••

- لست فى حاجة الى مال •

- لست فى حاجة الى مال ؟ ألا انك لتكذب يا عزيزى • أنا شاهد
على أنك تكذب •

قال رازوموخين ذلك ، والتفت يخاطب الشاب :

- لا تطلق ، أرجوك ••• هو يقول هذا ، ولكنه يهذى ••• من
جديد ••• ثم انه يتفق له أن يهذى فى الحالة الطبيعية ••• أنا أعرفه •
وأنت رجل شريف • ليس علينا اذن الا أن نرشده ، أو قل أن نرشده
يده ، فيوقّع • هيا ، ساعدنى !

- يمكننى أن أرجع مرة أخرى •
- لا ، لا ، لماذا تزعج نفسك مرة أخرى ؟ أنت رجل عاقل •••
هلم يا روديا ، لا تؤخر ضيفنا ••• أنت ترى أنه ينتظر منذ مدة •
قال رازومبخين ذلك ونهياً ، جاداً كل الجد ، لأن يقود يد
راسكولنيكوف • فقال له راسكولنيكوف :

- دع عنك • سأوقع بنفسى •
وتناول القلم ، ووقع •
فدفع له المستخدم المال ، وخرج •
- مرحى ! والآن يا عزيزى ، متأكد ! هه ؟
- نعم مآكل !•••
قال رازومبخين يسأل ناستاسيا التى لبثت هناك طوال تلك المدة :
- هل عندكم حساء ؟
- نعم ، عندنا حساء من أمس •
- أهو حساء بالرز والبطاطس ؟
- بالرز والبطاطس •
- قدّرت ذلك • هاتى الحساء ، وأتينا بشاى !
- حالاً !

نظر راسكولنيكوف حواله مخبولاً • لقد قرر أن يصمت وأن
ينتظر تمة الأحداث • قال يحدث نفسه : « يخيّل الىّ أننى لا أهدى
الآن • يخيّل الىّ أننى لا أهدى الآن • يخيّل الىّ أن هذا كله واقع
وليس أضغاث أحلام ! » •

وبعد دقيقتين عادت ناستاسيا بالحساء ، وأعلنت أن الشاى سيكون

مهيأً بعد قليل • وبعد الحساء ظهرت مملقتان وجميع أدوات المائدة :
وعاء الملح ، ووعاء الفلفل ، ووعاء الخردل لتطيب المرق ، النخ • ان مثل
هذا الترتيب الدقيق لم يُراعَ منذ مدة طويلة • وكان غطاء المائدة نظيفاً •
قال رازومخين :

— لا بأس ، يا ناستاسيوشكا ، في أن ترسل إلينا براسكوفيا بافلوفنا
زجاجتين صغيرتين من البيرة • سوف يسرنا أن نشربهما •

فقلت ناستاسيا وهي تمضي لتنفيذ الأوامر :

— انك لتحب المسرات !

وكان راسكولنيكوف ما يزال ينظر حواليه زائغ الهيئة مشدود
الانتباه • وفي أثناء ذلك الوقت كان رازومخين الذي جلس الى جانبه على
الأريكة ، ينهض رأسه بيده اليسرى ، بخراقة كخراقة الدب ، ويحمل
الى فمه باليد اليمنى معلقة من الحساء بعد أن ينفخ عليها عدة مرات حتى
لا يحترق بها فم صاحبه • وكان الحساء في الواقع قاتراً غير ساخن •

التهم راسكولنيكوف معلقة أولى ، فملققة ثانية ، فملققة ثالثة ،
بشراهة ونهم • فلم يلبث رازومين أن توقف عن اطعامه قائلاً ان من
الواجب أن يُستشار في ذلك زوسيموف أولاً •

ودخلت ناستاسيا تحمل زجاجتي بيرة •

— هل تريد شيئاً من الشاي ؟

— نعم •

— هاتني لنا شيئاً يا ناستاسيا ، فانا فيما يتعلق بهذا الشراب ، أعني
الشاي ، نستطيع أن نستغنى عن صفات كلية الطب ! آ آ آ هذه
هي البيرة !

قال رازوميخين ذلك ، وعاد الى كرسيه ، وجذب اليه الحساء ،
وأخذ يلتهم اللحم المسلوق ، كأنه لم يأكل منذ ثلاثة أيام • دمدم يقول
بمقدار ما يتح له فمه المملوء لحماً أن يتكلم :

- نعم يا روديا ، نعم يا صديقي القديم ، على هذا النحو انما
أصبحت آكل الآن كل يوم في منزلكم • ان صاحبة البيت باشتكا هي
التي تكرمنا هذا التكريم • انها تحيطني بكل أنواع العناية والرعاية •
طبعاً أنا لا أطلب شيئاً ، ولكنني لا أرفض شيئاً كذلك ••• هذه ناستاسيا
وشايفها ! هي الرشاقة نفسها في صورة امرأة ! هل تريدن شيئاً من
البيرة ياناستاسيا ؟

- مهرج !

- وهل تريدن شيئاً من الشاي ؟

- الشاي ••• لا أرفض الشاي !•••

- اذن صبي لنفسك شيئاً • لا بل انتظري ! سأخدمك أنا ،
بنفسي • اجلسي الى المائدة •

قال رازوميخين ذلك وأسرع ينهمك في صب الشاي ، فملاً
فنجاناً ثانياً ، ثم ترك غداحه ، وعاد يجلس على الديوان • وكما فعل منذ
قليل ، دسّ يده اليسرى تحت رأس المريض ، فأنهضه قليلاً ، وأشربه
شايه بالملعقة ، نافخاً على كل ملعقة بكثير من العناية والاهتمام ، كأن
سلامة المريض مرهونة بهذا النفخ • وكان راسكولنيكوف صامتاً
لا يقاومه أية مقاومة ، رغم شعوره بأنه يملك من القوة ما يكفيهِ لأن
يُنهض جسمه ، ولأن يبقى جالساً بنير مساعدة من أحد ، بل ولأن
يستعمل يديه أيضاً ؟ حتى لقد مضى الى حد الاعتقاد أن في وسعه أن
يمشي اذا شاء • ولكنه بنوع من مكرٍ غريب ، مكرٍ يكاد يكون غريزياً ،

خطر بباله فجأة أن يخفى فواه ، بل وأن يتظاهر بنفيوبه تامة اذا لزم الأمر ، من أجل أن يتجسس خلال ذلك على ما يجرى حوله . غير أنه لم يستطع أن يتغلب على اشمئزازه : فبعد أن ابتلع نحو عشر ملاعق من الشاي ، سلّ رأسه ، ودفع الملعقة بنزوة طارئة ، وتهالك على الوسادة . ان رأسه يستريح الآن على وسادات حقيقية من ريش ، تجلّلتها أعطية نظيفة . وقد لاحظ راسكولنيكوف ذلك واستغربه .

أعلن رازوميشين وهو يعود الى مكانه ويهجم على حسائه وبيرته من جديد :

— يجب على باشنكا أن ترسل إلينا في هذا اليوم نفسه شيئاً من مربّب التوت نصنع منه لمريضنا شراباً .

قالت ناستاميا التي كانت تبسط صحن فنجانها على أصابعها الخمس المتباعدة ، وترشف شايبها فيرشفح « من خلال السكر » في فمها :

— ولكن من أين عساها تأتي الآن بالتوت ؟

— التوت يا عزيزتي ستجده عند البقال . هل تعلم يا روديا ؟ لقد جرت هنا قصة لا تعرف عنها شيئاً ! حين هربت من عندي هروب وغد من الأوغاد ، دون أن تذكر لي عنوانك ، غضبتُ غضباً بلغ من الشدة أنني قررت فوراً أن أعثر عليك وأن أعاقبك ! وأخذت في ذلك اليوم نفسه لأحقك وأطاردك . آه يمكن أن يقال انني ركضت وأزعجت الناس جميعاً لأهتدي إليك كنت قد نسيت عنوانك الحالي ، أو قل انني ما نسيت لاني ما كنت أعرفه أصلاً . أما «مسكنك» القديم ، فإن كل ماكنت أذكره عنه هو أنه يقع في مكان ما من « الأركان الخمسة » بعمارة تسمى «عمارة خارلاموف» والحق أن ذلك السيد ، صاحب العمارة ، لم يكن اسمه خارلاموف ، بل بونخ . فانظر كم لقيت من

عناء ! آه من أسماء الأعلام ! الخلاصة أنني غضبت غضباً شديداً ، غضباً
يلغ من الشدة أنني ذهبت من الغد رأساً الى مكتب تسجيل العناوين :
فاذا أنا أعرف منهم عنوانك في غضون دقيقتين • نعم ، نعم ، انك مسجل
عندهم !

— مسجِّل !

— نعم ، نعم ، مسجِّل • ومع ذلك لم يستطيعوا أن يشيروا على
عنوان الجنرال كوبليف • لست أخترع شيئاً : لقد جرى هذا أمامي •
هوه ! ما لنا توه في التفاصيل !... على كل حال ، ما ان جئت الى هنا ،
حتى كنت أعرف جميع شئونك ، نعم ، جميع شئونك ! يا صديقي أنا
أعرف كل شيء • لقد أروني ايليا بتروفتش • وتعارفت مع نيكوديم
فومتش ، والبواب ، والسيد زامبوتوف ، انكسندر جريجوريوتش
زامبوتوف ، سكرتير قسم شرطة الحى ، وعرفت أخيراً باشنكا ...
باشنكا ... انها زهرة من عرفتهم • ناستاسيا تعرف ذلك •

تمتعت ناستاسيا تقول وهي تضحك ضحكة ساخرة :

— عرف كيف يتملقها •

— عليك أن تضعى السكر في فمجانك يا ناستاسيا نيكيفوروفنا !

صاحت ناستاسيا تقول وهي تنفجر ضاحكة :

— يا للحيوان !

ثم أضافت بعد أن انتهت نوبة الضحك :

— ليس اسمى نيكيفوروفنا بل بتروفنا •

قال لها رازوميتشين :

- أحطنا علماً بذلك •

تم استأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

- هكذا يا صاحبي • لقد أردت أن أستعمل سائلاً كهربائياً من أجل أن استأصل ، دفعةً واحدة ، جميع الأوهام العششة في هذه النواحي • ولكن باشنكا غلبتني • يا صديقي ، ما كنت لأحضور في يوم من الأيام أنها بشوش ... الى هذا الحد ... هه ؟ ما رأيك ؟

لم يجب راسكولنيكوف ، رغم أنه لم يحول بصره القلق عن رازومихين في لحظة من اللحظات ، ورغم أنه ما يزال يحدّق اليه • تابع رازومихين كلامه فقال دون أن يظهر عليه أى استياء من صمت راسكولنيكوف :

- حتى ليتمكن أن يقال انها اصفاء ممتازة من جميع الجهات •

هتفت ناستاسيا تقول من جديد ، وقد بدا عليها أن هذه المحادثة تسرها سروراً عظيماً :

- يا له من حيوان !

- المصيبة يا صديقي أنك لم تعرف كيف تدبر أمرك منذ البداية • ان على المرء أن يتبع في معاملتها طريقة غير طريقتك • ان لها طبعاً • • غريباً ! سنتكلم عن طبعها فيما بعد • ولكن كيف استطعت أن تُفسد أمورك معها الى الحد الذي انقطعت معه عن ارسال طعامك اليك ؟ وما قصة السند تلك ؟ يميناً انك لمجنون • كيف ترضى أن توقع سندات ؟ ومشروع الزواج ذاك ، حين كانت ابتها ناتاليا ياجوروفنا ما تزال على قيد الحياة ؟ اننى أعلم كل شيء ! أنا أدرك أننى هنا أمس الوتر الحساس ، وأننى حمار • معذرة ، معذرة • ولكن قل لى بمناسبة الحماقات ما رأيك :

ليست براسكوفيا بافلوفنا حمقاء الى الحد الذي قد يفترضه المرء من أول نظرة ، أليس كذلك ؟

قال راسكولنيكوف بأطراف شففيه ، مشيحاً بوجهه ، مندركاً مع ذلك أن استمرار الحديث أفضل :

— نعم .

فهمت رازوميشين وقد أسعده اسعاداً واضحاً أنه حصل على جواب:

— أليس كذلك ؟ ولكنها ليست ذكية أيضاً ، هه ؟ ان لها طبعاً لا يتوقع أبداً . أنا ، على كل حال ، يحيرني هذا الطبع يا صاحبي . لا بد أنها في الأربعين من عمرها ... هي تقول انها لم تتجاوز السادسة والثلاثين . هذا حق من حقسوقها . على أنني (أحلف لك !) لا أحكم عليها الا من وجهة النظر الفكرية ، من وجهة النظر ... الميتافيزيقية وحدها . ان ما يقع بيننا يدخل في نطاق الرمز . هو نوع من علم الجبر يا صاحبي ... لست أفهم من ذلك شيئاً . مخافات كل هذا ! ولكنها اذ رأت أنك لم تعد طالباً ، وأنت فقدت ما كنت تعطيه من دروس ، وأنت أصبحت لا تملك ما تدثر به ظهرك ، وأنها غدت منذ موت آفستها لا تستطيع أن تعدك عضواً في الأسرة ، قد اتابها دعر . واذ أنك من جهتك انطويت على نفسك بدلاً من أن تعيش كما كنت تعيش في الماضي ، فقد قام في ذهنها أن تطردك . وكانت تفكر في هذا المشروع منذ مدة ، ولكن السند كان يهلقها كثيراً ؟ ولما كنت قد أكدت لها أن أملك ستدفع ...

— قلت لها ذلك حقارةً مني ... ان أمي توشك أن تستجدي أكف الناس ... لقد كذبت عليها لأجبرها على أن تحتفظ بي وأن تطعنني ...

قال راسكولنيكوف ذلك بصوت عالٍ واضح .

أجابه رازومихين :

— نعم ، ولقد تصرفت عندئذ تصرفاً فيه تعقل وحكمة . ولكن المشكلة هي أنه في تلك اللحظة ظهر السيد تشيياروف ، وهو مستشار فضائي ورجل من رجال الأعمال ؛ فلولا هذا الرجل لا خطر ببال باشنكا ، وهي المرأة الحجول ، أن تتخذ أى اجراء . ولكن رجل الأعمال لا يملك هذا الحجل ، فكان أول سؤال ألقاه طبعاً هو هذا السؤال : هل هناك أمل في قبض قيمة السند . وكان الجواب بنعم ، لأن هناك أملاً لها معاش مقداره مائة وعشرون روبلاً ، فلن تضن على ابنها رودنكا باخراجه من المأزق ولو اضطرها ذلك الى حرمان نفسها من الطعام ، ولأن هناك أختاً حنوناً سوف ترضى بأن تبيع نفسها عبيدة في سبيل انقاذ أخيها الحبيب . على هذا اعتمد الرجل . ما بالك تضطرب هذا الاضطراب ؟ هأنت ذا ترى يا صاحبي أنني أعرف الآن قصتك ، أعرفها من ألفها الى يائها . لم يذهب سدى ما أقضيت به الى باشنكا من مسارات حين كنت ما تزال تعد نفسك ... ولكن كنت أقول لك هذا الكلام ، فلأنتى صديقك . اسمع اذن ما حدث : حين يسترسل الانسان الشريف الحسّاس في مسارات حميمة ، فان رجل الأعمال يجلس الى منضدته وينهمك في الحساب ليخرج بمنفعة . وهكذا تنازلت باشنكا عن السند لتشياروف ، فلم يتورع تشيياروف هذا عن المطالبة بقيمة السند . وحين علمت أنا بهذا كله ، أردت أن أتدخل في الأمر فأرسل مائلي الكهربائي اليه هو أيضاً . ولكن الاستعجاب قام بيني وبين باشنكا أثناء ذلك ، فأوقفت القضية كلها ، وقضيت عليها في مهدها ، اذ كفلت أن تدفع المبلغ . لقد أصبحت كفيلاً يا صاحبي ، هل تسمع ؟ واستدعينا تشيياروف ، فدرسنا في قهه عشرة روبلات ، فرد السند الذي يشرفني ، يا سيدى ، أن أقدمه

إليك • لن تطالب بعد الآن بسند ، بل ستُصدّق على عهد الشرف وحده •
خذ السند • هلاًّ أخذت السند ؟ لقد مزقته قليلاً ، كما يجب أن
أفعل ...

وضع رازوميخين السند على المائدة • فألقى راسكولنيكوف عليه
نظرة سريعة ، ثم التفت الى جهة الحائط دون أن يقول شيئاً ؛ فاستاء
رازوميخين من ذلك ، وقال بعد دقيقة :

— أرى يا صاحبي أنني كنت غيباً مرة أخرى • لقد ظننت أنني
بثرتاني سأسرّي عنك وأسلكك ، وهأنذا ألاحظ الآن أنني لم أزد على
أن حركت غضبك !

— أنت الشخص الذي كنت أثناء هذياني لا أعرفه ؟

كذلك سأله راسكولنيكوف بعد أن صمت خلال دقيقة هو أيضاً ،
ودون أن يلتفت اليه • فأجاب رازوميخين :

— نعم أنا ، حتى ان حضوري قد سبب لك بعض النوبات ، ولاسيما
حين جئت إليك بزاميوتوف •

فالتفت راسكولنيكوف فجأة بعنف ، وحدّق الى رازوميخين
سائلاً :

— زاميوتوف ؟ سكرتير مفوض الشرطة ؟

— ولكن ماذا دهاك ؟ لماذا تضطرب هذا الاضطراب ؟ لقد أراد أن
يعرف إليك ... وانما أراد ذلك لأننا تحدثنا عنك كثيراً • وكيف
كان يمكنني ، ، لولاه ، أن أعرف هذه الأشياء كلها عنك ؟ انه رجل
شهم ، رائع ... في نوعه طبعاً • ونحن الآن صديقان ، فلتقي كل يوم
تقريباً • ذلك أنني سكنت في مكان قريب • ألم تعرف ذلك بعد ؟ نعم ،

انتقلت منذ برهة وجيزة • وقد ذهبنا معاً الى لويزا مرتين أو ثلاث مرات • أتذكر لويزا ايقاتونا ؟

— هل كنت أهذى ؟

— أظن ذلك ! كنتَ غيرَ نفسك !

— وماذا كنتُ أقول ؟

— ماذا كنتَ تقول ؟ هه ••• معروف ماذا يمكن أن يقول رجلٌ

يهذى • والآن ، يا صاحبي ، لم يبق لنا وقت نضيقه • الى العمل !

— ماذا كنتُ أقول !

— ما باله يصر ؟ أترأه يخشى أن يكون قد فضح سراً من الأسرار ؟

لا تقلق اذن • لم يُفْلِت منك كلام في حق السيدة الكوتيسة • ولكنك تكلمت كثيراً عن كلب حراسة من نوع « البوللوج » ، وتكلمت عن أقراط اذن ، وعن سلاسل ذهبية ، وعن جزيرة كريستوفسكي ، وعن بوابٍ ما ، وتكلمت أيضاً عن نيكوديم فومتش وايليا بروفتش مساعد مفوض الشرطة • ثم انك يا سيدي قد اهتمت اهتماماً عظيماً بجوربك ، فكنت تتعجب قائلاً : « أعطوني جوربي • اسرعوا • اعطوني جوربي ! » •

فبادر زامبوتوف بنفسه يبحث لك عنه في كل ركن من الأركان ، حتى اذا وجده ، حتى اذا وجد تلك القاذورة حملها اليك بيديه ، بيديه البيضوين المعطرّتين المجلّتين بالحواتم • عندئذ هدأ روعك ، ثم ظللت قابضاً بيدك على تلك القاذورة أربعاً وعشرين ساعة ، لا يستطيع أحد أن ينتزعها منك • لا بد أنها ما تزال في مكان ما تحت غطائك ! وكنت تطالب أيضاً بقصاصات سروالك ، حتى لقد كنت تبكي وأنت تطالب بتلك القصاصات • تساءلنا أية قصاصات تعني ، ولكن كان الأفضل أن لا نحاول أن نفهم • والآن كفى كلاماً ، ولنبادر الى العمل • هذه خمسة وثلاثين

روبلاً • انتهى آخذ منها عشرة ، وسأعود اليك بالحساب بعد ساعتين •
وفى أثناء هذا الوقت أكون قد أبلغت زوسيموف ، الذى كان ينبغي أن
يكون هنا منذ مدة طويلة ، لأن الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة • وأنت
يا ناستاسيا ، هل لك أن تعنى به أثناء غيابى ! أعطيه ما يشربه ، أو أعطيه
شيئاً آخر اذا هو رغب فى ذلك • أما باشنكا فسوف أقول لها فوراً ما يجب
عمله • الى اللقاء !

قالت ناستاسيا منذ خرج :

— انه يدعوها باشنكا ! آه ! يا للماكر !

ثم فتحت الباب وأصاحت بسمعتها ، ثم لم تطق صبراً فهرولت
تهبط • انها تحرق سوقاً الى معرفة ما قد يقوله رازوميخين لمولاتها •
وفى وسعنا أن نقول بوجه عام انها كانت مفتنة برازوميخين افتتاً واضحاً.

فما ان أغلقت وراءها الباب حتىرمى المريض غطاءه ، ووثب عن
السرير كالجنون • كانت قد انتظر خروجهما نافد الصبر الى حد
الاحتراق والتشنج ، لياشر العمل بأقصى سرعة • ولكن ما هو هذا
العمل الذى يريد أن يقوم به ؟ ها هو ذا قد أصبح ، كأنما على عمد ،
لا يعرف ماذا كان يريد أن يعمل !

« رباه ! قل لى شيئاً واحداً يا رب : أهم يعرفون أم هم لا يعرفون
بعد ؟ أهم يعرفون منذ الآن كل شىء ولكنهم يتظاهرون بأنهم لا يعرفون
شيئاً ؟ أكانوا يعبسون بى بينما أنا راقدة هنا ؟ أتراهم سيدخلون على
فجأة ليقولوا انهم يعرفون كل شىء منذ مدة طويلة ، ولكنهم تظاهروا
بالجهل عامدين ؟... ما العمل الآن ؟ هاأناذا نسيت ما يجب أن أعمله ،
كأنما على عمد ! هاأناذا نسيت مع أنتى كنت أتذكره منذ قليل ... »
ظل راسكولنيكوف واقفاً فى وسط الغرفة ينظر فيما حوله حائراً

حجرة أنيمة • تم اقتراب من الباب ، ففتحه وأخذ يتنصت ؛ ولكن ليس هذا ما كان يريد ان يعمل • وكأنه تذكر على حين فجأة ، فاذا هو يهرع نحو الركن ، حيث يوجد ثقب تحت ورق الجدار • أخذ يفتش هنالك باتباعه ، وادخل يده في الثقب يتلمسه ، ولكن هذا ليس ما كان يريد أن يعمله أيضاً • • فاتبعه عندئذ نحو المدفأة ، ففتحها ، ونش رماها ، فمثر على فصاحات السروال ومزق الجيب المنتزع كما كانت حين رماها في هذا المكان • اذن لم ينظر أحد في المدفأة • وعندئذ تذكر الجورب الذي جاء رازوميخين على ذكره منذ قليل • ان ما قاله رازوميخين صحيح • ان الجورب موجود تحت الغطاء فعلاً ، ولكنه بلغ من الاتساع ومن الاهتراء بالحك أن زامبوتوف لا يمكن أن يكون قد لاحظ فيه شيئاً البتة •

« نعم ، زامبوتوف ! • • • قسم الشرطة ! ولكن لماذا استدعى الى قسم الشرطة ؟ أين كتاب الاستدعاء ؟ هو ! اننى أخلط ! لقد استدعيت الى قسم الشرطة في يوم ماضٍ ! وكنت حينذاك أدقق النظر في الجورب. والآن • • • والآن • • • لقد كنت مريضاً • • • لماذا جاء زامبوتوف الى هنا ؟ لماذا أتى به رازوميخين الى بيتى ؟ » •

بهذا تتمم راسكولنيكوف مهدود القوى ، وهو يعود الى الجلوس على سرير • وتابع حديثه لنفسه :

« ماذا يجبرى ؟ أنا ما أزال أهذى أم أن هذا كله الآن واقع لا شأن له بأخيلة الهذيان ؟ يبدو لى أن هذا كله الآن واقع • • • آ • • • تذكرت : أهرب ، يجب أن أهرب بأقصى سرعة ، يجب أن أهرب حتماً • نعم ، ولكن الى أين ؟ وأين ثيابى ؟ لم يبق ثمة شك • لقد أخذوا ثيابى • • • لقد أخذوها عنى ! فهمت ! آ • • • هذا معطفى • • • لقد نسوه ! وهذا هو المال على المائدة ! الحمد لله ! وهذا هو السند • • • سأخذ المال وأهرب • سأستأجر بيتاً آخر ، ولن يعثروا على ! نعم ،

ولكن مكتب الضاوين ... آه ... سيكتشفوننى ! سيكتشفنى رازوميين ! الأفضل مع ذلك أن أهرب ... ان أهرب الى مكان بعيد ، الى أمريكا ، ثم أبصق عليهم ... ويجب أن آخذ السند أيضاً ... فقد ينفنى هناك ... ماذا آخذ أيضاً ؟ هم يعتقدون أننى مريض ! لا يخطر ببالهم أن فى امكانى أن أمشى ... ها ها ها ! قرأت فى أعينهم أنهم يعرفون كل شئ ! المهم أن أستطيع الهبوط على السلم ! ولكن ماذا لو كانوا قد وضعوا حراساً يحرسون العمارة ! ماذا لو كان يوجد شرطة تحت ؟ ما هذا ؟ شاي ؟ آ ... ما تزال توجد بقية من بيرة ، نصف زجاجة ، باردة تماماً ، ، ،

أمسك الزجاجة التى كان قد بقى فيها ما يملأ كأساً كبيرة ، فأقرعها فى جوفه دفعة واحدة ، مثلذذاً ، كأنما ليطفىء النار التى تحرق صدره . ولكن قبل أن تنقضى دقيقة واحدة ، كانت البيرة قد صعدت الى رأسه ، فاذا برعدة خفيفة تسرى فى ظهره ، رعدة توشك أن تكون لذيدة ، فاستلقى على سريره وسحب الغطاء يدثر به جسمه . أخذت أفكاره المحمومة المضطربة تغلى مزيداً من الغليان ، وسرعان ما استولى عليه نعاس لطيف . فاهتدى الى مكان رأسه على الوسادة مثلذذاً ، وتدثر مزيداً من التدثر بالغطاء الرخص المحشو بالقطن الذى يقوم الآن مقام معطفه الممزق ، وزفر زفرة خفيفة ، ثم نام نوماً عميقاً مريحاً .

واستيقظ حين سمع أحداً يدخل عليه ، ففتح حاجبيه ، فرأى رازوميين . كان رازوميين قد فتح الباب واسمأ ، ووقف على العتبة متسائلاً أين يدخل أم لا يدخل . أسرع راسكولنيكوف ينهض عن سريره جالساً ، ونظر الى صاحبه نظرة من يحاول أن يتذكر شيئاً ما .

قال رازوميين :

— هه ... أنت غير نائم ؟

ثم صرخ ينادى ناستاسيا فى السلم قائلاً :

- ناستاسيا ، هاتى الصرة !

وعاد يقول لراسكولنيكوف :

- سأقدم اليك الحساب فوراً •

سأل راسكولنيكوف وهو يلقي على ما حوله نظرة قلقة :

- كم الساعة الآن ؟

- يمكننا أن نقول ، أيها الأخ العزيز ، انك غير محروم من النوم •

لقد حان المساء • لا بد أن الساعة غير بعيدة عن السادسة • معنى ذلك أنك
نمت ست ساعات •

- وباه ! كيف أمكن أن ...

- ماذا ؟ انك قد أحسنت صنعاً • ما أحسب أنك مستعجل !

ما أحسب أنك مرتبط بموعد ! أليس كذلك ؟ نحن نملك اذن كل وقتنا •
اننى منذ ثلاث ساعات أنتظر أن تفيق من نومك • جئت اليك مرتين ،
ولكنك كنت ما تزال نائماً • وقد ذهبت مرتين أيضاً الى زوسيموف • ولكننى
لم أجده • لا خير ! سوف يجيىء • • • ثم اننى قد تقيت لأمر شخصية
صغيرة • أنت تعلم أننى قد انتقلت اليوم من مسكنى ، انتقلت منه مع
عمى • • • ان لى عملاً الآن • ولكن دعنا من هذا كله • • • سحقاً لهذا
كله ! هاتى الصرة يا ناستاسيا • سوف • • • فوراً • • • وكيف صحتك
الآن يا صاحبى ؟

قال راسكولنيكوف :

- صحتى حسنة • أبللت من المرض • أأنت هنا منذ مدة طويلة ؟

- قلت لك اننى أنتظرك منذ ثلاث ساعات •

- نعم ، ولكن • • • قبل ذلك ؟

- قبل ماذا ؟

- منذ متى تأتي الى هنا ؟

- ألم أقصص عليك ذلك ؟ ألا تذكر ؟

شرد فكر راسكولنيكوف • ان ما جرى في هذه الفترة يبدو له
حلماً • كان عاجزاً عن أن يتذكر أى شيء نفسه ، وألقى على رازومخين
نظرة مستفسرة •

قال رازومخين :

- آ ••• اذن نسيت ! لقد أدركت فعلاً أنك لم تكن بخير حال •
أما الآن فقد أحسن اليك النوم وشفاك • حقاً ان هيتك الآن أفضل كثيراً
مما كانت • مرحى ! الى العمل اذن ! وسوف نتذكر فوراً ! أنظر الى
هنا ، أيها السيد العزيز !

وأخذ رازومخين يفض صرته التي كان يبدو أنه يوليها أكبر
اهتمام •

- نعم يا عزيزي ، هذا أمر يهمني كثيراً ، ذلك أن على أن أجعلك
رجلاً • هيا بنا ! لنبدأ من فوق •

ثم قال وهو يسحب من الصرة قبعة جميلة وان تكن من طراز عادي
بعض الثمن :

- هل ترى هذه القبعة ؟ سأجربها عليك ، أسمح بذلك ؟

قال راسكولنيكوف وهو يدفعه عنه بخشونة :

- لا الآن ••• بل وفي وقت آخر •••

- لا سبيل الى التملص يا صاحبي • لا تصر ! في وقت آخر يكون
الوقت قد فات • لن أنام الليل اذا لم أجربها عليك ، ذلك أتى اشتريتها
كيفما اتفق ، دون أن أعرف قياس رأسك •

وألبسه القبعة ثم قال بلهجة المتنصر :

— انها تناسيك ... تناسيك كثيراً • لكنها فضّلت لك • لباس
الرأس يا عزيزى أهم جزء من أجزاء اللباس ، فهو الذى يحدّد مكانتك
فى المجتمع • ان تولتسياكوف ، وهو صديق قديم لى ، يضطر الى خلع
قبعة الرديئة كلما ظهر فى مكان عام يحتفظ فيه الآخرون بقبعاتهم على
رموسهم ، والناس يردون ذلك الى مشاعر الاحترام مع أن الأمر لا يعدو
أنه أحسنّ بالحجل من قبعة الرديئة التى تشبه أن تكون عشب عصفور •
نعم ، تلك هى أسباب حياة هذا الرجل ! انظرى يا ناستاسيا ، انظرى الى
هاتين القبعتين : انظرى الى قبعة بالمرستون هذه (قال ذلك ومضى يأتى من
أحد الأركان بقبعة راسكولنيكوف المدوّرة المشوّهة ، التى لا يدرى أحد
لماذا سمّاها قبعة بالمرستون *) ، ثم انظرى الى هذه الآية من آيات فن
صنع القبعات • واحزر كم دفعت ثمنها ؟ ما رأيك ؟ وما رأيك أنت
يا ناستاسيا ؟ (لقد التفت رازومихين الى الخادمة يسألها ، حين رأى
راسكولنيكوف صامتاً لا يجيب) •

قالت ناستاسيا تجيب عن سؤاله :

— عشرين كوبكاً على الأقل !

فهتف يقول مستاءً :

— عشرين كوبكاً يا غيبة ، يا حمقاء ؟ عشرين كوبكاً لا يمكن
شراؤك أنت فى هذه الأيام ! لقد دفعت ثمانين كوبكاً ، ولم يكن ثمنها
قليلاً هذه القلة الا لأنها مستعملة • ثم اتنى اشتريتها على شرط : ان فى
وسمك أن تذهبى الى البائع فى السنة القادمة ، متى اهترأت هذه القبعة ،
فاذا هو يُبدلها لك بقبعة جديدة مجاناً ، أحلف لك ! ... والآن هلموا
الى الولايات المتحدة الأمريكية * ، كما كنا نسميها فى المدرسة • ولكننى

أَبْهَكَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى أَنْتَى مَعْتَزِ جَدًّا بِهَذَا السَّرْوَالِ (قَالَ ذَلِكَ وَبَسَطَ
أَمَامَ رَاسِكُورْلِيكُوفِ سُرْوَالًا رَمَادِيًّا مِنْ نَسِيجِ صَيْفِي خَفِيفٍ) : لَا ثَقَبَ
فِيهِ ، وَلَا بَقْعَةً ؛ هُوَ اذَنْ ، رَغْمُ أَنَّهُ لُبْسٌ مِنْ قَبْلِ ، سُرْوَالٍ جَيِّدٍ ؛ نَاهِيكَ
عَنِ الصَّدِيرَةِ الَّتِي تَنَاسَبَ عَلَى نَحْوِ مَا تَوْجِبُ الْمَوْضِعَ . أَمَّا أَنَّهُ لُبْسٌ مِنْ
قَبْلِ ، فَتِلْكَ مَزِيَّةٌ ، فَلَقَدْ أَصْبَحَ بِذَلِكَ أَكْثَرُ لَيُونَةٍ وَأَشَدَّ مَرُونَةٍ . اسْمَعْ
يَا رُودِيَا : لَكِي يَنْجَحُ الْمَرْءُ فِي الْحَيَاةِ ، يَكْفِيهِ فِي رَأْيِي أَنْ يِرَاعِيَ الْفُصُولَ :
إِذَا لَمْ تَطَالِبْ بِهَلْيُونٍ فِي شَهْرِ كَانُونِ الثَّانِي (يَنَايِرِ) ، فَسَيَقِي لَكَ دَائِمًا
بُضْعَةٌ رُوبِلَاتٍ فِي حَافِظَةِ نَقُودِكَ . نَعَمْ ، نَحْنُ الْآنَ فِي مَتَنَصَفِ فَصْلِ
الصَّيْفِ ، لِذَلِكَ اشْتَرَيْتَ سُرْوَالًا صَيْفِيًّا . صَحِيحٌ أَنَّكَ مَسْتَخْتِاجٌ فِي فَصْلِ
الْحَرِيفِ إِلَى قِمَاشٍ يَضُمُّ لَكَ مَزِيدًا مِنَ الدَّفْعِ ، وَسَيَكُونُ عَلَيْكَ أَنْ
تَرْمِي هَذِهِ الْمَلَابِسَ ، لَا سِوَمَا وَأَنَّهَا سَتَكُونُ قَدْ بَلِيَتْ ، بِسَبَبِ إِهْمَالِكَ طَبْعًا
... وَلَكِنْ فَلْنَعُدْ إِلَى سَوَائِنَا : احْزَرِ كَمْ دَفَعْتَ ثَمَنَ هَذَا السَّرْوَالِ ! رُوبِلَيْنِ
وْخَمْسَةِ وَعَشْرِينَ كُوبِيكًا ! لَاحِظْ أَنْتَى اشْتَرَيْتَهُ عَلَى ذَلِكَ الشَّرْطِ نَفْسِهِ
الَّذِي اشْتَرَطْتَهُ فِي شِرَاءِ الْقَبْعَةِ : إِنْ مِنْ حَقِّكَ أَنْ تَسْتَبْدِلَ بِهِ سُرْوَالًا
بِالْمَجَانِ مَتَى اهْتَرَأَ . فَعَلَى هَذَا النِّحْوِ إِنَّمَا تَتِمُّ الصَّفَقَاتُ فِي دُكَّانِ فُديَايِفَ :
يُدْفَعُ الْمُشْتَرَى مَرَّةً وَاحِدَةً إِلَى الْأَبَدِ ، لِأَنَّهُ لَنْ يَضْعُقَ قَدَمَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى
فِي هَذَا الدُّكَّانِ قَطْ . وَلِنَنْتَقِلْ الْآنَ إِلَى الْحِذَاءَيْنِ . كَيْفَ تَجِدُهُمَا ؟ وَاضْهِعْ
أَنَّهُمَا مُسْتَعْمَلَانِ ، وَلَكِنَّهُمَا مَا يَزَالَانِ يَصْلِحَانِ خِلَالَ شَهْرَيْنِ ، فَهَذِهِ
بِضَاعَةٌ أَعْجَبِيَّةٌ : إِنْ سَكَّرْتِ سَفَارَةَ ائْتَجَلْتِهَا قَدْ بَاعَهُمَا فِي الْأُسْبُوعِ الْمَاضِي .
لَمْ يَكُنْ قَدْ ائْتَمَلَهُمَا إِلَّا مِائَةَ أَيَّامٍ ، وَلَكِنَّهُ كَانَ فِي حَاجَةٍ مِائَةِ إِلَى الْمَالِ .
الْثَمَنُ : رُوبِلٌ وَخَمْسُونَ كُوبِيكًا . صَفَقَةٌ رَابِعَةٌ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟

قَالَتْ نَامَسْتَايَا :

— وَلَكِنَّهُمَا قَدْ لَا يَكُونَانِ عَلَى قِيَاسِ قَدَمَيْهِ !

— قَدْ لَا يَكُونَانِ عَلَى قِيَاسِ قَدَمَيْهِ ؟ فَمَا هَذَا الَّذِي أَخَذْتَهُ مَعِيَ اذَنْ ؟

قال رازوميخين ذلك واستل من جيبه حذاءً قديماً مهترئاً متعباً هو
أحد أحذية راسكولنيكوف . ثم أردف :

— لقد اخذت الاحتياطات اللازمة ! ماذا تظنين ؟ عرفنا قياس قدميه
من قياس هذا الحذاء العجيب ! نعم لقد جرت الأمور كلها بدقة تامة وعناية
محكمة . أما الملابس الداخلية فقد تفاهمت بشأنها مع صاحبة البيت .
اليك مؤقتاً ثلاثة قمصان من نسيج سميك ، ولكن صدرها على آخر
موضة . لنحسب الآن التكاليف كلها . قبعة : ثمانون كوبكاً ؛ ملابس
أخرى : روبلان وخمسة وعشرون كوبكاً ؛ المجموع : ثلاثة روبلات
 وخمسة كوبكات ، الحذاءان : روبل وخمسون كوبكاً ، لأنهما في حالة
جيدة جداً . المجموع : أربع روبلات وخمسة وخمسون كوبكاً ، الملابس
الداخلية ، جملة واحدة ، خمسة روبلات . الباقي : خمسة وخمسون
كوبكاً ، نقوداً نحاسية من فئة الكوبك . اليك هي . خذها . هكنا
يا روديا تكون قد . تهنّدت ، الآن ، لأن معطفك ما يزال قابلاً
للاستعمال ، حتى انه لا يخلو من ... وجاهة . أرايت قيمة اختبار المراء
ملابسه من محلات شارمر ! * أما الجوارب وما الى ذلك ، فأننى أترك لك
أمر الاهتمام بها . وأما المال فما زلنا نملك منه خمسة وعشرين روبلاً .
وليس عليك بعد الآن أن يقلقك أجر المسكن . ان باشنكا ستمهلك امهالاً
غير محدود ، كما قلت لك . والآن يا عزيزى ، سوف تبدّل قميصك ،
لأننى لا استغرب أن يكون مرضك كله قد تسلل اليك من هنا . .

قال راسكولنيكوف بعد أن استمع مشمئزاً الى الكلام المرح الذى
تدفق من فم رازوميخين :

— دعنى ! لا أريد !

قال رازوميخين مصراً :

- لا مناص يا عزيزى ! لن يقول أحد اننى أبليت حذائى فى غير
طائل !

ثم التفت يقول لئاستاسيا :

- هلمى يا ناستاسينكا ! لا تسنحى ! ساعدنى ! نعم ... هكذا ..

استطاع رازوميخين وناستاسيا أن يبدلا قميص راسكولنيكوف ،
رغم المقاومة التى أبداهما • وعاد راسكولنيكوف يتهالك على وسادته ،
ولزم الصمت خلال دقيقتين قاتلاً لنفسه : « سيلبان مدة طويلة لا يتركاني
وشائى » ثم سأل وهو ينظر الى الجدار :

- بأى مال اشتريتَ هذه الأشياء كلها ؟

فأجابه رازوميخين متعجياً :

- بأى مال ؟ عجيب ! بمالك أنت • لقد جاء الى هنا مستخدمٌ من

عند فاختوشين يحمل اليك مالا أرسلته أمك • ألا تذكر ؟

قال راسكولنيكوف بعد تفكير طويل شاق :

- نعم ، الآن تذكرت !

فتأمله رازوميخين مقطباً فلماً •

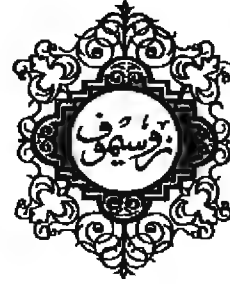
وفُتح الباب ، ودخل رجل طويل القامة قوى البنية • أحسن

راسكولنيكوف أنه سبق أن رأى هذا الرجل •

هتف رازوميخين يقول فرحاً كل الفرح :

- زوسيموف ! أخيراً وصل !

الفصل الرابع



رجل طويل القامة ، سمين الجسم ، معتلى .
الوجه ، شاحب اللون ، حليق اللحية ، يوشك
شعره أن يكون من قرط شقوته أبيض ، وهو
يتنصب على رأسه قائماً . على عينيه نظارتان ،

وفى إحدى أصابعه المتفخخة خاتم من ذهب . انه فى السابعة والعشرين من
عمره . فاذا نظرت الى معطفه الأنيق الواسع المصنوع من نسيج صوفى
خفيف ، والى سرواله الصيفى الفاتح اللون ، أدركت أنه واحد من أولئك
الرجال الذين يُعَنون بحسن أنافتهم وجمال هندامهم أشدَّ العناية . ان
قميصه الناصع البياض يتألق تألقاً باهراً ، وان صُدِرتَه تزدان بسلسلة
كبيرة من ذهب خالص . أما حركاته فهى تظل بطيئةً بعض البطء ،
ثقيلةً بعض الثقل ، رغم ما يصطنعه فى مشيته من انطلاق . هذا الى أن
الادعاء يظهر فيه واضحاً كل الوضوح ، رغم جميع الجهود التى يبذلها
لإخفائه . ان كل الذين عرفوه قد لاحظوا أنه رجل صعب المراس شديد
الطبع ، ولكنهم يجمعون على أنه يرف مهنته معرفةً طيبة .

هتف رازومبخين يقول له :

— لقد ذهبت اليك مرتين يا صاحبي ! ها هو ذا قد أفاق من غيبوبته
كما ترى .

قال زوسيموف :

- نعم ! نعم !

ثم أردف يسأل راسكولنيكوف وهو يتفرس فيه ويجلس عند قدميه
على طرف السرير بنير مبالاة أو تحرج :

- هيه ! كيف حالنا الآن ؟

قال رازوميتشين :

- ما يزال مكتب المزاج ، ولقد كاد يبكى منذ قليل حين بد لنا له
قميصه !

- هذا طبيعي !... كان يمكنكم أن ترجئوا ذلك الى حين آخر
ما دام يضايقه ... النبض جيد ، أما زلت تشعر بشيء من صداع في
رأسك ؟

قال راسكولنيكوف حائثاً مصرأ :

- لا ! صحتي حسنة !

وكان راسكولنيكوف قد نهض على سريره ملتئم العينين متقد
النظرات ، ولكنه لم يلبث أن تهاوى على الوسادة والتفت نحو الحائط .
وكان زوسيموف يراقب بانتباه فقال بلهجة مثاقلة :

- كل شيء على ما يرام ، هل أكل شيئاً ؟

ذكر له ماذا أكل المريض ثم سئل عما يمكن أن يأكله . قال
الطبيب :

- يمكن اطعمه كل شيء ! حساء ، شاي ... ولكن لا فطر ،
ولا قه طبعاً . وقد لا يناسبه لحم البقر ايضاً . ولكن هذا الكلام
كله ؟ (وتبادل نظرة مع رازوميتشين) . ولا حاجة الى الدواء بعد

الآن ، لا حاجة الى شيء بعد الآن • غداً أرى ••• على أننا نستطيع منذ
اليوم فى الواقع أن •••

قال رازوميخين :

- سأصطحبه مساء غداً فى نزهة • نذهب أولاً الى حديقة
يوسوبوف ، ثم نذهب بعد ذلك الى « قصر الكريستال » * •

- لو كنت فى مكانك لتركته غداً حيث هو • قد أخرج معه لحظة
قصيرة ••• هلى كل حال سوف نرى •

- خسارة ••• ذلك أتى أحتفل اليوم بانتقالى الى المسكن
الجديد الذى يقع على بعد خطوتين من هنا • ليته يستطيع أن يشاركنا ،
ولو رافداً على أريكته ! أما أنت فسوف تجي • ، أليس كذلك ؟ (قال
رازوميخين هذا متجهاً بالكلام فجأة الى زوسيموف) • لن تنسى ، هه ؟
هل تعلم ما الذى وعدتني به ؟
أجاب زوسيموف !

- قد أجىء ، ولكننى اذا جئت فسأجىء متأخراً • ماذا أعددت
للحفلة ؟

- لم أهىء أشياء كثيرة ! شاي ، فودكا ، سمك مجفف ، فطائر
أيضا • ليس بيننا تكليف • نحن أسرة واحدة •
- نحن ؟ من تقصد ؟

- رفاق ، شباب ، أكرهم لا أعرفه من قبل • ومسيحضر الاحتفال
عمى الى جاء الى بطرسبرج لأعمال ، ولا أراه الا مرة واحدة كل خمس
سنين •

- ما هو عمك هذا ؟

- سلخ حياته كلها فى مقاطعة نائية مديراً لمركز بريد ••• وقد

أحيل على التقاعد فهو يتقاضى معاشاً صغيراً • عمره خمسة وستون سنة • •
ما حاجتنا الى الكلام عنه ؟ على أنتى أحبه فى الواقع • سيجىء بورفير
سيميوفتش أيضاً ، قاضى التحقيق فى الحى • انه متخرج من • مدرسة
القانون الامبراطورية ، * • ولكنك تعرفه • • •

— هل يمت اليك بقرابة أيضاً ؟

— قرابة بعيدة جداً ! ولكن لماذا أراك تستاء ؟ آمل أن لا تحملك
المشاجرة التى وقعت بينك وبينه ذات يوم على أن تظن أنك معنى من
حضور الحفلة • • •

— هو ! أنا لا اكرت به •

— أحسن ، أحسن • وهكذا ستضم الحفلة طلاباً ، واستاذاً ،
وموظفاً ، وموسيقياً ، وضابطاً هو زاميتوف • • •

— قل لى : ما الذى يمكن أن يجمع بينك أو قل بينه (هنا أوما
زوسيموف بإشارة من رأسه الى رامكولنيكوف) وبين رجل مثل
زاميتوف ؟

— يا لهؤلاء المتعيين ! المبادئ طبعاً ! يميناً أنك جالس على المبادئ
كجلوسك على خازوق فلست تجرؤ أن تقوم بحركة واحدة على ما يشاء
لك هواك • أما أنا ففى رأى أن الانسان الطيب الحى هو فى ذاته مبدأ من
المبادئ • • وزاميتوف رجل رائع فى نظرى •

— هو على كل حال رجل يعرف معرفة رائعة كيف يلعب على
حبلين وكيف يجنى ربحاً من طرفين •

صاح رازومبخين وقد ازدادت حماسه ازدياداً شديداً :

— ما شأنى أنا وهذا ؟ هل قلت لك اننى أؤيده فى اللعب على حبلين
وفى جنى الربح من طرفين ؟ ان كل ما قلته لك هو أنه فى نوعه انسان

جيد • ولو نظرنا الى جميع أنواع البشر لحق لنا أن نتساءل من هم أولئك الذين يصمدون في الواقع للامتحان ويبرهنون على أنهم أخيار طيبون ! اتنى لملى يقين من أتنى أنا نفسى لا أستحق أن أشتري ببصلة ، ولو أضفت أنتَ الى •

– أنتَ تبالغ ! انا مستعد لأن اشتريك ببصلتين اثنتين !

– أما أنا فلا اشتريك الا ببصلة واحدة • ها ••• انك تستطيع أن تكون فكها ! ثم ان زاميتوف ما يزال صيياً صغيراً • ولسوف تأتي مناسبات أشد فيها أذنيه ، ولكن يجب على بانتظار ذلك أن أداريه لا أن أضده • لا سبيل الى اصلاح انسان بسوء المعاملة ، ولا سيما اذا كان صيياً ، فانما يجب على المرء أن يعكر مزيداً من المكر حين يُعامل صيياً صغيراً • ولكنكم ، معشر التقدمين المتصلين ، لا تفهمون من هذا الأمر شيئاً ، ولا تحترمون الطبيعة الانسانية • وانتم حين لا تحترمون الطبيعة الانسانية انما تسيئون الى أنفسكم • واذا كنت تحرص على أن تعرف كل شيء ، فاعلم أن لنا ، أنا وهو ، قضية مشتركة •

– هل يمكننا أن نسألك عن هذه القضية المشتركة ، ما هى ؟••

– هى قضية ذلك الدهان نفسه • نعم ، سوف ننقذه من تلك الورطة ! على أنه أصبح الآن غير معرض لأى خطر • لقد أصبحت القضية الآن واضحة ، واضحة جداً • وكل ما يقع على عاقلنا هو أن ندفعها الى نهايتها بسرعة •

– من ذلك الدهان ؟

– كيف ؟ ألم أقصص عليك القصة ؟ ها ••• فعلاً ••• أنا لم أقصص عليك الا البداية ••• ان قاتل العجوز المرايية ، أرملة الموظف ••• أقصد ••• ان الدهان اصبح الآن مقحماً فى هذه القضية •

- سمعت عن جريمة القتل هذه من قبل ... حتى لقد اهتمت بها بعض الاهتمام ... نعم ، وقرأت أيضاً ما تقوله عنها الصحف و ...
- وقد قُتلت اليزابث أيضاً !

بذلك نطقت ناستاسيا على حين فجأة ، متجهة بالكلام الى راسكولنيكوف . كانت قد بقيت في الغرفة طوال ذلك الوقت ، مستندة الى الباب ، تابع الحديث .

تمتم راسكولنيكوف يقول بصوت لا يكاد يسمع !
- اليزابث ؟

قالت ناستاسيا :

- نعم اليزابث ، السمسارة . كانت تنجيء الى هنا ، تحت ، حتى لقد رُبعت لك قميصاً .

التفت راسكولنيكوف نحو الحائط ، حيث تتأثر على الورق الأصفر الومخ رسوم أزهار صغيرة بيضاء ، فاختار من هذه الأزهار زهرةً مخططة بلون رمادي ومرسومة رسماً رديئاً ، فأخذ يتأملها محاولاً أن يحصى عدد تويجاتها وعدد الأسنان في حافات أوراقها . وشعر بأعضائه تتخدر ، حتى بدا له أنها ليست أعضائه ، ولكنه لم يحاول أن يتحرك ، وظل ينظر الى الزهرة الصغيرة مصراً معانداً .

قال زوسيموف يسأل رازومبخين مقاطعاً نثرته ناستاسيا باستياء واضح :

- طيب ، فماذا وقع لذلك الدهان ؟

فتابع رازومبخين حديثه قائلاً بحرارة :

- لقد أصحم هو أيضاً في جريمة القتل .

- هل هناك قرائن ؟ وما هي تلك القرائن ؟

- قرائن ؟ هناك قرائن ! والأمر فى الواقع أمر قرائن ! غير أن القرينة التى يستشهدون بها ليست قرينة ، وذلك ما يجب البرهان عليه !.. المسألة بسيطة : لقد أخذوا يكررون تلك الحماقات نفسها التى ارتكبوها حين انتهبوا فى الرجلين الآخرين فاعتقلوهما ... أقصد : كوخ وسترياكوف ! نعم لقد كرروا تلك الحماقات نفسها نقطة نقطة . ما أغبى تصرفهم يا رب ! ان المرء ليشعر بالحزى والعار من هذا التصرف ، ولو لم يكن له به شأن ! قد يجيء الى بسترياكوف اليوم !... بالمناسبة يا روديا : عليك أن تعرف هذه القصة لأنها وقعت قيل مرضك ، تماماً عشية اليوم الذى أغمى عليك فيه بقسم الشرطة ... بينما كانوا يتحدثون فى هذا الأمر هناك .

نظر زوسيموف الى راسكولنيكوف مستظلاً ، فلم يحرك راسكولنيكوف ساكناً .

قال زوسيموف غامزاً :

- أرى يا رازومихين أنك تسرف فى الحركة حول هذه القضية حقاً !

فأجاب رازومихين صارخاً وهو يضرب المائدة بقبضة يده :

- لا ضير ! سنتقدم من تلك الوطءة على أية حال ! ان الأمر الذى يغيظنى فى هذا كله أكثر مما يغيظنى أى شئ آخر ليس وقوعهم فى الخطأ ، فالوقوع فى الخطأ يمكن التسامح فيه دائماً ، حتى ان الخطأ شئ رائع فعلاً لأنه يؤدى الى الحقيقة . ليس الخطأ اذن هو الذى يغيظنى منهم ، وانما يغيظنى منهم انهم يظنون ممثلين احتراماً للأخطاء التى يقعون فيها . انتى اعتبر بورفير ، ولكن ... اسمع ، هل تعرف مثلاً ما هو الذى حثهم وأضلهم فى أول الأمر ؟ أن الباب كان مغلقاً ، فلما عاد

الرجلان مع البواب كان الباب مفتوحاً ، فاستتجوا من ذلك أن كوخ
وبسترياكوف هما القاتلان ! أرأيت الى هذا المنطق ما أعجبه !

- لا تحمس هذا التحمس كله : لقد أوقفوهما فحسب .. لم يكن
فى وسعهم على كل حال أن ... بالمناسبة : لقد أتيح لى أن أقابل كوخ .
يظهر أنه كان يشتري من المعجوز الأشياء المرهونة التى تخلف أصحابها
عن تجديد رهنها فى الموعد المحدد . أليس هذا صحيحاً ؟

- بلى ، بلى ، انه وغد حقير ! وهو يشتري سندات أيضاً . هو وغد
حقير ، هو محتال خطير ... شيطان يأخذه ! ولكن ليس هنا ما يثير
غضبى وحقى ، وانما يثير حقى وغضبى أنهم يتبعون روتيناً عتيقاً بالياً
تراكم عليه الغبار من تقادم العهد . ان هذا الروتين هو الذى يثير
سخطى ! وما أسهل أن يكشف المرء ، فى معالجة هذه القضية ، طرقات
جديدة كل الجدة ! ان فى وسعنا ، اذا نحن اعتمدنا على علم النفس
وحده ، أن نجد السبيل الى معرفة الحقيقة . هم يقولون : لدينا وقائع ،
ولكن الوقائع ليست كل شئ ، وتصف القضية انما يكمن فى طريقة
تأويل هذه الوقائع ...

- وهل تستطيع تأويلها ، أنت ؟

- عجيب أمرك ! ان المرء لا يمكنه أن يسكت حين يحس ، حين
يحس بنريزته أن فى وسعه تقديم خدمة اذا هو ... هل تعرف القضية
تفصيلاً ؟

- أعرفها جيداً . ولكننى ما زلت أنتظر أن تقصّ على حكاية
الدهان .

- سأقص عليك حكايته . اسمع : غداة وقوع الجريمة تماماً ،
فى الصباح ، حين كانوا يدقون فى استجواب كوخ وبسترياكوف - مع

أن هذين الرجلين كانا قد ذكرا جميع حركاتهما وسكناتهما ، ورغم أن كل شيء قد اتضح انضاحاً صارخاً - حدث على حين فجأة حادثٌ لم يكن متوقفاً على الإطلاق : ان فلاحاً اسمه دوشكين ، وهو صاحب خمارة تقع أمام العمارة التى وقعت فيها الجريمة ، جاء الى قسم الشرطة حاملاً علبة مجوهرات فيها قرطان ، وأخذ يروى قصةً عجيبة ، قال :

« أمس الأول ، فى المساء ، بعد الساعة الثامنة بقليل ، (لاحظ الوقت : اليوم والساعة) رأيت الدهان يقولوا يهرع الى خمارتى ، وكان قد ارتادها مراراً قبل ذلك ، حاملاً الىَّ علبةً صغيرة فيها قرطان ذهبيان يزدانان بأحجار صغيرة ، راجياً أن أُرهنهما لدىَّ لقاء قرض قيمته روبلان . فلما استجوبته لأعرف من أين أتى بالقرطين ، قال انه عثر بهما على رصيف ، فلم أسأله غير ذلك (ان دوشكين هو الذى يتكلم) ، ونقدته ورقة صغيرة أى روبلاً واحداً ، لأننى قلت لنفسى : اذا لم يرهن هذين القرطين عندى ليشرب بالقرض خمرة ، فسيرهنهما عند غيرى ، فالأولى أن يبقيا بين يديَّ أنا : فبذلك أضمن على الأقل أن لا يطوفا العالم كله ، فاذا راجت اشاعة تقول انهما مسروقان ، مضيت الى قسم الشرطة لأبلغ عنهما » .

تابع رازوميخين كلامه فقال معقبا :

— واضح أن هذه القصة التى رواها دوشكين سخيفة . وأنا أعرف دوشكين هذا : انه كذاب كبير . انه ، هو نفسه ، يقرض برهن . فلتن أخذ من يقولوا شيئاً تساوى قيمته ثلاثين روبلاً فانه لم يفعل ذلك من أجل أن يبلغ عته . كل ما هنالك أنه خاف . ودعنا من دوشكين هذا على كل حال . واسمع التهمة . قال دوشكين :

« أما ذلك الفلاح ، يقولوا ديماتيف ، فأننى أعرفه منذ زمن بعيد ،

فتحن كلانا من اقليم واحد هو اقليم ريزان (مقاطعة زارابسك) ؛ وهو يحب أن يشرب قليلاً ، وان لم يكن سكيراً مدمناً . وكنا نعلم أيضاً أنه كان يعمل ، أنه كان يدهن الجدران ، في ذلك المنزل ، مع دتمرى ، ابن بلده . فلما تقدمته ورقة الروبل ، بدّلها فوراً ، وشرب كأسين ، واحداً بعد آخر ، ثم تناول النقود الفائضة وانصرف . ولم أر دتمرى معه في تلك اللحظة . وفي الغد ، سمعنا أن آليونا ايفانوفنا وأختها اليزابت ايفانوفنا قد وُجِدتا مقتولتين بضربات ساطور ؛ ولما كنا نعرفهما كليهما ، فقد راودنى شك في أمر القرطين الذهبيين ، لأننا ، كما سبق أن قلت ، كنا نعرفهما ونعرف انهما تقرضان على رهون . عندئذ ذهبت الى العمارة ، وأخذت أخصى الأمر قليلاً . سألت أولاً عن نيكولا أهو موجود ، فقال لى دتمرى انه غائب يقصف ويلهو ، وانه قد عاد ثملاً في أول الصباح فلم يمكث الا عشر دقائق ، ثم خرج من جديد ؛ وعرفت أن ميتكا لم يره بعد ذلك ، وأنه طفق يتم عمله وحيداً . والبيت الذى كانا يدهنانه اما يقع في الطابق الأول ، ويطل على نفس السلم الذى يطل عليه بيت المرأتين الشقيقتين . عرفنا هذا كله ، ولكننا لم نقل عندئذ شيئاً لأحد .

(ان دوشكين هو الذى ما يزال يتكلم) . غير أننا أسرعنا نجتمع كافة المعلومات التى يمكن جمعها عن جريمة القتل ، ورجعنا الى بيتنا وقد امتلأت نفوسنا ريبة واشتباهاً . وفي هذا الصباح ، فى الساعة الثامنة من هذا الصباح (أى غداة غد وقوع الجريمة) ، رأيت نيقولا داخلاً على الحمارة . لا أستطيع أن أقول انه لم يكن قد شرب خمراً بعد ، ولكننى لا أستطيع أن أقول أيضاً انه كان ثملاً جداً ، وانما كان قادراً على متابعة حديث . وجلس على دكة دون أن ينطق بكلمة . ولم يكن يوجد فى الحمارة عندئذ الا هو وشخص آخر عابر ، وشخص ثالث من رواد

الحمارة كان نائماً على دكة ؟ هذا عدا الصينيين اللذين يعملان في الحمارة
طبعاً • سألت نيقولا :

• - هل رأيت ميتكا ؟

• فأجابنى :

• - لا ، لم أراه منذ أمس الأول •

• - وأين نمت فى هذه الليلة ؟

• - فى حىّ " الرمال " ، * ، عند أهل كولومنا * •

• - ومن أين جئت بالقرطين فى ذلك اليوم ؟

• - عثرت بهما على الرصيف •

• وكان يقول ذلك كله مشيحاً بوجهه عنى • سأله :

• - هل سمعت عن حدوث كذا وكذا ، فى ذلك المساء نفسه ، فى

تلك الساعة نفسها ؟

• فأجابنى :

• - لا ، لم أسمع عن شئ من هذا !

• ولكنه حلق ، وابيضّ لونه حتى صار كالطباشير • وفيما أنا أروى

له ما حدث ، رأيته يتناول طاقتة فجأة ، وينهض • حاولت أن أحبسه
عن الخروج ، فقلت له :

• - انتظر يا نيقولا ! ألا تريد أن تشرب كأساً ؟

• وأومأت الى أحد الصينيين أن يسدّ عليه الطريق ، وترك

البسطة • لكن صاحبنا نيقولا ولىّ هارباً ، فهو الآن ينعطف عند ناصية
الشارع ، حتى انتهى لم أكد أراه • لم يبق اذن شك : انه هو الذى ارتكب
تلك الجريمة ! • •

قال زوسيموف :

- واضح !

قال رازوميخين :

- انتظر ! اسمع التهمة ! مضت الشرطة كلها تبحث عن يقولوا طبعاً : فتشوا خمارة دوشكين ، ثم أوقفوا دوشكين ، وأوقفوا دمتری أيضاً ، وقلبوا كل شيء عاليه سافله عند أهل كولومنا ، ثم لم يستطيعوا أن يضعوا أيديهم على يقولوا الا بعد ثلاثة أيام ، أى أمس الأول . قبضوا عليه فى فندق قرب حاجز « س . . . » . يظهر أنه حين وصل الى هناك استل صليبه القضى ، وطلب مقايضة هذا الصليب بزجاجة فودكا صغيرة ، فأجيب طلبه . وبعد بضع دقائق دخلت امرأة طيبة الى الاسطبل ، فاليك ما رأيته من شق الباب : رأيت يقولوا فى جانب من محطة العربات ، قد ربط حزامه بوتد وجل فيه عقدة منزلفة ، وصعد على قطعة غليظة من خشب يريد أن يتحر شتقاً . خطرت ببال المرأة هذه الفكرة الموفقة ، وهى أن تصرخ ، فصرخت ، فهرع الناس الى المكان ، وقالوا له :

« - آ . . . أهكذا أنت اذن ؟

» فقال لهم :

« - نعم . . . خذونى الى قسم الشرطة فى حى كذا ، وسأعترف هنالك بكل شيء !

فأقادوه محاطاً بكل ما يجب لشخصه الكريم من احترام ، أقادوه الى قسم الشرطة الذى حدّده ، أى الى قسم الشرطة فى حينا ، فصرعان ما بدأت الأسئلة تهمر عليه انهمار المطر : كيف ، وماذا ، ولماذا ، وأين ، وما سنك ، وهلمّ جرا ! . . . مؤال :

- » - بينما كنت تعمل مع دمترى ، ألم ترَ أحداً على السلم في ساعة كذا ؟
- » - مرَّ أناس كثيرون طبعاً ، ولكن ليست مهمتى أن ألاحظهم ..
- » - أقلم تسمع شيئاً ما ، أقلم تسمع ضجةً ما ؟
- » - لا ، لم أسمع شيئاً يلفت الانتباه !
- » - وأنت يا نيقولا ، هل كنت تعلم فى ذلك اليوم أن العجوز فلانة قد قُتلت وسُرقَت هى وأختها ، يوم كذا ، ساعة كذا ؟
- » - لا علمت شيئاً ، ولا رأيت شيئاً • علمت بالأمر أول مرة من آتانا زى منذ يومين ، فى الكاباريه •
- » - ومن أين جئت بالقرطين ؟
- » - عثرت بهما على الرصيف •
- » - لماذا لم تجيء الى العمل مع دمترى غداً ذلك اليوم ؟
- » - لأننى قصفت ولهوت فى ذلك اليوم •
- » - أين قصفت ولهوت ؟
- » - فى مكان كذا •
- » - لماذا هربت من عند دوشكين ؟
- » - لأننى خفت •
- » - من أى شىء خفت ؟
- » - خفت أن أحال الى المحاكمة •
- » - ولكن كيف يمكن أن تخاف من أمر كهذا ، ما دمت تعرف أنك لم تقارف جرماً ؟
- وعقَّب رازوميشين على ذلك بقوله :

- نعم يا زوسيموف ، بهذه الكلمات انما ألقى عليه هذا السؤال ،
بهذه الكلمات نفسها ، صدقت أم لم تصدق ! نعم ، بهذه الكلمات
نفسها ... أنا أعلم ذلك علم اليقين ؛ لقد نُقل الى السؤال بنصه ، كلمة
كلمة . ما رأيك ؟ ما رأيك ؟

- نعم ، نعم ، ولكن هناك قرائن على كل حال ...

- لا أتكلم الآن عن القرائن ، وانما أتكلم عن السؤال الذى ألقوه
عليه ، أتكلم عن طريقة هؤلاء الناس فى فهم مهنتهم . ولكن دعنا من
هذا الآن ، ولنكمل وصف ما جرى بينهم وبين يقولوا . ضيقوا عليه
الحناق ، ثم ضيقوا عليه الحناق مزيداً من التضيق ، فاعترف . قال :

« - لم أعر بالقرطين على الرصيف ، وانما عثرت بهما فى البيت
الذى كنا ندهنه أنا ودمترى .
- كيف عثرت بهما ؟

« - كيف ؟ هكذا : كنا قد عملنا أنا ودمترى طول النهار حتى
الساعة الثامنة ، وكنا نستمد للانصراف ؛ ولكن ها هو ذا دمترى يتناول
فرشاة ويأخذ يلمطخ لى وجهى . فلما لطمخ لى وجهى ، ولى هارباً ،
فركضت وراءه أطارده . كنت أركض وأطلق صرخات وحشية ولكن
حين خرجت من السلم ووصلت الى فناء المنزل ، رأيتى أسقط على
البواب الذى كان معه عندئذ بعض السادة . أما عدد أولئك السادة فأنى
لا أذكره الآن . أخذ البواب يشتمنى ، ثم جاء البواب الثانى فأخذ
يشتمنى أيضاً ؛ وخرجت امرأة البواب الأول من مسكنها فأخذت تشتمنا
كلينا ؛ وفى تلك اللحظة كان يمر تحت باب الدخول سيد تصحبه سيدة ،
فأخذ يشتمنا هو أيضاً ، لأننا كنا ، أنا ودمترى ، قد انبطحنا فسدنا عليه
الطريق . كنت قد أمسكت دمترى من شعره ، ورميته على الأرض

ورحت أهوى عليه بوابل من اللكمات ؟ وكان دمترى تحتى ، قد أمسك شعري وأخذت لكلماته تنهمر على أيضاً - ولكن ذلك كله لم يكن دافعه الحب والشعر ، وإنما كان دافعه المودة والمحبة ، فهو نوع من التسلية . ثم تخلص دمترى ، وولى هارباً الى الشارع ، فركضت وراعه ولكنى لم أستطع أن أدركه . عندئذ عدت الى البيت وحدى لأرتب أشيائى . وفيما أنا أرتبها ، منتظراً دمترى ، اذا ببى أدوس على علبة صغيرة ، قرب الباب ، فى الدهليز ، فنظرت ، فرأيتها ملفوفة بورق ، فتزعت الورق وفتحت العلبة ، فرأيت كلابتين ، كلابتين صغيرتين ، صغيرتين جداً ، فشددتهما فخرج القرطان

هتف راسكولنيكوف يسأل فجأة ، وهو يحدق الى رازوميين بنظرة مضطربة مروعة ، بينما هو ينهض جسمه ببطء ، ويسند يده الى السرير :

- وراء الباب ؟ كانت العلبة وراء الباب ؟

- نعم ، ولكن ماذا بك ؟ ماذا دهالك ؟

وكان رازوميين قد نهض هو أيضاً عن مقعده .

أجاب راسكولنيكوف بصوت لا يكاد يُسمع ، وهو يتهاك على وسادته من جديد ، ويعود يلتفت نحو الحائط :

- لا شئ . .

ولبت الجميع صامتين برهة طويلة .

قال رازوميين أخيراً وهو يلقي على زوسيموف نظرة سائلة مستفهمة :

- لا شك أنه كان قد غفا ، وأنه ما يزال يحلم ، أليس كذلك ؟

فحرك زوسيموف رأسه بإيماء خفيفة تعنى النفى . وقال :

- أكمل يا رازوميخين • ماذا حدث بعد ذلك ؟

- بعد ذلك ، بعد ذلك ! نعم ••• ما ان رأى القرطين ، حتى نسي عمله ونسى دمترى ، وتناول قبعته وركض يسعى الى خماره دوشكين ، فأخذ منه رويلاً ، كما أسلفنا ، وكذب عليه حين زعم له أنه عثر بالعبلة على الرصيف ؟ ثم طفق يقصف من صندوق المرأة العجوز الى يدي على الرصيف ؟ ثم طفق يقصف ويلهو ، كما أسلفنا أيضاً • أما عن جريمة القتل ، فانه ما يزال يصصر على أقواله :

• - لا علمت شيئاً ولا رأيت شيئاً •

• - فلماذا اختفيت اذن حتى الآن ؟

• - خفت •

• ولماذا أردت أن تتحر شقاً ؟

• - لأننى قدّرت أن أمراً سيحدث لى •

• - ما هو الأمر الذى قدّرت أنه سيحدث لك ؟

• - قدّرت أننى سأحال الى المحاكمة •

وعقب رازوميخين على ذلك سائلاً زوسيموف :

- هذه هي القصة كاملة • فما الذى تظن أنهم استتجوه من ذلك

كله ؟

- ما عسى أظن ؟ هناك قرائن • ومهما تكن هذا القرائن ، فانها

تبقى قرائن • الواقعة قائمة • ليس فى وسعهم أن يخلوا سيل صاحبك الدهان ، رغم كل شيء •

- ولكنهم حشروه فى سلك القنلة وانتهى الأمر • لم يبق عندهم

ظل من شك •••

- أنت تخطئ ••• أنت تتحمس وتندفع ••• يجب أن تنظر فى

واقعة وجود القرطين مع يقولوا لا بد لك من التسليم بأن هذين انقرطين اذا كانا انتقلا رأساً في ذلك اليوم نفسه ، في تلك الساعة نفسها ، من صندوق المرأة العجوز الى يدى يقولوا ، فقد انتقلا بطريقة من الطرق. هذا أمر له خطورته في التحقيق ...

— أتقصد طريقة انتقالهما الى يدى يقولوا ؟ ألا ان أمرك لعجيب ! هل يمكنك حقاً ، وأنت طيب يفرض فيه أن يعرف الانسان ، وأنتح له عدا ذلك أن يسبر الطبيعة الانسانية ، هل يمكنك أن لا ترى من خلال جميع هذه المعلومات ، طبيعةً يقولوا هذا ؟ هل يمكن أن لا ترى منذ البداية أن كل ما صرّح به يقولوا أثناء تلك الاستجابات جميعاً انما كان الحقيقة خالصة صافية ؟ لقد وصل القرطان الى يديه على النحو الذى ذكره تماماً • داس على العلة فتناولها •

— الحقيقة خالصة !!... ولكنه اعترف هو نفسه بأنه كذب في المرة الأولى •

— أصنع الى باتباه ! ان البواب ، وكوخ ، وبسترياكوف ، والبواب الثانى ، وامرأة البواب الأول ، والبائعة التى كانت في مسكنها حينذاك ، والمستشار القضائى كريوكوف الذى نزل من مركبة في تلك اللحظة نفسها وكان يجتاز عتبة المدخل متأبطاً ذراع سيدة ، ان هؤلاء جميعاً ، أى ثمانية شهود أو تسعة ، قد أجمعوا فى أقوالهم على أن يقولوا كان قد بطح دمتري أرضاً ، وجثم عليه ، وراح يطره بوابل من اللكمات ، وأن دمتري كان من جهة ممسكاً بشعره يكيل له اللكمات هو أيضاً ؟ وأنهما تدرجاً كليهما بالعرض فسداً الطريق ، وأن الشتائم كانت تنهال عليهما من كل صوب ، وأنهما كانا « أشبه بالصية الصفراء » ، على حد تعبير الشهود نصاً ، يولولان ويتضاربان وينفجران ضاحكين ويتسابقان

فى القهقهة ويطارد كل منهما الآخر فى الشارع كالصبيان وقد ظهر فى وجهيهما من هزل الأطفال أشدّه ! هل سمعت هذا كله ؟ فاسمع الآن البقية : كانت الجتتان ، فوق ، فى ذلك الوقت نفسه ، ما تزالان ساختين ... ساختين ... نعم ، نعم ، لقد كانتا ساختين حين اكتشفنا . فلو كان يقولان ودمترى هما القاتلين ، أو كان يقولان وحده هو القاتل ، وكانا فى الوقت نفسه قد سرقا المعجوز أو لم يزيدا على أن شاركا فى السرقة مشاركة فحسب ، لكان من حقى أن ألقى عليك هذا السؤال : هل تلك الحالة النفسية (أعنى الولوجة ، والضحك ، والتشاجر الصياني تحت باب الدخول) تتفق والسواطير ، والدم والمكر الوحشى والسلب والنهب ؟ أيكوانان قد قتلا منذ برهة قصيرة ، منذ خمس دقائق أو عشر فى أكثر تهدير - وهذه نتيجة مستخلصة من سخونة الجتتين - ثم هما يمضيان فجأة ، تاركين الجتتين والباب مفتوح ، مع علمهما بأن أناساً سيصلون من لحظة الى أخرى ؟ أيقتلان منذ برهة وجيزة ، ثم يتركان غنيمتهما ، ويمضيان يتلحرجان فى الشارع « كالصية الصغار » ، ويضحكان ضحكاً صالحاً ، ويلفتان اليهما ابتاه الناس جميعاً ، وهذا ما يؤكده عشرة شهود بصوت واحد ؟

- هذا غريب فعلاً . ذلك مستحيل طبعاً ، ولكن ...

- يا أخى ، لا داعى الى « لكن » هذه . اذا كان وجود القرطين بين يدى يقولان ، فى ذلك اليوم نفسه ، فى تلك الساعة نفسها ، واقعة مادية هامة تشهد عليه - وهى مع ذلك واقعة تفسرها أقوال المتهم نفسه تفسيراً تاماً ، فيمكن اذن دحضها - أقول اذا كان ذلك كذلك فيجب أن ندخل فى الحساب وقائع أخرى تشهد للمتهم لا عليه ، وتؤكد براءته ، لا سيما وأنها وقائع ثابتة لا سبيل الى دحضها . ولكن ماذا تظن ؟ هل تعتقد أن قضاءنا ، وهو على ما هو عليه ، يمكن أن يسلم بأن واقعة قائمة

على الاستحالة السيكولوجية وحدها ، واقعة مبنية على الحالة النفسية
فحسب ، يمكن أن تُعدَّ واقعةً ثابتة لا سبيل إلى دحضها ، واقعةً قادرة
بمفردها على أن تهدم جميع وقائع الاتهام المادية أية كانت ؟ لا ، ان
قضاءنا لن يسلم بهذا ، لن يسلم به فى حال من الأحوال ، وذلك بحجة
أن اللعبة قد وُجدت ، وأن الرجل أراد أن يشنق نفسه ، وأنه « ما كان
ليفعل ذلك لولا شعوره بجرمه ! » . تلك هى المسألة الرئيسية ، ذلك هو
السبب الذى يحضنى على الاندفاع والحماسة ، هل فهمت ؟

— أرى أنك تندفع وتحمس فعلاً . انتظر ! نسيت أن ألقى عليك
سؤالاً : ما هو الدليل الذى نملكه على أن اللعبة التى تحوى القرطين
مصدرها صندوق المعجوز حقاً ؟

أجاب رازوميتشين على مضض ، وقد عبس وجهه :
— ذلك ثابت . لقد عرف كوخ اللعبة ، وحدد الشخص الذى
رهنها عند المعجوز ، وبرهن ذلك الشخص برهاناً قاطعاً على أنها عليه .
— هذا مؤسف . والآن ألقى عليك سؤالاً آخر : ألم يلمح أحد
أحد نيقولا لحظة كان كوخ وبسترياكوف يصعدان السلم ؟ أفلا يمكن
اثبات ذلك بطريقة من الطرق ؟
أجاب رازوميتشين متحسراً :

— لا ، لم يلمحه أحد ، وذلك هو الأمر المحزن . ان كوخ
وبسترياكوف نفسيهما لم يلاحظا العمال أثناء صعودهما . صحيح أن
شهادتهما الآن ... هما يقولان : « رأينا باب الشقة مفتوحاً ، وقد رأنا أنه
ربما كانت تجرى فيها اصلاحات ، ولكننا لم ننتبه أثناء مرورنا ، ولا نتذكر
أكان فيها عمال أم لا ... » .

— فالتفسير الوحيد الذى يمكن الاعتماد عليه اذن ، للتدليل على

براءتهما ، هو أنهما كانا يتضاربان ويضحكان مقهقهين • طيب ! هذا دليل قوى ولكن ... اسمع لى : كيف تفسر انت الواقعة ؟ كيف تفسر العثور على القرطين اذا كانا قد وجداهما على نحو ما صرحا ؟

- كيف أفسرها ؟ ليس هناك شئ يحتاج الى تفسير : الأمر واضح وضوح النهار ، أو قل فى أقل تقدير ان الطريق الذى يجب أن يسير فيه التحقيق واضح مرسوم • والعلبة هى التى ترسم هذا الطريق • ان القرطين قد سقطا من القاتل الحقيقى • كان هو فى أعلى ، موصداً عليه الباب بالمزلاج ، حين رابط كوخ وبسترياكوف على الباب • وقد ارتكب كوخ حماقة كبيرة ، حين نزل فى اثر صاحبه ، فاتهمز القاتل الفرصة ، فهرب من البيت ، ونزل هو أيضاً ، اذ لم يكن له مخرج آخر • وفيما كان على السلم ، اختبأ عن أعين كوخ وبسترياكوف والبواب بدخوله الى المسكن الخالى الذى تركه دمتري ونيقولا منذ لحظة قصيرة ، فظل لاطياً وراء الباب بينما كان البواب والرجلان الآخران يصعدان • حتى اذا انقطعت ضجة وقع أقدامهم نزل بهذوء ، وذلك فى اللحظة التى كان فيها دمتري ونيقولا يطارد كل منهما صاحبه فى الشارع أى فى اللحظة التى كان قد تفرق فيها الجميع فلم يبق أحد فى مدخل العمارة • بل ان من الجائز أن يكون أحدهم قد رآه ، لكنه لم يلاحظه : ان ناساً كثيرين يرمون • أما العلبة فلا بد أنها قد سقطت من جيبه لحظة كان واقفاً وراء الباب ، فلم ينتبه الى ذلك ، لأن ذهنه كان مشغولاً عندئذ بهموم أخرى كبيرة • نعم ، ان العلبة تبرهن برهاناً قاطعاً على أن القاتل قد رابط هناك • تلك هى القصة كلها •

قال زوسيموف :

- هذا تفسير بارع ! نعم ... حقاً هذا تفسير بارع جداً يا صاحبى ... بارع جداً جداً ...

- ولكن لماذا ؟ لماذا تقول ؟...

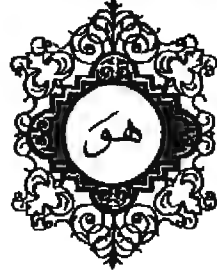
- لأن كل شيء فيه مرتب بحنق ومركَّب باحكام ... لكأننا
فى مسرح !...

همَّ رازوميخين أن يتكلم فقال :

- هيه ...

ولكن الباب فُتح فى تلك اللحظة نفسها ، فانفرج عن قادم جديد
لم يكن يعرفه أحد من الحضور .

الفصل الخامس



سيدٌ ليس الآن في ريتق الشباب ، سيد
متكلف متصنع ، ذو أبهة وجلال ، صبر هيشه
عن التحفظ والمجرفة ، وقف على العتبة يلقي
على ما حوله نظرات استطلاع فيها دهشة
لا تخفى حتى لتجرح وكأن عينيه تلقيان هذا السؤال : « أترانى ضللت
الطريق ؟ » ، انه يتفحص « حجرة » راسكولنيكوف الواطئة الضيقة وهو
يشعر بشيء من الشك ويبدى نوعاً من الخوف بل ويظهر شيئاً من
الأسف والمضض . وبمثل هذه الدهشة نفسها وجّه بصره الى
راسكولنيكوف ، ثم ثبته عليه ، فرأى راسكولنيكوف الذي لم يخلع
ثيابه ولا حلق ذقنه ، والذي كان مشعث الشعر راقداً على سريره
الحفير ، رآه يتفحصه من جهته دون أن يتحرك . وبهذا البطم نفسه
أخذ يلاحظ رازوميخين الذي لم يكن مشط الشعر ولا مخلوق الذقن
وكان هو أيضاً يتفرس فيه باستطلاع مستهتر وقع دون أن يتحرك .
خيّم صمت متوتر خلال ما يقرب من دقيقة ثم لم يلبث المشهد أن تغير
تغيراً طفيفاً كما ينبغي أن تتوقع . ذلك أن القادم الجديد قد أدرك من
بعض العلامات ، وهي علامات واضحة جداً على كل حال ، أن اصطناع
وضع فيه أبهة مفرطة لن ينفعه كثيراً في هذه الحجرة ، فلطّف هيئته
بعض التلطيف ، واتجه الى زوميموف يسأله بأدب وكياسة ، مع احتفاظه

بشيء من الجمود والصلابة ، قائلاً بلهجة تبرز مقاطع الكلام ابرازاً واضحاً :

- روديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب أو طالب سابق ؟
تحرك زوسيموف ببطء ، ولعله كان سيجيب لولا أن رازومихين
الذى لم يسأله أحد شيئاً أسرع يسبقه الى الجواب فقال :
- هو ذا راقد على السرير ماذا تريد أنت ؟

ان هذا السؤال الذى ليس فيه شيء من تحرج : « ماذا تريد
أنت ؟ » قد بلبل السيد المتصنع فأوشك أن يلتفت نحو رازومихين ،
ولكنه استطاع أن يسيطر على نفسه ، فاتجه مرة أخرى بسرعة شديدة
الى زوسيموف .

- نعم ، هذا راسكولنيكوف !

كذلك قال زوسيموف باعمال وتساقل ، وهو يشير الى المريض
بايماءة من رأسه ، ثم تنأى ففتح فمًا واسعاً سعة غير مألوفة أيضاً .
ثم أغطس يده فى جيب صدرته ببطء فاستل منه ساعة ذهبية كبيرة
محدبة الشكل ، ففتحها ونظر فيها ، ثم أعادها الى جيبه بذلك البطء
نفسه وبذلك التوانى نفسه .

وفى أثناء هذا الوقت ، ظل راسكولنيكوف راقداً مقلوب الجسم ،
وظل صامتاً لا يقول كلمة ؟ وكان يلقي على الزائر نظرة ثابتة عنيدة ،
وان تكن هذه النظرة لا تعبر عن أية فكرة .

انه وقد تحول وجهه عن تلك الزهرة الصغيرة العجيبة المرسومة
على ورق الجدار ، يبدو الآن شاحباً شحوباً شديداً ، وتدل ملامحه
على أنه يعانى ألماً هائلاً ، حتى لكأنه خارج من عملية موجعة أو كأنه
يُستجوب أمام قاضى تحقيق . ولكن القادم الجديد أخذ يثير فيه بعض

الانتباه شيئاً بعد شيء ثم أخذ يثير فيه شكاً وارتياباً ، حتى لقد أثار فيه آخر الأمر نوعاً من خوف وخشية • فلما قال زوسيموف وهو يومئذ إليه : «نعم هذا راسكولنيكوف» انتفض فجأة كأنما وخزته ابرة ، وجلس على السرير ، وقال بلهجة تكاد تكون تحدياً وان يكن صوته واهناً ضعيفاً متقطعاً :

– نعم ، أنا راسكولنيكوف ! ماذا تريد ؟

نظر اليه الزائر بانتباه وقال يعرف بنفسه بلهجة رصينة وقور :

– بطرس بتروفيتش لوجين • أحب أن أظن أن اسمي ليس مجهولاً عندك تماماً •

ولكن راسكولنيكوف الذى توقع شيئاً غير هذا ، نظر اليه دون أن يجيب ، وكان زائع البصر شارد الفكر كأنه يسمع اسم بتروفيتش أول مرة حقاً •

سأله بتروفيتش مرتبكا بعض الارتباك :

– كيف ؟ هل يمكن أن لا تكون قد تلقيت أىّ نبأ حتى الآن ؟

فلم يزد جواب راسكولنيكوف على أن راح ينزلق على الوسادة ببطء ، ثم صالب يديه وراء رأسه ، وأخذ ينظر الى السقف •

طاف بوجه لوجين تعبير عن حزن ، وأخذ زوسيموف ورازومихين ينظران اليه بمزيد من الاستطلاع والفضول ، حتى بدا عليه الاضطراب فى آخر الأمر • ودمدم يقول :

– كنت افترض وأقدّر أن الرسالة ، وقد أودعت فى البريد منذ عشرة أيام ان لم يكن منذ خمسة عشر يوماً ، لا بد أن ...

فقاطعه رازومихين فجأة بقوله :

— اسمع ! لماذا تبقى واقفاً هذه الوقفة على الباب ؟ هلمّ فاجلس
إذا كان لديك شيء تريد أن تشرحه ... إن العتبة لا تسع لكما كليكما
أنت وناستاسيا ! يا ناستاسيوشكا ، تنحى قليلاً ، ودعيه يمر ! تقدم !
هذا كرسي ! ادخل !

قال رازوميخين ذلك ، وأبعد كرسيه عن المائدة ، جاعلاً بينها
وبين ركبتيه فراغاً صغيراً ، ولبث على هذا الوضع ، المزعج بعض
الازعاج ، برهةً من الوقت ، ينتظر أن « يسلك » الزائر من هذه
الفرجة . لقد اختار رازوميخين اللحظة المناسبة اختياراً لا يدع للزائر
سيلاً الى الرفض ، لذلك أسرع الزائر ينسل في الفراغ الضيق
متغشياً ، حتى إذا وصل الى الكرسي جلس وألقى على رازوميخين نظرة
ريب وشك .

قال رازوميخين بغير اكتراث :

— لا تتخرج ! لا تتخرج ! ان روديا مريض منذ خمسة أيام ،
وقد ظل يهذى ثلاثة أيام ، لكنه تاب الآن الى رشده تماماً ، حتى انه
أصبح يقبل على الطعام نهماً . والجالس هناك هو طبيبه . وقد فحصه
منذ برهة قصيرة . أما أنا فأننى أحد رفاق روديا ، كنت طالباً مثله
وأصبحت الآن ممرضاً له . فلا تنبه إلينا ، ولا تحفل بنا ، ولا تتخرج
منا . أكمل كلامك وقل ما تريد أن تقوله !

قال بطرس بتروفيتش :

— شكراً .

ثم التفت يسأل زوسيموف :

— ولكن ألا يزعج المريض حضوري وحديثي ؟

فأجابه زوسيموف مجمجاً :

ـ ل ... لا ! حتى لقد يسليّه هذا قليلاً !

قال ذلك وتناوب من جديد •

قال رازوميخين :

ـ نعم ، نعم ! لقد أفاق من غيبوبته منذ مدة طويلة ، منذ هذا الصباح !

قال رازوميخين ذلك بلهجة فيها من الألفة ورفع الكلفة ما جعل بطرس بتروفيتش يعدل عن رأيه ويغير موقفه فأخذ يشمر بشيء من الارتياح والانطلاق ، ولعل ذلك يرجع بعض الرجوع أيضاً الى أن هذا الفقير الخافي الوقح قد أفلح رغم كل شيء في أن يُعرّف بنفسه على أنه طالب •

بدأ لوجين يتكلم فقال :

ـ ان والدتك ...

فاذا برازوميخين يهتف بصوت عال :

ـ همّ !

فرشقه لوجين بنظرة مستوحشة مستهمة • فقال له رازوميخين :

ـ ليس هذا شيئاً ! لا تلق الى هذا بالاً • هلمّ أكمل كلامك •

رفع لوجين كتفيه متعجباً ، وواصل حديثه فقال :

ـ ان والدتك قد شرعت في كتابة رسالة اليك حين كنتُ عندها . فلما وصلتُ الى هنا تعمدت أن لا أجيء لزيارتك قبل انقضاء بضعة أيام وذلك بغية أن اكون على يقين كامل من انك اطلعت على كل شيء • ولكنني أرى ، مدهوشاً كل الدهشة ...



السيد لوجين

فقاطعه راسكولنيكوف فجأة ، وقد بدا عليه الألم ، وظهرت في
هيئته علامات نفاد الصبر ، قاطعه قائلاً :
- أعرف ! أعرف ! أنت الخطيب ، أليس كذلك ؟ أعرف أعرف .
ويكفيني هذا •

أحسَّ بطرس بتروفيتش بأنه أهين فعلاً ، ولكنه صمت • كان
يحاول جاهداً أن يفهم ما قد يعنيه كلام راسكولنيكوف • ودام الصمت
برهة طويلة •

وفي أثناء ذلك كان راسكولنيكوف الذي التفت نحوه قليلاً ليجيبه،
قد أخذ يتفرس فيه فجأة بعناد شديد واستطلاع قوى كأن وقته لم يتسع
منذ قليل لأن يفحصه فحصاً كاملاً ، أو كأن شيئاً جديداً قد خطف
بصره فيه ؛ حتى لقد أنهض رأسه عن الوسادة لهذا الغرض عمداً •
وكان ذلك « الشيء » ، في مظهر بطرس بتروفيتش لا يخفى عن عين
الناظر إليه فعلاً ، انه شيء خاص ، شيء لا أدري ما هو ، شيء يسوّغ
الصفة التي أطلقها عليه راسكولنيكوف بغير تخرج حين سماه « الخطيب » .
ان المرء يلاحظ قبل كل شيء - يلاحظ بوضوح شديد - أن بطرس
بتروفيتش قد أسرع يستفيد من الأيام القليلة التي يعزم قضاءها في
العاصمة ليحصل نفسه جميلاً وأنيقاً بانتظار وصول خطيبته ؛ وذلك ،
على كل حال ، أمر مشروع تماماً ، برىء كل البراءة • حتى يمكن أن
يغفر المرء لهذا الرجل ، بسبب لقب « الخطيب » الذي أصبح يحمله ،
ما كان يراه في نفسه من رأى لعله مسرف في التعظيم ، بعد التبدل الموفق
السعيد الذي طرأ عليه • كان يمكن أن تُعدّ ثيابه كاملة كل الكمال
رائعة كل الروعة ، لولا عيب واحد هو أنها خارجة من عند الحياط
رأساً لهدف محدد وغاية معينة • حتى قبعتها المستديرة الأنيقة الجديدة
كانت تدل على ذلك الهدف وتبنيء بتلك الغاية : ان بطرس بتروفيتش

يدارها مداراة فيها شيء من الغلو ويمسكها يديه امساكاً مفرطاً في
الاحتياط والحذر . وحتى القفازان الأخاذان الزاهيان بلون البنفسج
اللذان اشتراهما من محل جوفان كانا يشهدان بذلك الهدف ويشيران
الى تلك الغاية ، على الأقل لأن لوجين كان يحاذر أن يلبسهما فهو يحملهما
بيده بغية أن يكون لهما أثر في أعين الناظرين . ان ثياب بطرس
بتروفتش تغلب عليها ، في العادة ، الألوان الزاهية التي يحبها المراهقون .
ولقد كان يرتدى في ذلك اليوم سترة صيفية جميلة بلون الكستناء ،
وسروالاً صيفياً زاهياً ، وصديرة مناسبة من قماش رقيق جداً ، قد
اشتراها منذ قليل أيضاً ، ورباطاً للعنق رقيق النسيج تحددّه خطوط
بلون الورد ؟ وأجمل ما في ذلك كله أن هذه الملابس جميعها كانت
تسوق وشخص بطرس بتروفتش كل الاتساق . انك لو نظرت الى
وجهه النضر الذي لا يخلو من جمال لا يمكن أن تقدّر أنه في الخامسة
والأربعين من عمره . وهاتان الحيتان للمعارضين بلون الكستناء ، تحيطان
بوجهه اطاراً لطيفاً . انهما مقدودتان على شكل ضلعين ، فهما تتكاثفان
حول الذقن تكاثفاً حلواً ، وقد حلقت الذقن حلقة ناعماً فهي ملتزمة
براقة . وشعره نفسه ، الذي لم يكد يشيب ، والذي تولى الحلاق
تصفيفه وتجميده ، ليس له ذلك المظهر المضحك النبي الذي نراه عادةً
في الشعر المجمعّد . ان شعره لا يضيف على وجهه ذلك التعبير الأبله
الذي يلاحظ في وجه ألماني يرتدى ثياب الزفاف . ولئن كان في هذا
الوجه الرصين الوقور شيء مزعج بل ومنفرّ مع ذلك ، فان مردّ هذا الى
أسباب أخرى .

نظر راسكولنيكوف الى السيد لوجين يتفحصه بغير كلفة ، ثم
ابتسم ابتسامة مسمومة ، ثم استرخى على الوسادة مرة أخرى ، وعاد
ينظر الى السقف من جديد .

ولكن السيد لوجين صمد ، وبدا عليه أنه قرر مدعناً أن لا يلاحظ
الآن هذه الحركات القريبة •

وقال يقطع الصمت بجهد ومشقة :

- يؤسفني أشد الأسف أن أجسك على هذه الحال من المرض
ولو قد علمت أنك مريض لجئت أزورك قبل الآن • ولكن الأعباء الكثيرة
المتعبة قد حالت بيني وبين ذلك • هذا عدا أن هنالك دعوى هامة جداً
توجب عليّ وظائف ، كمحامي ، أن أرفعها الى مجلس الشيوخ • ناهيك
عن المشاغل التي لا بد أنك تدركها ••• اننى انتظر وصول والدتك
وأختك ، أنتظر وصولهما بين لحظة وأخرى •

تحرك راسكولنيكوف ، وبدا عليه أنه يريد أن يقول شيئاً ، وعبر
وجهه عن شيء من الانفعال ؛ فأمسك بطرس بتروفتش عن الكلام ،
وانتظر برهة ، ولكنه لم يلبث أن استأنف حديثه حين رأى أن
راسكولنيكوف لا يتكلم ، فقال :

- ••• بين لحظة وأخرى • وقد بحثت لهما عن مسكن ينزلانه
في الآونة الأولى •

سأله راسكولنيكوف بضعف :

- أين يقع هذا المسكن ؟

- غير بعيد عن هنا • فى عمارة باكالايف •

قال رازوميشين مقاطعاً :

- فى شارع « الصعود » • تضم العمارة مسكنين مفروشين يؤجرهما
التاجر يوشين • لقد ذهبت الى هناك •
- نعم ، هو مسكن مفروش •

قال رازوموخين :

- منزل حقير ، فظيع ، قدر ، عفن ؛ وهو فوق ذلك مشبوه ، جرت فيه قصص بشعة ... لا يعلم الا الشيطان من هم أولئك الذين يقيمون فيه ... لقد زرتة بنفسى على أثر فضيحة شائنة . ولكنه يمتاز بأن الأجور فيه زهيدة .

ردَّ السيد لوجين يقول بلهجة جافة :

- لم أستطع طبعاً أن أجمع هذه المعلومات ، لأننى لم أصل الا منذ مدة قصيرة . على أن العرفتين نظيفتان كل النظافة ، ولما كانت الإقامة فيهما قصيرة جداً ...

ثم تابع كلامه ملتفتاً الى راسكولنيكوف :

- وقد وجدت مسكناً لنا نحن منذ الآن ، أعني البيت الذى منسكته فى المستقبل ، وقد بوشر فى اعداده ؛ وبانتظار الانتهاء من ذلك أقيم أنا نفسى على مسافة خطوتين من هنا ، فى غرفة مفروشة كيفما اتفق ، عند سيده اسمها ليفكسيل ، فى شقة صديق لى هو آندره سيمونوفتش ليزياتنيكوف ، وهو الذى دلّنى على عمارة باكالاييف .

- ليزياتنيكوف ؟

كذلك سأل راسكولنيكوف ببطء ، كأن هذا الاسم يذكّره بشئ ما .

- نعم ، آندره سيمونوفتش ليزياتنيكوف ، موظف باحدى الوزارات . أتراك تعرفه ؟

أجاب راسكولنيكوف قائلاً :

- نعم ... لا ...

- معذرة . لقد خيل الى من سؤالك أنك ... لقد كنت فى

الماضى ولىَّ أمره ••• هو فتى لطيف جداً ، مطلع على كل ما هو جديد •
اننى أحب معاشره الشباب • من يعرفهم يتعلم كثيراً من الأشياء الجديدة •
قال بطرس بتروفتش ذلك وهو يلف السامعين بنظرة شاملة ،
آملاً أن يحظى كلامه بتأييدهم •

سأله رازوميخين :

— بأى معنى ؟

فقال بطرس بتروفتش وقد أسعده أن يُسأل :

— بالمعنى الجدى ، بالمعنى الهام الأساسى • صحيح أن جميع هذه
الأشياء الجديدة ، جميع هذه الاصلاحات وهذه الأفكار * ، قد وصلت الى
الأقاليم • ولكن اذا أراد المرء أن يرى الأمور رؤية أوضح ، رؤية
أشمل ، فلا بد له أن يكون ببطرسبرج • وعندى أن خير وسيلة للتعلم
انما هى ملاحظة أجيالنا الجديدة الفتية • وانى لأعترف بأننى قد ابتهجت
كثيراً •••

— ما الذى ابتهجت له على وجه التحديد ؟

— سؤالك واسع قليلاً ••• قد أكون مخطئاً ، ولكن يخيّل الى
اننى أجد الآن نظرة أوضح ، وأجد قدراً من حس النقد أكبر ، وأجد
فكراً وضعياً أنمى وأوسع •

قال زوسيموف بغير اهتمام :

— هذا صحيح •

فردَّ رازوميخين قائلاً :

— أكاذيب ! ليس هناك أى فكر وضعى ! ان الفكر الوضعى يتم
اكتسابه بكثير من المشقة والعناء ، وليس يهبط من السماء • ونحن أناس
فقدنا عادة العمل والفعل منذ مائتى سنة أو نحو ذلك •

ثم أضاف يقول متجهاً بكلامه الى بطرس بتروفتش :

- صحيح أن الأفكار تختمر ، وأن الرغبة في حسن العمل موجودة أيضاً مهما تكن صيانية ؛ حتى لقد نجد شيئاً من الاستقامة والشرف والأمانة ، رغم أن القاعدة العامة ما تزال هي القاعدة القائلة « ما رأيت ولا أخذت » . ولكن يؤسفني أن أقرر أن الفكر الوضعي لا وجود له .
قال بطرس بتروفتش يردُّ على رازوميين وهو يشعر برضى واضح وارتياح لا يخفى :

- لا أشاطرك رأيك . صحيح أن هناك اندفاعات متطرفة ، وأن هناك اختلافات شديدة ، ولكن يجب أن نكون عادلين : ان هذه الاندفاعات المتطرفة تدل على أن أصحابها أناس مؤمنون صادقون ، وتدل أيضاً على أن الظروف ليست هي الظروف التي يجب توافرها . ولئن لم يتحقق حتى الآن الا القليل ، فلأنه لم يتهياً حتى الآن الا وقت قصير ، ناهيك عن قلة الوسائل . وفي رأيي شخصياً أنه قد تحقق منذ الآن شيء ما : انتشرت الأفكار الجديدة ، الأفكار المفيدة ؛ انتشرت مؤلفات جديدة مفيدة بدلاً من الرومانسيات الخاملة التي ذاعت في القديم . نضج الأدب ، واستوصلت أوهام كثيرة ضارة . بايجاز : قطعنا الصلة بالماضي قطعاً حاسماً ، وهذا وحده هو في رأيي شيء هام .

عدم راسكولنيكوف قائلاً :

- يردّد أقوالاً محفوظة حياً بالظهور !

لم يسمع بطرس بتروفتش ما قاله راسكولنيكوف ، فسأله مستوضحاً :

- نعم ؟

ولكنه لم يحصل على جواب .

وأسرع زوسيموف يقول :

— هذا كله صحيح جداً •

قال بطرس بتروفتش وهو ينظر الى زوسيموف نظرة فيها لطف ووداعة :

— أليس كذلك ؟

ثم اتجه الى رازومخين يقول له بلهجة تتم في هذه المرة عن الانتصار وتعبّر عن الشعور بالتفوق ، حتى ليكاد يخاطبه بقوله : « أيها الفتى » :

— عليك أن تسلّم بأن هناك سيراً الى أمام ، أو أن هناك تهدماً على حدّ التعبير الرائج الآن ، على الأقل باسم العلم والحقيقة الاقتصادية •
— كلام معاد مكرور !

— لا ، ليس كلاماً معاداً مكروراً •

كذلك قال بطرس بتروفتش ، ثم تابع يقول بتعجل لعل فيه اسرافاً :

— مثلاً ، قالوا لنا حتى الآن : « أحبّ قريبك » • فلنفرض أنني أحبّيته ، فما الذي يترتب على ذلك ؟ يترتب عليه أن أشطر معطى شطرين فأعطيه أحدهما فنصبح كلانا عاريين نصف عرى ، وفقاً لما يقوله المثل الروسى : « من طارد أرنبين فى آن واحد لم يدرك أيّاً منهما » • أما العلم فانه يقول : أحبّ نفسك قبل سائر الناس ، لأن كل شيء فى العالم قائم على المنفعة الشخصية * • فاذا لم تحبّ الا نفسك صرّقت شئوك على نحو ما يجب أن تصرّفها ودبرت أمورك كما ينبغي أن تدبّرّها ، فبقى معطفك كاملاً سليماً لم يُمزّق • وتضيف الحقيقة الاقتصادية الى ذلك أنه كلما ازداد وجود الثروات الفردية فى المجتمع ، أى كلما كبر عدد المعاطف الكاملة ، ازدادت الأسس التى يقوم عليها المجتمع متانة وصلابة ،

وازداد نظامه احكاماً وقوة • معنى هذا أتى حين أجنى خيراً لنفسى
وحدى ، فانما أحصل فى الوقت نفسه خيراً لجميع الناس ، فينشأ عن
ذلك أن قريبي ينال عندئذ أكثر من نصف معطف ، ولا يتم ذلك عندئذ
بفضل كرم فردى ، بل يتم نتيجة لرخاء عام ورفاهية شاملة • الفكرة
بسيطة ، ولكنها لم تفرض نفسها - وا أسفاه ! - الا بعد وقت طويل ،
لأنها كانت محجوبة عن الأنظار بأحلام وهمية باطلة • ولم يكن المرء
مع ذلك فى حاجة الى كثير من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء من أجل أن
يدرك أن ...

قاطعهم رازوميجين يقول بخشونة :

- معذرة ، أنا أيضاً لا أملك كثيراً من نفاذ البصيرة وقوة الذكاء ،
فلنتقف اذن عند هذا الحد ، وحسبنا ما قلناه ! أنا انما تكلمت لأتتى كنت
أرمى الى هدف معين ، أما هذه الثروة كلها التى لا تفصح الا عن
اعجاب المرء بنفسه اعجاباً لذيذاً ، وأما هذا الكلام الماد المكرور التى
لا ينضب له معين ، فذلك كله ما يزال يبعث فى نفسى التقزز منذ ثلاث
سنين حتى صرت احمر لا حين أقوله أنا فحسب ، بل حين أسمع غيرى
يقوله أيضاً . لقد تسرعت كثيراً فى اظهار ثقافتك وابرار معارفك . وذلك
أمر يمكن أن يخفى لك ، ولست أؤمك عليه • ولكننى أردت أن
أعرف من أنت ، ذلك أن الذين تعلقوا بالقضايا العامة من الأوغاد
الحقيرين قد بلغوا من فرط الكثرة والتنوع ، وبلغوا من شدة افساد كل
ما لمسوه ، فى سبيل مصلحتهم ، أنهم مسحوا كل شئ . توسيحاً لا خلاص
منه ولا يمكن محوه • وكفى هذا ! ...

قال السيد لوجين بوقار شديد :

- أتراك تريد ، أيها السيد ، أن تشير غمراً الى أتتى ...

- رحماك ، رحماك ! كيف يمكننى أن ... والآن ، كفى ! ...

كذلك قطع رازوميخين كلامه ، والتفت الى زوسيموف التفاتاً
جازماً ، ليستأنف ما كان بينهما من حديث .

وملك بطرس بتروفتش من الذكاء ما جعله يقبل هذا الجواب
فوراً . وكان قد قرر ، على كل حال ، أن ينصرف بعد دقيقتين .

قال يخاطب راسكولنيكوف :

— أرجو للعلاقات التي بدأت بيننا الآن أن تتوطد مزيداً من التوطد
حين تبذل من مرضك ، بفضل الظروف التي تمر بها ... انى اتمنى لك
تحسن الصحة قبل كل شيء .

لم يلتفت راسكولنيكوف اليه . وهمَّ بطرس بتروفتش أن ينهض .

قال زوسيموف يخاطب رازوميخين بلهجة قاطعة :

— لا شك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها .

فأجابها رازوميخين موافقاً :

— لاشك ! لاشك أن أحد زبائنها هو الذى قتلها . ان بورفير لا يطلع
أحداً على خطاياه ، ولكنه يستجوب جميع الذين أودعوا عندها رهوناً .
سأل راسكولنيكوف بصوت عالٍ جداً :

— يستجوبهم ؟

— نعم ، لماذا تسأل هذا السؤال ؟

— لا لشيء !

وسأل زوسيموف :

— أين يمكنه أن يجدهم ؟

— سمى له كوخ بعضهم . وهناك أسماء أخرى مسجلة على
الأوراق التي لُفتت به الأشياء . وهناك آخرون جاءوا من تلقاء أنفسهم
منذ علموا بالتبأ ...

— يميناً ان الذى ضرب هذه الضربة لا بد أن يكون وغداً كبيراً ،
وغداً محتكاً ، ذا خبرة ! يا لها من جرأة ! يا لها من عزيمة !

قال رازوميشين مقاطعاً :

— لا ، بالعكس ! وذلك بعينه هو ما يتوَهكم جميعاً • أنا أزعم أن
القاتل أخرق ليس بذى تجربة ولا خبرة ، وأن هذه الجريمة هي خطوته
الأولى على هذا الطريق • لو افترضناه بارعاً حاذقاً لغدت جميع الأمور
سلسلة من وقائع لا يمكن تفسيرها • أما اذا افترضناه غير ذى تجربة
ولا خبرة ، فإن المصادفة وحدها تكون هي التى أخرجته من الورطة
وما أكثر ما تفعله المصادفات ! لعله لم يتنبأ بالعقبات التى ستعرض سبيله ،
ولم يتصور الحواجز التى سيصطدم بها ! انظر كيف تصرف : لقد أخذ
أشياء لا تزيد قيمة كل منها على عشرة روبلات أو على عشرين روبلاً ،
فملأ بها جيوبه ، لقد نبش بين الحرق فى صندوق العجوز ، على حين أن
الدرج الأعلى من الخزنة ذات الأدراج قد عُثر فيها على علبة تحوى
ألفاً وخمسمائة روبل فضة ، عدا النقود الأخرى • حتى السرقة لم
يحسنها • انه لم يحسن الا القتل !... هذه خطوته الأولى على طريق
الاجرام ، اقول لكم هذه خطوته الأولى ! نعم ، لقد طاش عقله وذهب
صوابه ... أؤكد لكم أن ما أتقنه ليس هو الحساب بل هو المصادفة •

تدخل بطرس بتروفتش فى الحديث ، فقال يسأل زوسيموف :

— أظن أنكم تتحدثون عن جريمة القتل التى وقعت مؤخراً وكانت
ضحيتها تلك المرأة العجوز ، أرملة الموظف ، أليس كذلك ؟

وكان بطرس بتروفتش واقفاً يحمل بيده قبضته وقفازيه • غير أنه
ما يزال يجب أن يرسل بعض الأقوال الملائمة قبل أن ينصرف • كان

واضحاً أنه يهمله أن يخلف في نفوس سامعيه أثراً حسناً ، فتغلب حب الظهور عنده على راحة العقل •

- هل سمعتَ عن هذه الحادثة ؟

- طبعاً ! ان جميع الجيران •••

- هل تعرف التفاصيل ؟

- لا أستطيع أن أزعج أمتي 'أعرف التفاصيل ، غير أن ما يعنيني في هذه القضية إنما هو بعض ظروفها ، أو بعض المشكلات التي تطرحها . لست أتكلم عن أن عدد الجرائم التي تُرتكب في الطبقات الدنيا قد ازداد ازدياداً كبيراً في السنوات الخمس الأخيرة ؛ لا ولا أتكلم عن حوادث السطو وحوادث الحريق التي تتعاقب في كل مكان بغير انقطاع . لا ، لا أتكلم عن هذا ؛ وإنما الشيء الذي يبدو لي غريباً هو أن عدد الجرائم يتزايد في الطبقات العليا أيضاً ، على موازاة تزايدها في تلك الطبقات الدنيا ان صبح التعبير • هنا ، طالبٌ سابقٌ يهاجم عربية بريد* في الطريق الكبير ؛ وهناك ، أناس ممن يحتلون مركزاً اجتماعياً حسناً ، يصنعون أوراقاً مالية مزيفة ؛ وهناك أيضاً ، في موسكو ، تُعتقل جماعة بكاملها من الأفراد تزيّف أوراق اليانصيب ، ومن بين الجناة الرئيسيين فيها أستاذ من أساتذة التاريخ العام * • وهناك أخيراً ، يُقتل موظف من موظفي سفاراتنا في سبيل الحصول منه على مال أو لأغراض أخفى من ذلك ! ••• فإذا كان قاتل تلك العجوز واحداً من أبناء الطبقات العليا - ولا بد أن يكون كذلك ، لأن أبناء الشعب الفقير لا يرهنون ، فيما أعلم ، أشياء ذهبية - فكيف نفسّر إذن هذا التحلل الذي يعيث فساداً في الجزء التمدن المتحضر من مجتمعنا ؟

قال زوسيموف :

- ان للتبدلات الاقتصادية المفاجئة دخلاً كبيراً فى حدوث هذه الظاهرة •

وقال رازوميتشين مجيباً عن سؤال بطرس بتروفتش :

- كيف نفسّر هذا التحلل ؟ الأمر بسيط : نفسره بفقدان الفكر
الوضى والروح العملية ...
- أى ؟

- قل لى : بماذا أجاب ، فى موسكو ، أستاذ التاريخ العام ذاك حين
سُئل لماذا يزيّف أوراق الياصيب ؟ ، لقد أجاب بقوله : « ان جميع
الناس يفتنون ويثرون بأية وسيلة من الوسائل ، لذلك أردت أنا أيضاً
أن أغتنى وأن أترى بأقصى سرعة . . . لا أتذكر الآن أقواله بنصها ،
ولكن معناها هو أنه أراد أن يجمع ثروة بأقصى سرعة وبأقل تكلفة ،
دون أن يتحمل مشقة أو أن يبذل جهداً . نعم ، لقد اعتاد الناس أن
يعيشوا عالةً على الآخرين ، دون أن يحفلوا بشيء أو أن يكثرثوا لشيء ،
واعتادوا أن يقتصروا على القيام بأعمال سهلة ، فمتى آن الأوان ظهر كل
واحد على حقيقته ...

- ولكن هناك أخلاق ... هناك مبادئ . رغم كل شيء ...

- ما الذى يقلقك ؟ ان هذا هو النتيجة التى تترتب على نظريتك
نفسها !

- نظريتى أنا ؟

- استخرج النتائج التى تترتب على المبدأ الذى وضعته منذ قليل ،
تجد أنه يجيز للانسان أن يقتل الآخرين •

صاح لوجين يقول :

- أرجوك ...

قال زوسيموف :

— لا ، ليس هذا صحيحاً .

كان راسكولنيكوف ما يزال راقداً ، وكان شاحباً شحوباً شديداً ، وكانت شفته العليا ترتجف ، وكان يتنفس بمشقة وعسر .

وتابع لوجين كلامه فقال متعالياً :

— هنالك حدود معتدلة معقولة . ليست الفكرة الاقتصادية حضاً على القتل ؟ وإذا فرضنا أن ...

فقاطعه راسكولنيكوف على حين فجأة يسأله بصوت مرتجف من شدة الغضب ، بصوت يشوبه نوع من فرح خيث ، يشوبه نوع من التلذذ بالاهانة :

— هل صحيح أنك قلت لخطيبتك ، ساعة وافقت على زواجها منك ، ان ما يسمدك مزيداً من السعادة أنها فقيرة معدمة ... لأن من المفيد جداً أن ينتشل الرجل امرأة من وهدة الشقاء ، ليسيطر عليها بعد ذلك ... وليزهو عليها بالخيرات التي غمرها بها ؟

صاح لوجين يقول بصوت شرير حائق ، وقد خرج عن طوره :

— أيها السيد ، انك تشوه فكرتي . معذرة . غير أن من واجبي أن أعلن لك أن الشائعات التي بلفتك ، أو قل الشائعات التي نُقلت اليك عمداً ، لا تقوم على أى أساس من الصحة ... وأتني ... أشبه ... الخلاصة ... أشبه في أن هذا السهم ... الخلاصة ... انما أرسلته أمك ! ... على كل حال ، لا أكتمك ... أتني بغض النظر عن هذا ... قد لاحظت ... رغم ما لأملك من مزايا عظيمة ... أنها مشبوبة العواطف رومانسية النفس قليلاً ... لكننى ما كان لى أن أتخيل

أنها يمكن أن تنظر الى الأمور هذه النظرة ، وأن تراها هذه الرؤية ••
وعلى كل حال ، على كل حال •••

صرخ راسكولنيكوف يقول له وهو ينهض عن وسادته ويحدّق
اليه بعينين تقدحان شرراً :

– هل تريد أن أقول لك ؟

– ماذا تقول لي ؟

قال لوجين ذلك ، وانتظر جواب راسكولنيكوف متحدياً ، وخيمّ
الصمت بضع ثوان •

قال راسكولنيكوف :

– اعلم أنك ••• اذا تجرأت مرة أخرى ، فقلت في حق أمي
كلمة واحدة ، فلأنزلتْك تدحرجاً على الرأس •••

صاح رازومихين يقول لراسكولنيكوف :

– ماذا دهاك ؟

فقال راسكولنيكوف :

– نعم ، هكذا •••

اصفر لوجين ، وعضّ على شفته ، ثم قال متمهلاً محاولاً أن
يكظم غيظه بكل ما أوتى من قوة ، لأن الغضب كان يخنقه خنقاً ، قال :

– اسمع يا سيد • لم يفتني أن ألاحظ منذ قليل ، حين دخلت ،
الاستقبال الغريب الذي خصصتني به ، ولكنني تعمّدت أن أبقي لأرى
الى أى حد سوف تمضي ••• ولقد كان يمكن أن أغفر أشياء كثيرة
لإنسان مريض تربطني به قرابة ••• أما لك أنت ، فلن أغفر ••• لن
أغفر في يوم من الأيام •••

صاح راسكولنيكوف يقول :

- لست مريضاً !

- ذنبك اذن أعظم !

- اذهب الى جهنم !

ولكن لوجين كان قد خرج دون أن يكمل كلامه • تسلل بين المائدة والكرسي من جديد ، ونهض له رازوميشين في هذه المرة عن كرسيه ، ليفسح له مجال المرور • خرج لوجين حتى دون أن يحيى برأسه زوسيموف الذي كان منذ برهة طويلة يوميء اليه برأسه مهيباً به أن يدع المريض وشأنه ؟ وقد خرج وهو يرفع قبعته الى مستوى كتفه على سبيل الاحتياط ، لحظةً انحنى ليجتاز عتبة الباب • كان واضحاً من طريقة حنيه ظهره أنه انصرف وهو يحمل شعوراً بأنه أمين اهانة عظيمة •

قال رازوميشين لراسولنيكوف وهو يهز رأسه متحيراً مرتبكاً :

- هل يمكن أن يتصرف أحد هذا التصرف ؟

فصاح راسكولنيكوف يقول خارجاً عن طوره ،

- دعوني ، دعوني جميعاً ! ألا تريدون أن تتركوني وشأني أيها

الجلأءون ؟ أنا لست خائفاً منكم ... لست الآن خائفاً من أحد •

اخرجوا من هنا ! أريد أن أكون وحيداً ، وحيداً ، وحيداً ...

قال زوسيموف وهو يوميء لرازوميشين :

- فلتصرف !

- كيف؟ هل يمكن أن تتركه وهو على هذه الحال ؟

فكرر زوسيموف قوله :

– فلتصرف •

• وخرج

فكرَ رازوميتخين لحظةً ، ثم مضى يلحق بصاحبه زوسيموف •

قال زوسيموف وقد صاراً على السلم :

– لو لم نطمه لساعات حاله مزيداً من سوء • ما ينبغي أن نخفقه •

– ماذا أصابه ؟

– ليت هزّةً سارة تصيبه • نعم ، ذلك ما هو فى حاجة اليه •

لقد استرد قواه منذ قليل ... أظن أن هناك أمراً يشغل باله ، أظن أن هناك فكرة تثقل على صدره ، وتحاصر فكره ... وذلك ما أخشاه ! لا شك أن الأمر كذلك ...

– لعل للسيد بطرس بتروفتش دخلاً فيما هو فيه • ان الحديث الذى جرى بينهما يدل على أن السيد بطرس بتروفتش سيتزوج أخت راسكولنيكوف ، وأن روديا قد أبلغ هذا النبأ برسالة وصلت اليه قيل مرضه ببرهة وجيزة •

– نعم ، ان الشيطان هو الذى قاد هذا الرجل اليه ، فى هذا اليوم عينه ! لعل هذا الرجل قد أفسد الآن كل شيء • ولكن قل لى : هل لاحظت أن روديا كان لا يكثرث بشيء ، ولا يخرج عن صمته الا لأمر واحد كان يخرجها عن طوره هو جريمة القتل تلك ؟

أجاب رازوميتخين موافقاً :

– نعم ، نعم ، لاحظت ذلك واضحاً كل الوضوح • ان هذه الجريمة تهمه ، بل وترعبه ... ولكن مردّ ذلك الى أنه فى ذلك اليوم نفسه الذى مرض فيه قد ارتاع فى مكتب رئيس الشرطة ، حتى لقد أغمى عليه •

— ستقص على ذلك تفصيلاً في هذا المساء ، وسأقول أنا لك شيئاً حينذاك • ان حالته تعينى كثيراً • سأجىء أستطلع أخباره بعد نصف ساعة • مهما يكن من أمر ، فلا خوف عليه من أن يُصاب باحتقان ...

— شكراً لك • وفى أثناء هذا الوقت ، سأنتظر أنا عند باشنكا ، وسأكلف ناستاسيا بمراقبته •

نظر راسكولنيكوف الى ناستاسيا ضجراً نافد الصبر • ان ناستاسيا لم تشأ أن تصرف •

قالت له :

— هل لك بقليل من الشاي الآن ؟

— بل فيما بعد • الآن أريد أن أنام • اتركنى !

قال راسكولنيكوف ذلك ، واستدار نحو الحائط بحركة تشنجية • وخرجت ناستاسيا •

الفصل السادس



ما ان خرجت حتى نهض فأوصد الباب بالكلابة
وفضَّ صرة الملابس التي أتى بها رازوميخين
وأعاد ربطها ، ثم أخذ يلبس . شيء غريب :
لكأن راسكولنيكوف قد أصبح على حين فجأة
هادئاً كل الهدوء . لم يبق فيه أثر من ذلك الهذيان التي يشبه أن يكون
جنوناً والذي كان يسكن فيه منذ قليل ، ولا بقي فيه شيء من ذلك
الربعب الشديد الذي استولى عليه في الآونة الأخيرة . ان حركاته الدقيقة
الواضحة تدل على عزم قوى . وكان يدمم قائلاً بينه وبين نفسه : « في
هذا اليوم ، في هذا اليوم نفسه » . كان يدرك مع ذلك أنه ما يزال
ضعيفاً ، غير أن توتراً نفسياً يقارب الجأش الرابط والفكرة الثابتة كان
يهب له قوة وثقة . وكان من جهة أخرى يأمل أن لا يتهاوى في الشارع .

فلما انتهى من ارتداء ثيابه الجديدة ، نظر الى المال الموضوع على
المائدة ، ففكر ثم وضعه في جيبه . كان هناك خمسة وعشرون روبلاً .
وتناول كذلك النقود النحاسية الصغيرة الباقية من الروبلات العشرة التي
وقفها رازوميخين على شراء الملابس . ثم سحب الكلابة برفق ، وخرج
من الغرفة ، وهبط السلم وهو يلقي نظرة على المطبخ الذي كان بابه
مفتوحاً تماماً : كانت نامتاسيا ماثلةً مديرةً تنفخ على سمار مولاتها ،
فلم تسمع شيئاً . ومن ذا الذي كان يمكن أن يفترض ، على كل حال ،

أن راسكولنيكوف قد يخرج ؟ وما انقضت دقيقة واحدة حتى كان راسكولنيكوف فى الشارع .

الساعة تقارب الثامنة ، والشمس تغرب ، والجو خائق كما كان بالأمس ، ولكن راسكولنيكوف كان يستشقى ، بنهم شديد ، هذا الهواء المعفّر الموبوء الذى تنشره المدينة الكبيرة . أخذ يشعر بدوار خفيف . وهذا نوع من طاقة وحشية يسطع فجأة فى عينيه الملتهبتين ، وينعكس على وجهه المهزول المزرق . كان لا يعرف الى أين يجب أن يذهب ، لا ولا يخطر بباله أن يلقي على نفسه هذا السؤال . كان لا يعرف الا شيئاً واحداً هو أن « كل شيء » يجب أن ينتهى فى هذا اليوم نفسه ، دفعة واحدة ، وفوراً ؛ وأنه بدون ذلك لن يسود الى بيته ، « لأنه لا يريد أن يعيش هكذا » . أما كيف ينتهى من ذلك كله ، وأما بأية وسيلة ينتهى من ذلك كله ، فانه لم يكن يريد أن يفكر فى هذا ! لقد كان يدفع عن نفسه هذه المسألة ، غير أنه يحس ويعلم أن كل شيء يجب أن يتغير بطريقة أو بأخرى « مهما يكن من أمر » ومهما يحدث من حادث . « هذا ما كان يكرره لنفسه بياس وثقة وعناد .

وقادت خطاه عادة قديمة من عاداته ، فسار فى الطريق التى يسلكها فى نزحاته المألوفة ، واتجه رأساً نحو « سوق العلف » . حتى اذا أوشتك أن يصل الى رأى على أرض الشارع شاباً أسمر يعزف على أرغن بارباريا لحناً عاطفياً جداً وهو واقف أمام أحد الدكاكين . وكان الشاب يصاحب بالعزف غناء صبية فى نحو الخامسة عشرة من عمرها ، قد وقفت أمامه على الرصيف مرتدية ثياب فتاة : تنورة وخماراً وقفازين وقبعة من قش تزينها ريشة حمراء بلون النار ؛ ومجموع ثيابها يبدو عتيقاً بالياً . كانت الصبية تقنى بصوت مقننة من مقنيات

الشوارع ، وهو صوت مصدّع لكنه ممتع قوى ، وما تزال تمنن في الغناء
آملة أن ينفجها صاحب الدكان كوبيكين •

وقف راسكولنيكوف الى جانب شخصين أو ثلاثة أشخاص كانوا
يصفون الى الغناء ، فأصغى هو أيضاً ، ثم أخرج قطعة نقدية قيمتها
خمسة كوبيكات فدسّها في يد الصبية • فما كان من الصبية الا أن
توقفت عن الغناء عند النغمة التي كانت قد بلغت ، وهى النغمة الأقوى
علواً والأبلغ تأثيراً ، ثم صرخت هول للمازف بصوت جاف : « كفى ! »
واستأنف الاثنان سيرهما الى الدكان التالى •

اتجه راسكولنيكوف بالكلام فجأة الى رجل كهل كان قد سمع
لعزف الأرغن الى جانبه ، وكان يبدو أنه متنزّه هائم على وجهه ،
فقال له :

— هل تحب أغاني الشوارع ؟

فنظر اليه الرجل مبهوراً •

وتابع راسكولنيكوف كلامه فقال وكأن الأمر لا شأن له بنقاء
الشوارع البتة :

— أنا أحب أن أسمع الغناء على صوت أرغن بارباريا ، فى ليلة
حالكة من ليالى الحريف ، ليلة رطبة باردة ، رطبة على وجه الخصوص ،
بينما المسارّة ، قد أزرقت وجوههم جميعاً حتى لكأنها خضراء ،
ولا سيما حين ينهمر ثلج ذائب يتساقط قائماً لا تهب عليه نسمة من ريح ،
فستطعم رعوس مصابيح الغاز من خلال الثلج المنهمر •

قال السيد مدمماً وقد روعه السؤال مثلما روعه هذا المظهر
الغريب فى راسكولنيكوف :

— لا أدري ! ••• معذرة •••

ومضى ينتقل الى الجهة الأخرى من الشارع •
سار راسكولنيكوف قدماً ، فوصل الى ناصية « سوق العلف » ،
الى ذلك المكان نفسه الذى كان قد سمع فيه البائع وزوجته يتحدثان
اليزابيث • ولكن البائع وزوجته لم يكونا هناك فى ذلك الوقت •
تعرف راسكولنيكوف المكان ، فوقف ، ونظر حوله ، ثم اتجه
الى شاب يلبس قميصاً أحمر كان يتناوب عند مدخل دكان لبيع الدقيق
فقال له :

— هنا ، عند هذه الناصية ، يعمل بائعٌ وامرأته ، هه ؟

فأجابه الفتى وهو يروژه بنظره :

— يجيء الى هنا باعةٌ كثيرون لا يُحصى لهم عدد !

— ماذا يسمونه ؟

— يسمونه باسمه •

— وأنت ، أأنت من زاراييسك ؟ من أى اقليم أنت ؟

— منطقتنا يا صاحب السعادة ليست اقليماً بل مقاطعة ، واذ أن أخى
هو الذى يسافر ، وأبقى أنا فى الدار ، فأننى لا أعرف شيئاً • أرجو أن
تعذرني يا صاحب السعادة !

— هل المحل الذى أراه فى الطابق الأعلى مطعم ؟

— بل هو كاباريه ••• وفيه بلياردو ••• وتجد فيه حتى أميرات
••• هو محل عظيم !•

مضى راسكولنيكوف ينتقل الى الجهة الأخرى من الميدان • وهناك،
عند الزاوية ، كان يربط جمهور كثيف ليس فيه الا فلاحون • تسَلَّل
راسكولنيكوف الى حيث يتكاثف الجمهور أكبر تكاثف ، وأخذ يتفحص

الوجوه • كان يتمنى أن يكلم كل واحد من هؤلاء الناس ، لا يدرى
لماذا ! ولكن الفلاحين لم يلتفتوا اليه • كانوا يحتشدون جماعات صغيرة
تحدث متمازحة • وقف راسكولنيكوف لحظة يفكر ، ثم مضى يمناً
فى اتجاه شارع « ف • • • » • حتى اذا غادر « سوق العلف » دخل
فى زقاق ضيق •

سبق له كثيراً أن سلك هذا الزقاق المنحني الذى يصل بين الميدان
وبين شارع سادوفايا • لقد كان يحب فى الآونة الأخيرة ، حين كان كل
شيء يثير فيه الاشتزاز والتفرز ، أن يتجول فى هذه النواحي ، « نشداناً
لزيد من الاشتزاز والتفرز » • ولكنه يسلك الآن هذا الزقاق دون أن
يفكر فى أى شيء • ان فى هذا المكان عمارة كبيرة ليس فيها الا مخارات
ومطاعم ومقاهٍ ، تخرج منها فى كل لحظة نساء حاسرات الرموس
يرتدين ثياباً خفيفة ، ويحتشدون جماعات فى مكانين أو ثلاثة على
الرصيف ولا سيما قرب الأقيّة حيث يكفى المرء أن يهبط درجتين أو
ثلاثاً حتى يصل الى بيوت من بيوت اللذة • ان فى أحد هذه البيوت
الآن جلبة كبيرة تجتاح الشارع كله : فهناك عزف على القيثارة ، وغناء ،
ومرح بلغ ذروته ؛ وعند المدخل تزدهم نساء كثيرات ، فبعضهن جالسات
على الدرجات ، وبعضهن جالسات حتى على الرصيف ، وبعضهن واقفات
يثرثن • وغير بعيد من ذلك المكان ، يسير على أرض الشارع جندي
سكران مترنح ، قد وضع فى فمه سيجارة ، وزاح يحلف الأيمان بصوت
عال • كان كأنه يريد أن يدخل مكاناً ما ، ولكنه أصبح لا يعرف أين •
وهذا رجل يرتدى أسماًلًا رثة قد طفق يتبادل الشتم مع رجل آخر
يرتدى أسماًلًا رثة أيضاً • وهذا شخص قد بلغ السكر منه كل مبلغ
فاستلقى يرقد على أرض الشارع عرضاً •

وقف راسكولنيكوف قرب الجماعة الرئيسية من النساء • كن

يرثرن بصوت أبحّ • انهن جميعاً حاسرات الرؤوس ، يرتدين فساتين
من قماش خفيف مشجّر ، ويتعلنن أحذية من جلد الماعز • منهن من
تجاوزن الأربعين من العمر غير أن منهن صبايا فى السابعة عشرة •
وجميعهن تقريباً متورمات الأعين •

اجتذبتّه الأغاني والجلبة الصادرة عن القبو ، دون أن يعرف لماذا.
فى وسط الضحكات والصرخات ، كان يُسمع صوت رجل يغنى بصوت
تجيل حاد ويصاحب غناءً عزف على قيثارة ، بينما أعقاب الأرجل تقرع
الأرض قرعاً قوياً لأظهار الايقاع • مال راسكولنيكوف نحو الباب ،
وألقى من على الرصيف نظرات مستطلعة ، وراح يصفى مظلم النفس
شارد الفكر • كانت الأغنية التى يصدح بها الصوت التجيل الحاد هؤل:

يا حارسى الجميل

لا تضربنى ظلما بغير سبب

شعر راسكولنيكوف برغبة رهية فى سماع هذه الأغنية ، كأن
المسألة كلها فى نظره هى هذه !

قال يسأل نفسه : « ماذا لو دخلت ؟ انهم يضحكون مقهقهين •
انهم سكارى • ماذا لو سكرت أنا أيضاً ؟ » •

سألته إحدى النساء بصوت واضح لكنه أبحّ :

— ألا تدخل يا سيدى العزيز ؟

كانت المرأة شابة ، بل كانت بين هذه الجماعة من النساء المرأة
الوحيدة التى لا يبعث منظرها على النفور البتة •

قال وهو يتنصب وينظر إليها :

— ما أجملها !

ابتسمت المرأة • لقد سرّها هذا المديح سروراً عظيماً وقالت له :

- أنت أيضاً شاب جميل •
فقلت امرأة أخرى تعارض بصوت أجش :
- لكنه جميل جداً • خارج من المستشفى ، هه ؟
وكان يمر فلاح له وجه سكير مرح مكرر ، يرتدى سترة حلّت
أزرارها ، فقال فجأة :
- يظهر أنهم بنسات من أعلى طبقة • ولكن هذا لا ينفي أن
أنوفهم فطساء !
وأضاف :
- أرايت الى هذا المرح ما أعظمه !
قلت له احدهن :
- هيّا أدخل ما دمت قد جئت ؟
- فوراً يا حلوة ، فوراً •
أجابها الفلاح بذلك ، وهول يهبط الدرجات •
وأراد راسكولنيكوف أن يستأنف سيره • فلما همّ أن يستدير
لينصرف ، صرخت البنت تهول له :
- اسمع يا سيد !
- ماذا ؟
فاضطربت ، وقالت له :
- سيسعدني دائماً ، أيها السيد ، أن أفضى معك بضع ساعات ؛
ولكنني ... أشعر الآن بخجل شديد منك • هلاًّ أهديت الى ستة
كوبكات أشرب بها كأساً ، أيها الفارس الجميل !
فأخرج راسكولنيكوف من جيبه ما وقع تحت يده : ثلاث قطع
قندية من فئة الخمسة كوبكات •

- آ... يا للسيد السخي !

- ما اسمك ؟

- لن يكون عليك الا أن تسأل عن دوكليدا •

قالت امرأة من جماعة النساء ، وهي تسمى ، الى دوكليدا باشارة من رأسها :

- ما أعجب هذه الأساليب ! كيف ترضى هذه البنت أن تستعطى هذا الاستمطاء ؟ لو كنت فى مكانها لآثرت أن أدفن نفسى فى التراب من شعورى بالحزى والعار !

التفت راسكولنيكوف الى المرأة التى قالت هذا الكلام ، ونظر اليها مستظلاً مستغرباً • هى مومس فى نحو الثلاثين من عمرها ، مجذورة الوجه منتفخة الشفة العليا ، تغطى بشرتها بقعٌ زرقاء • ولقد قالت كلامها بلهجة هادئة جادة •

تسأل راسكولنيكوف وهو يستأنف سيره : « ترى أين قرأت أن رجلاً محكوماً عليه بالاعدام قد قام أو تخیّل قبل اعدامه بساعة أنه لو اضطر أن يعيش فى مكان ما ، على قمة ، فوق صخرة ، بموضع لا تزيد مساحته على موطئ قدم ، وكان كل ما حوله هوةً سحيقة ، خضماً كبيراً ، ظلمات أبدية ، عزلة خالدة ، زوابع لا تقطع ، وكان عليه أن يبقى واقفاً على موطئ القدم هذا مدى الحياة ، بل ألف سنة ، بل أبد الدهر ، لظل مع ذلك يؤثر أن يعيش هذه العيشة على أن يموت فوراً ، أن يعيش فحسب ، أن يعيش ! أن يعيش أية عيشة ، ولكن أن يعيش •• نعم ، أين قرأت هذا ؟ ما أصدق هذا الكلام ! رياه ، ما أصدق هذا الكلام ! •• • *

قال راسكولنيكوف ذلك ، ثم أردف بعد لحظة :

- الانسان جبان ، ولكن جباناً أيضاً ذلك الذى يصفه بالجين لهذا
السبب !

ودخل فى شارع آخر . فما لبث أن قال لنفسه : « مه ! هنا قصر
الكريستال ، ! لقد تكلم عنه رازومبخين منذ قليل . . . ولكن ماذا كنت
أريد أن أعمل ؟ نعم نعم ، كنت أريد أن أقرأ . . . لقد ذكر زوسيموف
أنه قرأ فى الجرائد . . . »

- هل عندكم جرائد ؟

كذلك سأل راسكولنيكوف وهو يدخل حانة واسعة ، جميلة
المظهر ، ذات عدة قاعات ، ولكنها مع ذلك خالية الا من عدد قليل من
الناس . كان هنالك شخصان أو ثلاثة يحسسون الشاى ؛ وفى قاعة
أخرى ، فى آخر الحانة ، جلست جماعة من أربعة أشخاص يشربون
الشمبانيا ، اعتقد راسكولنيكوف حين رآهم أن زامبوتوف أحدهم . ولكن
المرء لا يمكن أن يكون واقعاً كل الثقة من صدق رؤيته ، على مسافة
بعيدة هذا البعد .

قال لنفسه : « وأى خير فى هذا على كل حال ؟ »
سأله الخادم :

- هل تريد فودكا ؟

فقال له راسكولنيكوف :

- بل هات لى شاياً ، وجئتى بجرائد ، جرائد قديمة ، جرائد
الأيام الخمسة الأخيرة . سوف أنفحك بقشيشاً سخياً .

- حاضر . إليك الآن جرائد اليوم . وهل تريد فودكا أيضاً ؟
ووصلت الجرائد والشاى . جلس راسكولنيكوف وانكب على

الجرائد باحثاً منقياً : « ايتسلر - ايتسلر - الأزيكيان - ايتسلر * - الى الشيطان
بارتولا * - ماسيمو * - الأزيكيان * - ايتسلر * - الى الشيطان
هذا كله * * * آ * * * أخيراً * * * هذه هي الأنباء المتفرقة * * * سقوط
في سلم * * * « تاجر مكران يحترق حياً * * * حريق في حيّ الرمال * * ،
« حريق في بطرسبرج * * ، حريق آخر في بطرسبرج * * ، « ايتسلر * *
ايتسلر * * ايتسلر * * ماسيمو * * آ * * وصلنا * * * »

وجد راسكولنيكوف أخيراً ما كان يبحث عنه ، وأخذ يقرأ .
ان الأسطر تراقص أمام عينيه ، ولكنه قرأ « النبأ » حتى نهايته ، وطفق
يبحث ، في شراة ونهم ، عن تفاصيل جديدة في الأعداد التالية ، فكانت
يداه ترتجفان من نفاذ الصبر وهو يتصفح الجرائد . وفجأة جاء أحد
فجلس الى مائدته ، بقربه . رفع راسكولنيكوف عينيه . انه زامبوتوف ،
زامبوتوف نفسه ، بلا تبدل ولا تغير ، زامبوتوف ، بخواتمه ، وسلاسله ،
والفرق الذي يشطر شعره الأسود العكف المطيب ، والصديرة الأنيقة ،
والردنجوت الخلق قليلاً ، والقميص الذي ذهب بعض رونقه . كان
زامبوتوف مرحاً ، أو قل على الأقل انه كان يتسم بكثير من المرح
والطية . وكان وجهه الأسمر يبدو ساخناً بعض السخونة من الشمبانيا
التي شربها .

بدأ يتكلم مدهوشاً فقال لراسكولنيكوف بلهجة من يعرفه منذ مدة
طويلة :

- كيف ؟ أأنت هنا ؟ أمس قال لي رازوميشين انك لم تفق من
غيبوتك . شيء عجيب . هل تعرف أنني زرتك أثناء مرضك ؟
كان راسكولنيكوف يعرف أن زامبوتوف سيتعرض له . فوضع

الجراند جانباً ، والتفت اليه . ان ابتسامة ساخرة تطوف بشفتيه ، ويرى
المرء فى هذه الابتسامة ، منذ الآن ، صبراً نافداً وغيظاً شديداً .

أجابه يقول :

- أعرف أنك زرتنى . حكى لى هذا . حتى لقد بحثت عن
جوربى . ولكن هل تعلم أن رازوميخين مجنون بك ، منذ ذهبتما معاً الى
عند لويزا ايفانوفنا نعم ، تلك التي حاولت أن تدافع عنها فى ذلك
اليوم ، غامزاً . الليوتتان بارود ، التي لم يفهم من غمزك شيئاً . ألا
تذكر ؟ كيف أمكن أن لا يفهم أن الاشارة كانت واضحة ، هه ؟

- يا له من رجل صخب ؟

- من ؟ الليوتتان بارود ؟

- بل صديقك رازوميخين .

- انك تعيش حياة فرحة يا سيد زامبوتوف . تستطيع أن تذهب
الى الأماكن الممتعة اللذيذة دون أن تنفق قرشاً واحداً . قل لى : من
ذلك الذى كان يصب لك الشمبانيا منذ قليل ؟

- نعم ، شربنا شمبانيا أما الذى صبها

قال راسكولنيكوف وهو يضحك ساخراً :

- أعرف هذه أجورك . انك تجنى نفعاً من كل شئ .

ثم أضاف وهو يربت على كتف زامبوتوف :

- لا ضير فى هذا ، يا صاحبى ، لا ضير أنا لم أقل ما قلته عن
نية سيئة خبيثة ، وإنما قلته عن « محبة ومودة ، من باب التسلية » ، كما
قال الدهان حين كان يضرب ميتكا . أنت تعرف هذا فى قضية مقتل
المجوز

- ولكن كيف تعرفه أنت ؟
- أنا ؟ ربما كنت أعرف أكثر مما تعرف .
- أمرك عجيب ... أغلب الظن أنك ما تزال مريضاً . ما كان ينبغي لك أن تخرج !
- أبدو لك أمرى عجيباً ؟
- نعم . عمّ كنت تبحث في الجرائد ؟
- في الجرائد ؟
- تحدثت الجرائد عن حرائق .
- نعم ، ولكن ليست الحرائق هي التي تهمني أنا !
- قال ذلك ونظر الى زامبوتوف نظرة ملفزة ، وعادت بسمه ساخرة تحف شقيقه ، ثم أضاف وهو يتميز بعينه :
- لا ، ليست الحرائق هي التي تهمني . اعترف أيها الشاب الشجاع أنك تحترق شوقاً الى أن تعرف ماذا كنت أقرأ !
- غير صحيح ! لقد ألفت عليك ذلك السؤال كما يمكن أن ألقى عليك أى سؤال آخر . أليس من حق أحد أن يلقى سؤالاً ؟ ما بالك تبلغ دائماً هذا المبلغ من ...
- اسمع ، أنت رجل متعلم ، مثقف ، هه ؟
- أجاب زامبوتوف بوقار :
- قطعت في المدرسة الثانوية ست سنين .
- ست سنين ؟ يا للفتى الطريف ! وله الى ذلك في شعره فرق ، وله في أصابعه خواتم ... هو رجل غنى . يا للشباب اللطيف !
- قال راسكولنيكوف ذلك وانفجر يضحك أمام أنف زامبوتوف

ضحكة عصية • فراجع زامبوتوف الى وراء ، لا لأنه انزعج بل لأنه
دهش •

كرر يقول بلمهجة الجذ :

— حقاً ان أمرك عجيب ! كأنك ما تزال تهذى !

— أنا ؟ أهذى ؟ أخطأ ظنك أيها الفتى الطريف ! • آ • • • أمرى
عجيب ، هه ؟ ولكن لماذا لا تقول الكلمة التي تريد أن تقولها ، لماذا
لا تقول انتى أحيرك ؟ أحيرك ، هه ؟

— فملاً • • • تحيرنى !

— الخلاصة • • • أنت تريد أن تعرف عمّ كنت أبحث ، تريد أن
تعرف ماذا كنت أقرأ ، أليس كذلك ؟ أنظر كم عدداً من الجرائد
طلبت ! هذا يبعث على اشتباه قوى ، هه ؟

— هلاً قلت اذن ! • • •

— سأقول لك فيما بعد • أما الآن ، يا صديقى العزيز ، فانتى أعلن
لك • • • عفواً • • • بل « اعترف » لك • • • لا • • • ليس هذا هو
التعبير الصحيح • • • فانما التعبير الصحيح هو : « أدلى بأفادتى ، وتسجل
أنت » • نعم هذا هو التعبير الصحيح • وهأنذا أدلى لك بأفادتى فأقول
انتى أردت أن أقرأ ، أن أبحث ، أن أقب ، وان أمعن فى التنقيب • • •

هنا غمز راسكولنيكوف بعينه وتوقف عن الكلام برهة ثم استأنف
يقول مدمدماً وهو يسرف فى تقريب وجهه من زامبوتوف :

— أن أمعن فى التنقيب — وأنا ما جئت الى هنا الا لهذا الغرض —
عن جميع الأخبار التي تتصل بمقتل العجوز أرملة الموظف •

كان زامبوتوف يحدّق الى عيني راسكولنيكوف ، دون أن يقوم

بأية حركة ، دون أن يبعد وجهه عن وجهه . ان الشيء الذى آثار دهشة زامبوتوف بعد ذلك أكثر من كل ما عداه ، هو أن الصمت بينهما دام عندئذ دقيقة كاملة ، دون أن يكف أحدهما عن التحديق الى صاحبه والفرس فيه .

صاح زامبوتوف فجأة وقد نفذ صبره وأصبح لا يعرف ماذا يجب أن يظن :

- طيب ! وهل يعينى أنا أن تقرأ أنت هذا النبأ أو ذاك من من الأنباء ؟

فدمدم راسكولنيكوف يقول دون أن يحرك ساكناً بسبب صيحة زامبوتوف :

- ان الأمر يتصل بتلك المجوز نفسها التى أغمى على فى قسم الشرطة منذ جرى الحديث عليها ، نعم ، لحظة جرى الحديث عليها .
أنهت الآن ؟

قال زامبوتوف وقد كاد يُجن جنونه :

- ماذا يجب أن أفهم ؟ ما الذى يجب أن أفهمه ؟

فما ان سمع راسكولنيكوف هذا حتى تبدل وجهه الهادئ الساكن فى ثانية واحدة ، ثم اذا هو ينفجر ضاحكاً كما انفجر ضاحكاً منذ قليل ، حتى لكأنه لا يستطيع أن يمسك عن الضحك . وفى مثل وميض البرق سرعة ، طافت فى خياله بوضوح هائل ذكرى الاحساس الذى شعر به من قبل ، حين كان واقفاً وراء الباب ، ممسكاً ساطوره ، يرى المزلاج يتهزز ، بينما كان الرجلان ، فى الجهة الأخرى من الباب ، يشتمان ويحاولان فتح الباب ، فأحب هو على حين فجأة أن يهينهما ،

وأن يقيء لهم سيلاً من الشتائم ، وأن يمدّ لهما لسانه ، وأن يصعّر لهما وجهه ، وأن يضحك ، أن يضحك ، أن يضحك !

قال زامبوتوف :

— اما أنك مجنون ، واما أنك ...

ولكنه أمسك عن اتمام كلامه ، كأن فكرة قد ومضت في فكره على حين بقتة •

— واما ماذا ... اما ماذا ؟ ماذا ؟ هيا ، قل !

قال زامبوتوف غاضباً :

— لا شيء • كل هذا سخف !

وصمت الاثنان •

ان راسكولنيكوف ، بعد انفجاره المفاجيء ، وضحكته العvisية ، قد أصبح حزيناً حالماً على حين فجأة • وها هو ذا يضع كوعيه على المائدة ، ويسند رأسه بيده • لقد بدا عليه أنه نسي زامبوتوف نسياناً تاماً • ودام الصمت برهة طويلة •

قال زامبوتوف :

— لماذا لا تشرب الشاي ؟ سوف يبرد ...

— ماذا ؟ الشاي ؟ نعم ...

وحمل راسكولنيكوف الشاي الى شفتيه ، وازدرد لقمة من خبز ، حتى اذا ألقى بصره على زامبوتوف بدا عليه أنه تذكر كل شيء فجأة ، وأنه يطرد عنه خموده وخوره • وفي الوقت نفسه ، استرد وجهه ما كان يعبر عنه منذ قليل من سخريه • واستمر يشرب الشاي •

قال زامبوتوف :

— أمثال هذه السرقات تتكاثر فى هذه الأيام • اليك هذا المثال :
لقد قرأت فى الآونة الأخيرة فى « جريدة موسكو » أنه قبض هناك على
عصابة كاملة من مزيفى النقد • انهم شركة حقيقية تقوم بتزييف الأوراق
المالية •

فأجابه راسكولنيكوف هادئاً :

— قرأت هذا منذ مدة طويلة • هذه قصة قديمة •

ثم أضاف مبتسماً :

— فى رأيك اذن أنهم لصوص محتالون !

— لصوص محتالون طبعاً !

— لصوص محتالون ؟ أما أنا فأرى أنهم أطفال ، أرى أنهم أغرار
سدّج ، لا لصوص محتالون • أهو أمر طبعى أن يجتمع نحو خمسين
شخصاً لغاية كهذه النهاية ؟ لو كانوا ثلاثة لكان عددهم هذا وحده
كبيراً • وحتى فى هذه الحالة لا بد أن يكون كل واحد وانتماً بالاثني
الآخرين أكثر من ثقته بنفسه • اذ يكفى أن يزلّ لسان أحد منهم أثناء
سكر ، فيترثر قليلاً ، حتى يفسد الأمر كله • نعم ، سدّج أغرار !
ولولا أنهم سدّج أغرار لما عهدوا الى أناس لا يستحقون الثقة بأن
يذهبوا الى البنوك يبدلون أوراقهم المالية • هل يُعهد بمهمة كهذه المهمة
الى أى انسان ؟ ولنفرض الآن أن هؤلاء الأغرار قد نجحوا فأصبح كل
واحد منهم يملك مليوناً • فماذا بعد ذلك ؟ هل يمكن أن يستمر هذا
الى الأبد ؟ ان كل واحد سيظل رهناً بالآخرين مدى الحياة ! ألا ان
الانتحار شتقاً خير من هذا ! ثم ان هؤلاء لم يحسنوا حتى تبديل أوراقهم
المالية : ان الشخص الذى تقدم الى شبك الصرف فى البنك قد ارتفعت
يده ارتعاشاً قوياً حين قبض الخمسة آلاف روبل ؟ ثم لم يعدد الا أربعة

آلاف منها ، أما الألف الخامسة فقد أخذها على الثقة دون أن يعدّها ، ولم يخطر بباله الا أن يدسّها في جيبه وأن يولّيّ هارباً بأقصى سرعة . لذلك أيقظ الريب والشبهة . ففسد الأمر كله بسبب ذلك الأبله . أهذا ممكن حقاً ؟

— أن تكون يداه قد ارتعشتا ؟ طبعاً . . . هذا أمر يُتصوّر . أنا أرى أن ذلك طبيعي جداً . هناك حالات يفقد فيها المرء سيطرته على نفسه ، اذ يكون الأمر فوق طاقته !
— مثلاً ؟

— أكان يمكنك أنت أن تحافظ على سيطرتك على نفسك في حالة كذلك الحالة ؟ أنا على كل حال ما كان يمكنني أن أسيطر على نفسي ! كيف يرضى انسان أن يتعرض لمثل هذه المخاطرة في سبيل مائة روبل ؟ كيف يمضى يبدّل أوراقاً مالية مزيفة ؟ وأين ؟ في بنك ، حيث الموظفون خبراء يعرفون كيف يكتشفون أى تزوير ! لا ، لا ، لو وقفت أنا ذلك الموقف لفقدت صوابي ! وأنت ؟ ألا تفقد صوابك في حالة كذلك الحالة ؟
شعر راسكولنيكوف فجأةً ، مرة أخرى ، برغبة رهيبة في أن « يمدّ لسانه » استهزاءً ! وكانت تسرى في ظهره رعدات أحياناً .
بدأ يتكلم فقال :

— أنا لو كنت في مكان ذلك الرجل لتصرّفت غير ذلك التصرف . اليك كيف كان يمكن أن أفعل : لو كان علىّ أن أبدل تلك الأوراق المالية ، لرحلت أعدّ الألف الأولى مرة تلو مرة ، ثلاث مرات أو أربعاً ، وأنا أقلّب كل ورقة على جميع الوجوه وأنظر إليها من جميع الجهات ؛ فاذا تناولت الألف الثانية أخذت أعدها حتى أصل الى النصف ، ثم سحبت من الحزمة ورقة بخمسين روبلاً فأخذت أفحصها في الضوء

الساطع ثم ألقبها ثم أفحصها من جديد كأننى أخشى أن تكون مزيفة ،
قائلاً للرجل : « انتهى شكك قليلاً » . ان لى قريبة قبضت ورقة مزيفة
فأضاعت بذلك خمسة وعشرين روبلاً ، ، ثم أروح أقص حكايه
طويلة ؛ فإذا وصلت الى الألف الثالثة قلت له : « انتظر ! أظن أننى
أخطأت فى عدد المائة السابعة ، هناك ، فى الألف الثانية » ، ثم تركت
الألف الثالثة ورجعت الى الثانية ، وهكذا دواليك فإذا فرغت من
العد ، عدت أسحب ورقةً كيفما اتفق ، من الألف الثانية مثلاً ، أو من
الألف الخامسة ، وزحت أفحصها من جديد ، بالنظر اليها استشفافاً ،
فإذا بشكوك تراودنى ، فأقول : « هل تستطيع ، من فضلك ، أن تعطينى
ورقة غيرها بدلاً منها ؟ » ، وهكذا دواليك الى أن ينضح الرجل دماً
وماءً ، والى أن يضيق بى ذرعاً فلا يدرى كيف يتخلص منى ، ثم
انصرف لا عفواً لا أنصرف هكذا ببساطة ، بل أعود
اليه فأستوضحه أمراً من الأمور ، وأسأله عن شىء من الأشياء . نعم ،
كذلك كان يمكن أن أنصرف .

قال زامبوتوف وهو يضحك :

— حقاً انك لفظيح ! على أن هذا كله كلام . أما فى الواقع ، فلا شك
أنك كنت ستفضح نفسك . هل تريد أن أقول لك رأى ؟ اسمع اذن :
فى رأى أن أحداً لا يستطيع أن يسيطر على نفسه . وليس يصدق
هذا عليك وعلى فحسب ، بل يصدق أيضاً على أكبر لص وأعظم
وغد . اليك هذا المثال القريب : لقد قتلت فى حيناً امرأة عجوز .
يخيل الى أن الذى قتلها سقّاح رهيب لم يحجم عن ارتكاب جريمته
فى وضع النهار ، ثم تمكن أن ينجو بأعجوبة . ومع ذلك ارتجفت يدا
ذلك القتيل : انه لم يحسن السرقة ، انه لم يصمد . الوقائع تبرهن
على ذلك .

بدا الاستياء فى وجه راسكولنيكوف •
- الوقائع تبرهن على ذلك ؟ حاولوا اذن أن تقبضوا عليه ! لاحقوه
وطاردوه !

بهذا هتف راسكولنيكوف وهو ينظر الى زامبوتوف نظرة فيها
احتقار واضح وفرح خيى •
قال زامبوتوف :
- سنقبض عليه حتماً !

- من ؟ أنت ؟ تستطيع اذن أن تركض ؟؟؟ ! أليس الأمر الرئيسى
فى نظرك هو أن تعرف هل الشخص الذى تشبته فيه ينفق مالا أم هو
لا ينفق مالا ؟ أنت تقول لنفسك : ان فلاناً لم يكن يملك فى السابق مالا ،
وها هو ذا ينفق الآن كثيراً على حين فجأة ، فكيف لا يكون هو الجانى ؟
ألا ان طفلاً صغيراً ليستطاع اذن أن يضللك متى أراد !
أجاب زامبوتوف :

- هذا لا ينفى أنهم جميعاً يسلكون هذا السلوك • ان الجانى
يرتكب جريمته بكثير من البراعة والحنق ، ويمرّض حياته للخطر ،
ثم يُتيح للذين يتعقبوه أن يقبضوا عليه فى حانة • انه أثناء انفاقه المال
انما يُقبض عليه ••• ليس جميع الجناة مكرين مثلك • أنت ، مثلاً ،
لا يمكن أن تذهب الى حانة ، اذا كنت قد •••

قطّب راسكولنيكوف حاجبيه وحدّق الى زامبوتوف بنظرة ثابتة •
ثم قال متجهماً :

- يبدو أن لعابك يسيل شوقاً الى معرفة ما كان يمكن أن أفعله فى
مثل هذه الحالة •

فأجابه زامبوتوف برصانة ورزاة :
- نعم ، أتمنى أن أعرف ذلك •

وكان في صوت زامبوتوف وفي نظراته جدٌ مفرط .

سأله راسكولنيكوف :

- هل تتمنى ذلك كثيراً ؟

- كثيراً .

فبدأ راسكولنيكوف يتكلم فقال لصاحبه وهو يقرب وجهه من وجهه مرة أخرى ، ويحدثني إليه بنظرة ثابتة من جديد ، قال بصوت هو نوع من التمتمة ، حتى ان صاحبه أحس هذه المرة برعدةٍ تسرى في جسمه :

- فاسمع اذن ! اليك ما كان يمكن أفعله ! لو كنت أنا القائل لأخذت المال والأشياء ، فخرجت من البيت فوراً دون أن أضيع دقيقة واحدة ، ودون أن أدور في الشوارع دورة واحدة ، ومضيت الى مكان منزلي منزوٍ هو حديقة محاطة بسيياج مشلاً ، أو هو شيء من هذا القبيل . وأكون قد حددت سلفاً ، في تلك الحديقة أو في ذلك الغناء ، أكون قد حددت صخرة كبيرة وزنها ثلاثون رطلاً ، صخرةٍ لعلها موجودة في ذلك المكان منذ بناء المنزل ، فهأنذا الآن أخرج تلك الصخرة التي لا بد أن تكون الأرض تحتها مقعرةً طبعاً ، وهأنذا أدفن المال والأشياء في هذا القعر ؛ حتى اذا انتهيت من دفنها ، ورددت الصخرة الى مكانها ، انصرفت لا ألقى على شيء ، ثم لبثت بعد ذلك سنةً أو سنتين أستمع عن زيارة المكان وأخذ النسيمة . هلم فابحث اذن ! ما رأيت ولا عرفت !

قال زامبوتوف الذي أخذ يدمدم بدمدمة هو أيضاً ، دون أن يعرف لماذا ، قال وهو يتنحي بفتةٍ عن راسكولنيكوف :

- أنت مجنون !

سقطت عينا راسكولنيكوف ، واصفر وجهه اصفراراً رهيباً ،
وارتجفت شفته العليا ، ومال حتى اقترب من زامبوتوف أكبر اقتراب
ممكن ، وحرَّك شفتيه دون أن ينطق كلمة واحدة ، وانفضى على هذه
الحال نصف دقيقة •

كان راسكولنيكوف يعرف ماذا يفعل ، ولكنه لا يستطيع أن يسيطر
على نفسه وأن يتحكم بسلوكه • ان كلمة رهية كانت تهمُّ أن تتبجس
من فمه ، كما كان المزلاج ، « في ذلك اليوم » ، يهمُّ أن يخرج من
الرزة • كانت الكلمة توشك أن تفلت بين لحظة وأخرى ؛ كان
راسكولنيكوف يوشك أن يطلقها ، أن ينطقها •
قال فجأة :

— ماذا لو كنت أنا قاتل المجوز واليزابت ؟

لكنه ثاب الى رشده ، وكبح جماح نفسه •
نظر اليه زامبوتوف مرتاعاً ، وانكفاً لونه حتى صار كغطاء المائدة
بياضاً ، وتجمدت شفاته بابتسامة ، وسأله بصوت لا يكاد يُسمع :
— ولكن أهذا ممكن ؟

فألقى عليه راسكولنيكوف نظرة خبيثة ، وقال له :

— اعترف بأنك صدقت ، اعترف ، اعترف !...•••

أسرع زامبوتوف يقول :

— لا لم أصدق قط ••• وأنا استبعد الآن ذلك أكثر مما استبعدته

في أى وقت مضى !

— وقع في الفخ !• اذن لقد صدقت في يوم من الأيام ، ما دمت

تقول انك تستبعده الآن أكثر مما استبعدته في أى وقت مضى !

صاح زامبوتوف يقول مرتبكاً ارتباكاً واضحاً :

— لا ... أبداً ! ... آه ... أمن أجل أن تصل الى هذه التبيجة
أخفقتى ؟

— أأنت لا تصدق اذن ؟ فعمّ تكلمتم ، فى ذلك اليوم ، حين
خرجت أنا من القسم ؟ ولماذا أخذ الليوتان « بارود » يستجوبنى بعد
صحوى من الاغماء ؟

قال راسكولنيكوف ذلك ثم صرخ ينادى خادماً الحانة وهو ينهض
ويتناول قبعته :

— هيه ! أنت ! الحساب !

هرع الخادم اليه قائلاً :

— ثلاثون كوبكاً .

— خذ ، وهذه عشرون أخرى بقشيشاً !

ثم قال لزاميوتوف وهو يمد اليه يداً مرتعشة ملأى بأوراق مالية :
— أرايت ؟ أوراق حمراء ، وأوراق زرقاء ! * المجموع : خمسة
وعشرون روبلاً ! فمن أين جاءتنى هذه الأوراق ؟ ومن أين جاءتنى
ثيابى الجديدة ؟ أنت تعلم أننى لم أكن أملك كوبكاً واحداً . أراهن على
أنك استجوبت صاحبة البيت الذى أقيم فيه ! ولكن كفى الآن ! * كفى
حديثاً ، * ... الى اللقاء . لك خالص تمنياتى !

وخرج راسكولنيكوف مختلجاً بنوع من احساس غريب ، احساس
هسترى ، مخالطه مع ذلك لنة عظيمة . ولكنه ظل فى الواقع متجهماً
النفس خائر القوة . كان وجهه متقلصاً ، كأنه خارج من نوبة . وازداد
اعياؤه بسرعة . انه الآن ، عند كل احساس جديد ، وعند كل صدمة
جديدة ، تستيقظ فيه قواه وتعود اليه ، ولكن قواه هذه ما تلبث أن تخور
بسرعة أيضاً ، مع زوال الصدمة وامحاء الاحساس .

وحين أصبح زامبوتوف وحيداً ، لبث جالساً الى تلك المائدة نفسها مدة طويلة ، غارقاً فى تأمله . ان راسكولنيكوف قد قلب له جميع أفكاره فيما يتعلق بنقطة معينة رأساً على عقب ، دون أن يعرف ذلك ، وجعل رأيه يستقر استقراراً لا عودة عنه ، ويثبت ثباتاً لا يتزعزع . قال لنفسه جازماً : « ان ايليا بتروفتش غبى ! » .

ما كاد راسكولنيكوف يفتح باب الحانة المفضى الى الشارع ، حتى كان رازوميشين على درجات المداخل يهيم^١ أن يدخل . ولكن الصديقين لم يراَ أحد منهما صاحبه ، رغم أن المسافة بينهما خطوة واحدة ، حتى لقد أوشك رأساهما أن يتصادما . ولبنا لحظة يشمل كل منهما صاحبه بنظره . لقد ذهل رازوميشين ذهولاً ليس بعده ذهول . غير أن غضباً مفاجئاً شديداً لم يلبث أن سطع فى عينيه ببريق رهيب .

زأر يقول بصوت عال :

— آه ... أهنا أنت ؟ قام عن سريريه ، هرب من بيته ! أتعرف أنني بنحت عنك حتى تحت السرير ؟ بل لقد صعدنا الى السقيفة نبحت عنك ! وأوشكت بسبيك أن أضرب ناستاسيا ! انظروا أين هو ! روديا ، ما معنى هذا ؟ قل لى الحقيقة كلها ! اعترف ! هل تسمع ؟

أجابه راسكولنيكوف بهدوء :

— معناه أنتى شتمتكم جميعاً الى حد الموت ، وأنتى أريد أن أكون وحيداً .

— وحيداً ؟ بينما أنت عاجز حتى عن المشى ، بينما وجهك أصفر كوجه الأموات ، بينما أنت تحتق طول الوقت ؟ ألا انك لأبله ! ماذا جئت تعمل فى « قصر الكريستال » ؟ اعترف ، اعترف فوراً !

— اتركى .

كذلك قال راسكولنيكوف ؛ وأراد أن يمشى متخطياً رازوميشين

فغضب رازومبخين غضباً شديداً ، وخرج عن طوره ، فأسك صلحبه من كفه امساكاً قوياً ، وصاح يقول له :

— أتركك ؟ أخرجو أن تقول : « أتركني » ! اسمع اذن : هل تعرف ما أنا فاعل بك ؟ سوف اقض عليك بنداعي ، فأربطك بحبل كما تُربط صرّة ، ثم أنقلك الى البيت فأحبسك فيه مقفلاً عليك الباب بالمفتاح !

بدأ راسكولنيكوف يتكلم في رفق ، فقال بلهجة تبدو هادئة كل الهدوء :

— اسمع يا رازومبخين ! ألسنت ترى اذن أنني لا أريد نعلك وأياديك عليّ ؟ ما حاجتكم دائماً الى أن تنمروا بالنم أولئك الذين لا يعبأون بها ، أولئك الذين لا يستطيعون حقاً أن يحتملوها ؟ لماذا سميت الىّ في بداية مرضي ؟ لعله كان يسعدني جداً أن أموت . أفلم أفهمك اليوم افهاماً كافياً أنك تعذبني ، وأنتك ... ترعجني وتضايقني ؟ ما حاجتكم هذه دائماً الى تعذيب الناس ؟ أؤكد لك أن هذا كله يؤخر شفائي ، لأنه يجعلني في حالة احتياج متصل . انظر الى زوسيموف : لقد انصرف حتى لا يهيجني . فأتركني بسلام أنت أيضاً ، ناشدتك الله ! ثم أي حق لك في أن تحتجزني بالقوة ؟ ألا ترى أنني أملك عقلي كاملاً وأنا أكلّمك في هذه اللحظة ؟ قل لي : بأية وسيلة أستطيع أن أمنعك من التشبث بي بعد الآن ، وأن أحملك على ألا تضدق عليّ نعلك وآلاءك هذه ؟ افرض اتني عقوق ، افرض اتني أسوأ الناس طراً ؟ ولكن دعوني ، دعوني جميعاً ، ناشدكم الله ، دعوني ، دعوني !

كان راسكولنيكوف قد بدأ كلامه بلهجة هادئة ، متلفذاً منذ ذلك الحين بالسّم الذي سينفثه ، ولكنه أنهى حديثه مهتاجاً خارجاً عن طوره

محتبس الأنفاس مختنق الصدر ، كما حدث له ذلك منذ قليل مع
لوجين •

فكّر رازومبخين لحظةً ثم ترك ذراع صاحبه ، وقال له بهدوء ،
شاردَ الفكر تقريباً :

— اذهب الى الشيطان !...•••

فلما همّ راسكولنيكوف أن ينصرف ، زار يقول له فجأة :

— انتظر ! أصنع الىّ ! اتنى أعلن لك أنكم جميعاً ، من أولكم الى
آخركم ، لستم الا ثرثارين صغاراً ، ومتبجحين تافهين ! انكم ما ان يصيبكم
شر يسير حتى تحضنوه كما تحضن الدجاجة بيضها • وحتى في هذا
انما أنتم تسرقون من الكتاب الأجانب ! ليس فيكم ذرة من حياة ، ليس فيكم
ذرة من حياة شخصية أصيلة ! ليس ما يجرى في عروقكم دماً بل
مصالة • ما من أحد منكم يوحى الىّ بالثقة • همكم الأول في جميع
الظروف هو أن لا تسلكوا سلوك رجال ...•••

وهنا رأى أن راسكولنيكوف بهمّ أن ينصرف مرة أخرى، فصرخ
يقول وقد تضاعف غضبه وحنقه :

— ق ••• ف ! أصنع الىّ حتى النهاية ! أنت تعلم أنني احتفل
الليلة بانتقالى الى المسكن الجديد • وربما كان ضيوفى قد وصلوا ...•••
على أنني تركت هنالك عمى لاستقبالهم (كذلك أسرع يضيف) ...•••
فاذا لم تكن أبله ، اذا لم تكن أبله كل البلاءة ، اذا لم تكن أبله متكبراً ،
هذه ترجمة عن لغة أجنبية لا أدري أية لغة هى ...••• اسمع يا روديا ،
أنا أعلم أنك فتى ذكى ، ولكن هذا لا ينفى أنك أبله ...••• فاذا لم تكن
أبله ، فان مجيئك الىّ لقضاء السهرة عندى خير لك من أن تبلى نعلى

حذاءيك متسكماً في غير طائل ، ما دمت قد خرجت !... وسأتيك
بمقعد مريح رخص ... ان عند أصحاب البيت الذي أقيم فيه مقعداً من
هذا النوع ... وتشرب قنجاناً من الشاي ، وتجالس الناس ... بل
هناك ما هو خير من هذا : سأرقدك على مضجع ، ولكنك تكون بيننا على
الأقل ... وسيجيء زوسيموف أيضاً ... سوف تأتي ، هه ؟

— لا .

هتف رازوميخين يقول ناقد الصبر :

— لا تقل هذا . أنت لا تعرف نفسك . ثم انك لا تفهم من شئون
الحياة شيئاً . لقد حدث لي ألف مرة أن بصقت على الناس ، ثم هرولت
أسعى وراءهم . سوف تخجل من هذه العواطف ، وسوف ترجع الى
البشر . تذكر عنواني اذن : عمارة بوتشنكوف ، الطابق الثاني .

— يخيّل الى حقاً يا سيد رازوميخين أنك مستعد لأن تضرب في
سبيل أن يكون لك على أحد فضل ومنة .

— أنا ؟ لا بل انتي مستعد لأن أجده أنف من توسوس له نفسه
بذلك !

— لن أجيء يا رازوميخين .

قال راسكولنيكوف ذلك ثم استدار وانصرف .

صرخ رازوميخين يقول وراءه :

— أراهن على أنك ستجيء ... والا لم أكن أنا أنا ... اسمع :

هل زامبوتوف في الحانة ؟

— نعم .

— رأيته ؟

— رأيته .

- وكلمته ؟

- كلمته .

- عمّ كلمته ؟ هيّا ، لا تقل اذا كنت لا تريد ان تقول . شيطان يأخذك ! العنوان : عمارة بوتشكوف ، رقم ٤٧ ، بيت بابوشكين . تذكر العنوان !

مضى راسكولنيكوف حتى شارع سادوفايا ثم انعطف وغاب . وقد تابعه رازوميشين بنظره شارد الفكر حالماً ، ثم رفع كتفيه تعبيراً عن عدم الاكتراث ، ودخل ، لكنه لم يلبث أن توقف على السلم ، وقال يحدث نفسه بصوت عال : « شيطان يأخذني ! انه يتكلم كما يتكلم انسان سليم العقل ، ومع ذلك يشبه أن يكون ... ولكن ما أغيباني ! ألا يتكلم المجانين كلاماً معقولاً جداً ؟ ثم ان ذلك بعينه هو ما يخشاه زوسيموف فيما يخجل الى ... » . وهنا لطم رازوميشين جبينه يده متسائلاً : « ما عسى يحدث لو ... كيف أتركه وحيداً في هذه اللحظة ؟ ان من الجائر جداً أن يلقي بنفسه في الماء . آه ... لقد ارتكبت حماقة كبيرة ! ما كان ينبغي أن أتركه ينصرف ! » .

وأسرع رازوميشين يلاحق راسكولنيكوف ، ولكن لم يكن قد بقى لراسكولنيكوف أثر .

بصق رازوميشين على الأرض ، وقفل راجعاً الى « قصر الكريستال » بخطى واسعة ليسأل زامبوتوف بأقصى سرعة .

مضى راسكولنيكوف قُلماً الى جسر « س » ... * ، فتوقف في وسط الجسر ، ووضع كوعيه على افريزه ، وأخذ ينظر الى بعيد . انه بعد أن ودّع رازوميشين قد بلغ من الضعف والاعياء والوهن أنه لم يجبر ساقيه الى هذا الموضع الا في كثير من المشقة والعناء . تمنى لو يجلس في أي مكان ، تمنى لو يرقد في عرض الشارع !

مال راسكولنيكوف على الماء ، وأخذ ينظر ، على غير شعور
ولا ارادة ، الى أواخر الانكاسات الوردية لأشعة الشمس الغاربة ، والى
صف المنازل التى يقشها الفسق رويداً رويداً . هذه غرفة بعيدة من
الغرف التى تقع تحت السقوف تلتصق نافذتها وتوهج ، تحت شعاع
الشمس الساقط عليها . وهذا ماء القناة يظلم مزيداً من الاظلام شيئاً بعد
شيء . كان راسكولنيكوف يبدو كأنه ينظر باتباه . ثم اذا بدوائر حمراء
تأخذ تدور أمام عينيه ، واذا بكل شيء بعد ذلك ، اذا بالمنازل والمارة
والأرصعة والعربات تأخذ تدور من حوله وتراقص . وها هو ذا يرى على
حين فجأة مشهداً رهيباً فظيماً فاذا هو يرتجف فينجو من الاغماء . كان
قد أحسَّ أن أحداً وقف بقربه ، فنظر فرأى امرأة فارعة الطول ، على
رأسها خمار ، صفراء الوجه ، هزيلة ، عيناها حمراوان غائرتان فى
حجابيهما من السكر . كانت المرأة تنظر اليه فى عناد ، ولكن كان
واضحاً أنها لا تبصر شيئاً ولا تميز أحداً . وها هى ذى تضع ساعدها
قائماً على الافريز ، ثم ترفع قدمها اليمنى فتخطو خطوة فوقه وتتبعها
بالقدم اليسرى فتلقى بنفسها فى الماء . دوى الماء الموحل من صدمة
سقوطها ثم ابتلع فريسته على الفور ، ولكن المرأة الغريق لم تلبث أن
طفت على السطح بعد دقيقة واحدة ، ثم جرت مع التيار غاطسة الرأس
والقدمين ، طافية الظهر ، قد انتفخ ثوبها فكأنه لحاف .

صرخت عشرات من الأصوات :

- انها تفرق ، انها تفرق !

فهرع الناس ، فسرعان ما امتلأ بهم الرصيفان ، واحتشد الجمهور
على الجسر حول راسكولنيكوف يصدمه ويمصره عصراً .

وهتفت امرأة تقول ، من مكان غير بعيد ، بصوت نادب شاكٍ :

- رباہ ! هذه أفروزينوشكا • أنقذوها أيها الأخيار الطييون !
انقذوها !

وأخذ بعض المحتشدين يصرخون :

- علينا بقارب ، علينا بقارب !

ولكن لم يبق نمة داع الى قارب : فان شرطياً من شرطة المدينة
أسرع يهبط سلفاً يفضي الى القناة ، ثم خلع معطفه وحذاءيه ، وألقى
بنفسه في الماء ، ولم يلق عناءً كبيراً في اللحاق بالمرأة الغريق ، فان تيار الماء
قد حملها حتى صارت على بعد خطوتين من الضفة ، فما هي الا أن قبض
على ثوبها بيده اليمنى ، وأمسك باليد اليسرى عصا مدّها اليه زميل له ،
حتى أخرجت المرأة من الماء ، وأضجعت على الدرجات الصخرية •
ولم تلبث أن تاب اليها وعيها ، فنهضت ، وجلست ، وأخذت تعطس
وتشخر وتعصر ثيابها المبتلة مروعةً مبهوتة • ولم تنطق بكلمة واحدة •
أعولت تلك المرأة نفسها قائلةً ، قرب أفروزينوشكا في هذه المرة :

- لقد ركبها ألف عفريت أيها الاخوة • حاولت منذ مدة أن
تشنق نفسها ، فأخرجنا عنقها من الحبل • ومضيت اليوم الى البقال بعد
أن أوصيت الصغيرة بمراقبتها ، فاذا بالمصيبة تقع •• هي جارتنا يا أخي ،
جارتنا • نحن نسكن في مكان قريب ، في العمارة الثانية ، هناك ، آخر
الشارع •••

تفرق الحشد ، وظل الشرطيان منهماكين حول المرأة الغريق •
وهذا صوت يصرخ متكلماً عن شيء يتصل بقسم شرطة ••• ان
راسكولنيكوف ينظر الى هذا كله وهو يحس احساساً غريباً بعدم الاهتمام
وقلة الاكتراث • وها هو ذا يشعر بنفور وتقرّر ، ثم يقول مجمجماً :
« لا ، لا ، هذا شيء يدعو الى الاشتزاز ••• الماء ••• لا فائدة منه ••

لن يحدث شيء... ما فائدة الانتظار اذن؟ أما قسم الشرطة... ولكن لماذا غاب زاميتوف عن القسم؟ ان مكاتب قسم الشرطة تظل مفتوحة حتى الساعة التاسعة... وأدار راسكولنيكوف ظهره للافريز، ونظر حوالبه... ثم قال بلمهجة جارمة: «لم لا؟ ليكن!»، وغادر افريز الجسر وسار متجهاً الى قسم الشرطة... كان قلبه خالياً مغلقاً... كان لا يريد أن يفكر... حتى القلق تبدد... لم يبق في نفسه أمرٌ من انتفاضة القوة تلك التي أخرجه من غرفته «ليتنهى من الأمر»... وحلَّ محلَّ تلك القوة خمولٌ وخمود وتبلد...

قال لنفسه وهو يسير على رصيف الجسر بملل وكسل وتوان: «نعم، هذا أيضاً حل... سأتينى من الأمر مع ذلك، لأننى أريد أن انتهى منه... ولكن هل هذا هو الحل حقاً؟ آه... لا خير... سيبقى لى موطىء قدم من الأرض أقف عليه... ولكن يا لها من نهاية! هل يمكن أن يكون هذا نهاية؟ أقول لهم الأمر أم لا أقوله؟ ولكن دعنا من هذا! اننى متمب مكدود مرهق... يجب أن أضطجع حالاً، يجب أن أقعد فى مكان ما... أعيب ما فى الأمر أن هذا كله غباء! هيا، ابصق على هذا أيضاً! آه... ما أكره الحماقات التى يمكن أن تصاور فكرنا أحياناً!...»

كان على راسكولنيكوف، من أجل الوصول الى قسم الشرطة، أن يمضى فى أول الأمر قدماً، ثم أن يلتفت يسرةً عند الشارع الثانى... ولكنه توقف قبل أن يصل الى العطفة الأولى، وفكر، ودخل فى زقاق ضيق، ثم تجول فى شوارع أخرى، ربما بدون نية محددة تماماً، ولكن ربما ليهب لنفسه مهلة جديدة أيضاً، ليكسب فسحةً من وقت... كان يسير مطرقاً الى الأرض... وفجأة أحسَّ كأن أحداً يهمس فى أذنه،

فرفع رأسه ، فوجد نفسه أمام « تلك » العمارة ، أمام مدخلها تماماً .
انه منذ « ذلك » المساء لم يكن قد عاد الى المكان .

وهذه رغبةٌ لا سبيل الى مقاومتها ولا يمكن تفسيرها ، تسيطر عليه وتستبد به . دخل العمارة ، ونفذ الى الباب الأول ، الباب الأيمن ، وأخذ يصعد السلم الذى يعرفه جيداً ، حتى وصل الى الطابق الثالث . كان ظلام حالك يلف السلم الوعر الضيق . وقد توقف راسكولنيكوف على فسحة السلم عند كل طابق ، فكان ينظر حواليه مستطلماً مشوقاً . هذا زجاج النافذة فى الطابق الأرضى قد أُبدل . قل راسكولنيكوف يحدث نفسه : « انه لم يكن هكذا فى ذلك اليوم » . ثم وصل الى المسكن الذى يقع فى الطابق الأول حيث كان يعمل نيقولا ودمتري . « البيت منفلق » ، وقد أُعيد دهن الباب . معنى ذلك أن البيت معد للايجار . وهذا هو الطابق الثانى ، ثم هذا هو الطابق الثالث . « هنا » . توقف راسكولنيكوف منسجراً : كان باب البيت مفتوحاً تماماً ، وكان فى البيت ناس ، ان كلامهم مسموع . لم يكن راسكولنيكوف يتوقع هذا . وبعد تردد قصير ، صعد الدرجات الأخيرة ، ودخل البيت .

انه يُجدّد أيضاً . ان فيه عمالاً . بدا راسكولنيكوف كاللذهول . لقد كان يتصور ، دون أن يدري لماذا ، أنه سيجد البيت كما تركه تماماً ؛ حتى الجنتين كان يتصور أنه سيجدهما راقدين على أرض الغرفة فى ذلك الموضع نفسه . فماذا يرى الآن : جدراناً عارية ، وما من أثاث ! ما أغرب هذا ! تقدم نحو النافذة وجلس على حافتها .

لم يكن هنالك الا عاملان اثنان . انهما شابان ولكن أحدهما أكبر سنّاً من الثانى بكثير . كانا يفرشان الجدران بورق أبيض ذى أزهار صغيرة بنفسجية ، بدلاً من الورق القديم الأصفر الحائل الممزق . شعر

راسكولنيكوف من ذلك بأسف • وأخذ ينظر الى الورق الجديد مفتاحاً ،
كأنه يتحسر على أن تغيراً قد حدث •
يبدو أن العاملين قد أطلاا يوم عملهم • وهما الآن يرتبان لفافات
الورق ، ويستعدان للعودة الى المنزل • لم يلفت ظهور راسكولنيكوف
انتباههما • صالب راسكولنيكوف ذراعيه على صدره وراح يصنى الى
حديثهما •

قال الأكبر للأصغر :

— جاءتنى منذ الفجر ، لا بسةً أجمل الثياب • قلت لها : « مالك
تفجنين هذا الفنج » ، فقالت لى : « أريد بعد الآن يا تيتى فاسيلتش أن
أكون لك جسماً وروحاً ! » • أسمعنت ؟ ولبتك رأيت الثياب التى كانت
تلبسها • لكنّها صورة من صور الموضة ، صورة حقيقية من صور
الموضة •

سأله الأصغر :

— وما صورة الموضة هذه يا عزيزى ؟

كان واضحاً أن الأصغر يتعلمذ على الأكبر •

— صورة الموضة واحدة من تلك الصور الملونة التى تصل الى
الحياطين بالبريد من الخارج كلّ سبت • والغاية منها أن ترى الناس
كيف يجب أن يلبسوا ، رجالاً ونساءً • هى رسم • فأما الرجال
فتياهم هى الرذنجوت ، ولكن يجب أن ترى قسم ثياب النساء • • هناك
حدّث ولا حرج • • • مهما تهل عنها فلن توفيهما حقها ! • • •

هتف الأصغر يقول مفتوناً بهذا الحديث :

— ما أكثر ما يراه المرء فى « بيتر » * هذه ! ان المرء يرى فيها كل
شئ حقاً ، عدا امه وابيه !

قال الأكبر فى رصانة :

- نعم ، يرى كل شىء عدا أمه وأبيه !

نهض راسكولنيكوف ومضى الى الغرفة الثانية التى كانت فى الماضى تضم الصندوق والسريـر والحزانة ذات الأدراج • فلما رآها خالية من الأثاث بدت له صغيرة صفراً رهيباً • لم يُبدل ورق جدرانها • وفى الركن ، يرى المكان القديم الذى كانت فيه الأيقونات • نظر الى راسكولنيكوف حوالبه ، ثم عاد الى النافذة يجلس على حافتها • نظر اليه العامل الكبير نظرة شذراء وسأله بخشونة :

- ماذا تفعل هنا ؟

ولكن راسكولنيكوف لم يجبه ، بل نهض وخرج الى فسحة السلم ، فأمسك بجبل الجرس وشده • هو ذلك الجرس نفسه ، وهو ذلك الرنين نفسه • شدة الجرس مرة ثانية فمرةً ثالثة • فكان يصغى ويتذكر • عاوده الاحساس الذى شعر به فى ذلك اليوم ، ذلك الاحساس الغريب الكاوى ، عاوده بحدة ما تنفك تقوى شيئاً بعد شىء • فكان يرتعش كلما رنّ الجرس مرةً جديدةً ، وكانت لذته تزداد •

صرخ العامل يقول وهو يمضى اليه ممتنعاً :

- ماذا تريد ؟

فعاد راسكولنيكوف الى الغرفة • وقال :

- أنا أبحث عن مسكن أستأجره ، وقد جئت أرى هذا البيت !

قال العامل :

- ما من أحد يزور مسكناً فى الليل • ثم ان عليك أن تصطحب

البواب •••

- تابع راسكولنيكوف كلامه فقال :
- أرى أن الأرض قد غُسلت • هل سيُعاد دهنها ؟ لم يبق دم •
- دم ؟
- لقد قُتلَت المعجوز واختها • كان ههنا بركة دم •••
- صاح العامل يقول قلقاً :
- ولكن من أنت ؟
- أنا ؟
- نعم أنت •
- تريد أن تعرف ؟ تعال معى اذن الى قسم الشرطة • هناك ساقول لك من أنا •
- نظر العاملان كلٌ منهما الى الآخر مبهوتين • وقال الاكبر للأصغر :
- هلم ••• لقد آن لنا أن نتصرف ، حتى لقد تاخرنا • هيا يا أليوشا ! يجب أن نغلق •••
- قال راسكولنيكوف بלהجة طليقة :
- هلموا نتصرف !
- وخرج أول الخارجين ، وهبط السلم ، حتى اذا وصل الى الباب المطل على الفناء ، صرخ ينادى البواب :
- هيه ! يا بواب !
- وكان يقف عند باب العمارة عدة أشخاص ينظرون الى المارة هم البوابان وامرأة وتاجر صغير يرتدى ثوباً من ثياب المنزل ، وأناس آخرون • مضى راسكولنيكوف اليهم قدماً •

سأله أحد البوابين :

- ماذا تريد ؟

- هل ذهبت الى قسم الشرطة ؟

- عدت منه منذ برهة • ماذا تريد ؟

- أما يزالون هناك ؟

- ما يزالون هناك •

- وهل كان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً ؟

- وكان مساعد مفوض الشرطة هناك أيضاً • ماذا تريد ؟

لم يجب راسكولنيكوف وتسمّر بين الواقفين حالاً •

اقرب العامل الكبير وقال :

- جاء يرى البيت •

- أى بيت ؟

- البيت الذى نعمل فيه • سألتنا : « لماذا غُسل الدم ؟ » • ثم

قال : « ارتكبت هنا جريمة قتل ، وأنا أريد أن أستأجر البيت » • وقد

أخذ يشد جبل الجرس ، حتى كاد ينتزعه • ثم قال : « هلموا بنا الى

قسم الشرطة ، فسأقول لكم هناك كل شيء » ، وألحّ فى هذا •

نظر البواب الى راسكولنيكوف متحيراً مرتاباً •

ثم صرخ يسأله مهدداً :

- ولكن من أنت ؟

- روديون رومانوفتش راسكولنيكوف ، طالب سابق • وأسكن

قريباً من هنا ، فى زقاق مجاور ، عمارة شبل ، شقة ١٤ ؟ إسأل عنى

بواب العمارة • انه يعرفنى •

قال راسكولنيكوف ذلك كله بلهجة وانية ، شاردَ الفكر ، حتى
دون أن يلتفت ، فقد كان يحدثُ الى الشارع الذى اجتاحه الظلام منذ
الآن .

- ولماذا جئت الى هذا البيت ؟

- لأراه .

- ما رأيك فى أن نقتادك الى قسم الشرطة ، هه ؟

كذلك قال التاجر الصغير فجأة ، ثم أسرع يصمت .

نظر اليه راسكولنيكوف من فوق كنفه ، وتفرس فيه باتباه ، ثم
قال له بلهجة ما تزال وانية هادئة :

- موافق ، هلمّوا بنا الى قسم الشرطة !

استأنف التاجر الصغير كلامه فقال بثقة أكبر :

- نعم ، يجب اقتياده الى قسم الشرطة . لئن جاء « لهذا » الغرض ،

فإن ذلك يدل على أن هناك شيئاً يشغل باله ، أليس كذلك ؟

جمجم العامل يقول :

- أهو سكران أم لا ؟ الله وحده يعلم !

وعاد البواب يصرخ وقد أخذ ينضب حقاً :

- ولكن ماذا دهاكم جميعاً ؟ وأنت ، ما مجيئك الينا لتزعجنا هذا

الازعاج ؟

قال راسكولنيكوف ساخراً :

- ها ... انك تخاف الذهاب الى قسم الشرطة !

- ممّ عسانى أخاف ؟ ولكن لماذا تأتى الينا فتزعجنا هذا الازعاج ؟

قالت المرأة :

- هنا لص !

فقال البواب الآخر ، وهو فلاح ضخم يرتدى معطفاً فضفاضاً ،
ويحمل مجموعة من المفاتيح معلقة بحزامه :

- نعم ، علام تناقشه ؟ اخرج من هنا أيها المتشرد ... هياً
انصرف . اقول لك انصرف !

ثم أمسك راسكولنيكوف من كتفه ، ورماه الى الخارج ، فترنج
راسكولنيكوف وكاد يهوى على الأرض ولكنه لم يسقط ، ثم اتصب
ونظر الى جميع المشاهدين صامتاً ثم مضى .

قال العامل :

- انسان عجيب !

فعبثت المرأة قائلة :

- جميع الناس عجبون في هذه الأيام !

وأضاف التاجر الصغير يقول :

- كان ينبغي أن نقتاده الى الشرطة مع ذلك .

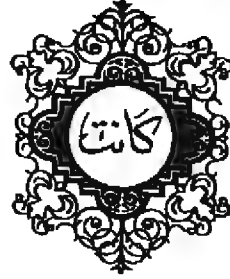
فقال البواب الكبير يحصم المناقشة :

- علام نقتاده الى الشرطة ؟ هو محتال ما في ذلك ريب ، ولو
اقتدناه الى الشرطة لما عرفنا كيف نتخلص منه ، أنا أعرف أمثال هؤلاء
الناس ! ...

تسامل راسكولنيكوف وهو يقف في عرض الطريق عند احد
المسارق وينظر الى ما حوله كأنه ينتظر أن يهديه أحد الى الحل الحاسم
والقول الفصل : « أذهب الى الشرطة أم لا أذهب ؟ » . ولكن ما من
جواب جاءه من أى مكان . كان كل شيء أصمّ ميتاً كالجارية التى كان

يسير عليها •• ميتاً بالنسبة إليه وحده • وها هو ذا يلمح فجأة ، في بعيد ،
على مسافة مائتي خطوة ، في آخر الشارع ، في الظلام المتزايد ، ها هو ذا
يلمح احتشاداً ، ويسمع جلبةً وصراخاً • وكانت تقف عربية في وسط
الجمهور المحتشد • دار راسكولنيكوف يمنةً واتجه نحو الحشد • كان
يبدو حقاً أنه يريد أن يتشبث بأي شيء ، فلما أدرك هو ذلك ضحك
في فتور ، لأنه كان يعرف أن قراره فيما يتعلق بالشرطة قد اتخذ وانتهى
الأمر ، وكان يعلم علم اليقين أن كل شيء سيكون قد انتهى بعد قليل •

الفصل السابع



تقف في وسط الشارع عربة انيقة من عربات
السادة ، قد قُرن بها حصانان اشهبان قويان
ثائران . وكانت خالية قد نزل حوذيها عن
مقعدہ ووقف الى جانبها يشد الحصانين باللجام ؛
وقد تجمهر حولها عدد كبير من الناس ، وراء حاجز من رجال الشرطة .
وكان أحد رجال الشرطة يحمل بيده مصباحاً مشتعلًا قد مال به الى
تحت يضيء بنوره شيئاً كان يوجد على أرض الشارع ملتصقاً بالعجلات .
وكان جميع الناس يتكلمون ويصرخون ويصيحون ، وكان الحوذي
مضطرباً يردد بين الفينة والفينة قوله :

— يا للمصيبة ! رباه ! يا للمصيبة !

استطاع راسكولنيكوف أن يشق لنفسه ممراً ، فأفلح أخيراً في
أن يرى ذلك الشيء الذي يثير هذا الاضطراب القوي وهذا الفضول
الشديد . انه رجل يرقد على الأرض دامياً مغشياً عليه يرتدى ثياباً
فقيرة رثة لكنها من ثياب « السادة » ، قد داسه الحصانان ، فالدم يسيل
من جمجمته ومن وجهه المتخن المهشم المحطم . كان واضحاً أن الحادث
خطير .

صاح الحوذي نادياً شاكياً :

- يا رب السماء ! كيف كان يمكن أن أتفاداه ! لا العربية كانت مسرعة ، ولا أنا سكنت فلم أصرخ منبهاً ! كانت العربية تسير في رفق ، كان تسير على مهل • جميع الناس رأوا ذلك • ان كنت أكذب فقد كذب اذن جميع الناس • ولكن السكران لا يرى حتى في وضوح النهار ... هذا معروف • أبصرته يجتاز الشارع مترجاً حتى ليكاد يتهاوى على الأرض من شدة السكر • صرخت أنبئه ، مرةً ، مرتين ، ثلاث مرات ... ولجمت الحصانين ، ولكن ها هو ذا يمشي اليهما قدماً فيسقط بين حوافرهما ... فاما أنه فعل ذلك عامداً ، واما أنه قد بلغ منه السكر كل مبلغ ... وحصاناي مهران صغيران عصيان ، فها هما يجمحان ، وهما هوذا يصرخ فيزداد جموحهما فتقع المصيبة ...

قال أحد شهود الحادث :

- نعم ، ذلك ما حدث •

وقال صوت آخر :

- نعم ، لقد صرخ الحوذى ، صرخ ثلاث مرات •

وقال ثالث مؤيداً :

- نعم ، ثلاث مرات ، جميع الناس سمعوا ...

على أن الحوذى لم يكن منهار المزيمة ولا شديد الخوف • وكان واضحاً أن المركبة يملكها شخص ثرى لا بد أنه كان ينتظر وصولها في مكان ما • وهذه حقيقة لم تغرب عن بال رجال الشرطة طبعاً ، ولا أسقطوها من الحساب • لم يبق اذن الا أن يُنقل المصاب الى قسم الشرطة والى المستشفى • ولم يكن أحد يعرف اسمه •

في أثناء ذلك ، كان راسكولنيكوف قد تسلل الى وسط الجمهور ،

ومال على الأرض ، فاذا بالمصباح الصغير يضيء وجه الشقي على حين
فجأة ، واذا براسكولنيكوف يتعرفه فوراً •

صرخ يقول وهو يندفع الى الصف الأول :

— أنا أعرفه ! أنا أعرفه ! هو موظف محال على التقاعد ، هو
الموظف مارميلادوف • انه يسكن قريباً من هنا ، في عمارة كوسل ...
اسرعوا ، نادوا طيباً ! سأدفع ! خذ ...

قال ذلك وأخرج من جيبه مالاً فعرضه على احد رجال الشرطة •
كان راسكولنيكوف في حالة اضطراب تبعث على الدهشة •

سُرَّ رجال الشرطة بمعرفة شخص المصاب • وأسرع راسكولنيكوف
يعرف نفسه أيضاً ، فذكر اسمه ، وذكر عنوانه ، وألحَّ أُلحاحاً
شديداً ، كما لو كان المصاب أباه ، على أن يُنقل مارميلادوف الى مسكنه •
وكان مارميلادوف ما يزال فاقداً وعيه مغشياً عليه • قال راسكولنيكوف
متعجلاً :

— بيته هناك : بعد ثلاث عمارات • انه يسكن في عمارة كوسل ،
الألماني الغني ... لا شك أنه كان سكران عائداً الى بيته • أنا اعرفه •
انه سكير ... له أسرة ، وزوجة ، وأولاد ، وبنت • لماذا المستشفى ؟
ان نقله الى المستشفى يستغرق وقتاً طويلاً • ولا بد أن يوجد في عمارته
طبيب • سوف أدفع ، سوف أدفع • فبذلك يعنى به ذروه ، ويفعلون
ما يجب فعله فوراً • والا كان يتعرض للموت حتى قبل أن يصل الى
المستشفى •

وأفلح راسكولنيكوف في أن يدمس قطعة نقدية في يد احد
رجال الشرطة • وكانت القضية من جهة أخرى واضحة شرعية • وبدا

على كل حال أن نقل الجريح الى بيته أبسط وأيسر ، فرفع المصاب وحمل ، ووجد من يساعد في ذلك ، كانت عمارة كوسل تقع على مسافة ثلاثين خطوة ، فكان راسكولنيكوف يمشى وراء الجريح سائداً رأسه بكثير من الحذر والاحتياط ، وكان يدل الآخرين على الطريق .

— من هنا ! من هنا ! وحين نصب السلم يجب أن نجل راسه عالياً ... دوروا ... نعم هنا ... سوف أدفع ... أشكر لكم صيغكم ...

كذلك كان يدمم راسكولنيكوف .

كانت كاترين ايفانوفنا ، على عاداتها كلما أتحت لها دقيقة من فراغ ، تسير في غرفتها الصغيرة طويلاً وعرضاً ، فتمضي من النافذة الى المدفأة ومن المدفأة الى النافذة ، مصالبة ذراعيها على صدرها ، مكلمة نفسها ، ساعلة من حين الى حين . ولقد تعودت منذ مدة من الزمن أن تتحدث مزيداً من التحدث الى ابنتها الكبرى بولينكا التي يبلغ عمرها عشر سنين والتي كانت ، رغم أنها لا تستطيع أن تفهم أشياء كثيرة بعد ، تدرك حق الإدراك أن أمها في حاجة اليها ، فكانت لذلك تنابها بنظراتها الذكية محمقة ، وتبذل كل ما تملك من قوة في مسيل أن تتمثل ما كانت تقوله لها . وفي تلك اللحظة ، كانت بولينكا تنضو عن أخيها الصغير ثيابه لتضعه في السرير بعد أن لبث مريضاً طوال النهار ، فكان الصبي الصغير ، بانتظار ابدال قميصه الذي يجب أن يغسل في تلك الليلة نفسها ، جالساً على كرسي ، رزيناً صامتاً . كان منتصب الجسم ، ساكناً ، ملصقاً ساقيه احدهما بالأخرى ، موجهاً اياهيه الى الحارج ، نافخاً خدييه ، محملاً بعينه ، يصفى الى ما كانت تقوله أمه لأخته دون أن يتحرك ، كما ينبغي للصغار العقلاء حين تُخلع عنهم ثيابهم للنوم . وكانت البنت الثانية ، وهي أصغر سنّاً منه ، وثيابها أظمار بالية تماماً ، تنتظر

دورها واقفةً قرب الحاجز • وكان الباب المطل على فسحة السلم مفتوحاً على سعته كلها ، من أجل أن يهرب منه ولو جزءٌ من دخان التبغ الذى يأتى من الغرف الأخرى ، ويسبب للمصدورة السكىنة نوبات سعالٍ طويلة أليمة قاسية • لقد نجلت كاترين ايفانوفنا مزيداً من التحول منذ أسبوع ، وأصبحت البقع الحمراء على خديها مضطربةً مزيداً من الاضطراب • كانت تقول لابنتها وهى تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً :

— لا تستطيعين أن تعرفى ، لا تستطيعين أن تتخيلى ، يا بولينكا ، نوع الحياة المفرحة المرحّة الباذخة التى كنا نحياها فى دار بابا ، ولا نوع الشقاء الذى نزل علىَّ بسبب هذا السكّير ، والذى سينزل عليكم اثم جميعاً كذلك • كان بابا فى رتبة تعدل رتبة كولونيل • كان يوشك أن يصبح حاكماً ، لم يكن عليه الا أن يخطو خطوة واحدة حتى يصبح حاكماً ؛ لذلك كان جميع الناس يجيئون اليه ويقولون له : نحن نعدك حاكماً لنا منذ الآن يا ايفان ميخائيلش • وحين ... كح كح كح ... لمن الله هذه الحياة ... (صاحت تلعن الحياة هكذا وهى تبصق وتضغط صدرها) — نعم ، حين ... آه ... حين رأيتنى الأميرة بيزيملى ، فى آخر حفلة رقص ، عند ماريشال النبالة — وهذه الأميرة هى التى باركتنى حين تزوجت أباك يا بوليا — نعم ... حين رأيتنى أسرعت تسأل على الفور : « أليست هذه الفتاة الفتانة هى التى رقصت رقصة الشال حين تخرجت من المدرسة الداخلية ؟ » — يجب ترقيع هذا الثقب ، عليك أن تأخذى ابرة وخيطاً فترقيه ، كما علمتك ، والا فانه ... كح ... غداً ... كح كح كح ... سيتسع مزيداً من الاتساع (صرخت تقول ذلك صراخاً وقد هدّتها السعال) • وفى ذلك الأوان انما وقد الينا من بطرسبرج شاب من الحاشية هو الأمير ستشيجولسكى ... رقص معى

وقصة مازوركا ، فاذا هو ييجىء فى الغداة يريد أن يخطبنى... فشكرته
بألفاظ العبارات ، ولكتى صرفته قائلة له ان قلبى يملكه رجل آخر منذ
مدة طويلة ، وهذا الآخر هو أبوك يابوليا . وغضب أبوك غضباً شديداً...
هل أعدد الماء ؟ هيا انتى باقميص . والجوارب ، أين هى ؟ يا لسيديا
(كذلك قالت لصغرى بنتها) مستامين هذه الليلة بدون قميص...
ديرى أمرك... ودعى الجوربين جانباً كذلك... سأغسلهما فى الوقت
نفسه... ألن يعود هذا الرث السكران ؟ لقد لبس قميصه حتى أصبح
وسخاً كعمسحة . ومزقه أيضاً . أتمنى لو أغسل كل شىء دفعة
واحدة . فبذلك لا أتعب ليلتين متواليتين . . . يارب ! كح كح كح...
ما هذا أيضاً ؟ (هتفت تسأل هذا السؤال وهى ترى جمهوراً على فسحة
السلم ، وترى مع الجمهور أشخاصاً يحملون حِملاً ويحاولون أن
يشقوا طريقهم نحو الغرفة) ماذا جرى ؟ ماذا يحملون ؟ رباه !
سأل الشرطى وهو ينظر حواليه بينما كان يحمل مارمیلادوف
الى الغرفة دامياً مقيشياً عليه :

— أين نضعه ؟

قال رامكولينكوف :

— على الديوان ! أضجوه على الديوان ، واجلوا رأسه فى هذه
الجهة .

صاح يقول واحد وهو على فسحة السلم :

— دامتة عربية فى الشارع .

وقفت كاترين ابفانوفنا جامدة ، شاحبة الوجه ، تنفس بصعوبة
ومشقة . وأطلقت ليدوتشكا صرخة وهرعت الى بولينكا ، فعانقتها وهى
ترتجف بجميع أعضاء جسمها .

حتى اذا أضحج مارميلادوف على الديوان ، هرع راسكولنيكوف الى كاترين ايفانوفنا ، وقال لها مسرعاً :

— اهدئي ناشدتك الله ، لا تضطربي !... كان يجتاز الشارع ، فمرت عربة فوقه • لا تقلقي • سيصحو من اغماثه • أنا أمرت بحمله الى هنا • لقد جئت اليكم مرة قبل الآن ، هل تذكرين ؟ سيفيق من غيوبته • سوف أدفع !

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول يائسةً وهي تندفع نحو زوجها :

— نال ما كان يسعى اليه !

لم يلبث راسكولنيكوف أن لاحظ أن هذه المرأة ليست من تلك النساء اللواتي يغمى عليهن لأسباب • وبمثل لمع البصر سرعةً وضعت وسادةً تحت رأس المسكين : ما من أحد قد خطرت بباله هذه الفكرة من قبل • ثم أخذت كاترين ايفانوفنا تخلع ثيابه ، وتفحصه بدون تعجل ، ناسية نفسها ، عاضةً على شفتيها ، تكظم الصرخات التي تهم أن تنطلق من صدرها •

وفي أثناء ذلك استطاع راسكولنيكوف أن يقنع أحد الحضور بأن يمضى يستدعى طبيباً • وكان يوجد طبيب في عمارة مجاورة • وكرر يقول لكاترين ايفانوفنا :

— أرسلت في طلب طبيب • لا تقلقي • سوف أدفع • أليس عندكم ماء ؟ وأعطني أيضاً فوطه ، منشفة ، أى شيء ، بسرعة ! لا نعلم بعد هل جرحه بليغ ••• على كل حال ، هو جريح وليس قتيلاً ••• تقي بذلك ••• لنتنظر ما سيقوله الطبيب •

هرعت كاترين ايفانوفنا الى النافذة • كان يوجد هناك ، في ركن ،

على كرسى خاسف ، طستٌ كبير من فخار ، مملوء ماءً ، قد هيأته من أجل أن تغسل فى الليل ملابس أولادها وزوجها • ان كاترين ايفانوفنا هى التى تتولى غسل الملابس بيديها ليلاً ، وهى تفعل ذلك مرتين فى الأسبوع على الأقل ، وقد تفعله أكثر من مرتين أحياناً ، ذلك انهم قد وصلوا الى حيث أصبحوا لا يملكون من كل ملابس من الملابس الا قطعة واحدة لكل فرد تقريباً • وكاترين ايفانوفنا لا تحتمل الوساخة ، أو قل لا تطيق أن ترى الأدران تسود بيتها ، وتؤثر على هذا ان تقوم فى الليل ، بينما الجميع نائمون ، بعمل تفرضه على نفسها ويفوق طاقتها : تغسل الملابس ثم تنشرها على جبل لتجف ، بغية أن تجد الاسرة أشياءها نظيفة فى الصباح •

حملت الطست كما أمرها بذلك راسكولنيكوف ، وكادت تسقط معه على الأرض • وكان راسكولنيكوف قد استطاع فى أثناء ذلك ان يعثر على منشقة • فلما بالماء وأخذ يغسل وجه مارمیلادوف الدامى • وكانت كاترين ايفانوفنا تقف الى جانبه ، متنفسةً بمشقة وصعوبة ، ضاغطة صدرها بيديها • لقد كانت هى نفسها فى حاجة الى اسعاف • وبدأ راسكولنيكوف يقول لنفسه انه لعله قد اخطأ سداد الرأى حين الح على ضرورة نقل المريض الى هنا • وكان الشرطى مرتبكاً حائراً •

وصاحت كاترين ايفانوفنا تقول لابنتها :

- بوليا * ، اذهبي الى أختك صونيا ، وأحضريها بسرعة • فاذا لم تجديها فى مسكنها ، فلا بأس ••• قولى ان أباهما قد داسته خيول ، وان عليها أن تجيء حالا متى عادت • أسرعى يا بوليا ! خذى ، ضعى هذا المنديل على رأسك •

وصرخ الصبي الصغير من على كرسيه يهيب بها أن تسرع قائلاً :

— أنلعي (أسرعى) ...

قال ذلك وعاد يفرق في صمته ، واسترد وضعه : محمق العينين ،
متصلب الجذع ، متجمد الجسم ، مشدود الساقين •

وامتلأت الغرفة بالناس في أثناء ذلك ، فلو أُلقيت تفاحة لما سقطت
على الأرض من شدة ازدحامهم • وانصرف رجال الشرطة ، الا واحداً
بقى الى حين ، بغية أن يصد الجمهور الذي كان يصل من السلم ويتدفق
نحوه من جديد • ان جميع المستأجرين الذين يسكنون عند مدام
ليفكسيل قد هرعوا من غرفتهم التي تقع في آخر البيت : تجمعوا في أول
الأمر على الباب ، ثم اجتاحوا الغرفة نفسها •

فضبت كاترين ايفانوفنا ، فصرخت مخاطبة الناس :

— دعوه يموت بسلام على الأقل • آه... ما هذا الذي تفعله انت ؟
أسبجارة في فمك كأنك في مسرح ؟ كح كح كح ! لم يبق الا أن
تحتفظوا بقبعتكم على رؤوسكم أثناء رؤية المشهد • هه... هذا واحد
قد احتفظ بقبعته على رأسه فعلاً ! هيا اخرجوا من هنا ••• احترموا
الأموات على الأقل !

قالت ذلك ثم خفتها نوبة سعال شديدة • ولكن تقرعها كان له
أثره • واضح أنهم يخشون كاترين ايفانوفنا بعض الخشية • فهاهم اولاء
سكان البيت يتجهون نحو الباب واحداً بعد آخر ، وهم يشعرون بذلك
الاحساس الغريب ، احساس اللذة الذي يلاحظ دائماً حتى لدى
أقرب الأصدقاء أو الأصدقاء حين يرون شقاءً يحل بأحد ؛ وهو احساس
لا يخلو منه انسان ، مهما يكن أسفه ومهما تكن شفقتة من جهة اخرى •

وكانت تُسمع وراء الباب شذرات أحاديث يدور فيها الكلام على
المستشفى ، وعلى أنه ليس من اللائق تكثير صفو عمارة في غير طائل •

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول :

— ماذا ؟ ليس من اللائق أن يموت الانسان ؟

وهمّت أن تفتح الباب وأن تصبّ على هؤلاء الناس سيلا من الشتائم ، ولكنها حين وصلت الى العتبة رأت نفسها تصطدم بمدام ليفكسل نفسها التى علمت بالمصيبة فأسرعت تعيد النظام الى نصابه .

ان مدام ليفكسل هذه ألمانية مشاكسة مزعجة .

قالت وهى تصفق يديها احدهما بالأخرى :

— آه ... يا رب ! زوجك داسه حصان وهو سكران . الى المستشفى ، الى المستشفى انما كان يجب ... أنا صاحبة البيت ...

فقالت كاترين ايفانوفنا فى تعالٍ وكبرياء :

— أرجوك يا آماليا لودفيجوفنا أن تفكرى فيما تقولين ... يا آماليا لودفيجوفنا ...

كانت كاترين ايفانوفنا تخاطب صاحبة البيت دائماً فى تعالٍ وكبرياء ،
كما « تلزم هذه حدودها » ؛ ولم تستطع حتى فى هذا الظرف أن تحرم نفسها من هذه اللذة .

قالت مدام ليفكسل :

— قلت لك مرة واحدة الى الأبد أن لا تسمينى آماليا لودفيجوفنا
قط . أنا آماليا ايفانوفنا .

— أنت لست آماليا ايفانوفنا ، بل آماليا لودفيجوفنا ؛ وأنا لست
واحدة من أولئك الذين يملقونك تملقاً ذليلاً ، ومنهم السيد ليزياتيكوف
الذى تدوّى قهقهاته فى هذه اللحظة نفسها وراء الباب (وكان يدوى

وراء الباب ضحكٌ فعلاً ، وكانت تُسمع هذه الجملة : « ها هما تهماسكان بالأيدى ! » ، فانتى سأسميك دائماً آماليا لودفيجوفنا . ولست افهم على كل حال لماذا يسوءك هذا الاسم الى هذه الدرجة . لقد رأيت ما حدث لسيميون زاخاروفتش : انه يموت . فأرجوك أن تغلقى هذا الباب فوراً ، وأن لا تدعى لأحد أن يدخل الى هنا . فليمت بسلام على الأقل ! والا فانتى أؤكد لك أن سلوكك هذا سيرفه الحاكم العام نفسه من الغد . ان الأمير قد عرفنى قبل أن أتزوج ، وهو يتذكر سيميون زاخاروفتش ، وقد احسن وفادته مراراً . وجميع الناس يعلمون ان سيميون زاخاروفتش كان له أصدقاء وحُماة كُثُرُ أهملهم هو نفسه بسبب عزته وكبريائه وشعبه ، وبسبب ما كان يحسه من ضعفه المحزن الذى يمزق القلب غزيراً . ولكن شاباً عظيماً (وأومأت الى راسكولنيكوف) ذا ثراء وعلاقات ، شاباً يعرفه سيميون زاخاروفتش منذ طفولته ، يتولى مساعدتنا الآن ، ففى وسعك أن تكونى على يقين يا آماليا لودفيجوفنا من ان ...

قيل ذلك كله بسرعة قصوى كانت تتزايد من دقيقة الى دقيقة . ولكن السعال قطع بلاغة كاترين ايفانوفنا فجأة ؛ واستعاد المحضر وعيه فى تلك اللحظة فهرعت اليه . وفتح عينيه ، وأخذ ينظر الى راسكولنيكوف الواقف بقربه ، أخذ ينظر اليه دون أن يتعرف أحداً ودون ان يفهم شيئاً . وكان يتنفس تنفساً شاقاً عميقاً متقطعاً . وظهر دم على طرفى شفثيه . وكان العرق يتكاثف على جبينه كحبات اللؤلؤ . واذا لم يستطع أن يحدد شخصية راسكولنيكوف ، أجال بصره على ما حوله قلقل . وكانت كاترين ايفانوفنا تلقى عليه نظرة حزينة لكنها قاسية ، وكانت تسيل من عينيها دموع .

قالت يائسة :

- رباه ! ان صدره ممجّون عجباً ! ما أكثر الدم ! ما أكثر الدم !
يجب أن تُنزع عنه ملبسه • استدر قليلاً يا سيميون زاخاروفتش •
إذا كنت تقوى على ذلك •

تعرفها مارميلانوف • فنطق بصوت أبح :

- كاهن !

فتراجعت كاترين ايفانوفنا نحو النافذة ، وأسندت جبينها الى
الزجاج ، وهتفت تقول وقد بلغت ذروة الكمد والكرب :

- قاتل الله هذه الحياة !

وعاد المحضر يقول من جديد ، بعد لحظة صمت :

- كاهن !

فقالت كاترين ايفانوفنا :

- أر ••• سلنا ••• نستد ••• عيه !

ففهم وصمت • وكان يبحث عنها بنظراته وجلالاً فلما • فعادت اليه
ووقفت بقربه • فهذا قليلاً ولكن هدوءه لم يطل • فان عينيه لم تلبثا ان
توقفتا على الصغيرة ليدوتشكا * (أثيرته) التي كانت فى ركن من الأركان
ترتجف ارتجاف من أصابته نوبة عصبية ، وتحديق اليه بعينها المدهوشتين ،
عينى الطفلة ، تحديقاً ثابتاً •

فغمغم محاولاً أن يقول شيئاً وهو يومئ اليها قلماً :

- أ ••• أ •••

فصرخت كاترين ايفانوفنا :

- ماذا أيضاً ؟

فقال وقد تلبثت نظراته على قدمى البنت الصغيرة الحافيتين :

- حافية ! حافية !

فزرات كثيرين ايقانوفنا تقول وقد بلغ غضبها أشده :

- اسكت ! أنت تعلم حق العلم لماذا هي حافية !

صاح راسكولنيكوف يقول متخففاً من قلقه :

- الحمد لله ! وصل الطيب !

دخل الطيب • انه شيخ شديد الحذر كثير التدقيق (وهو الماني)
أخذ يلقي على ماحوله نظرات زاخرة بالرغبة والشك . اقترّب من المريض ،
وجسّ نبضه ، وتفحص رأسه بانتباه ، ثم تعاون مع كاترين ايقانوفنا على
حلّ أزرار القميص المبتل بالدم ، وعرّى الصدر • كان الصدر خامساً
خسوفاً مروّعاً ، وكان مهروساً ممزّقاً • ان عدة اضلاع في الجهة
اليمنى كانت محطمة مهشمة • وفي الجهة اليسرى ، عند القلب ، كانت
تُرى بقعة سوداء ضاربة الى صفرة ، بقعة كبيرة رهيبة : انها آثار
حافر حصان • قطّب الطيب حاجبيه • وروى له الشرطي أن الجريح
قد تشبّث به احدى عجلات العربة ، فجرّته أثناء دورانها مسافة ثلاثين
خطوة على أرض الشارع •

قال الطيب لراسكولنيكوف هامساً :

- أغرب ما في الأمر أنه عاد اليه شعوره !

فسأله راسكولنيكوف :

- ما رأيك ؟

- سيموت حلاً

- أليس هناك أى أمل ؟

- لا أمل البتة • انه يوشك أن يلفظ آخر أنفاسه • انه في النزاع

الأخير • ثم ان رأسه مصاب بجرح خطير جداً • همّ • • • يمكننا طبعاً

أن نجرى له فصداً . . . ولكن ما فائدة ذلك ؟ انه ميت لا محالة . نعم ،
سيموت حتماً بعد خمس دقائق أو ست .

— لنجرب الفصد مع ذلك !

— طيب . ولكننى أُنَبِّهكَ مرةً أخرى الى أننا لن نجنى من ذلك
آية فائدة .

وفى هذه اللحظة نفسها سُمع وقع أقدام مرةً أخرى . فتتحى
الجمهور على فسحة السلم وظهر كاهن شيخ أبيض الشعر يحمل
الأعراض المسرية ، ووراءه شرطي جاء به الى البيت . فسرعان
ما أدخل الى الطبيب المكان ، بعد أن تبادل معه غمزةً ذات دلالة ، وبادر
راسكولنيكوف يرجو الطبيب أن يبقى ولو لحظةً قصيرة . فرفع الطبيب
كفيه ، ولكنه بقى .

تنحى الجميع . ولم يدم الاعتراف الا وقتاً قصيراً جداً : فأغلب
الظن أن المختضر كان فاقداً ادراكه وكان عاجزاً عن الكلام ، وكان
لا يستطيع ، فى أكثر تقدير ، أن ينطق الا باصوات متقطعة غير متميزة .
أمسكت كاترين ايفانوفنا يد ليدوتشكا ، فأنهضت الطفلة الصغيرة
عن كرسيها ثم مضت الى الركن قرب المدفأة ، فجلت على ركبتيها
وأركت الأولاد أمامها .

استمرت البنت الصغيرة ترتجف . أما الصبى الصغير الذى كانت
ركبته الساريتين على بلاط الأرض ، فكان يرفع يده اليمنى فى فواصل
مطرقة ، يرسم اشارات الصليب واسعةً كبيرةً ، ثم يسجد فيلصق جبينه
بالأرض ، وكان واضحاً أن هذا يحدث له لذة قصوى . وكانت كاترين
ايفانوفنا تمض على شفيتها وتحبس دموعها . كانت تهلى هى أيضاً ،
وتعدل قميص الصغير من حين الى حين فى الوقت نفسه . حتى لقد

استطاعت ، دون أن تهض ودون أن تقطع صلاتها ، استطاعت أن تسلمَ
من الحزاة ذات الأدراج منديلاً ألقته على كتفي الصبية العاريتين •

ولكن الباب المثل على البيوت الأخرى قد فتحه المستسلمون أثناء
ذلك مرةً أخرى • كان جمهور المشاهدين على فسحة السلم - وهم
السكان الذين هرعوا من جميع طوابق العمارة - تزداد كثافته
شيئاً بعد شيء ، إلا أن أحداً منهم لم يتخط عتبة الغرفة • وكان لا يضيء
هذا المشهد كله إلا بقية شمعة •

وفي تلك اللحظة وصلت بوليا التي ذهبت تحضر اختها ، فاندفعت
تسقى لها ممراً بين ذلك الجمور • دخلت منقطة الأنفاس تقريباً ، لأنها
قد ركضت بسرعة مفرطة ، فنزعت المنديل الذي كان يغطي رأسها ،
وبحثت عن أمها بعينيها ، ثم اقتربت منها وقالت لها : « متجىء ، فقد
لقيتها في الشارع ! » •

أركت الأم ابنتها الى جانبها • ثم وصلت فتاة ، فتقدمت وسط
الجمهور خجلةً بلا ضجة ، فكان ظهورها في هذه الغرفة التي يسودها
الفقر والبؤس والأسمال الرثة والموت واليأس أمراً غريباً يبعث على أشد
الدهشة • كان هندامها لا يساوى أربعة قروش ، ولكنه صارخ صخاب
يناسب أذواق وقواعد العالم الخاص الذي تعيش فيه هذه الفتاة ، ويلائم
الغايات الدينية التي تسيطر على ذلك العالم • وقفت صونيا على العتبة
لا تجرؤ أن تجتازها • وكانت تنظر حواليلها زائفة الهيئة ثائرة الفكر •
كان يبدو عليها أنها لا تدرك شيئاً ولا تعي شيئاً ، وكان يبدو عليها أيضاً
أنها ذهلت عن ثوبها الحريري الذي اشترته مستعملاً - والذي كانت
ألوانه الزاهية وذيله الطويلة لا تناسب هذا المكان - وذهلت عن ثورتها
الفضفاضة التي تملأ عرض الباب كله ، وعن حذاءيها اللامعين وشمسيتها

التي لا فائدة منها البتة لأن الوقت ليل ، وعن قبعتها الصغيرة المصنوعة من قش ، المزدانة بريشة حمراء •

وكان يلوح تحت هذه القبعة ، الموضوعة مائلة ، وجه صغير نحيل أصفر مرتاع ، فاغر الفم شارد العينين من الرعب •

ان صونيا تبلغ من العمر ثمانية عشر عاماً ، وهي قصيرة القامة هزيلة الجسم ، لكنها جميلة ، شقراء ، لها عينا زرقاوان رائعتان • وقد راحت تحدّق الى الديوان والى الكاهن بنظرات ثابتة • وكانت مقطعة الأنفاس هي أيضاً ، لأنها ركضت ركضاً سريعاً • ولا شك أن كلمات تبادلها بعضهم في الجمهور همساً قد تناهت الى مسامعها فها هي ذى تخفض رأسها وتتقدم خطوة الى أمام • ولكنها لم تعزم أمرها بعد على الابتعاد عن الباب •

اتهى الاعتراف والتناول • وعادت كاترين ايفانوفنا الى قرب الديوان • وتتجى الكاهن • ولكنه اعتقد أن من واجبه أن يوجّه الى كاترين ايفانوفنا بضع كلمات تواسيها وتقوى عزيمتها • فقاطعت كاترين ايفانوفنا تقول بلهجة خشنة غاضبة وهي تشير الى الأولاد :

— وهؤلاء ، أين أضعهم الآن ؟

فقال الكاهن :

— الله رحيم • أملى في عون الرب !

— هو رحيم ولا شك ، ولكنه ليس رحيماً بنا نحن •

قال الكاهن وهو يهز رأسه :

— هذا اثم يا سيدتى ، هذا اثم !

فصرخت كاترين ايفانوفنا مشيرة الى المختصر :

- وهذا ، أليس انمّا ؟

- لعل الذين كانوا سبب وقوع هذه المصيبة بغير ارادة منهم ، لعلهم يوافقون على أن يدفعوا لك تعويضاً بسبب فقدانك مواردك على الأقل .

صرخت كاترين ايفانوفنا تقول بشراسة :

- أأنت لا تفهم اذن ؟ لماذا عساهم يدفعون لى تعويضاً ؟ ان هذا السكّير هو الذى ألقى بنفسه بين حوافر الخيل ! ثم ما كلامك هذا عن مواردى ! انه لم يمدنى بأية موارد فى يوم من الأيام ! انه لم يهيم لى الا أنواع العذاب ! هذا كل ما أمدنى به ! لقد كان سكيراً ، سكيراً ، ما وصل الى يده شئ الا سارع يشرب به خمراً ؛ كان ينهبنا نهباً ، كان يذهب الى الحانات يتلف فيها حياتهم وحياتى ! سيموت الآن ، وسيكون موته توفيراً واقتصاداً !

- على المرء أن يعفو ويصفح ويغفر ، فى ساعة الموت ! ان الشهور بمثل هذه العواطف اثم يا سيدتى ، اثم كبير !

كانت كاترين ايفانوفنا ما تزال منهكةً حول المحتضر ، تسقيه وتسمع عن رأسه العرق والدم ؛ فهى تتحدث مع الكاهن دون أن تنقطع عن عملها . ولكنها وثبت نحوه على حين فجأة حائرة غاضبة ، فقالت له :

- آه يا أبى ! ما هذا كله الا كلام ، كلام لا أكرر ! العفو والصفح والمفكرة ! هه ! لو لم يقع له هذا الحادث ، لرجع الى البيت فى هذا المساء سكران ؛ ولأنه لا يملك قميصاً غير هذا القميص الوسخ الممزق الذى يلبسه ، لكان علىّ أنا أثناء غطيته فى النوم أن أتبلل بالماء لأغسل له القميص ولأغسل ملابس الأولاد ؛ ولكن علىّ بعد ذلك أن أجفف الغسيل كله على النافذة ، حتى اذا طلع الفجر أخذت أعمل فى الترقيع !

على هذا النحو كنت سأقضى الليل ! فعلام الكلام عن العفو والصفح
والمغفرة اذن ؟ لقد عفوت وصفحتم وغفرت منذ زمان !

واعترتها نوبة سعال شديدة فاضطرت أن تنقطع عن الكلام •
وبصقت في منديلها ووضعت تحت عيني الكاهن ضاغطة صدرها بيدها
الأخرى • كان المنديل مبللاً بالدم •

خفض الكاهن رأسه ولم يقل شيئاً •

وكان مارميلادوف المحتضر لا يحوّل عينيه عن وجه كاترين
ايفانوفنا التي مالت عليه من جديد • كان يريد أن يقول لها شيئاً ما •
حاول ذلك محرّكاً لسانه بمشقة ، متمتماً ببضع كلمات مبهمّة غير متميزة ،
ولكن كاترين ايفانوفنا ، وقد أدركت أنه يريد أن يسألها أن تغفر له
أسرعت تصرخ قائلة له بلهجة لا جواب عليها :

— اسكت ! اسكت ! لا داعي ! أعرف ما تريد أن تقول !

فصمت الجريح • ولكن بصره التائه سقط في تلك اللحظة على
الباب ، فلمح صونيا • لم يكن قد لاحظها قبل ذلك : كانت صونيا قد
لبت في الجزء المظلم من الغرفة •

— من هنه ؟ من هنه ؟

كذلك ناثماً يسأل فجأةً بصوت أبهى لاهت ، وهو يحاول أن
ينهض ، ويومئ بعينه مرتاعاً الى الباب الذي كانت ابنته ما تزال واقفةً
عنده •

فصرخت كاترين ايفانوفنا تقول له :

— ابق راقداً ! ابق راقداً !

ولكنه استطاع بجهد خارق أن ينهض جسمه مستنداً بيده الى

الديوان • فحدّق الى ابنته برهةً من الوقت بنظرة غريبة ، كأنه لم
يتعرفها • ذلك أنه لم يسبق له أن رآها بمثل هذا الزى الغريب • ولكنه
لم يلبث أن تعرفها فجأة • كانت مُدلةً منهارةً تحسن بالحزى والعار من
ملابسها المبهرجة ، وهى تنتظر فى رفق ووداعة ، وفى اذعان وتسلیم ،
أن يهبط دورها لتوديع أيها المحتضر •

ارتسم على وجه الأب تعبير عن ألم لا نهاية له ، وعذاب ليس له
حدود • وصرخ يقول :

— صونيا ، ابنتى ، اغفرى لى !

وأراد أن يمد إليها يده ، لكنه فقد توازنه لأنه لم يتكىء على شيء ،
فندرج عن الديوان منكباً الوجه على الأرض • أسرعوا ينهضونه ،
وعادوا يُرقدونه على السرير • ولكنه كان قد أخذ يلفظ أنفاسه •
أطلقت صوفاً صرخة ضيفة ، وهرعت إليه ، وعانقته طويلاً ، فمات
بين ذراعيها •

صاحت كاترين ايفانوفنا تقول وهى ترى جثة زوجها :

— نال ما كان يسعى إليه • ولكن ما العمل الآن ؟ أين لى بالمال
أنفقه على دفنه ؟ وهؤلاء ، هؤلاء ، من أين أطعمهم غداً ؟

اقترب راسكولنيكوف من كاترين ايفانوفنا • وبدأ يتكلم فقال :

— كاترين ايفانوفنا ! فى الأسبوع الماضى روى لى زوجك المتوفى
قصة حياته تفصيلاً ••• نقي أنه تكلم عنك بحماسة شديدة واحترام
عظيم • وقد أصبحنا صديقين منذ ذلك المساء الذى عرفت فيه مدى
اخلاصه لكم جميعاً ، ومدى ما يحمله لك خاصةً يا كاترين ايفانوفنا من
حب وتقدير ، رغم آفته الشقية ، آفة الادمان على الشراب ••• فاسمعى

الآن اذن ... اسمحي لى أن أسألكم ... أن أقوم بآخر واجباتى نحو
صديقى المتوفى • خذنى هذا المبلغ ... أظن أنه خمسة وعشرون
روبلأ ... فإذا كان هذا يساعذك ولو قليلاً ، فانى ... لكننى
سأعود اليكم ، سأعود اليكم حتماً ، وقد أعود من الغد ... استودعكم
الله ! ...

قال ذلك وغادر الغرفة متعجباً ، وشق لنفسه ممراً بين الجمهور
بسرعة • ولكنه لم يلبث أن اصطدم نيكوديم فومتش الذى علم نبأ
الحادث ، فأراد أن يتولى بنفسه اتخاذ الاجراءات الضرورية • لم يكونا
قد التقيا منذ وقع ذلك المشهد فى قسم الشرطة ، ولكن نيكوديم فومتش
عرفه من أول نظرة • قال :

— هه ! هنا أنت ؟

قال راسكولنيكوف :

— مات ! ولقد جاء الطيب ، وجاء الكاهن ، وتم كل شيء كما
يجب أن يتم • لا تزعب كثيراً تلك المرأة الشقية • حسبها ما هى فيه من
شقاء منذ الآن • واسمها واشدد أزرها ان أمكن ...

ثم أضاف يقول ساخراً ، وهو يرمقه بنظرة ثابتة :

— أنا أعرف أنك رجل طيب القلب •

لاحظ نيكوديم فومتش ، فى ضوء الشمعة ، لاحظ بقعاً من الدم
ما تزال طرية على صدرية راسكولنيكوف ، فقال ينبهه :

— ولكنك ... ملطخ بالدم !

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة غريبة بعض الغرابة :

— نعم ، تلطخت ...

ثم ابتسم ، وحيّاه بحركة من رأسه ، وأخذ يهبط السلم .
كان ينزل ببطء ، ولكنه كان يرتعش كمن أصابته حمى . ان
موجة كبيرة من الفرح والانفعال تغمر نفسه الآن ، على غير شعور منه .
يمكن أن يشبه هذا الاحساس بالاحساس الذي يشعر به رجل محكوم
عليه بالاعدام حين يعلم فجأة بصدور قرار بالعفو عنه .

فلما وصل الى منتصف السلم أدركه الكاهن الذي غادر البيت .
تنحى راسكولنيكوف ليدع له مجال المرور ، وبادله تحية صامتة .
ولكنه حين كان يهبط الدرجات الأخيرة سمع وراءه على حين فجأة وقع
خطوات سريعة . كان واضحاً أن هناك من يحاول أن يلحق به . انها
بولينكا . كانت تركض وهى تناديه صائحة : « اسمع ! اسمع ! » .

التفت راسكولنيكوف . كانت الفتاة قد هبطت الطوابق الأخيرة
بسرعة شديدة ، وهى ذى الآن تقف أمامه على الدرجة التى تعلو
درجته . ان نوراً ضئيلاً مضطرباً كان يتسلل من الفناء الى ذلك المكان .
ميز راسكولنيكوف الوجه الذى كان ينظر اليه ويتسم له فرحاً كما
يفعل الأطفال . انه وجه صغير هزيل ، ولكنه جميل . لقد هرعت الصبية
وراءه مكلفةً بمهمةٍ كان واضحاً أنها تسرها كثيراً .

سألته متعجلاً بصوت لاهث :

— اسمع ! ما اسمك ؟ وأين تسكن ؟

وضع راسكولنيكوف يديه على كفى الطفلة ، ونظر اليها بنوع من
الفرح . لقد وجد فى النظر اليها متعةً كبيرة دون أن يعرف لماذا .

سألها :

— من أرسلك ؟

فأجابته وهي تبسم بمزيد من الفرح :

— اختى صونيا هي التي أرسلتني •

— قدّرت ذلك •

— وأمي أيضاً • فحين سألتني صونيا أن أجزى وراك ، اقتربت

أمي فقالت لي هي أيضاً : « نعم ، اركضي وراعه بسرعة يا بولينكا ، »

— هل تحبين أختك صونيا ؟

— أكثر مما أحب أي شيء في العالم !

قالت بولينكا ذلك بلهجة قاطعة ، وأصبح في ابتسامتها مزيد من

الجد على حين فجأة •

سأليها :

— وأنا ، هل ستجيبني ؟

فلم ترد الصبية ، في الجواب عن هذا السؤال ، على أن قرّبت

وجهها من وجهه ، ومدّت إليه شفتيها البريئتين ، بسذاجة ، ليقبلهما ،

ثم عانقته بذراعيها الصغيرتين ، النحيلتين كمودى ثقاب ، عناقاً قوياً ، ومالت

برأسها على كتفه ، وأخذت تبكي بكاءً رقيقاً ، وألّطت وجهها على وجهه

مزيداً من اللطافة شيئاً بعد شيء • وقالت بعد دقيقة وهي ترفع وجهها

الذي غيرته الدموع والذي أخذت تمسحه بظهر يدها :

— مسكين بابا !

ثم أضافت تقول فجأة ، وهي تصطنع هيئة الجد التي يصطنعها

الأطفال حين يريدون بقتة أن يتكلموا « كما يتكلم الكبار » :

— ما أكثر المصائب في هذا اليوم !

– وأبوك ، هل كان يحبك ؟

فتابعت كلامها تقول بجادة دون ابتسام ، كشخص كبير تماماً في هذه المرة :

– من بيننا جميعاً كان يحب ليدوتشكا حباً خاصاً • كان يحبها لأنها صغيرة جداً ، ولأنها مريضة أيضاً • وكان يحنها دائماً بهدايا صغيرة • ونحن ، كان يعلمنا القراءة •

وأضفت تقول بوقار :

– أنا ، كان يعلمني قواعد اللغة ، والتاريخ المقدس • وكانت أمي لا تقول شيئاً ، ولكننا كنا نعرف أنها تسرُّ بذلك ، وكان بابا يعرف هذا أيضاً • ومما تريد الآن أن تعلمني اللغة الفرنسية ، لأنه آن الأوان لأن أتعلم ...

– وهل تجيدين الصلاة ؟

– طبعاً نجيد الصلاة • أنا أجيد الصلاة منذ مدة طويلة ! أنا ، أصلي بصوت خافت ، لأنني كبيرة • أما كولي وليدوتشكا فهما يصليان بصوت عال ، مع ماما • يرتلان أولاً : « سلام عليك يا مريم ... » ، ثم يتلوان دعاء آخر : « اغفر لاختنا صونيا يا رب ، وباركها ! » ، ويتلوان بعد ذلك دعاء آخر : « اغفر لأبينا الآخر يا رب ، وباركه ! » ، ذلك أن أبانا الأول مات • أما هذا فهو أبونا الثاني • لذلك ندعو للأول أيضاً •

– بولينكا ! اسمي أنا روديون • فادعوا لي أنا أيضاً في بعض الأحيان • أضيفوا في صلاتكم : « ولروديون المسكين » ، لا أكثر من ذلك •

قالت الصبية بحماسة وحرارة :

— طول حياتي ، سأدعو لك !

ثم أخذت تضحك فجأة ، واندفعت إليه فسانقته بذراعيها عنافاً قوياً .
ذكر لها راسكولنيكوف اسمه ، وذكر لها عنوانه ، ووعد بأن يجيء اليهم
من الغد . فانصرفت الفتاة وقد طفح قلبها حماسة .

كانت الساعة هي العاشرة حين أصبح الطالب راسكولنيكوف في
الشارع . وبعد خمس دقائق وصل الى الجسر ، الى ذلك الموضع نفسه
الذي وقفت فيه المرأة المسكينة حين ألقت بنفسها في الماء .

قال لنفسه بلهجة جازمة مظفّرة : « كفى ! تراجعى يا أنواع
السراب ! الى الوراء يا أيتها المخاوف الوهمية ! تقهقرى أيتها الأطياف !
الحياة موجودة ! ألسنت حياً فى الساعة التى أنا فيها ! ان حياتي لم تمت
بموت المرأة المعجوز ! لا ! ان ملكوتها الآن هو ملكوت السموات ! كفلك
ايتها المرأة المعجوز ! ان لك أن تدعى العالم هادئاً ! أما ملكوتى أنا فهو
ملكوت العقل والضمير ... و ... القوة ... والارادة ... وسنرى
من المنتصر منا نحن الاثنين الآن ! » . كذلك أضاف متطرساً ، كأنما
هو يخاطب ويتحدى قوة غامضة ما . وتابع يكلم نفسه فقال : « كيف
رضيت أن أحيا على حيز ضيق من المكان لا يزيد على أن يكون موطىء
قدم ؟ أنا الآن ضعيف جداً ، ولكن ... أعتقد أن مرضى قد انتهى ...
وحين خرجت منذ برهة ، كنت أعلم حق العلم أنه سينتهى .
بالمناسبة : ان عمارة بوشنكوف على مسافة خطوتين من هنا . سأذهب
حتماً الى بيت رازومихين ... نعم ، سأذهب اليه حتى ولو كان لا يقم
فى منزل قريب هذا القرب كله . ألا فليكسب الرهان ! ألا فليسخر
منى ! أى خير فى هذا ؟ ان ما أنا فى حاجة اليه هو القوة ، القوة . بغير

القوة لا يصل المرء الى شيء • والقوة لا تُنال الا بالقوة • هذا ما لا يعرفونه ! • كذلك أضاف يقول بز هو وكبرياء وثقة • واجتياز الجسر بخطى واسعة • فكانت الكبرياء والثقة تزادان فيه كلما انقضت دقيقة جديدة ؟ وكلما انقضت دقيقة جديدة كان يصبح رجلاً آخر • فما الذى حدث اذن حتى تحقق في نفسه هذا التحول ؟ كان هو نفسه يجهل ذلك • انه ، كالغريق الذى يتعلق بقشة ، يتصور أنه • يستطيع أن يحيا ، وأن الحياة ما تزال موجودة ، وأن حياته « هو » لم تمت بموت المرأة العجوز ، العجوز • ولعله أسرف فى التعجل حين انتهى الى هذه النتيجة ، ولكن ذلك لم يخطر له ببال •

قال لنفسه فجأة : « ومع ذلك طلبت صلوات ودعوات للمسكين روديون ! » ولكنه لم يلبث أن أضاف : « كان هذا من باب الاحتياط على كل حال ! » وأسرع يضحك من سذاجته الصيانية • لقد كان مزاجه مشرقاً اشراقاً رائعاً !

اهتدى الى مسكن رازوميخين بسهولة : كان المستأجر الجديد معروفاً فى عمارة بوتشنيكوف ، ودلّه البواب على الطريق فوراً • فما ان وصل الى منتصف السلم حتى كان يسمع ضجة حديث حار يقوم بين حشد كبير • كان الباب المثل على السلم مفتوحاً على كل سعة • فكان يسمع صراخ ونقاش • ان غرفة رازوميخين واسعة سعة كافية ، فكانت تضم نحو خمسة عشر شخصاً • ووراء الباب ، كانت خادعتان ، مستعارتان من الجيران سكان البيت ، منهنكين حول سماورين كبيرين ، وكانتا تهتمان كذلك بزجاجات وصحون وأطباق مثقلة ببطائر ومشهيات • والصحون والأطباق مستعارة من الجيران أيضاً • سأل رامكولنيكوف عن رازوميخين ، فهرع اليه رازوميخين مسروراً مفتوحاً • ان المرء ليلاحظ من أول نظرة أنه قد أسرف فى الشراب ؛ ورغم أنه فى العادة

لا يمعن في الشراب الى حدّ السكر ، فان مظهره الآن لا يخطئه الظن .
قال راسكولنيكوف بسرعة :

- اسمع ! أنا لم أجيء الا لأقول لك انك كسبت الرهان ، وانه
ما من انسان يستطيع في الواقع أن يحزر ما قد يقع له ... ولكنني
لا أستطيع أن أدخل ... لذلك أقول لك : السلام عليكم والى اللقاء .
تعال الى غداً .

- اسمع ، سأصحبك ، ما دمت تقول أنت نفسك انك تبلغ من
الضنف أنك ...

- وضيفك ؟ قل لى : مَنْ ذلك الرجل المجعّد شعره الذى ألقى
الآن نظره علينا ؟

- ذاك ؟ الشيطان وحده يعلم من هو ! لا شك أنه رجل له بعمى
علاقة ، أو أنه دعا نفسه بنفسه ! ... سأترك الضيوف مع عمى ! خسارة
كبرى أنك لا تستطيع الآن أن تعرف الى عمى ! شيطان يأخذهم
جميعاً ! ثم انهم فى هذه اللحظة لا يملكون من العقل ما يمكنهم من أن
يفطنوا الى ! وما أحوجنى الى استنشاق الهواء ! يا عزيزى ، لقد جئت
فى الأوان المناسب . فلو تأخرت دقيقتين لأخذت أتضارب معهم ! ليتك
سمعت ما كانوا يقولونه ! ليس فى وسعك أن تتصور عدد الأكاذيب التى
يستطيع فرد أن يقولها ! ولكن قد تستطيع أن تتصور ذلك . لم لا ؟
وليكذبوا ما شاموا أن يكذبوا على كل حال ! ... ولكن لا بد ان يأتى
يوم تنفضح فيه الأكاذيب ! ... اجلس لحظة ، سأنادى زوسيموف .

هجم زوسيموف على راسكولنيكوف بشراهة، وظهر عليه استطلاع
قوى وفضول غريب ، ثم لم يلبث أن أشرق وجهه وأضاء .

قال جازماً بعد أن فحص المريض كيفما اتفق :
- عليك أن ترقد في الفراش حالاً • وعليك قبل ذلك أن تتناول شيئاً حتى تنام • ابلع هذه الحبة ، هه ؟ لقد حضرتها منذ قليل •
أجابه راسكولنيكوف :
- لأبلعن حبتين اذا لزم الأمر !
وبلع الدواء حالاً •
وقال زوسيموف لرازومихين :

- انك لعل صواب حقاً اذ تريد أن تصحبه • ما سيحدث غداً ، سنراه في حينه ؟ أما اليوم فحالته ليست سيئة جداً • لقد تبدل تبدلاً واضحاً عما كان عليه قبل قليل • ان الانسان يتعلم في كل يوم اموراً جديدة •

جمعهم رازومихين يقول لراسكولنيكوف منذ صارا في الشارع :
- هل تعلم بماذا همس زوسيموف في أذني لحظة خرجنا ؟
يا صاحبي ، سأكلمك بصراحة ، لأن هؤلاء جميعاً حمقى أغبياء • لقد طلب مني زوسيموف أن أثّر معك أثناء الطريق ، حتى تثرثر انت أيضاً ، ثم أمضى أقص' عليه فوراً كل ما تكون قد قلته ... ذلك انه قد قام في ذهنه أنك ... أنك مجنون ... أو أنك توشك أن تصبح مجنوناً • هل تتخيل هذا ؟ أنا أرى أولاً أنك أذكى منه ثلاثة أضعاف ؛ وأرى ثانياً أنك اذا لم تكن مجنوناً فلن تكثرث بما قد يقوم في ذهنه ؛ وأرى ثالثاً أن هذه الشريحة من اللحم التي هي طيب جراح ، قد أصبحت لا تُعنى الا بالأمراض العقلية ، فاقنعت بعد حديثك مع زامبوتوف بان ...

- هل روى لك زامبوتوف كل شيء ؟

— كل شيء • ولقد أحسن صنعاً • ان هذا أفهمنى القضية كلها ،
وقد فهمها زامبوتوف هو أيضاً • الخلاصة يا روديا • • • الواقع أن • • •
حقاً أن الآن سكران قليلاً ، ولكن لا ضير • • • الواقع أن هذه الفكرة
• • • هل تفهم ؟ • • • قد ترسخت فى أذهانهم ، هل تفهم ! لم يجرؤوا
طبعاً أن يفصحوا عنها صراحةً ، لأن الأمر سخيف حقاً ، ولا سيما بعد أن
اعتقلوا الدهان • نعم لقد تبدد كل شيء الى الأبد كفقاعة صابون • ولكن
لماذا هم أغبياء الى هذه الدرجة من الغباء ؟ لقد أسأتُ معاملة زامبوتوف
قليلاً • ولكن هذا سر بيننا • أنت لا تعرف هذا ، أليس كذلك ؟ ذلك
أننى لاحظت أنه أميل الى المماحكة والنزق • • • حدث هذا كله عند
لويزا • أما الآن فقد اتضح كل شيء • والحق أن المذنب الرئيسى انما
كان ايليا يتروقتش • لقد استغل حادثة اغمالك فى قسم الشرطة ، ثم
خجل هو نفسه مما ذهب اليه ظنه • أنا أعلم كل شيء •

كان راسكولنيكوف يصفى بشراسة • وقد أفاض رازومихين فى
الكلام بتأثير السكر •

قال راسكولنيكوف :

— انما أعشى على لأننى كنت أختنق ، ولأن راحة الدهان كانت
تملاً الجو •

— عجيب أمرك ! ما بالك تشعر أنك فى حاجة الى أن تبرير ! لم
تكن راحة الدهان وحدها هى السبب ، فانما أنت تحضن المرض منذ
شهر ونيف • ان زوسيموف يشهد بهذا • لا تستطيع أن تتخيل مدى
ما يشعر به هذا الفر ، زامبوتوف ، من خجل واضطراب • لقد قال :
« اننى لا أساوى اصبع هذا الرجل » ، يعنى اصبعك أنت • هل تعلم
يا أخى أنه يبرهن أحياناً على أن له عواطف طيبة كريمة ؟ ولكن الدرس

الذى تلقاه اليوم فى « قصر الكريستال » قد بلغ منتهى الكمال • ذلك أنك أخذت فى أول الأمر تخيفه حتى أخذ يرتعد ! آه ... حين أتصور كيف كدت تجبره اجباراً على أن يصدق ذلك الأمر السخيف المستحيل ... ثم اذا بك تمدد له لسانك مستهزئاً على حين فجأة ! ... يا سلام ! نعم ، بلغ ذلك منتهى الكمال ! ظل الرجل محطماً مسحوقاً • يميناً انك لأستاذ ، لقد عاملتهم بما يستحقون أن يعاملوا به • آه ... خسارة أنتى لم أكن هناك ! هل تعلم ؟ لقد كانوا كانوا ينتظرونك عندى محترقين من نفاد الصبر • وكان بورفير أيضاً يود لو يتعرف اليك ...

— آ ... أذلك الرجل أيضاً ؟ ... ولماذا يعدوننى مجنوناً ؟

— أقصد ... لا مجنوناً تماماً ! أظن يا صاحبى أنتى أسرفت فى الثروة بعض الاسراف ... ان ما فجأً بصره وخطف اتباعه هو أنك لا تهتم الا بهذا الأمر • هم الآن يرون طبعاً لماذا تهتم به • هم الآن يعرفون الظروف ، يعرفون أن ذلك كله قد اختلط بمرضك فأناارك • أنا سكران قليلاً كما ترى يا صاحبى • ولكن الشيطان وحده يعلم ماذا يدور فى فكره • أعود فأقول لك : ان الأمراض العقلية قد ذهبت بعقله • أما أنت فما عليك الا أن تبصق على هذا كله ...

وصمت الاثنان نصف دقيقة •

ثم بدأ راسكولنيكوف الكلام فقال :

— اسمع يا رازومخين ، أريد أن أكلمك بصراحة • أنا آت الآن من بيت رجل مات • ان موظفاً قد مات ... وقد تركت هناك كل ما بقى لى من مال ... هذا الى أنتى قد قبلتنى منذ قليل مخلوقة لو كنت قد قتلت أحداً لكان فى وسعها مع ذلك أن ... ورأيت هنالك مخلوقة

أخرى ... على قبعتها ريشة حمراء ... ولكننى أرى أتى أهذر
وأهذى ... اتنى ضعيف جداً ... اسندنى ... هناك السلم ، أليس
كذلك ؟

سأله رازوميخين قلقاً :

— ماذا بك ؟ ماذا بك ؟

— رأسى يدور قليلاً ، ولكن ليس هذا هو الأمر ... وإنما الأمر
أتنى حزين جداً ، حزين جداً ! كامرأة ... حقاً ... انظر ! ما هنا ؟
انظر ! انظر ! ...

— ماذا ؟

— ألا ترى ؟ ان فى غرفتى ضوءاً • نعم ، اتنى أرى الضوء من
خلال الشق ...

كانا قد وصلا من السلم الى الفسحة السابقة على الفسحة الأخيرة،
أمام باب صاحبة البيت ؛ ومن هناك كان يُرى ضوء فى غرفة راسكولنيكوف
فعلماً •

قال رازوميخين :

— غريب ! لعلها ناستاسيا •

— ناستاسيا لا تنجى الى أبداً فى مثل هذه الساعة ؛ ثم انها نائمة
منذ مدة طويلة ... على أن هذا كله يستوى عندى ... استودعك الله !

— ما هذا الذى تقوله ؟ لا بد لى أن أصحبك طبعاً ! سندخل معاً !

— أعرف أننا سندخل معاً ، ولكننى أريد أن أضافحك وأن أودعك

هنا • هلمّ هات يدك وودّعنى !

- ماذا دهاك يا روديا ؟

- لا شيء • هيا ، ستكون شاهداً •

واستمررا يصعدان السلم ، وخطر ببال رازوميخين عندئذ أن زوسيموف ربما كان على حق ، فقدم يقول بينه وبين نفسه : « كيف سمحت لنفسى أن أثير فى نفسه الاضطراب بثررتى ؟ » •

وفيما هما يقتربان من الباب سمعا فجأة أصوات كلام فى الغرفة •
هتف رازوميخين يسأل :

- ولكن ماذا يجرى هنا ؟

بادر راسكولنيكوف فأمسك قبضة الباب وفتح على سمعته كلها •
فتحه ووقف مسمراً على العتبة • كانت أمه وأخته تنتظرانه منذ ساعة ونصف ساعة ، جالسين على الديوان • ترى لماذا كان يتوقع هذا اقل مما كان يتوقع أى شيء آخر ؟ لماذا خطرنا بباله أقل مما خطر بباله أى انسان آخر ، مع أنه فى ذلك اليوم نفسه تلقى رسالة تؤكد أن وصولهما قريب ، وشيك ؟ لقد لبثا طوال مدة الانتظار لا يكفان عن مسالة ناستاسيا التى كانت ما تزال فى الغرفة أمامهما ، فأتسع وقتها لأن تروى لهما كل شيء عن راسكولنيكوف • ولقد استبد بهما زعر شديد حين علمتا • أنه هرب اليوم من البيت • مريضاً ، وأنه كان يهذى ، على ما يخرج من القصة التى روتها ناستاسيا • • ماذا جرى له يا رب ؟ • • ولقد بكت المرأتان كلتاها وعانتا عذاباً شديداً خلال مدة الانتظار هذه التى دامت ساعة ونصف ساعة •

فلما ظهر راسكولنيكوف استقبلته بصيحات فرح وحماسة ،
واندفعتا كلتاها نحوه ، ولكن راسكولنيكوف لبث جامداً كجثة • ان

فكرة مفاجئة لا تطاق قد نزلت عليه عندئذ نزول الصاعقة ؛ حتى ان ذراعيه لم ترتفعا لمعانتهما ، فانه لم يكن يملك من القوة ما يمكنه من ذلك . شدته الأم والأخت الى صدريهما ، وأغرقتاه بالقبل ، وكاتتا تضحكنا وتبكيان في آن واحد . فتقدم خطوة ، وترنج ، ثم هوى على الارض مفسياً عليه .

انطلقت صيحات الرعب ، وأنات الخوف ، وصرخات الاستغاثة . وكان رازوميخين قد لبث على عتبة الباب ، فهرع الى الغرفة ، وامسك المريض بذراعيه القويتين ، فأرقده على الديوان بمثل لمح البصر سرعة . وصاح رازوميخين يقول للأم والأخت مطمئناً مهدئاً :

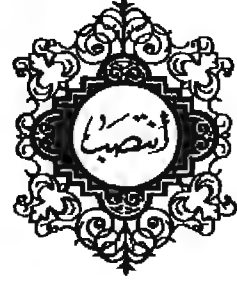
— ما هذا بشيء ، ما هذا بشيء ! ليس هذا الا اغماء تافهاً لا قيمة له . لقد قال الطبيب منذ هنيهة ان صحته قد تحسنت كثيراً ، وانه شفى شفاء تاماً . . . الى بقليل من الماء ! ها هو ذا يسترد وعيه ، ها هو ذا يستعيد شعوره !

ثم أمسك يد دونيا امساكاً قوياً كاد يهشمها ، ليجبرها على أن تميل على أخيها فتري أنه « استعاد شعوره » .

كانت الأم والأخت تنظران الى رازوميخين نظرتيهما الى اله ، وتشعران نحوه بامتنان عظيم وشكر عميق وعاطفة قوية وحنان شديد . كاتتا قد عرفنا من ناستاسيا مافعله هذا « الشاب اللبيب » في سبيل عزيزهما روديا طوال مدة مرضه ، كما نعمته بهذه الصفة بولشيريا الكسندروفنا راسكولنيكوف ، في ذلك المساء نفسه ، أثناء حديث حميم جرى بينها وبين دونيا .

الجزء الثالث

الفصل الأول



راسكولنيكوف وجلس على الديوان •
وأوماً ايماً خفيفة يهيب برازوميخين أن يوقف
سيل المواساة العارم المتقطع الذي كان يغمر به
أمه وأخته ، ثم أمسك يديهما كليهما ، وراح
يتأملهما صامتاً ، واحدة بعد أخرى ، خلال دقيقة أو دقيقتين • خافت
الأم من نظراته ، فقد كانت هذه النظرة تشف عن عاطفة عنيفة الى حد
الآلم ، وكانت في الوقت نفسه ثابتة تكاد تدل على جنون ••• واخذت
بولشيريا الكسندروفنا تبكي • وكانت آدفوتيا رومانوفنا شاحبة الوجه ،
وكانت يدها ترتجف في يد أخيها •

قال راسكولنيكوف بصوت متقطع وهو يوميء الى رازوميخين :
- عودا الى بيتكما ••• معه ! الى الغد • كل شيء غداً سوف •••
هل وصلتما منذ مدة طويلة ؟

أجابت بولشيريا الكسندروفنا :
- هذا المساء يا روديا • لقد تأخر القطار تأخراً رهيباً ! ولكنني لن
أتركك الآن بحال من الأحوال يا روديا • سأقضي الليل قرب •••
قال وهو يحرك يده بإشارة احتياج وغيظ :

– لا تعذبوني هذا التعذيب !

صاح رازوميخين يقول :

– سأبقى بقربه ! لن أتركه دقيقة واحدة • ليذهب ضيوفى الى
الشيطان ! ألا فليغضبوا اذا حلا لهم أن يغضبوا ! ثم ان عمى هناك يترأس
الحفل •••

قالت بولشيريا الكسندروفنا وهى تصافح رازوميخين من جديد :

– أنىَّ لى أن أوفيك حقتك من الشكر !

ولكن راسكولنيكوف قاطعها مرة أخرى ، وقال مردداً فى غضب:

– لا أستطيع ! لا أستطيع ! لا تعذبوني ! كفى هذا ! اذهبوا •••
لا أستطيع !•••

دمدمت دونيا تقول مرتاعة :

– لنذهب يا ماما ، لنخرج من هذه الغرفة ولو لحظة قصيرة • ان

لم نخرج كنا نقتله ••• هذا أكيد •••

فهتفت بولشيريا تقول باكية :

– ألا يجوز لى اذن أن أنظر اليه قليلاً بعد فراق دام ثلاث

سنين ؟

وعاد راسكولنيكوف يتكلم فقال :

– انتظروا ••• أتم تقاطعوتنى دائماً ••• وقد اضطربت افكارى

واختلطت ••• هل رأيتما لوجين ؟

قالت الأم :

— لا ، يا روديا ، ولكنه يعرف أننا وصلنا •

ثم أضافت تقول بخجل :

— وقد عرفنا يا روديا أن بطرس بتروفتش قد تفضل فزارك فى

هذا اليوم •

— نعم ... تفضل ! •• يا دونيا لقد أبلغت لوجين أنني سأدخرجه

الى أسفل السلم اذا هو جاء الى مرة أخرى • وأرسلته الى الشيطان •

— روديا ، ما هذا الكلام الذى تقوله ؟ لا شك انك لا تريد •••

مع ذلك ••• أن

كذلك بدأت تقول بولشيريا ألكسندروفنا ، ولكنها نظرت الى

دونيا فلم تلبث أن قطعت كلامها وصمتت •

كانت آدوفوتيا رومانوفنا تحدق الى أخيها بنظرات ثابتة وتنتظر

النتمة • وكانت المرأتان قد عرفنا أمر المشاجرة من ناستاسيا ، بمقدار

ما كانت ناستاسيا قادرة على أن تدركها وعلى أن تصوّرهما ، فكانتا لذلك

فى حيرة شديدة واضطراب قوى •

تابع راسكولنيكوف كلامه فقال بجهد ومشقة :

— دونيا ، أنا لا أريد هذا الزواج • لذلك يجب عليك أن تعلمنى

له رفضك من الغد • لا أحب أن يسمم حياتنا بعد الآن !

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا :

— رباه !

وبدأت آدوفوتيا رومانوفنا تتكلم فقالت باندفاع :

— هلاً فكرت قليلاً فيما تطلبه منى يا أخى !•••

ولكنها لم تلبث أن سيطرت على نفسها ، فاضافت تقول برفق
وهدهو ولين :

- قد لا تكون صحتك الآن حسنة ... أنت متعب !

- أأنا أهذى اذن ؟ أهذا ما تتصورينه ؟ لا ، انا لا أهذى ! انك
تريدين أن تتزوجي لوجين ، في سييلي أنا ، ولكننى أنا أرفض هذه
التضحيات ، لذلك ستكتفين له من الغد رسالة قطيعة ، وسأقرأ الرسالة ،
وينتهى كل شئ .

هتفت الفتاة تقول مستكرة :

- لا أستطيع أن أفعل هذا ، وبأى حق ...

فقاطعتها الأم مرتاعة وهى ترمى عليها :

- أنت أيضاً تندفعين يا دونيتشكا ... كفى الآن ... غدا ...
ألسن ترين اذن أنه ... آه ... والأفضل أن تنصرف أيضاً !

وصاح رازومبخين يقول :

- انه يهذى ! والا فهل كان يجرو أن ... لسوف تخرج من
رأسه هذه الحماقات كلها غداً ، لقد طرده اليوم فعلاً ، هذا صحيح .
وغضب الآخر طبعاً ، كان يفيض فى الكلام هنا ، ويعرض علمه
ومعرفته ، لكنه خرج مع ذلك واضعاً ذيله بين ساقيه ...

هتفت بوليشيريا الكسندروفنا تقول :

- أصحيح اذن ؟

وقالت دونيا وقد امتلأ قلبها شفقة ورحمة :

- الى الغد يا أخى ، هلمى يا أمى ! أستودعك الله يا روديا !

كرر رامكولنيكوف يقول مستجمعاً آخر قواه :

— اسمعى يا أختى ! أنا لا أهذى • ليس هذا صحيحاً • ان هذا الزواج دناءة ! لنفرض أننى أخط انسان • ولكن يجب عليك أنت ان لا ••• انه يكفى أن يكون واحد منا ••• ثم اننى على كونى أخط انسان ، لن أعدك أختى اذا أنت ••• فاما لوجين واما أنا ! وانصرفوا الآن !

زأر رازوميخين يقول :

— ولكنك جُننت ! يا لك من طاغية مستبد !

لم يجب رامكولنيكوف ، ربما لأنه كان لا يملك من القوة مايمكنه من الكلام • وعاد يرقد على الديوان ، واستدار الى جهة الحائط ، مهدود القوى تماماً •

نظرت آدفوتيا رومانوفنا مستطلعة مستوضحة • كانت عيناها تسطمان • حتى لقد ارتش رازوميخين بتأثير هذه النظرة • ولبثت بولشيرييا ألكسندروفنا جامدة مذهولة • وهمست تقول لرازوميخين بائسة :

— لكننى لن أستطيع أن انصرف بحال من الأحوال • سأبقى هنا ، فى مكان ما • اصحب انت دنيا •

فأجابها رازوميخين همساً كذلك ، ولكنه كان غاضباً خارجاً عن طوره :

— بهذا تفسدين كل شئ • لنخرج الى فسحة السلم على الأقل • يا ناستاسيا ، هاتى لنا ضوءاً •

حتى اذا صاروا فى السلم ، تابع كلامه يقول بصوت خافت :

- أحلف لك أنه كاد يضربنا أنا والطبيب منذ قليل • هل تفهمين؟
نعم ، كاد يضرب الطبيب نفسه • واضطر الطبيب أن يطيعه حتى لا يهيجه
مزيداً من الهياج ، فانصرف ؛ ورغم أنني بقيت أنا تحت ، من أجل أن
أحرسه ، فقد استطاع أن ينهض ••• وأن يهرب ! فإذا أهجناه الآن
وأغضبناه ، فسيهرب ، أو هو سيحاول ، في وسط الليل ، أن يرتكب
عملاً ضد نفسه •••

- ما هذا الذي تقول ؟

- ثم إن آدوتيا رومانوفنا لا تستطيع أن تهضى الليل وحيدة
في تلك الغرفة المفروشة • هلاً فكرت قليلاً في المنزل الذي تنزلونه !
ألم يكن في وسع ذلك الوغد بطرس بتروفش أن يجد لكما مسكناً
أليق ؟ على أنني سكران قليلاً ، لذلك شتمت ••• لا تولى هذا اتباعاً !
قالت بولشيريا الكسندروفنا مصرّة :

- اذن سأمضى أتوسل الى صاحبة البيت أن تهب لنا ، أنا ودونيا ،
ركناً صغيراً نبيت فيه هذه الليلة • لا أستطيع أن أتركه وهو على هذه
الحال ، لا أستطيع •

وكانا قد هبطا طابقاً وهما يتكلمان ، فأصبحا الآن أمام باب صاحبة
البيت • وكانت ناستاسيا تقدمهما درجة فتير لهما الطريق •

كان رازوميخين يعاني اضطراباً خارقاً • انه قبل نصف ساعة ،
على افراطه في الثروة أثناء مرافقته راسكولينيكوف الى بيته - كما
اعترف هو نفسه بذلك - كان يشعر بأنه مرتاح تقريباً ، وبأنه ممتلئ
نشاطاً رغم المقادير الضخمة من الحمرة التي شربها في السهرة • اما
الآن فهو في حالة نشوة شديدة ، والحمرة تصعد الى رأسه بقوة متزايدة •
هو الآن واقف بين السيدتين ، ممسك يديهما ، يحاول بصراحة قوية

أن يقنعهما بالحجج التي يعرضها • وأغلب الظن أنه من أجل أن يقنعهما بمزيد من القوة انما كان يشد يد كلٍ منهما بما يشبه الكلابة ، عند كل كلمة يقولها ، فاذا هو يوجههما ، بينما عيناه تلتهمان آدفتيا رومانوفنا التهاماً ، دون أن تخرج • فكاتنا من شدة الألم تخلّصان أصابعهما أحياناً من قبضة يده القوية المروقة ، ولكنه لا يتبّه هو الى هذا ، حتى ليشدهما اليه شداً أقوى • ولو قد طلبتا منه في تلك اللحظة أن يرمى نفسه الى أسفل السلم منكّس الرأس لفعل ذلك فوراً بلا مناقشة ولا تردد •

كانت بولشيريا الكسندروفنا تستغرب بعض الاستغراب أن يضبط الشاب يدها هذا الضغط القوى ، وأن يكون تصرفه شاذاً هذا الشنوذ ، ولكنها من شدة تأثرها حين تتذكر ابنها لوديا ، ومن اصرارها على ان ترى في رازوميخين عوناً أرسلته العناية الالهية ، كانت لا تريد ان تعترف لنفسها بهذه التفاصيل • أما آدفتيا رومانوفنا ، فقد كانت ، رغم أنها ليست بانفتاة الحجول ، لا تخلو من شعور بالدهشة والذهول بل ومن احساس بالخوف والرعب ، حين يلتقي بصرها بتلك النظرة الملتمة التي يلقيها عليها صديق أخيها ، غير أن الثقة العظيمة التي اوحى اليها بها حديث نامتاسيا عن هذا الرجل الرهيب هي التي كانت تنتزعها من الرغبة في الهروب منه جاريةً معها أمها • ثم انها كانت تدرك حق الادراك انها أصبحتا لا تستطيعان الخلاص منه الآن • يضاف الى هذا أنها قد هدأت بعد عشر دقائق : فان رازوميخين يملك موهبة الظهور على حقيقته كاملةً من أول نظرة ، أية كانت الحالة التي هو فيها ، فاذا بمن يراه يعرف من ذا يعامل •

هتف رازوميخين يقول ليقنع بولشيريا الكسندروفنا :
— لا مجال للتفكير في الالتجاء الى صاحبة البيت ! تلك أكبر حماقة يمكن ارتكابها • لو بقيت لأثرت غضبها وحقها رغم أنك أمه ، ولا يدرى

الا الشيطان ماذا يمكن أن يحدث ! اسمعيني ، اليك ما سافعله : تبقى
 ناستسيا الآن الى جانبه ، وأصحبكما أنا كليكما الى بيتكما ، لانكما
 لاستطيعان أن تسيرا وحيدتين هكذا في الشوارع . عندنا ، في بطرسبرج ،
 من هذه الناحية .. الخلاصة ! .. فمقي أوصلتكما رجعت الى هنا راكضاً ،
 فما ان ينقض على ذلك ربع ساعة حتى أعود اليكما من جديد لأخبركما
 بكل شيء . : أقول لكما كيف حالته ، وهل نام أم هو لم يتم ، النخ النخ .
 لكما على عهد الشرف لأعودن اليكما بعد ربع ساعة . ثم آتب الى بيتي
 حيث يوجد ضيوف هم جميعاً سكارى ، فاخذ زوسيموف -- ان زوسيموف
 هو طبيبه ، وهو الآن في بيتي ولكنه ليس بسكران ، هو لا يسكر ابداً --
 آخذه وأمضى به الى روديا ، ومن هناك نجى . اليكما فوراً نحن الاثنين ؟
 فبذلك تلقيان أخباراً عن روديا مرتين في غضون ساعة ؟ وفي إحدى
 هاتين المراتم تلقيان الأخبار من فم طيب ، نعم من فم طيب ، فيكون
 فيها من الجدا ما لا يكون في الأخبار التي قد أهلها أنا وحدى بطبيعة
 الحال ... فاذا لم يكن روديا بخير اصطحبكما اليه ختماً ، بمعناً
 لاصطحبكما اليه ان لم يكن بخير ... أما اذا كانت حالته حسنة ، فلن
 يكون عليكما عندئذ الا أن ترفدا وتاما . وأنا سأقضى الليلة هنا ، على
 فسحة السلم ؟ ولن يلاحظ هو ذلك . وسأطلب من زوسيموف أن يبيت
 عند صاحبة البيت ، فيكون بذلك تحت تصرفي ورهن اشارتي . من ينفعه
 في هذا الوقت أكثر ، أأتما أم الطيب ؟ الطيب طبعاً ! فعودا اذن الى
 بيتكما ! ولا مجال للتفكير في الالتجاء الى صاحبة البيت . أنا يمكن أن
 أبيت عندها ، أما أنت فلا . لن تحب أن تبيني عندها ... لأنها امرأة
 حقا . سوف تنار ... سوف تنار بسبب آدفتيا رومانوفنا . اعلمي
 هنا اذا كنت تحرصين على أن تعرفي كل شيء ... هذه امرأة غريبة
 الأطوار جداً . على أنني أنا أيضاً غبي ! وهلم جرا ... أفتقان بي ؟
 أفتقان بي ؟ أفتقان بي أم لا ؟

قالت آدقوتيا رومانوفنا :

— فلتنصرف يا ماما • لا شك في أنه فاعل ما يقول • لقد ردتُ اخي الى الحياة • واذا صحَّ أن الطيب يقبل أن يقضى الليلة هنا ، فهل تمنى خيراً من هذا ؟

هتف رازوميخين يقول مفتتاً غاية الافتتان :

— حقاً ... • انك لتفهميننى لأنك ملاك ! هيّا بنا • يا ناستاسيا ، اصعدى أنت الى فوق ، فوراً ، مع النور ، وسأعود أنا بعد ربع ساعة •
لم تعارضه بولشيريا الكسندروفنا أية معارضة ، رغم أنها لم تقتنع اقتناعاً تاماً • وأمسك رازوميخين ذراع السيدتين وجراًهما على السلم • ولكن الأم ظلت قلقة ، فكانت تقول لنفسها : • قد يكون ليلاً ومخلصاً ، ولكن أهو قادر على أن يفي بوعد ، وهو على هذه الحال ؟ •

قال رازوميخين وكأنه حزر مجرى خواطر بولشيريا الكسندروفنا ، بينما هو يسير على الرصيف بخطى واسعة فلا تكاد تستطيع السيدتان ان تجارياه الا بمشقة كبيرة ، وذلك أمر لم يلاحظه على كل حال ؛ قال :
— آ ... أنا أفهم ! انك تقدّرين أنني في الحالة التي أنا فيها ، لا ... نعم ... أنا سكران ، سكران تماماً ، ولكن ليست هذه هي المسألة • ليست الحمرة هي التي أسكرتني ... فالضربة التي سقطت على رأسي انما سقطت على رأسي حين رأيكما ! على كل حال ، لا تكثرنا لهذا ! أنا أهذى ، أنا لست جديراً بكما ، لست جديراً بكما البتة ... وما ان أوصلكما ، حتى أذهب الى القناة ، فأصب على رأسي قادوسين من الماء • ليتكما تعرفان كم أحبكما كلتيكما ! لا تضحكا ! لا تزعلا ! ازعلا من جميع الناس ، ولكن لا تزعلا مني أنا ! أنا صديقه ، فانا اذن صديقكما • ذلك ما أريد أن يكون ! ولقد أوجست هذا منذ السنة

الماضية ... نعم ، فى لحظة ما ، هكذا • على اتنى لم أوجس شيئاً البتة ،
لسبب بسيط هو أنكما هبطتما على من السماء • الخلاصة ، من الجائز
جداً أن لا أنام طوال الليل • كان زوسيموف يخشى منذ قليل أن يعجن
روديا • لذلك يجب تحاشي اهاجته •

هتفت الأم تسأله :

— ما هذا الذى تقوله ؟

وسأله آدفتيا رومانوفنا مروعة :

— حقاً ؟ الطيب نفسه قال لك ؟

— قال لى ! ولكن كلامه ليس صحيحاً ، ليس صحيحاً على الإطلاق .
آه ... كان من الأفضل أن لا تصلا الا غداً ! على كل حال ، لقد احسنا
صنعاً اذ انصرفنا • وبعد ساعة سيأتىكم زوسيموف بتقرير كامل • ليس
زوسيموف سكران مثلى ، ليس هو سكران • وأنا لن أكون سكران
أيضاً ! آه ... لماذا شربت حتى نعلت ؟ لماذا ؟ لأنهم جرؤنى الى
حديثهم ، أولئك الملاحين ! وكنت مع ذلك قد آليت على نفسى ان
لا أناقش • وما أسخف ما كانوا يقولونه ! كدت أن أقتل معهم ! وتركت
عمى بترأس بدلاً منى • هل تصدّقان ؟ انهم ينادون باللاشخصية ...
يقولون ان على المرء أن لا يكون عين نفسه • ويسمّون هذا ذروة
التقدم • ويا ليت السخافات التى قالوها كان فيها شيء من أصالة وطرافة .
أبدأ ...

قالت بولشيريا ألكسندروفنا خجلة وجلة :

— اسمع ...

ولكن مقاطعتها هذه لم تزده الا اندفاعاً وحماسة • فصاح يقول
بصوت أعلى :

— آ ... أنت تقدرين اننى بسبب هذرهم وهذيانهم انما ...
أبدأ ! أنا أحب الهذر والهذيان والخطأ والضلال . ان الخطأ هو الميزة
الوحيدة التى يمتاز بها الكائن الانسانى على سائر الكائنات الحية . من
يخطئ ، يصل الى الحقيقة . أنا انسان لأننى أخطئ . ما وصل امرؤ الى
حقيقة واحدة الا بعد أن أخطأ أربع عشرة مرة ! وهذا فى ذاته ليس فيه
ما يعيب . ولكن الناس لا يعرفون حتى أن يخطئوا بأنفسهم . لك أن
تقول آراء جنونية ، ولكن لتكون هذه الآراء آراءك أنت ، فأغمرك بالقبل .
لأن يخطئ المرء بطريقته الشخصية ، فذلك يكاد يكون خيراً من ترديد
حقيقة لقَّنه اياها غيره . أنت فى الحالة الأولى انسان ، أما فى الحالة
الثانية فأنت ببناء لا أكثر . الحقيقة لا تطير ، أما الحياة فيمكن خنقها .
لقد رثى هذا . الى أين وصلنا من هذا الآن ؟ نحن جميعاً ، بغير استثناء ،
سواء فى ميدان العلم ، أو الثقافة ، أو الفكر ، أو العبقرية الخالقة ، أو
المثل الأعلى ، أو الرغبات ، أو اللبرالية ، أو العقل ، أو التجربة ، نحن
فى كل شيء ، فى كل شيء ، فى كل شيء ، نعم ، فى كل شيء ، ما زلنا
فى الصفوف الاعدادية لدخول المدرسة الثانوية ! الأفكار المعضوقة ،
ذلك هو ما نجه ! أليس هنا صحيحاً ؟ أليس الأمر كما أقول ؟ أليست
هذه هى الحقيقة ؟

كذلك قال رازوميخين وهو يهز² يدي السيدتين ويضغطهما .

قدممت المسكينة بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

— والله ... لا أعلم !

وأضافت آدفتيا رومانوفنا قائلة :

— نعم ، هو هذا ، هو هذا ، رغم أننى لا أوافقك على جميع

النقاط .

ثم سرعان ما أطلقت صرخة ألم ، لأن رازوميخين قد ضغط يدها
فى هذه المرة ضغطاً قوياً فلم تملك الا أن تطلق تلك الصرخة .
وهتف رازوميخين يقول مفتتاً :

— نعم ؟ تقولين نعم ؟ ألا انك اذن ... ألا انك اذن لينبوع خير ،
وطهارة ، وعقل ، وكمال . ناولينى يدك ، ناولينى يدك ، وأنت أيضاً ،
ناولينى يدك . أريد أن أقبل يديكما فى هذا المكان نفسه ، فى هذه
اللحظة نفسها ، جاثياً على ركبتى ، راکماً !

وركع فى منتصف الطريق ، الذى كان خالياً فى تلك اللحظة من
حسن الحظ .

صرخت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مروعة :
— كفى ، من فضلك ! ما هذا الذى تفعله ؟
وقالت دونيا ضاحكة ، رغم ارتباها هي أيضاً :
— انهض ، انهض ! ...

— لن انهض بحال من الأحوال ، لن انهض الا بعد أن تناولانى
يديكما ! نعم ، هكذا . وكفى الآن ! انهض ونمضى . أنا امرؤ غليظ
الطبع ثقيل الظل . أنا لست جديراً بكما . أنا سكران . وانى لأشعر من
هذا بخزى وعار ... أنا لا أستحق أن أحبكما . أما السجود أمامكما
فهو واجب يقع على كل انسان ليس أحق كل الحق . لذلك سجدت
... ولكن هذا هو مسكنكما . يكفى هذا وحده سبباً أجاز لروديون
أن يطرد صاحبكما بطرس بتروفتش شر طردة ! كيف أباح لنفسه أن
يسكنكما فى غرفة مفروشة كهذه الغرفة ؟ هذه فضيحة ! هل تعلمان
نوع الناس الذين يؤوونهم هنا ؟ ثم يقول انك خطيئة ! ... أنت خطيئة
أليس كذلك ؟ فاسمحي لى أن أقول لك اذن ان خطيئك رجل قدر !

بدأت بولشيريا ألكسندروفنا تتكلم فقالت :

— اسمع يا سيد رازوميخين ؟ انك تنسى أن ...

فأسرع رازوميخين يقول مستدركاً :

— نعم ، نعم ، أنت على حق ! أنا أقول سخافات ! اننى لأشعر
بخجل وعار . ولكن .. ولكن لا يمكنك أن تقضى لأننى كلمتك بهذه
الطريقة . ذلك أننى تكلمت مخلصاً صادقاً ، ولم أقل ذلك الكلام لأننى
... هم ... لا ... لن أقول ... لو قلت لكان فى كلامى ما يدعو
الى النفور ... الخلاصة ... أنا لم أقل ذلك لأننى ... بك ...
هم ... لا ، ما ينبغي أن أقول لماذا ... لا أجرؤ ... ولكن ، حين
دخل علينا فى هذا اليوم ، أدركنا جميعاً على الفور أن هذا الرجل ليس
منا . لا لأننا رأيناه يصل مجعّد الشعر قد خرج من عند الحلاق رأساً ،
لا ولا لأنه أسرع بعرض ثقافته ومعلوماته ، بل لأنه جاسوس ومستغل
لأنه بخيل كيهودى ، لأنه دجال ، ولأن هذا كله واضح لا يخفى !
أنظنانه ذكياً ؟ لا بل هو غبى ، غبى ! أهذا زوج لك ؟ لا ، لا !

ثم أضاف يقول وهو يتوقف فجأة لحظة همّوا أن يصعدوا
السلم :

— اسمع يا سيدتى : ان الضيوف الذين هم فى بيتى الآن أناس
شرفاء مهما يكونوا سكارى ، ورغم أننا جميعاً نهذر ونهذى — وأنا أيضاً
أهذر وأهذى — فان هذرنا وهذياننا سيفضيان بنا يوماً الى الحقيقة ، لأننا
نحن نسير فى طريق الاخلاص والتجرد عن المنفعة ، وليس هذا طريق
بطرس بتروفتش ، فان بطرس بتروفتش لا يسلك طريق التجرد عن
المنفعة ... نعم ، فرغم أننى وصفتهم فى هذا المساء بجميع النعوت
وانهلت عليهم بجميع الشتائم ، فاننى أقدرهم جميعاً حق قدرهم . وأنا

أحب زامبوتوف رغم أنني لا أحترمه • أنا أحبه فعلاً ، لأنه حيوان شائق
على كل حال • أحب حتى ذلك الشرس زوسيموف ، لأنه شريف ولأنه
يعرف مهته • ولكن كفى الآن هذا • لقد قلت كل شيء... وسامحاني ،
هه ! هيتاً بنا ! أنني أعرف هذا الدهليز • لقد سبق أن جئت الى هذا
المكان ، وهنا ، في رقم ٣ ، وقت فضيحة • أين تسكنان ؟ في أى رقم ؟
ثمانية ؟ طيب ... أغلقا عليكما الباب طول الليل ، ولا تدعا لأحد أن
يدخل • سأعود اليكما بأبناء بعد ربع ساعة ، وبعد نصف ساعة من عودتي
الأولى ، سأعود ثانية مع زوسيموف • ستريان • استودعكما الله • أنا
ذاهب !

قالت بولشيريا الكسندروفنا لابنتها خائفة وجللة :

— رياه ! ماذا سيحدث يا دونيتشكا !

فأجابت دونيا أمها وهي تخلع قبعتها وتنضو خمارها :

— هدئي روعك يا ماما • ان الله نفسه هو الذي أرسل إلينا هذا
السيد ، رغم أنه مسرف في السكر • في وسعنا أن نتمد عليه ، أوكد
لك • انظري الى كل ما فعله في سبيل أخينا من قبل أن نصل ...

— آه يا دونيتشكا • الله يعلم هل يعود ! وكيف أمكنني أن أوافق
على ترك روديا ؟ ... ثم أنني لم أكن أتوقع أن أراه على هذه الحالة •
ما على هذه الحالة كنت أتوقع أن أراه ! ما أقصاه ! لكانه لم يسر
برؤيتنا !

وتلألأت في عيني الأم دموع •

— لا يا أماه • ليس هذا هو الأمر • أنت ما رأيته رؤية جيدة ،
لأنك كنت تبكين طول الوقت • انه مريض مرضاً شديداً • فهذا المرض
هو سبب كل شيء •

- آ ... المرض ...! ربه! ماذا سيحدث؟ وهل رأيت بآية
لهجة خاطبك؟

أضافت الأم هذا السؤال الأخير ، وهي تختلس نظرة الى عيني
ابتها لتقرأ ما يدور في ذهنها ، متعزية بعض التعزى منذ الآن ، لأن
دونيا دافعت عن أخيها ، فهذا دليل على أنها غفرت له .

ثم أردفت تقول وهي تنتظر ما عسى أن تقوله الفتاة :

- أنا واثقة بأنه سيرجع غداً الى عواطف أخرى .

فردت آدفوتيا رومانوفنا تقول بلهجة قاطعة :

- أما أنا فواثقة بأنه سيكرر غداً ما قاله اليوم في هذا الموضوع .

وبهذا الردّ وضعت الفتاة حداً للحديث بينها وبين أمها ، لأن
بولشيريا الكسندروفنا كانت ، في هذه اللحظة على الأقل ، تخشى المجازفة
في الكلام على هذا الأمر .

واقتربت دونيا من أمها فقبلتها . فماقتها أمها عناقاً قوياً دون أن
تقول كلمة واحدة . ثم جلست تنتظر عودة رازوميخين قلقه ، وتنتظر
وجلة الى ابتها التي غرقت في خواطرها وأفكارها مضطربة هي أيضاً ،
وأخذت تذرع الغرفة طولاً وعرضاً ، مصالبة ذراعيها على صدرها . ان
هذا المشي في الغرفة طولاً وعرضاً هو عادة من عاداتها ؛ وأمها تخشى
دائماً في مثل هذه الظروف أن تسكر تأملاتها .

لا شك أن رازوميخين كان مضحكاً جداً حين استولى عليه هذا
الهمام المبالغ بآدفوتيا رومانوفنا . ولكن ما أكثر الذين لو رأوا آدفوتيا
رومانوفنا ، ولا سيما في ذلك الوقت الذي كانت تطوف فيه بالغرفة
حزينة مفكّرة مصالبة ذراعيها على صدرها ، ما أكثر الذين لو رأوها

لعدروا الفتى ولو كان فى حالة طبيعية من غير سكره . ان آفوتيا رومانوفنا فتاة جميلة جداً ، فارعة القوام ، معتدلة القد ، قوية ، واثقة بنفسها - كما تشهد بذلك كل اشارة من اشاراتها - دون أن يجردَها ذلك من شيء . من مروتها وليونتها ، وخفتها ورشاقتها . هى تشبه أخاها وجهاً ، ولكنها يمكن أن توصف بأنها « آية فى الجمال » . شعرها كستاوى اللون ، أزهى قليلاً من شعر أخيها . وعيناها اللتان تشبهان أن تكونا سوداوين ، تلمعان وتسطعان ، وتعبران عن عزة وشمم ، وتعبران أحياناً عن رقة وعذوبة لا حدود لهما . وهى شاحبة ، لكن شحوبها ليس شحوب المرض ، فان وجهها يشع بضارة وعافية . وفمها أميل الى الصغر ، وشفتها السفلى حمراء قانية ، بارزة قليلاً كبروز ذقنها كذلك . وهذا هو العيب الوحيد فى ذلك الوجه الرائع ؛ على أنه عيب يضىء عليها طابعاً أصيلاً من صلابة وثبات ، بل من تمازج وكبرياء . واذا كان وجهها يعبر عن الجذ والتفكير أكثر مما يعبر عن المرح ، فان ابتسامتها ، وضحكها الفرحه التى هى ضحكة الشباب والتى فيها شيء من اهمال ، تناسبان فمها كثيراً . فلا غرابة اذن أن نرى رازوميخين الذى يتصف بالحرارة والبساطة والاستقامة ، أن نرى رازوميخين القوى كعملاق ، الثمل فوق ذلك ، الذى لم يسبق أن رأى جمالاً كهذا الجمال ، لا غرابة أن نراه يفقد عقله منذ أول نظرة . يضاف الى ذلك أن المصادفة قد شامت ، بما يشبه العمد ، أن يرى دونيا فى اللحظة التى كانت فيها زاحرة بالفرح لرؤية أخيها ، وأن يراها بعد ذلك وقد أخذت شفتها السفلى ترتجف استياءً من مطالب هذا الأخ الوقحة ، فكيف كان يمكنه أن يقاوم وأن يصمد ؟

ولقد صدق حين قال ، فى سكره ، ان صاحبة البيت الذى يسكن فيه راسكولنيكوف ، أى براسكوفيا بافلوفنا ، سوف تغار لا من آفوتيا

رومانوفنا فحسب ، بل ربما غارت كذلك من بولشيريا ألكسندروفنا ،
فإن هذه رغم أنها بلغت الثالثة والأربعين من العمر ، تبدو أصغر سنًا من
ذلك بكثير ، وهذا هو في كثير من الأحيان شأن النساء اللواتي استطعن
الاحتفاظ حتى اقتراب الشيخوخة بصحو الذهن ، ونضارة الاحساسات
وحرارة القلب (ولنصف الى هذا مستطردين أن الاحتفاظ بهذا كله هو
للمرأة الوسيلة الوحيدة التي تستطيع بها أن لا تفقد جمالها حين تشيخ) .
صحيح أن شعر بولشيريا ألكسندروفنا قد أخذ يبيض ويتناثر ؛ وصحيح
أن غضوناً صغيرة رقيقة قد ظهرت حول عينيها منذ مدة طويلة ؛ وصحيح
أن خديها قد خسفا وجفًا بسبب الهموم والأحزان ؛ ولكن هذا الوجه
قد ظل جميلًا ؛ حتى ليمكن أن يقال انها صورة دونيا بزيادة عشرين
عامًا ، مع فارق وحيد هو أن الشفة السفلى عند الأم ليست بارزة • وكانت
بولشيريا ألكسندروفنا امرأة حساسة ، ولكن هذه الحساسية لا تمضي
الى حد العاطفية المتصنعة • وهى خجولة ، ميالة الى المجازاة ، مستعدة
للتنازلات ، حتى حين يخالف ذلك اقتناعاتها • ولكن لهذا حدوداً •
فمتى كان الأمر أمر شرفها وواجبها واقتناعاتها العميقة ، فما من ظرف
من الظروف يمكن أن يحملها على تخطي تلك الحدود •

ما ان انقضت عشرون دقيقة على انصراف رازوميخين ، حتى نُقِر
الباب نقرتين خفيفتين : لقد عاد رازوميخين •

أسرع يقول منذ فُتِح له :

— لن أدخل • لا يتسع الوقت • انه ينام نوعاً هادئاً مريحاً •
أسأل الله أن يظل نائماً هذا النوم ست ساعات متتالية ! نامتاسيا قائمة عليه •
أوصيتها أن لا تتركه الى أن أرجع • والآن سأمضي أٌحضر زوسيموف •
سيحدثكما هو عن حاله • ثم تعقلان فتأمان ، ذلك أتى أرى أنكما
تكادان تسقطان من فرط التعب •••

قال ذلك ثم اندفع ينصرف •

هتفت بولشيريا ألكسندروفا تقول فرحة كل الفرع :

— ما أعظم ما يمتاز به هذا الفتى من فطنة وإخلاص !

فأجابت آفدوتيا رومانوفا تقول بشيء من الحرارة وهى تستأنف سيرها فى العرفة طولاً وعرضاً :

— ان له طبيعة رائعة فيما يبدو •

وما ان انقضت على ذلك ساعة واحدة ، حتى سمعت أصوات وقع أقدام فى الدهليز ، ونقر الباب من جديد •

كانت المرأتان قد انتظرتا فى هذه المرة وهما ممثلتان تله بصديق وعد رازوميخين • وقد جاء رازوميخين مصطحباً زوسيموف فعلاً • لقد رضى زوسيموف فوراً أن يترك الاحتفال ليعود راسكولنيكوف ، ولكنه لم يقبل أن يعجىء الى السيدتين الا بشدة الأذن ، لأنه كان يرتاب فى حالة رازوميخين • فما أسرع ما رضى غروره وابتهيج ابتهاجاً كبيراً حين أدرك أنهما كانتا تنتظرانه حقاً كما ينتظر عراف • وقد لبث معهما عشر دقائق تماماً ، وأفلح كل الفلاح فى أن يقنع بولشيريا الكسندروفا وأن يهدى روعها • وكانت أقواله كلها تشهد باهتمامه الشديد بالمريض ؛ ولكنه حافظ مع ذلك على هيئة الجسد والرصانة التى تناسب طبيياً فى السابعة والعشرين من عمره يستشار فى ظرف خطير ، فلم ينطق بكلمة واحدة تبعد به عن موضوعه ، لا ولا أظهر أية رغبة فى أن تقوم بينه وبين السيدتين صلات شخصية مستديمة • واذا لاحظ منذ دخوله جمال آفدوتيا رومانوفا الباهر ، حاول فوراً أن لا يتنبه اليها أى انتباه ، وظل طوال مدة الزيارة لا يكلم الا بولشيريا ألكسندروفا وحدها • وشعر من سلوكه هذا برضى كثير عن نفسه • أما فيما يتصل بالمريض فقد أعلن

أنه وجده هذه المرة في حالة مرضية على وجه الاجمال ؛ وشخص المرض فقال ان له ، عدا الظروف المادية المؤسفة التي عاش فيها المريض خلال الاشهر الاخيرة ، ان له عدا تلك الظروف اسباباً سيكولوجية ، « فهو ثمرة عوامل كثيرة معقدة ، منها عوامل نفسيه ، كالهجوم والخاوف وبعض الافكار ، الخ » . واذا لاحظ ان افدوتيا رومانوفنا تصنى اليه باتباه شديد جدا ، افاض في شرح رأيه مجاملاً . حتى اذا سأله بولشيريا ألكسندروفنا بصوت قلق خجول عما اذا كان هنالك شيء من « أعراض جنون ٠٠٠ » ، أجابها وهو يتسم ابتسامة هادئة صريحة بأن أقواله قد بولغ في تفسيرها ؛ فلو كان صحيحاً أنه لاحظ لدى المريض ميلاً الى مرض الفكرة الثابتة ، لئن لاحظ لديه علامات مرض الفكرة الوحيدة - لا سيما وأنه ، هو زوسيموف ، عاكف الآن على دراسة هذا الفرع الهام من فروع الطب - فان علينا أن نتذكر أيضاً أن المريض كان يهذى حتى هذا اليوم ، أو حتى هذا اليوم تقريباً فينبغي اذن ٠٠٠ » ؛ وأضاف زوسيموف يقول : « ولا شك أن وصول اسرته سيحسن اليه كثيراً ، وسيسرّني عنه ، أي سيساعد على شفائه » ، هذا اذا أمكن (وأضاف ذلك بلهجة رزينة) أن « يجنب صدمات جديدة » . قال زوسيموف ذلك ثم نهض ، فجاءت حجة هي مزيج من جد ومودة ، وخرج تغمره عبارات الامتنان والدعاء من بولشيريا الكسندروفنا . حتى ان يد افدوتيا رومانوفنا ، الصغيرة ، قد امتدت اليه من تلقاء نفسها ، فصافحها ، وخرج مفتوناً بهذه الزيارة ، ومفتوناً بنفسه أكثر من ذلك أيضاً .

قال رازوموخين يختم الزيارة وهو يخرج مع زوسيموف :

- سنتحدث غداً . أما الآن فيجب أن تناما ، يجب أن تناما حالاً .

سأجيئكما غداً في أول ساعة ، لأبشكما بكل شيء .

قال زوسيموف بحرارة حين صارا في الشارع :

— فتاة فتاة ، آفدوتيا رومانوفنا هذه !

زأر رازوميخين يقول :

— فتاة ؟ تقول فتاة ؟

وهجم عليه فجأة ، فأمسك بخنقه ، وتابع كلامه وهو يهزه من ياقته ويضنطه على حائط :

— اذا تجرأت في ذات يوم ٠٠٠ هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ هل تسمع ؟

فقال زوسيموف متخبطاً :

— دعني يا سكّير !

فلما تركه حدثّ الى رازوميخين بنظرة ثابتة ثم انفجر يضحك في قهقهة شديدة . كان رازوميخين واقفاً أمامه ، مترجّح الذراعين ، غارقاً في تأملات سوداء خطيرة .

قال رازوميخين مظلم الوجه مرعباً الأسارير :

— أنا حمار طبعاً ، ولكن أنت أيضاً ، أنت أيضاً ٠٠٠

— لا يا صاحبي . شأني أنا شأن آخر . أنا لا أفكر في سخافات .

وأخذ يسيران دون أن يتبادلا كلمة واحدة ؛ وكان يبدو على رازوميخين أنه مهموم جداً . فلما وصلا الى قرب عمارة راسكولنيكوف قطع رازوميخين الصمت فقال :

— اسمع يا زوسيموف . أنت فتى رائع ، ولكنك بالإضافة الى جميع عيوبك السيئة ، تمتاز بأنك زير نساء ، وبأنك من أكثر أمثالك خلاعة ،

بل أنت نجس الى أبعد حدود النجاسة • أنت ترقه نفسك ، وتسمن جسمك ، ولا تتورع عن شيء ، لذلك أقول انك نجس ، فهذا انما يصبح المرء نجساً • وقد بلغت من الرخاوة حداً لا أستطيع معه أن أفهم كيف أمكنك أن تكون رغم هذا طيباً بارعاً ، بل طيباً مخلصاً متقانياً • أنت تنام على فراش من ريش (طيب ينام على فراش من ريش !) ثم تنهض في الليل مسرعاً لتعود مريضاً من المرضي ! أحسب أنك بعد ثلاث سنين لن ترضى أن تنهض في سبيل مريض • على أن المسألة ليست هذه ! اليك المسألة : ستبيت هذه الليلة في شقة صاحبة البيت (لقد استطعت أن أقنعها بذلك بعد لأي) ، وسأبيت أنا في المطبخ • هذه فرصة لك من أجل أن تتعرف اليها ••• ولكنها يا صاحبي ليست ماطظن • ليس ههنا ظل من •••

- ولكنني لا أظن شيئاً البتة !

- ههنا يا صاحبي خفر وحياء وخجل وعفة لا تقالب • وههنا بالاضافة الى ذلك تنهدات وذوبان كذوبان الشموع ، نعم ذوبان كذوبان الشموع ! خلصني منها ناشدتك بجميع شياطين الأرض ! وهي باشة الى أبعد حدود البشاشة ••• سأعرف كيف أشكر لك هذا الصنيع ، أحلف لأعرفن كيف أشكر لك هذا الصنيع !

أخذ زوسيموف يضحك مزيداً من الضحك ؟ ثم قال :

- ولكن ما عساني صانعاً بها ؟

- أوكد لك أن هذا لن يتعبك كثيراً • ستجلس على سريرها ، فتقول لها أي شيء يخطر ببالك • نعم ، لن يكون عليك الا أن تجلس وأن تتحدث • صف لها دواء من الأدوية ما دمت طيباً • ولن تقدم على أنك فعلت ذلك • أحلف لك ! ثم ان عندها بيانو من طراز قديم •

أنت تعلم أنتى أعزف على البيانو قليلاً ... وهناك أغنية روسية عاطفية
تقول : • بدموعى السخينة ، سأسقى ... • • • • • هى تعبد الأغاني العاطفية
عبادة ، وبهذا انما بدأنا • واذ أنك عازف ماهر ، اذ أنك استاذ فى
العزف ، اذ أنك موسيقى مثل روبشتاين * ... أحلف لك لن تندم !
- أترك بذلت لها وعوداً ؟ تمهداً خطياً مثلاً ؟ أملك وعدتها بأن
تزوجها ؟

- لا ، لا ، لا شئ من هذا البتة ! انها ليست ما تظن • لقد حاول
تشيباروف ...

- ما عليك اذن الا أن تتركها !

- ولكن هذا مستحيل •

- لماذا ؟

- لا شئ الا لأنه مستحيل • هذا هو الأمر • أنا أشعر بارتباط
... فهمت ؟

- ولكن لماذا حاولت اغرامها ؟

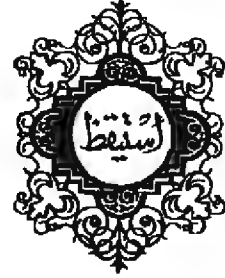
- أنا لم أحاول اغرامها البتة • لعلنى أنا الذى أغريت ، بسبب
غباوتى • ويستوى عندها أن أكون أنا أو أن تكون أنت • كل ما يهمها
أن يجلس الى جانبها رجل يتهد لها • هى يا صاحبنى ... لا ادرى
كيف أعبر لك • أنت تجيد علم الرياضيات ، أليس كذلك ؟ حدثها
اذن عن حساب التكامل • يميناً اننى لا أمزح • أحلف لك انها لا تكثر
بالأمر • سوف يكفيها أن تنظر اليك طوال السنة وأن تتهد • انا مثلاً
لبت يومين على الأقل أحدثها ، عن مجلس النواب الروسى ، حديثاً
طويلاً جداً ، اذ كان لا بد أن أن أحدثها عن شئ ما ! فكانت لا تزيد

على أن تنهد وأن تنوب • ولكن حذار أن تكلمها في الحب ، فلو كلمتها
في الحب لأمكن من شدة حياتها أن تصاب بنوبة تشنج • المهم أن تجعلها
تعتقد بأنك لا تقوى على تركها • سيكفيك هذا • وستكون عندئذ كأنك
في بيتك : اقرأ ، اضطلع ، اكتب • بل في وسعك أن تجازف فتقبلها •
ولكن امض الى هذا بحكمة وحذر ! •••

— ولكن ما حاجتى الى هذا كله ؟

— لا أدري كيف أشرح لك • اسمع : ان كلاً منكما قد خلق
للآخر • حتى لقد فكّرت فيك من قبل • وما دمت مستتعي الى هذه
النهاية أخيراً ، فسيأتى أن يتم هذا متقدماً بعض التقدم أو متأخراً بعض
التأخر • وهنا يا عزيزى يتحقق مبدأ فراش الريش ، بل تتحقق أشياء
أخرى كثيرة أيضاً • هنا خاتمة المطاف ، هنا المرساة ، هنا المرفأ الهادئ ،
الآمن ، هنا سرّة الأرض ، هنا أسس الكون نفسها : الفطائر الطيبة ،
القبرّة المقلية ، سماور المساء ، التهديدات الهادئة ، الماء العالى ! نعم ،
ستكون كاليت ، وفي الوقت نفسه ستكون حياً : ترمى طائرین بحجر
واحد ! آه ! أصبحت أقول سخفاً • آن أو ان النوم • اسمع : يتفق لى
أحياناً أن استيقظ في الليل ؟ فإذا استيقظت هذه الليلة فسأذهب ارى
كيف حال روديون • فلا تقلق كثيراً اذا أنت سمعت وقع أقدامى
صاعداً اليه • ولكن اذا حدثك قلبك بشيء فاذهب اليه مرة • فاذا لاحظت
شيئاً غير مألوف ، كهذيان أو حمى ، فأيقظنى • على أن هذا ضعيف
الاحتمال •••

الفصل الثاني



رازوميخين في الغد بعد الساعة السابعة
بقليل ، مشغول البال مهموماً . ان أموراً كثيرة
داعية الى القلق قد حاجته في ذلك الصباح ولم
يكن قد تنبأ بها . ولم يكن قد تخيل في حياته

أنه يمكن أن يستيقظ يوماً على هذه الحال . تذكر حوادث الأمس بجميع
تفاصيلها ، وأدرك أنه قد وقع له شيء خارق تماماً ، وأنه أحس عاطفة
كان يجهلها كل الجاهل حتى ذلك الحين ، عاطفة لا تشبه العواطف التي
سبق أن أحس بها قبل ذلك في شيء . لكنه أدرك في الوقت نفسه
ادراكاً واضحاً أن الحلم الذي نشأ في دماغه حلم مستحيل التحقق ، حلم
يلغ من استحالة التحقق أنه شعر منه بالحزى والعار ، فأسرع يتنقل
الى هموم أخرى محسوسة مباشرة من الهموم التي أورثه اياها ذلك
اليوم المشؤم .

والشيء الذي آله تذكره أكثر من أي شيء آخر هو أنه تصرف
تصرف انسان « دنيء خسيس » ، لا لأنه قد مكر فحسب ، بل ايضاً
لأنه كان غيباً أحقق فشراً بغيره بلهاء فأخذ يذمُّ للفتاة خطيئها ، دون أن
يعرف ما بينهما من علاقات على وجه الدقة ، بل ودون أن يعرف ماهو
هذا الرجل على وجه التحديد . ثم أي حق له في أن يحكم عليه بمثل
هذه السرعة وبمثل هذه الحفة وهذا الطيش ؟ من ذا الذي نصبه قاضياً؟
وهل يمكن أن تهبل انسانة مثل آفدوتيا رومانوفنا أن تباع نفسها بالمال

لرجل تافه حقير ؟ فلا بد اذن أنه يملك بعض المزايا ... اما هذه العرفة
المفروشة التي استأجرها لهما فكيف كان يمكنه أن يعرف ما هي ؟ اقليس
يهيئ لهما شقة مناسبة ؟ آه ... ما أدنا هذا كله في نظر رازوميخين
الآن ! هل يبرر سكره ذلك السلوك ؟ يا له من عذر ! ألا أن سكره
ذاك ليلطخه بمزيد من العار ! « الحمرة تكشف عن حقيقة الرجل » ،
ولقد انكشفت الحقيقة كاملة * . « ان قذارة قلبه الحسود الطماع » قد
ظهرت واضحة للعيان * ثم هل يجوز له أن يراوده ، هو رازوميخين ،
حلم كهذا الحلم ، على أى نحو من الأنحاء ؟ ما قيمته بالقياس الى هذه
الفتاة ، هو السكّير العريد ، المتشدد المهدار ؟ بل « كيف يمكن ان
تُعقد بينه وبينها مقارنة تبلغ هذا المبلغ من السخف والاستهتار ؟ » .
كذلك تساءل رازوميخين فاذا هو يحمر خجلاً ، ويشعر بكرب شديد ،
ثم اذا هو يتذكر تذكراً واضحاً جداً ، على حين فجأة ، بما يشبه العمد ،
أنه قال بالأمس ، على السلم ، ان صاحبة البيت ستغار عليه من
آفدوتيا رومانوفنا ، فوقت هذه الفكرة من نفسه موقعاً لا يطاق
ولا يحتمل ، فاذا هو يضرب المدفأة بقبضة يده ضربة استجمع لهما كل
ما يملك من قوة ، فجُرحت يده وكُسرت آجرة .

دمدم يقول بينه وبين نفسه ، بعد دقيقة ، وهو يحس بشعور
عميق من المذلة : « لا شك أنه لا يمكن محو أو اصلاح جميع هذه
الحقارات التي ارتكبتها ، لا الآن ولا في أى يوم من الأيام . فلا فائدة من
التفكير فيها اذن ، وانما الأفضل أن أذهب اليهما دون أن أقول شيئاً ،
وأن أقوم بواجباتي دون أن أقول شيئاً كذلك ... دون أن استغفر ..
دون أن أقول شيئاً البتة ... فقد ضاع كل شيء منذ الآن طبعاً ! ... »
ومع ذلك عنى رازوميخين بهتداه أثناء ارتداء ملابسه أكثر مما
ألف أن يعنى به قبل ذلك اليوم . لم يكن يملك الا بدلة واحدة . ولكن

هبة كان يملك بدلةً أخرى فلعله ما كان ليرتديها • قال يحدث نفسه :
« لو كنت أملك بدلةً أخرى لتعمدت أن لا أرتديها » • على أنه
لا يستطيع أن يستخف ويستهنر ، فيذهب اليهما ومخ الثياب مشعث
المظهر • فليس من حقه أن يهين مشاعر الآخرين ، لا سيما وأن هؤلاء
الآخرين محتاجون إليه ، وأنهم هم الذين يطلبونه • لذلك حرص
رازوميخين على أن ينظف ملابسه بالفرشاة تنظيفاً عُنَى به عناية خاصة •
أما قميصه فقد كان نظيفاً • والحق أن رازوميخين كان من هذه الناحية
شديد العناية دائماً •

وقد اهتم في ذلك الصباح بزيئته اهتماماً دقيقاً • وجد قطعةً من
الصابون عند ناستاسيا ، فغسل شعره ورقبته ، وغسل يديه خاصة • أما
سؤاله أيخلق ذقنه أم لا (ولقد كان لدى براسكوفيا بافلوفنا أمواس ممتازة
بقيت لها من زوجها المتوفى السيد زارتمسين) ، فقد أجاب عنه بالنفي ،
حتى لقد ثارت ثائرتة حينذاك ، فقال : « لتبقى لحييتي كما هي ! والا ظننا
أنني خلقت في سبيل أن ... » نعم ذلك ما مستظنانه ! اذن لن أخلق بحال
من الأحوال ! » •

وتابع يقول لنفسه : « ثم انني قدر أشد القذارة ، فظ أبلغ الفظاظه ،
قليل الأدب الى أبعد حد ... وهبني رجلاً شريفاً (ذلك أنني اعرف
نفسى وأعرف أنني رجل شريف) ، فهل لي أن اعتر وأن افتخر بأنني
رجل شريف • المفروض في كل انسان أن يكون شريفاً ، بل وأن يكون
أكثر من ذلك • ثم ان لي (أنا أتذكر هذا جيداً) سقطات صغيرة ان لم
تكن غير شريفة ، فلا يمكن أن توصف على وجه الدقة بأنها ... هذا عدا
الأفكار التي تساورني في بعض الأحيان ... فكيف أطعم في أن اوازن
بينى وأفدوتيا رومانوفنا ؟ على كل حال ، فليذهب هذا كله الى

الشیطان ! نعم ، سأبقى كما أنا عن عمد ! سأظل وغداً ، خنزيراً ، عابثاً
... ولا أكثر . سأبقى على هذه الحال ، وسأزيد ... » .

وبینما كان رازومیخین یحاور نفسه هذا الحوار ، جاءه زوسیموف
الذى بات ليلته فى صالون براسكوفيا بافلوفنا .

كان زوسیموف یتهماً للعودة الى بيته ، فأراد قبل انصرافه أن یلقى
نظرة على المريض . فأبلغه رازومیخین أن المريض نائم نوماً عميقاً . فأمر
بأن لا یوقف ، ووعد بأن یعود فى نحو الساعة الحادية عشرة . ولكنه
أضاف یقول :

— هذا اذا وجدته فى غرفته ! ما أصعب أن یعالج الطيب مريضاً
وهو لا سلطة له علیه . قل لى : هل « هو » الذى سیذهب اليهما ؟ أم
« هما » اللتان ستجیان اليه ؟

أجاب رازومیخین وقد فهم معنى السؤال :

— أظن أنهما هما اللتان ستجیان . وأغلب الظن أنهما ستحدثانه
فى شئونهم العائلية . لذلك سوف أتركهم وأخرج . أما أنت فانك
بصفتك طبيباً تملك حقوقاً أكثر .

— ما أنا بكاهن یسمع اعترافات . سوف أجيء ثم ما ألبث أن
أخرج . ان أعمالاً كثيرة تنادینى ...

قاطعه رازومیخین یقول وقد اربد وجهه :

— هناك شيء یقلقنى : أمس مساءً ، أثناء سكرى ، افلتت من
لسانى ، وأنا أعود به الى البيت ، حماقات سخيفة . من ذلك خاصة أنني
قلت له ... انك تخشى أن یكون به جنوح الى الجنون .

— وقد عدت تقول هذا للسيدتين .

— أعرف • هذه بلاهة • اضربنى اذا شئت • ولكن أنت تعتقد حقاً أنه قد يجن ؟

— لا ، لن يجن • ولا تنس أنك أنت الذى وصفته لى بأن فكرة ثابتة تسيطر عليه ، وذلك حين جئت بى اليه • وبالأمس زدنا النار أواراً ، ولا سيما أنت ••• حين رحت تتكلم عن الدهان • يا له من موضوع حديث ، حين يكون هذا كله هو السبب فى فقدانه صوابه !••• اه ••• لو كنت أعلم على وجه الدقة ما قد جرى فى قسم الشرطة فى ذلك اليوم ، لو كنت أعلم أن وغداً هناك قد أهانه مفضحاً عن اشتباهه فيه ، لما سمحت لك بأن تجرى لسانك فى حديث كذلك الحديث • ان المصايين بمرض الفكرة الثابتة يجعلون من الفأرة جبلاً ، ويرون أشياء كبيرة حيث لا يوجد شئ • البتة ! اذا صدقت ذاكرتى ، فإن ما رواه زاميتوف بالأمس قد أوضح نصف المسألة • نعم ، اننى أعرف حالة رجل فى الأربعين من عمره • كان مصاباً بمرض الوسواس ، فلما كان جالساً الى المائدة ، فآخذ طفل فى الثامنة من عمره يستهزئ به ، لم يستطع احتمال سخرياته ، فقتله • ونحن هنا ازاء شاب شقى يرتدى أسعلاً بالية ، ويعانى بداية مرض ، فاذا بشرطى فظ غليظ يهينه موجهاً اليه شبهات كهذه الشبهات ، فعماذا تنتظر أن يحدث ؟ شخص مصاب بالوسواس ، هو الى ذلك على جانب عظيم من كبرياء مسعورة ، أقلل يكون ذلك هو السبب الحقيقى للداء الذى يعانى منه الآن • على كل حال ، لا ضير !••• بالنسبة : ان زاميتوف فتى لطيف حقاً ، ولكن ••• هم ••• لقد أخطأ أمس حين روى ذلك كله ! يا له من ثرثار فظيع !

— ولكن لمن روى ذلك ؟ لك ولى •

— رواه أيضاً لبورفير •

— ما قيمة أن يرويه أيضاً لبورفير ؟

- بالنسبة : هل لك تأثير فيهما ، أقصد في الأم والأخت ! يجب أن تكونا حذرتين معه اليوم •

أجاب رازوميخين قائلاً على مضض :

- سيجرى كل شيء على ما يرام •

- لماذا هو غاضب على لوجين ؟ ما مأخذه عليه ؟ ان هذا الرجل يملك مالاً ، ويبدو أن الفتاة لا تنفر منه • وهما لا تملكان فيجلة ، هه ؟

صرخ رازوميخين يقول مهتاجاً :

- ما شأنك أنت وهذا ؟ أنى لى أنا أعرف هل هما تملكان فيجلة ، أم هما لا تملكان فيجلة ! أسألها ان شئت فتعرف ذلك •

- ما أغباك أحياناً ! واضح أنك ما صحوت من سكرك ! الى اللقاء • واشكر عنى لبراسكوفيا بافلوفنا ضيافتها • لقد حبست نفسها قى غرفتها ، وقلت لهما « صباح الخير » من وراء الباب فلم تجبني • وكانت قد استيقظت فى الساعة السابعة ، وجيء اليها بالسماور فى غرفتها عن طريق الدهليز • ولكننى لم أشرف برؤيتها •

فى الساعة التاسعة تماماً وصل رازوميخين الى منزل باكالايف ؛ فكانت السيدتان تنتظرانه منذ مدة طويلة محمومتين من نفاد الصبر • لقد نهضتا فى الساعة السابعة أو قبل ذلك • فلما دخل عليهما مظلم الوجه كظلام الليل ، حيّاهما بخراقة ، وسرعان ما غضب من خجله هذا غضباً شديداً • ذلك أنه لم يضع فى حسابه ما ستستقبله به بولشيريا الكسندروفنا : لقد هرعت بولشيريا الكسندروفنا اليه ، فأمكست يديه ، وكادت تقبلهما • وألقى نظرة خجلى على آفدوتيا رومانوفنا ، فكان وجهها الذى ينم فى العادة على الكبرياء ، يعبر فى هذه اللحظة عن شكر عميق وصدقة واضحة واحترام كامل ؛ وكان هو لا يتوقع شيئاً من هذا كله ،

بل كان لا ينتظر الا نظرات ساخرة ، واحتقاراً ظاهراً ، فلو استقبلته
فعلاً بنظرات ساخرة واحتقار ظاهر وشتائم متلاحقة لكان وقع ذلك في
نفسه أسهل وأيسر ، ولكانت قدرته على احتماله أعظم وأكبر . لقد شعر
الآن باضطراب كبير وببلبة عظيمة حقاً . ولكن كان هناك موضوع
للحديث من حسن الحظ ، فسرعان ما تشبث به .

حير علمت بولشيريا ألكسندروفنا أن روديا لم يستيقظ بعد ، وان
« كل شيء على ما يرام » ، اظهرت ارتياحاً كبيراً ورضاً عظيماً ، لانها
حقاً « في حاجة الى أن تتحدث مع رازوميخين حديثاً طويلاً قبل ان ترى
ابنها » . وأثير عندئذ موضوع الشاي ، فدُعِيَ رازوميخين الى تناول
الشاي مع السيدتين ، وكانت قد انتظرتاه لهذا . دقت أفدوتيا رومانوفنا
الجرس ، فجاء خادم قدر المظهر رث الثياب ، فأمر باحضار الشاي ،
فأتى بالشاي أخيراً ، ولكن بطريقة تبلغ من القذارة وقلة اللياقة ان
السيدتين صُعقتا خجلاً . وودَّ رازوميخين لو يندد بهذه « الغرفة
المفروشة » ، ولكنه تذكر لوجين فأمسك عن الكلام ، وشعر بحرج ،
وابتهج ابتهاجاً عظيماً حين أخذت بولشيريا ألكسندروفنا تمطره بوابل
من الأسئلة .

ظل يتكلم خلال ثلاثة أرباع الساعة ، فكان يقطع دائماً وتطرح
الأسئلة عليه من جديد . واستطاع مع ذلك أن يروى - بمقدار ما يعرف
- الوقائع الأساسية من حياة روديون رومانوفتش منذ سنة حتى اصابته
بالمرض الذي يعانى منه الآن . لكنه سكنت عن أمور كثيرة كان ينبغي ان
يسكت عنها ، ولا سيما المشهد الذي وقع في قسم الشرطة وجميع النتائج
التي نجمت عنه . وكانت السيدتان تلتهمان أقواله التهاماً . لكنه حين
ظن أنه انتهى من الكلام وأرضى سامعته ، بدا أنه في نظرهما لم يكد
يبدأ الكلام .

قالت بولشيريا الكسندروفنا تسأله متعجلة :

- قل لى ، قل لى ٠٠٠ معذرة ٠٠٠ اننى لا أعرف اسمك
حتى الآن ٠٠٠

- دمترى بروكوفتش ٠

- نعم ، قل لى يا دمترى بروكوفتش : أريد أن أعرف أشياء
كثيرة ، أشياء كثيرة ٠٠٠ كيف هو ٠٠٠ يرى الأمور الآن ٠٠٠ بوجه عام
٠٠٠ أقصد ٠٠٠ هل تفهمنى ؟ رباه ! كيف أعبر ٠٠٠ كيف أقصح
بوضوح ؟ ٠٠٠ أعنى : ماذا يحب ، وماذا لا يحب ؟ اما يزال شديد
الغضب سريع الاحتياج ؟ ما هى رغباته ٠٠٠ و ٠٠٠ و ٠٠٠ كيف أعبر
٠٠٠ ما هى أحلامه ، اذا جاز لى أن ٠٠٠ من ذا يؤثر فيه الآن أكبر
تأثير ؟ الخلاصة ، أود لو ٠٠٠

قالت آندوتيا رومانوفنا :

- ماما ! كيف يمكن الجواب على جميع هذه الأسئلة فى آن واحد؟

- يا رب ! ذلك أننى ، يا دمترى بروكوفتش ، لم أكن اتوقع
أبدأ ، أبدأ ، أن أجده على هذه الحال !

أجاب دمترى بروكوفتش يقول :

- هذا طبيعى جداً ٠ أنا ليس لى أم ، ولكن لى عما يجرى الى هنا
كل سنة ، فكلما جاء صعب عليه أن يتعرفنى حتى من الناحية الجسمية ،
مع أنه رجل ذكى ، عمى هذا وقد افترقتم أتم منذ ثلاث سنين ، فجرى
ماء كثير تحت الجسور خلال هذ السنين الثلاث ٠ ماذا أقول لك ايضاً ؟
اننى أعرف روديون منذ سنة ونصف سنة ٠ فكان منذ عرفته قاتم النفس
متجهم الوجه شديد الكبرياء متعالياً ؛ وهو فى هذه الآونة الأخيرة (ولعل

ذلك يرجع الى عهد أبعد) كثير الشكوك والوساوس أيضاً • هو كريم طيب • وهو لا يحب أن يظهر عواطفه ، ويؤثر أن يرتكب اساءة على ان يفتح قلبه • على أنه في بعض الأحيان يبرأ من الوساس ، فلا يظهر عليه عندئذ الا برودة في العاطفة وفقر في الاحساس حتى ليصل من ذلك الى درجة يفقد معها روح التواصل الانساني ، فكان له طبعين متعارضين يتاويان القلب واحداً بعد آخر • يتفق له أحياناً ان يكون صموتاً الى حد رهيب : فاما أن يزعم أنه ليس في وقته متسع ، واما أن يزعم أن الناس جميعاً يزعمونه ؛ ومع ذلك يظل مستلقياً على سريره لا يعمل شيئاً • وما هو بالساهر ، لا لأنه يفقد روح الفكاهة ، بل لأنه كمن لا يريد أن يتلبث على سفاسف سخيفة وترهات باطلة • انه لا يصغي أبداً الى ما يقال له حتى النهاية • انه لا يهتم أبداً بالأشياء التي يهتم بها الآخرون في لحظة من اللحظات • وهو معتمد بنفسه اعتداداً عظيماً ، ويظهر أن من حقه ان يعتمد بنفسه هذا الاعتداد • ماذا أقول أيضاً ؟... أظن أن وصولكما سيحسن اليه وسيحدث فيه أثراً نافعاً •

هتفت بولشيريا الكسندروفنا تقول وقد أرهقتها أقوال رازوميخين :

— سمع الله منك •

وعزم رازوميخين أمره أخيراً على أن ينظر الى آفدوتيا رومانوفنا بمزيد من الثقة والطمأنينة • كان قد نظر اليها مراراً أثناء الحديث ، ولكنه كان ينظر اليها خلسة ، بسرعة كوميض البرق ، ثم يحول بصره عنها على الفور • وكانت آفدوتيا رومانوفنا تجلس أمام المائدة تارة فتصغي باقترابها ، وتنهض تارة أخرى فتأخذ تمشى على عاديها من ركن الى ركن مصالبة ذراعيها ، كازة شفيتها ، ملقية سؤالاً من حين الى حين ، ولكن دون أن تقطع سيرها ، دون أن تقطع تأملها الذي كان يبدو أنها تتابعه

مستمراً متصلاً • وكان من عادتها أيضاً أن لا تصفى حتى النهاية الى ما يُقال لها • كانت ترتدى فستاناً صغيراً داكن اللون من نسيج خفيف ، وقد عقدت حول عنقها منديلاً أبيض شفافاً • وقد لاحظ رازوميخين رأساً ، من علامات كثيرة ، أن السيدتين في حالة شديدة من الفقر • ولو كانت آفدوتيا رومانوفنا مرتدية ملابس أميرة ، فلعلها كانت لا تثير في نفسه كل هذا الحجل وهذا الوجل ، أما الآن فربما كان السبب في الخوف الذي استقر في قلبه انما يرجع الى أن ملابسها كانت فقيرة الى هذا الحد ، وأنه أدرك كل ما هي فيه من بؤس وحزن ؛ ولذلك أصبح يخشى كل قول من أقوالها ، وكل حركة من حركاتها ، وهذا أمر هو بالنسبة الى رجل ضعيف الثقة بنفسه أصلاً لا بد أن يكون مصدراً جديداً من مصادر الحرج والارتباك •

قالت آفدوتيا رومانوفنا مبتسمة :

— لقد علّمتنا أشياء كثيرة هامة عن طبع أخى ، ولقد تكلمت دون تحيز ما في ذلك شك • وكنت أظن أنك تقف منه موقف المعجب المتحيز •

ثم أضافت تقول حالة مفكّرة :

— يخيل الى أنه لا بد أن يكون في حياته امرأة فعلاً !
— أنا لم أقل هذا • ولكن من الجائز أن تكونى على حق •
غير أن ...

— ماذا ؟

— انه لا يحب أحداً ، ولعله لن يحب أحداً في يوم من الأيام •
كذلك قال رازوميخين قاطعاً جازماً •

- أليكون عاجزاً عن أن يحب ؟

أقلت لسان رازوميخين يقول فجأة دون أن يتوقع هو نفسه ذلك :

- هل تعلمين يا آفدوتيا رومانوفنا أنك تشبهين أخاك شبيها رهيا

فى كل شىء ؟

ثم تذكر ما قاله عن أخيها ، فاحمر وجهه احمراراً شديداً

واضطرب اضطراباً فظيماً . فلم تستطع آفدوتيا رومانوفنا أن تجبس

ابتسامة ساخرة وهى تنظر اليه .

واستأنفت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها وقد استاءت بعض الاستياء

فقالت :

- من الجائز أن يكون رأيكما كليكما فى روديا خطأ . لا أتكلم

الآن عن الحاضر يا دونيتشكا . ان ماكتبه بطرس بتروفتش فى تلك

الرسالة ، وما قد تصورناه أنا وأنت ، قد لا يكون صحيحاً . ولكنك

لا تستطيع أن تخيل يا دمترى بروكوفتش مدى ما يتصف به روديا من

شدة الجموح وقوة النزوات . أنا لم أستطع فى يوم من الأيام أن أركن

الى طبعه ، حتى حين كان فى الخامسة عشرة من عمره . وانى لعلى يقين

من أنه ما يزال حتى هذه الساعة قادراً على ارتكاب أشياء لا تخطر ببال

أى انسان آخر غيره . لا تذهبا بعيداً : هل تعلمان أنه منذ سنة ونصف

سنة قد عذبنى عذاباً شديداً ، وكاد يميتنى غيظاً وقهراً ، حين وضع فى

رأسه أن يتزوج تلك ال . . . ماذا أقول ؟ تلك ال . . . أقصد بنت

زارتسينا هذه ، صاحبة البيت الذى يسكن فيه ؟

اتجهت آفدوتيا رومانوفنا الى رازوميخين فسأته :

- هل تعرف تفاصيل عن هذا الأمر ؟

وتابعت بولشيريا ألكسندروفنا كلامها فقالت بحرارة :

— هل تحسب أن دموعى وضراعتى وشقاءنا ومرضى وموتى ، هل
تحسب أن هذا كله كان يمكن أن يصد عنه تحقيق ما قام فى رأسه ؟
لا ... كان سيجتاز جميع العقبات هادئاً كل الهدوء • ماذا ؟ هل من
الممكن حقاً أنه لا يحينا ؟

أجاب رازوميخين بتعقل وحذر :

— انه لم يقل لى كلمة واحدة عن هذا الأمر • ولكننى عرفت
شذرات من السيدة زارتسينا نفسها ، مع أنها ليست كثيرة الكلام هى
أيضاً • والحق أن ما عرفته غريب بعض الغرابة •

قالت المرأتان كلتاها تسألانه :

— ما الذى عرفته ؟

— لم أعرف أشياء كثيرة • كل ما علمته أن هذا الزواج الذى كان
مقرراً ومبتوتاً فيه ، والذى لم يحل دونه الا موت الخطيبة ، كانت السيدة
زارتسينا مستامةً منه • ويقال عدا ذلك أن الخطيبة لم تكن جميلة ، حتى
لقد كانت توصف بأنها دميمة ... وأنها بالاضافة الى ذلك ممرض ...
وأنها فوق هذا غريبة الأطوار • ولكنهم يضيفون الى هذا أنها كانت
لا تخلو من بعض المزايا • فلولا هذه المزايا لكان الأمر عجيبيلاً لا سبيل
الى فهمه البتة • ثم انها لم تكن تملك مهرأ • على أن روديا آخر من
يمكن أن يضيئه أمر المهر • الخلاصة أن الحكم على الموضوع فى ظرف
كذلك الظرف صعب •

قالت آفدوتيا رومانوفنا موجزةً :

— أنا مقتنعة بأنها كانت تملك مزايا كثيرة •

فصبت بولشيريا ألكسندروفنا تختم الحديث قائلة :

- أسأل الله أن يعفو عني ويفر لي • لا أكتكما اننى ابتهجت
لموتها ، رغم أننى لم أعرف فى يوم من الأيام أيهما كان ميسقى الآخر !
ثم أنرت الحذر والكتمان ، فعادت تسأل رازوميخين - وهى تلقى
على دنيا نظرات مختلصة كان واضحاً أن دونيا تستاء منها - عادت تسأل
رازوميين عن المشهد الذى حدث أمس بين روديا ولوجين • لم يكن
خافياً أن هذا الحادث كان يشغل بالها ويقلق نفسها أكثر من أى شئ •
آخر ، حتى ليرعبها ويسبب لها رعدات تسرى فى جسمها • أعاد
رازوميخين رواية القصة تفصيلاً ، ولكنه أضاف إليها فى هذه المرة النتيجة
التي يستخلصها هو ، فانهم راسكولنيكوف ، دون لف ولا دوران ،
بأنه أهان بطرس بتروفتش عن سابق عمد وتصميم ؛ ولم يلح فى هذه
المرة على مرضه الذى ذكر قبل ذلك أنه عند يشفع له • وختم يقول :

- لقد أعدت ذلك حتى قبل أن يمرض •

قالت بولشيريا الكسندروفنا مكروبة مقهورة :

- أظن ذلك أنا أيضاً •

ولكنها شُدهت حين رأت رازوميخين يتكلم فى هذه المرة عن
بطرس بتروفتش بكثير من الاعتدال ، بل وبشئ من الاحترام •

ولم تطق صبراً فقالت تسأله :

- أهذا هو رأيك اذن فى بطرس بتروفتش ؟

فأجاب رازوميخين يقول بحرارة وجزم :

- لا يمكننى أن أرى غير هذا الرأى فى خطيب ابتك ، ولست
أقول هذا من باب التأدب والمجاملة ، وانما أقوله لأن ... لأن ...
أقوله ولو لهذا السبب البسيط : وهو أن آفدوتيا رومانوفنا نفسها هى التي

أرادت راضية أن تولى هذا الرجل شرف اختياره زوجاً لها • ولئن
ذممته ذلك الذمّ كله بالأمس ، فلأننى كنت بالأمس سكران •••
سكران سكرًا مفرّجًا ، ولأننى عدا ذلك ••• كنت قد فقدت عقلى •••
لأننى جتنت ••• جتنت تمامًا • أما اليوم فأنا أشعر من ذلك بخزى وعار •
قال رازوميخين ذلك ، واحرّ وصمت • واحرّت آفدوتيا رومانوفنا،
ولكنها لم تقطع الصمت • انها لم تبس بكلمة واحدة منذ دار الحديث
على لوجين •

ومع ذلك ظلت بولشيريا ألكسندروفنا مرتبكة ارتباكًا واضحًا لأن
ابنتها لا تساعد • ثم اعترفت مترددة وهى تلتفت فى كل لحظة صوب
ابنتها ، بأن هناك ظرفًا يقلقها الآن اقلاقًا شديدًا •
بدأت تتكلم فقالت :

— الحق يا دمترى بروكوفتش •••

ثم اتجهت الى ابنتها فقالت تسألها :

— سأكون صريحة كل الصراحة مع دمترى براكوفتش يادوينتشكا،
أليس كذلك ؟

فأجابتها آفدوتيا رومانوفنا تقول باقتناع :

— طبعًا يا ماما •

فلما أذن لها بأن تبوح بحزنها أحست بأن جيبلاً قد أزيح عن
صدرها فأسرعت تقول :

— اليك الأمر : اليوم ، فى ساعة مبكرة من هذا الصباح ، وصلتنا

بطاقة من بطرس بتروفتش رداً على الرسالة التى أنبأناه فيها بوصولنا •
كان ينبغى له طبعاً أن يجرى الى المحطة لاستقبالنا كما كان وعدنا بذلك •
ولكننا ، فى المحطة ، لم نجده هو بل وجدناه خادماً قادنا الى هذه الغرفة

المفروشة التي كان معه عنوانها • وأبلغنا الخادم أن بطرس بتروفتش سيجيء إلينا اليوم في الصباح • ولكن بطرس بتروفتش لم يجيء وإنما بعث إلينا بهذه البطاقة • الأفضل أن تقرأها بنفسك ، لأن هناك نقطة تقلقني كثيراً • سرعان ما مسترى ما هي هذه النقطة ، فتقول لي رأيك صريحاً يا دمترى بروكوفتش • انك تعرف طبع روديا أكثر مما يعرفه أي إنسان آخر ، فسوف تستطيع اذن أكثر مما يستطيع أي إنسان آخر أن تسدي إلينا بنصيحتك • واني لألفت نظرك إلى أن دونيا قد اتخذت قرارها منذ اللحظة الأولى ، أما أنا فما زلت حائرة لا أدري ما الذي يجب فعله ... وكنت أنتظرك •

فصّر رازوميشين البطاقة التي تحمل تاريخ اليوم الماضي ، وقرأ ما يلي :

« السيدة العزيزة بولشيريا ألكسندروفنا ، يشرفني أن أعلمك أنني بسبب موانع لم أكن أتوقعها لم أستطع أن أنتظركم على رصيف المحطة ، فأرسلت إليكم رجلاً بارعاً قد تحتاجون إلى مساعدته • وكذلك سأحرم نفسي ، في صباح الغد ، من التشرف بزيارتكم ، بسبب بعض الأعمال التي تستدعي ذهابي إلى مجلس الشيوخ ، ولأنني أريد أيضاً أن لا أزعج اجتماعكم العائلي ، اعني لقاء الأول بابنك ولقاء آفدوتيا الكسندروفنا بأخيها • فلن يتاح لي إذن شرف لقاءكم وتقديم احترامى لكم في مسكنكم إلا مساء غد في الساعة الثامنة تماماً • واني أسمع لنفسى بأن أضيف إلى هذا رجاءً ملحاً ، فأطلب إليكم أن تدبروا الأمر بحيث تعفوني من حضور روديون رومانوفتش اجتماعنا ، لأنه أهانتى أمس بفظاظة لا مثيل لها حين زرتة أثناء مرضه ، ولأنني أريد أن أكلمكم على أفراد في أمر أحب أن أعرف تفسيركم له ورأيكم فيه • ويشرفني أن ألفت نظركم إلى أنني سأضطر إلى الانسحاب فوراً إذا أنا لقيت عندكم روديون رومانوفتش

رغم طلبى هذا ، ولن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً الا أنفسكم . وانما
أكتب هذا لأننى أتبأ بأن روديون رومانوفتش الذى كان يبدو مريضاً
حينما زرتة ثم استرد صحته فجأةً بعد ذلك بساعتين قد يجىء اليكم
ما دام يخرج الآن . ان ما أقوله قد رأيته بعينى رأسى فى بيت رجل
سكّير داسته خيول فهشمته فمات . وقد أعطى روديون رومانوفتش ابنة
ذلك السكير ، وهى بنت معروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس ، أعطاهما
خمس وعشرين روبلاً بحجة دفع نفقات الجنازة ، فأدهشنى ذلك أشد
الدهشة ، أنا الذى أعرف الجهود التى بذلتوها فى سبيل جمع ذلك
المبلغ . اختم رسالتى هذه راجياً أن تنقل الى آفدوتيا رومانوفنا المحترمة
أبلغ اعتبارى ، وأن تنفضلى بقبول أسمى مشاعر الاحترام والاخلاص من
خادمك المطيع :

« ب . لوجين »

قالت بولشيريا الكسندروفنا وهى توشك أن تيكى :

— فما الذى يجب أن أعمله الآن يا دمتري بروكوفتش ؟ كيف
يمكننى أن أطلب من روديا أن لا يجىء ؟ لقد كان يطالب أمس مطالبة
صارمة بطرد بطرس بتروفتش ، فاذا بالآية تنقلب الآن ، فيكون هو الذى
لا يجوز استقباله ! ولكنه سيجىء عامداً متى عرف ، فما عسى يحدث
حينذاك ؟

قال رازوميخين فوراً بهدوء :

— افعلى ما قررتة آفدوتيا رومانوفنا .

— آه رياه ! هى تقول هى تقول الله يعلم ماذا
تقول وهى لا تشرح الأسباب التى تدفعها الى قول ما تقول ! هى
تقول ان من الأفضل ، بل ان من المحتم قطعاً ، أن يجىء روديا هذا

المساء ، فى الساعة الثامنة ، وأن يلتقيا • أما أنا فكنت أريد حتى أن لا أطلع على هذه الرسالة ، وكنت أوتر أن أعمد الى الحيلة بواسطتك ، لأمنعه من المجيء ، لأنه ••• سريع الاحتياج جداً ! ثم ان هناك أمراً لا أفهمه : من هو ذلك السكير الذى داسته الليل فعات ، ومن هى تلك البنت ، وكيف أمكنه أن يعطى تلك البنت آخر ما بقى له من المال الذى •••

– الذى لقيت ذلك الغناء كله فى الحصول عليه •

كذلك أضافت آفدوتيا رومانوفنا •

قال رازومخين شارد الفكر :

– لم يكن أفس فى حالة طبيعية • لو عرفت كيف تصرف أفس فى حانة من الحانات ! ••• هم ••• على كل حال ، لقد حدثنى بالأمس فعلاً ، حين كنت أقوده الى بيته ، عن موظف مات ، وحدثنى كذلك عن فتاة ما ، لكنى لم أفهم من كلامه شيئاً • ثم اننى أنا نفسى ، بالأمس ، قد •••

– الأفضل يا ماما أن نذهب نحن اليه • أؤكد لك أننا بذلك سنرى ماذا بقى علينا أن نفعل • وقد آن لنا أن نذهب على كل حال • رباه ! هى الساعة العاشرة ونيف •

كذلك صاحت آفدوتيا رومانوفنا وهى تلقى نظرة على الساعة الذهبية الرائعة ، المرصعة بالميناء ، التى كانت تحملها معلقة فى عنقها بسلسلة من صنع البندقية ، والتى تتناثر تنافراً عجبياً مع جملة زينتها • قال رازومخين لنفسه : « هذه هدية الخطوبة ! » •

قالت بولشيريا ألكسندروفنا وقد طاش صوابها :

– آ آ آ .. آ آ الأوان ! اذا لم نذهب اليه ، فقد يظن أننا ما زلنا
غاضبين بسبب ما حدث أمس . آ آ آ .. يا رب !

قالت ذلك واسرعت ترمى على كتفيها خماراً أسود ، وتضع قبعتها
على رأسها . وارتدت دونيتسكا ثيابها أيضاً . ان قفازيها ليسا مهترئين
جداً فحسب ، بل هما مثقبان أيضاً . ولم يفت رازوميخين ذلك . على أن
هذا الفقر الظاهر في ملابس السيدتين كان يضيف عليهما وقاراً خاصاً ،
وهذا ما يحدث عادةً لأولئك الذين يعرفون كيف يرتدون ملابس
فقيرة .

كان رازوميخين ينظر الى الفتاة باحترام وتقديس ، ويشعر باعتزاز
وافتنخار حين يتصور أنه سيصبحها . كان يقول لنفسه : « ان تلك
الملكة * التي كانت ترقع جوربها في سجنها لا بد أنها كانت أثناء ذلك
أعظم جلالاً وأكبر مهابة منها في أعظم الأعياد وأروع الاحتفالات ! » .
وهتفت بواشيريا ألكسندروفنا تقول :

– رباه ! هل كان في وسعي أن أصدق يوماً أنني سوف أهاب ،
كما أهاب الآن ، لقاءً مع ابني ، مع عزيزي ، مع روديا ؟

ثم أضافت تقول وهي تلقى على رازومين نظرة خجلى :
– أنا خائفة يا دمتري بروكوفتش .

قالت دونيا وهي تقبلها :

– لا تخافى شيئاً يا ماما ، بل ثقى به . أما أنا فواثقة .

صاحت المرأة المسكينة تقول :

– آ آ آ .. يا رب ! أنا أيضاً واثقة ! ومع ذلك لم أنم طوال

الليل !

وخرجوا الى الشارع •

— هل تعلمين يا دونيتشكا ؟ اننى ما ان غفوت فليلاً عند طلوع الصبح حتى حلمت فجأة بتلك المسكينة مارتا بتروفنا ... كانت تلبس ثياباً بيضاء ... واقتربت منى ... وأمسكت يدي ... وكانت تهز رأسها وهى تنظر اليه نظرة قاسية ، قاسية جداً ، كأنها تلومنى على شئ ما ... أهذه علامة حسنة ؟ آه ... يا رب ! انك يا دمتري كروكوفتش لا تعلم ، بعد ، أن مارتا بتروفنا قد ماتت •

— لا ، لا أعلم • ولكن من هى مارتا بتروفنا هذه ؟

— ماتت فجأة ... تصور أنها ...

تدخلت دونيا تقول لأمها :

— ستقولين له هذا فيما بعد يا ماما • هو لا يعرف من هى مارتا بتروفنا هذه •

— صحيح ؟ لا تعلم ؟ كنت أظن أنك على اطلاع ... اغفر لى يا دمتري بروكوفتش ... أصبحت لا أعرف أين رأسى فى هذه الأيام الأخيرة • حقاً اننى أعدك معيناً أرسلته العناية الالهية ، لذلك كنت أحسبك مطلعاً على كل شئ • اننى أعدك واحداً من أسرتنا لا نؤاخذنى اذا أنا كلمتك بهذه الطريقة ! آه .. رباه ! ماذا أصاب يدك اليمنى ؟ أهى مجروحة ؟

دمدم رازوميتشين يقول سعيداً كل السعادة :

— نعم ، مجروحة •

— اننى أسرف فى الصراحة أحياناً ، فقرعنى دونيا ... ولكن .. رباه ! ما هذا البيت الفقير الذى يقيم فيه ؟ ترى هل استيقظ من نومه ؟ وتلك المرأة ، صاحبة البيت ، كيف تسمى هذا الحجر غرفة ؟ اسمع ،

أنت تقول انه لا يجب أن يتكلم عما يعتلج في قلبه ، فلا شك اذن اننى سأزعجه وأضجّره بهواطفى وضعفى ! ألا تستطيع أن تهدئنى يا دمترى بروكوفتش الى الطريقة التى يمكننى أن أعمد اليها فى معاملته ! لقد طاش صوابى تماماً

— لا تلقى عليه أسئلة كثيرة ، اذا رأيته يعبس أو يتجهّم •
ولا تسأله عن صحته خاصة ، فانه لا يحب هذا •

— آه يا دمترى بروكوفتش ، ما أصعب الأمومة ! وانظر الى هذا السلم ! يا له من سلم فظيح !

قالت دونيا ملاطفة :

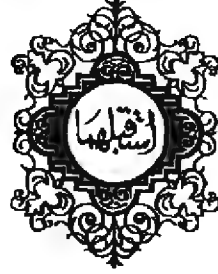
— ماما ، انك شاحبة الوجه جداً ، هدئي روعك يا يمامتى ! لا شك أنه سعيد بلقائنا ، فلماذا تعذبن نفسك هذا التعذيب ؟

هذا ما أضافته وقد سطعت عيناها •

— انتظرا ، سأرى أولاً هل استيقظ من نومه •

باطأت السيدتان خطاهما ، وقدّمهما رازوميخين على السلم •
فلما وصلتا الى الطابق الثالث لاحظتا أن باب صاحبة البيت مشقوق قليلاً ، ورأتا فى الظلام عينين سوداوين حادتين جداً كاتتا ترقبانهما • فلما التقت النظرات أغلق الباب بشدة ، ففرقع قرقة بلغت من القوة أن بولشيريا ألكسندروفنا أوشكت أن تصرخ ربّاً •

الفصل الثالث



زوسيموف قائلاً في فرح : « هو بخير ، هو بخير » • ان زوسيموف يعود راسكولنيكوف منذ نحو عشر دقائق ، وقد جلس في ذلك المكان نفسه الذي جلس فيه بالأمس ، على ركن من الديوان • وكان راسكولنيكوف يجلس في الركن المقابل ، مرتدياً ثيابه كاملةً ، وقد اعتنى بفصل وجهه وتصفيف شعره ، وذلك أمر لم يقع له منذ مدة طويلة •

امتألت الغرفة دفعةً واحدة ، ولكن ناستاسيا استطاعت مع ذلك أن تسلك وراء الزائرين ، وبقيت تنصت الى الحديث •

كانت صحة راسكولنيكوف قد تحسنت بعض التحسن فعلاً ، ولاسيما اذا قورنت بما كانت عليه أمس • كل ما هنالك أنه الآن شديد الشحوب نثاره الفكر متجههم النفس • فاذا نظرت اليه كنت كمن ينظر الى رجل أصابه جرح بالغ ، أو عانى ألماً جسيماً حاداً • كان مقطّب الحاجبين ، مكزوز اشفتين ، محموم النظرة. وكان لا يتكلم الا قليلاً ، فاذا تكلم تكلم على مضض ، كأنه يقوم بواجب ، وكان في حركاته أحياناً نوع من قلق • ليس ينقصه الا ضماد في الذراع أو عصبة من قماش في الاصبع

حتى يكتمل الشبه بينه وبين رجل أُصيب بداحوس أليم ، أو جرح موجه
أو أى شئ آخر من هذا القيل .

على أن هذا الوجه الشاحب المتجهم بدا أنه يتألق لحظة حين دخلت
الأم والأخت . غير أن ذلك لم يزد على أن يضيف الى الدهول المتجهم
تعبيراً عن ألم مكثف . وسرعان ما انطلق الألق ، وبقي الألم . ولم يفت
زوسيموف الذى كان يراقب مريضه ويدرسه بكل ما يستطيعه من اهتمام
وشغف طبيب في بدايات ممارسته مهنته ، لم يفته أن يلاحظ لدى مريضه ،
بغير قليل من الدهشة ، حين وصلت أسرته ، نوعاً من تصميم أليم خفى ،
يشبه التصميم الذى يقوم فى نفس انسان يرى عذاباً عليه أن يحتمله ،
بدلاً من الفرح الذى ينبغى أن تهيشه له هذه الزيارة فى الأحوال
الطبيعية . وقد استطاع الطبيب أن يلاحظ بعد ذلك أن كل كلمة تقريباً
من الحديث الذى جرى حينذاك كانت كأنها تثير وتنكأ جرحاً لدى
المريض . ولكن الطبيب قد أدهشه فى الوقت نفسه أن يرى أن المريض
كان يسيطر على نفسه بعض السيطرة ، فاستطاع أن يخفى هذه المواقف ،
مع أنه كان بالأمس يثور حنقه عند كل كلمة تُقال ، كمن استبدت به
فكرة وحيدة ثابتة .

قال راسكولنيكوف وهو يقبل أمه وأخته بعاطفة رقيقة وحنان
واضح (وهذا ما ملأ بولشيرييا الكسندروفنا فرحاً) :

... نعم ، ألاحظ أنا نفسى أننى شُفيت .

ثم أضاف يقول مخاطباً رازوميكين وهو يضافه بمودة :

... لا أقول هذا مثلما قلته « أمس » !

سُرَّ زوسيموف كثيراً من وصول الزوار ، لأنه كان قد استنفد
خلال الدقائق العشر التى قضاها مع المريض جميع موضوعات الحديث ،
فبدأ كلامه يقول :

- حتى لقد دُهِشت من رؤيته على هذه الحال اليوم • فاذا استمر هذا التحسن ، فلن تنقضى ثلاثة أيام أو أربعة حتى يعود كما كان تماماً ، أعني كما كان منذ شهر أو شهرين أو ربما ثلاثة •

ثم أضاف الى ذلك مخاطباً راسكولنيكوف وهو يتسم ابتسامة محاذرة ، كأنه يخشى أن يثير غضبه :

- ذلك أن هذا المرض قد بدأ كائناً منذ مدة طويلة ، هه ؟ اعترف أن بعض الذنب فى ذلك يرجع اليك ••

أجاب راسكولنيكوف يقول ببرود :

- جائز جداً •

تابع زوسيموف كلامه فقال متحمساً :

- أقول هذا لأن شفائك الكامل متوقف بعد الآن عليك أنت خاصة • أودُّ أن تقتنع الآن ، بعد أن أصبح الحديث معك ممكناً ، بأن علينا أن نفحص الأسباب الأولى ، الأسباب الأساسية ان صح التعبير ، التى ولدت مرضك ، بغية أن نستطيع ازالة تلك الاسباب • فاذا فعلنا ذلك شفيت ، والا تفاقم مرضك • أنا لا أعرف ما هى تلك الأسباب ، ولكن لا بد أنك تعرفها أنت • فأنت شاب ذكى ، ولا شك أنك لاحظت نفسك • ويخيل الى أن بداية اضطرابك قد جاءت حين تركت الجامعة قريباً • فما ينبغي اذن أن تبقى عاطلاً عن أى عمل يشغلك • أعتقد أن عملاً موجهاً الى غاية محدّدة سيحسن اليك كثيراً •

- نعم نعم • أنت على حق تماماً • سأعيد تسجيلي فى الجامعة •

وعندئذ سيجرى كل شيء ••• على ما يرام •

كان بين أهداف زوسيموف من اسداء نصائحه الحكيمة تلك أن ينال اعجاب السديتين ، لذلك كان طبعاً أن يرتبك بعض الارتباك وأن

يضطرب بعض الاضطراب حين فرغ من القاء خطابه فرفع عينيه نحو راسكولنيكوف فرأى في وجهه سخريةً ظاهرة لا تخفى . على أن ذلك لم يدم الا لحظة . فان بولشيرييا ألكسندروفنا سرعان ما طفقت تفيض في شكر زوسيموف ، وتعبّر له خاصةً عن امتنانها من زيارته لهما في الليلة الماضية .

قال راسكولنيكوف يسألها قلقاً :

– كيف ؟ هل ذهب اليكما ليلاً ؟ اذن لم تناما بعد رحلة متعبة كذلك الرحلة ؟

– في الساعة الثانية كان كل شيء قد انتهى يا روديا . وقد ألقنا ، أنا ودونيا ، في بيتنا ، أن لا ننام قطُّ قبل الساعة الثانية من الصباح .
واصل راسكولنيكوف كلامه فقال وقد أظلم وجهه فجأةً ، وأطرق الى الأرض :

– أنا أيضاً لا أعرف كيف أشكره ...

ثم اتجه يخاطب زوسيموف فقال :

– بصرف النظر عن الناحية المالية – معذرةً اذا أنا أشرت الى هذه الناحية ! – فانتى لا أعرف فعلاً كيف استحققت كل هذه العناية منك .
حقاً انتى لا أفهم ... لذلك كانت هذه العناية تشق على نفسى ... أقول لك هذا بصراحة تامة .

أجابه زوسيموف وهو يحمل نفسه على الضحك حملاً :

– لا تثورنْ أعصابك يا صاحبي . افرض أنك أول زبائنى . ان الطبيب يدلل دائماً زبائنه الأول ، حتى لقد يُشغف بعضهم . وأنت تعلم أن زبائنى ليسوا كُثراً حتى الآن .

أضاف راسكولنيكوف يقول وهو يومئ الى رازومихين :

- ناهيك عن هذا ... الذى لم ينل منى الا أنواع التصديق
وضروب الاهانة *

هتف رازوميخين قائلاً :

- أمخافات جديدة ؟ هأنت ذا قد أصبحت « عاطفياً » !
ألا انه لو كان يملك مزيداً من نفاذ البصيرة للاحظ أن الأمر ليس
أمر « عاطفية » ، بل شيء آخر هو نقيض العاطفية تماماً . وقد لاحظت
أفدوتيا رومانوفنا ذلك . وكانت تراقب أخاها فى قلق .
وتابع راسكولنيكوف كلامه كمن يتلو درساً حفظه فى هذا الصباح
نفسه فقال :

- أما عنك أنت يا أماء فلا أكاد أجرو أن أتكلم . انتهى لم أدرك
الا اليوم مدى العذاب الذى لا بد أنك عانيتيه أسس حين كنت
تنتظرينى هنا *

قال ذلك ومدّ يده الى أخته على حين فجأة مبتسماً دون أن يقول
كلمة . ولكن انفعالاً صادقاً يظهر فى ابتسامته هذه المرة . فأسرعت
دونيا تناول اليد الممدودة اليها ، فتصافحها بحرارة ، سعيدة شاكرة .
هذه أول مرة يتجه فيها الى أخته بعد الشقاق الذى وقع بينهما أسس .
وأشرق وجه الأم سعادة حين رأت هذه المصالحة الصامتة الحاسمة بين
الأخ وأخته *

همس رازوميخين يقول متحمساً وهو يستدير على كرسیه :

- هذا ما يسجبنى فيه ! ان له دائماً اندفاعات كهذه !

وقالت الأم لنفسها : « وما أجمل الطريقة التى اتبناها ! ما أثبتلها من
بادرة ! ما أحلاها من حركة بسيطة رفيقة مرهفة أنهى بها سوء التفاهم
الذى قام بينه وبين أخته ! لقد كفاه أن يمد اليها يده ، فى هذه اللحظة ،

وهو يرمقها بنظرة فيها رقة ولطف وحنان ... وما أجمل عينيه ! ما أجمل وجهه كله ! ... ألا انه لأجل حتى من دونيتشكا ... ولكن رباه ما هذه الثياب التي يرتديها ! ما أردأ ملابس ! ان الخادم في دكان آتاناىزى ايفانوفتش ، الخادم فاسيا نفسه ، يرتدى ثياباً أحسن من ثيابه ! أواه ... لشد ما أحب أن أرتدى على عنقه فأقبله و ... آخذ أبكى ... لكننى أخاف ، أخاف جداً ! ... انه غريب الأطوار يا رب ! هو يتكلم بركة وحنان ، ومع ذلك أنا خائفة ! عجيب ، ممّ أنا خائفة ؟ ...

استأنفت كلامها فجأة ، اذ عادت تفكر فى ملاحظة ابنها ، فقالت له :
— آه يا روديا ! لا تستطيع أن تتصور مدى ما شعرنا به من شقاء ، أنا ودونيتشكا ، أمس . أما وقد انتهى هذا الآن ، أما وأنه انقضى فأصبحنا سعيدتين من جديد ، فالتنا نستطيع أن نرويه لك . تصور أننا هرعنا الى هنا لقبلك ، منذ نزلنا من القطار ، فقالت لنا تلك المرأة ... هه ... ها هي ذى ... نعمت صباحاً يا ناستاسيا ... نعم ، قالت لنا هذه المرأة ... هكذا فجأة ... انك كنت فى السرير تعاني من حمى حارة ، ثم هربت وأنت تهذى هذياناً شديداً ، دون أن يعرف الطبيب عن ذلك شيئاً ، وأنهم ركضوا يبحثون عنك فى الشارع . لا تستطيع أن تتصور ما أحدثه هذا فينا من أثر ! ... لقد تذكرت أنا على الفور النهاية الفاجعة التى انتهى اليها الليوتان بوتاتشيكوف ، أحد أصحابنا القدماء ، صديق أبك . هل تتذكر يا روديا ؟ — الذى كان مصاباً هو أيضاً بحمى حارة فهرب من البيت مثلك فسقط فى بئر الحوش ، ولم يمكن اخراجه منه الا فى الغد . وقد غلونا طبعاً فى تصور خطورة حالتك . وتمنينا أن نركض نبحث عن بطرس بتروفتش ليساعدنا قليلاً على الأقل ... لأننا كنا وحيدتين ، وحيدتين .

قالت جملتها الأخيرة هذه بصوت فيه شكوى وتوجع . لكنها

أمسكت عن الكلام فجأة ، لأنها تذكرت أن الكلام عن بطرس بتروفتش ما يزال خطراً بعض الشيء ، « رغم أن الجميع قد أصبحوا سعداء من جديد » .

جمعهم راسكولنيكوف يقول مجيئاً :

– نعم نعم ، هنا كله مؤسف طبعاً ...

ولكن هيئة كانت تتم على ذهول وغياب يبلغان من الشدة أن دونيتشكا نظرت إليه مشدوهة .

وتابع يقول وهو يبذل جهداً واضحاً ليستجمع ذكرياته :

– ماذا كنت أريد أن أقول لكما أيضاً ؟ ها ... نعم ... أرجوك يا أمي ، وأرجوك أنت يا دونيتشكا ، أن لا يذهب بكما الظن إلى أنني كنت لا أنوي أن أسبقكما إلى الذهاب اليكما ، وأنتي انتظرت أن تعيئا أتما إلى .

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول مدهوشة هي أيضاً :

– ما هذا الذي تهوله يا روديا ؟

وقالت دونيا لنفسها : « ما باله ؟ أتراه لا يجيئنا إلا من باب القيام بالواجب ؟ انه يصلحنا ويستغفرنا ، ولكن كأنه يقوم بسخرة ثقيلة أو يتلو درساً محفوظاً » .

– لقد أردت منذ صحوته أن أذهب اليكما ، لكن مسألة الثياب أخرتني ... لقد نسيت أمس أن أقول لها ، أعني أن أقول لئاستاسيا أن ... تفصل هذا الدم . ولم أمتطع أن أرتدى ثيابي إلا الآن .

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تسأله وقد ذهب صوابها :

– الدم ؟ أي دم ؟

فأجابها :

— لا تقلقى ، ليس الأمر بذى بال • هذا الدم سييه أنتى ترنحت قليلاً أمس ، بسبب الهذيان ، فاصطدمت برجلٍ كانت قد داسته عربة ... هو موظف ...

قاطعه رازوميخين قائلاً :

— هذيان ؟ ولكن هأنت ذا تتذكر كل نبى !

فأجاب راسكولنيكوف بلهجة تتم على الهم :

— صحيح ... أتذكر كل شىء ، حتى أدق التفاصيل • ولكن لماذا فعلت كيت وكيت ، لماذا ذهبت الى مكان كذا ، لماذا قلت ذلك الشىء فى ذلك المكان ، هنا ما لا أستطيع أن أقسره لنفسى •

تدخل زوسيموف فقال :

— هذه ظاهرة معروفة جداً • رب فعل يقوم به صاحبه على نحو رائع ، ببراعة فائقة وحذق مدهش ، ثم يبقى الباعث عليه والدافع اليه مموّهاً ، لارتباطه بمشاعر مرّضية شتى • فكأن الأمر كله حلم من الأحلام •

قال راسكولنيكوف لنفسه : « انه لحظ موفق أن يعدنى أشبه بمجنون ! » •

قالت دونيا وهى تلقى على زوسيموف نظرة قلقة :

— ولكن ألا يصدق هذا على أناس أصحاء أيضاً ؟

فأجابها زوسيموف قائلاً :

— هذه ملاحظة سديدة جداً ، بمعنى أننا جميعاً على وجه التقريب تشبه المجانين حقاً فى كثير من الأحيان ، مع فرق واحد مع ذلك هو أن « المرضى » مجانين أكثر منا قليلاً ، فمن الضروري أن نميّز ههنا

درجات • أما الانسان « السوى » ، فمن الواجب أن نقول انه لا يكاد له وجود • قد نجد فرداً سوياً ، أو فرداً قريباً من السوى ، بين عشرات الألوف وربما مئات الألوف من الأفراد •

اربدت وجوه الحاضرين جميعاً حين سمعوا كلمة « المجانين » ، هذه التى أفلتت من لسان زوسيموف بغير حذر ولا تروء أثناء ترثرته حول موضوعه المفضّل • وكانت تطوف على شفقتى راسكولنيكوف الذى ما يزال جالساً ، كانت تطوف على شفقتيه اللتين زال عنهما لونهما ، ابتسامة تسم على أنه كان مسترسلاً فى أحلام عميقة •

صاح رازومبخين يسأله بسرعة شديدة :

— هيه ، لقد قاطعتك ... ما حكاية الرجل الذى دامت العربية ؟

قال راسكولنيكوف وكأنه يستيقظ فجأة :

— ماذا ؟ آ ... نعم ... لقد تلونت بالدم حين ساعدت فى نقله الى بيته ... بالمناسبة يا أمى : لقد فعلت أفسس أمراً لا يقتدر • حقاً لم أكن أملك كل عقلى • لقد أعطيت امرأة ذلك الرجل ، أفسس ، كل المال الذى أرسلته الى ... من أجل دفعه ... هى الآن أرملة ، مصدورة ، انها امرأة شقية فقيرة ... عندها ثلاثة يتامى صغار جائعين ... ما من قرش واحد فى بيتهم ... وهناك أيضاً بنت ... لعلكما كتما مستغلان مافلتة أنا لو كتما فى مكانى • طبعاً لم يكن من حقى أن أفعل ذلك ، أنا أعترف بهذا ... لأننى أعرف حق المعرفة كيف حصلتما على ذلك المال • فمن أجل أن يساعد المرء غيره يجب عليه أولاً أن يكون له حق فى ذلك والا : « موتوا أيها الكلاب اذا لم تكونوا راضين » • أليس الأمر كذلك يا دونيا ؟

قال راسكولنيكوف هذا وابتسم ابتسامة خفيفة •

أجابته دونيا بلهجة جازمة تقول :

— لا ، ليس الأمر كذلك !

فقدم يقول وهو يلقي عليها نظرة توشك أن تكون كارهة ،
وتطوف بشفتيه ابتسامة ساخرة :

— ها ... أنت أيضاً تترخين بنيات طيبة • كان ينبغي لى أن أفهم
هذا ! • • ذلك جميل جداً على كل حال • • ربما كان ذلك أفضل ! • • •
إذا وصلت الى نقطة لا تجسرين أن تخطيها فسوف تشقين ، وإذا تخطيتها
فربما شقيت أكثر • • ثم ان هذا كله سخافات (أضاف ذلك مهتاجاً ،
نادماً على أنه استسلم لاندفاعه) • وانما أردت يا أمى أن أعذر اليك ،
وأن استغفرك •

كذلك ختم راسكولنيكوف كلامه بصوت جازم متقطع •

قالت الأم راضية كل الرضى :

— كل ما تفعله يا روديا فهو خير • أنا واثقة بهذا •

فأجابها بابتسامة مصطنعة :

— لا تتقى كل هذه الثقة !

أعقب ذلك صمت • لقد كان الحديث كله متوتراً جداً ، سواء فى
الصمت ، وفى المصالحة ، وفى الغفران • وكان الجميع يحسون ذلك •
قال راسكولنيكوف لنفسه وهو ينظر الى أمه وأخته بطرف عينه :
« لكأنهما خائفتان منى حقاً » •

والحق أن بولشيريا ألكسندروفنا كان يزداد خوفها على قدر امتداد
صمتها •

وومضت هذه الفكرة فى ذهن راسكولنيكوف : « أنا انما كنت
أحبهما اذن من بعد » •

هتفت بولشيريا ألكسندروفنا تقول فجأة وهي تتنفض :

— هل تعلم يا روديا ؟ لقد ماتت مارتا بتروفنا !

— من هي مارتا بتروفنا ؟

— عجيب ! مارتا بتروفنا مفيدريجايلوفا • حدثتك عنها طويلاً
في رسالتي !

— آ • • • آ • • • نعم • • • تذكرت ! اذن ماتت ؟ آ • • • حقاً • •
(قال ذلك مرتعشاً كمن يصحو من نوم) • ماتت • • • أصبح أنها
ماتت ؟ ممّ ماتت ؟

أسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تجيبه وقد شجعها هذا الاستطلاع :
— ماتت فجأة • حدث ذلك يومَ أرسلت اليك رسالتي • تصور !
وتصور أن أغلب الظن أن ذلك الرجل الرهيب هو سبب موتها • يقال
انه كان قد ضربها ضرباً قظيماً •

سأل راسكولنيكوف أخته :

— هل كان ذلك من عاداتهما ؟

— لا ، بالعكس • كان يبدو على الدوام صبوراً جداً معها ، بل
ولطيفاً جداً في معاملتها • وكان في كثير من المناسبات كثير اللين والتسامح
في تصرفه ازاء طبع زوجته • ولكن ذلك دام سبع سنين ، فلمله فقد
صبره على حين فجأة •

— اذن لم يكن قظيماً الى ذلك الحد ما دام قد استطاع أن يسيطر
على نفسه خلال سبع سنين • لكأنك تعذرينه يا دونيتشكا •

— لا ، لا ، انه رجل قظيع ! لا أستطيع أن أتخيل رجلاً أظلم منه.

كذلك أجابت دونيتشكا وهى تكاد ترتجف • وقطبت حاجبها
وغرقت فى أفكارها •

وأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تتابع كلامها فقالت :

— حدث ذلك فى ذات صباح • فأمرت باعداد العربة لتذهب الى
المدينة بعد الغداء رأساً ، لأنها تذهب الى المدينة دائماً فى مثل تلك الحالات .
يقال انها التهمت غداءها بشهوة قوية •

— بعد أن ضربت ؟

— نعم ، هذه عادة من عاداتها • وما ان انتهت من تناول طعامها حتى
أمرعت تستحم حتى لا تتأخر • انها تعالج نفسها بالحمامات • ان لديهم
ينبوع ماء بارد ، فهى تستحم به بانتظام واطراد كل يوم • ولكنها ما ان
غطست فى الماء حتى أصيبت بالسكتة •

قال زوسيموف معقّباً :

— لا غرابة !

— وهل ضربها ضرباً شديداً جداً ؟

قالت دونيا :

— أى قيمة لهذا ؟

وقال راسكولنيكوف فجأة ، بלהجة ليس هناك نية يمكن من

التنبؤ بها :

— هم ••• ثم ما قيمة قصّ سخافات من هذا النوع يا أمى ؟

فقالت بولشيريا ألكسندروفنا :

— آه يا بنى !••• انما أنا رويت هذه الأمور لأنتى أصبحت

لا أعرف عمّ ينبغى أن أتكلّم !

فقال راسكولنيكوف وهو يتبسّم ابتسامة مصطنعة من جديد :

– أتراكم تخافون جميعاً منى ؟

قالت دونيا وهى تحديق الى عيني أخيها بنظرة قاسية :

– هذا صحيح • حتى ان ماما قد رسمت اشارة الصليب قبل

صعودها السلم ، من شدة خوفها •

تقلص وجه راسكولنيكوف حتى لكأنه يوشك أن يقع متشنجاً •

فتمتمت بولشيريّا ألكسندروفنا تقول مضطربة كل الاضطراب :

– آه •• ما هذا الذى تقولينه يا دونيا ؟ لا تزعل يا روديا ، أرجوك

••• لماذا تقولين هذا الكلام يا دونيا ؟ صحيح أنتى طوال مدة الرحلة ،

فى القطار ، كنت أتحيل كيف سنلتقى ، وما الذى سيقوله بعضنا لبعض

••• وقد بلغت من شدة السعادة أنتى لم أشعر بالرحلة • ولكن ما هذا

الذى أقوله ؟ أنتى ما زلت سعيدة ••• الآن أيضاً أنا سعيدة ••• ما كان

ينبغى لك يا دونيا أن ••• أنتى سعيدة يا روديا ، ان رؤيتك تجعلنى

سعيدة يا روديا •••

فقدم راسكولنيكوف يقول لأمه خجلاً ، وهو يشد على يدها دون

أن ينظر اليها :

– كفى يا ماما • سيتسع وقتنا للتحدث طويلاً !

ولكنه ما ان قال هذا الكلام حتى اضطرب فجأة ، واصفرّ وجهه ،

وعاوده ذلك الاحساس الرهيب الذى يعرفه حق المعرفة ، أعنى

الاحساس ببرودة رهية تحتاج نفسه ، وشعر شعوراً لا يخالجه ريب بأنه

قد كذب كذبة فظيعة ، وبأنه لن يستطيع أن يتكلم بعد الآن بقلب مفتوح

فى يوم من الأيام ، بل وأنه لن يستطيع بعد الآن أن « يتكلم » فى أمر

من الأمور أياً كان • وبلغ الاحساس الذى ولّده هذه الفكرة فى نفسه

من شدة الالام أنه كاد يفقد الشعور بالواقع فقداناً كاملاً خلال لحظة ،
فنهض واتجه نحو الباب قدماً لا يلوى على شيء ولا ينظر الى أحد .

هتف رازومبخين يسأله وهو يمسكه من ذراعه :

— ماذا تفعل ؟

فعاد راسكولنيكوف يجلس ، وأجال بصره حواليه صامتاً . فكان
الجميع يتأملونه مشدوهين .

وهتف يقول فجأة :

— حقاً انكم جميعاً لتبعثون الضجر والسأم في النفس ! هلاً قلتم
شيئاً ! ما بالنا نبقى جالسين هكذا ! تكلموا ! تكلموا ! سوف تتكلم ...
معاً ! أنجتمع ثم لا نقول شيئاً ؟ هيأ قولوا شيئاً ! هلموا !

قالت بولشيريا ألكسندروفنا :

— الحمد لله . لشد ما خفت أن يتكرر ما حدث أمس .

وقالت آفدوتيا رومانوفنا تسأل أخاها مرتابة :

— ما بك يا روديا ؟

فأجابها راسكولنيكوف وقد أخذ يضحك فجأة :

— لا شيء ... لا شيء ... تذكرت سخافة من السخافات !

دمدم زوسيموف يقول :

— اذا كان الأمر أمر سخافة من السخافات ، فهذا يبعث على

الاطمئنان . والا كان يمكن أن افترض ...

ثم أضاف :-

— على كل حال ، يجب أن أنصرف . قد أجيء لأراك ، اذا أنا

وجدتك !

وحياً وخرج •

قالت بولشيريا الكسندروفنا :

- يا له من رجل رائع !

فقال راسكولنيكوف فجأة بصوت متقطع ، وبحرارة أشد مما أظهر
من حرارة حتى الآن :

- نعم ، هو رجل رائع ، مدهش ، مثقف ، ذكي ... لا أتذكر
الآن أين التقيت به قبل مرضي • ولكن يبدو لي أنني سبق أن التقيت به •
ثم أضاف وهو يوميء الى رازومихين بإشارة من رأسه :

- وهذا أيضاً رجل ممتاز !

ثم التفت الى أخته يسألها فجأة وقد أخذ يضحك لا يدري أحد
لماذا :

- هل يصحبك يا دونيا ؟

فأجابته دونيا قائلة :

- كثيراً •

قال رازومихين وهو ينهض محمراً الوجه من الحجل والاضطراب :
- يا للأحمق !

وابشمت بولشيريا الكسندروفنا ابتسامة خفيفة ، بينما كان
راسكولنيكوف يضحك ضحكاً صاخباً •
- ولكن الى أين أنت ذاهب ؟
- أنا أيضاً مشغول •

- لا لست مشغولاً بشيء البتة ، ابق ! لا يكفي أن ينصرف
زوسيموف حتى يكون عليك أن تنصرف أنت أيضاً • لا ، لا تذهب ! ثم

كم الساعة الآن ؟ الثانية عشرة ؟ ما أجمل هذه الساعة التي تحملينها
يا دونيا ! ولكن ما بالكم تصمتون جميعاً من جديد ؟ لا يتكلم أحد
غيرى هنا !

أجابت دونيا :

— هي هدية من مارتا بتروقنا •

وعقبت بولشيرا ألكسندروفنا تقول :

— وقد كلف ثمناً غالياً جداً •

— هي ضخمة جداً بالقياس الى ساعة نسائية •

— أحب للساعات أن تكون ضخمة هكذا •

وقال رازومبخين لنفسه : « ليست هدية من الخطيب اذن » ،

وابتهج لهذا دون أن يدري كثيراً لماذا !

وقال راسكولنيكوف غامزاً :

— تصورت أنا أنها هدية من لوجين !

— لا ، انه لم يقدم الى دونيا حتى الآن أية هدية !

قال راسكولنيكوف فجأة وهو ينظر الى أمه التي ذهلت من انتقاله

الى هذا الكلام بغير تدرج ، ومن اصطناعه هذه اللهجة التي اصطنعها :

— آ ... آ ... هل تذكرين يا أمي أنني عشقت وأنتى أردت أن

اتزوج ؟

— نعم أتذكر يا بني •

وتبادلت بولشيرا الكسندروفنا نظرة مع دونيتشكا ورازومبخين •

— نعم • وماذا أقول لك عن ذلك الأمر أيضاً ؟ لقد نصيت فأصبحت

لا أتذكر ...

وتابع كلامه وهو يطرف الى الأرض ويصبح شارداً ذهن حالماً من جديد :

— كانت فتاة ممراساً ... ممراساً جداً • وكانت تحب أن تصدق على المتسولين • وقد أجهشت باكية في ذات يوم حين حدثتني عن ذلك . نعم ... نعم ... أتذكر تذكرأ كاملاً • لا يمكن أن يقال انها كانت جميلة ! حقاً ... لا أدري لماذا تعلقت بها • ربما لأنها كانت دائماً مريضة • وأحسب أنها لو كانت عرجاء أو حدياء لأحييتها أكثر • (قال ذلك وابتسم ابتسامة زاهلة) • كان ذلك نوعاً من جنون الربيع !

قالت دونيا مندفة :

— لا ، لم يكن نوعاً من جنون الربيع •

ألقي راسكولنيكوف على أخته نظرة متبهة • ولكن كان يبدو عليه أنه لم يفهم كلامها ولا سمعه • ثم نهض وهو ما يزال شارداً الفكر ، فمضى الى أمه ، فقبلها ، وعاد يجلس في مكانه •

سأله بولشيريا الكسندروفنا مضطربةً أشد الاضطراب :

— أما زلت تحبها ؟

— هي ؟ ما زلت أحبها ؟ آ ... نعم ... أنت تتكلمين عنها ... لا ... ذلك كله قد أصبح الآن عالماً آخر ... انقضى زمان طويل ... انقضى زمان طويل ... لا هذا فحسب ... بل ان كل ما يجرى حولى الآن فكأنه يجرى في عالم آخر ...

قال راسكولنيكوف ذلك ، ونظر اليهم ياتباه ثم أردف يقول :

— اليكم هذا المثال : أنا أنظر اليكم الآن ، فكأنكم على مسافة ألف فرسخ منى ... ولكن لماذا تتكلم عن هذه الأشياء ؟ ثم لماذا تسألوننى ؟

(أضاف ذلك غاضباً ، وصمت ، وأخذ يقضم أظافره ، وغاب في أحلامه من جديد) •

وقطعت بولشيريا ألكسندروفنا هذا الصمت الأليم ، اذ قالت فجأة :
- ما أردأ مسكنك يا روديا ! أنا على يقين من أن مسكنك هذا هو نصف أسباب كآبتك !

فقال راسكولنيكوف ذاهل الهيئة :

- المسكن ... نعم ... لا بد أن لمسكني هذا دخلاً في الأمر ...
أنا أيضاً خطر ببالي هذا •

ثم أضاف يقول فجأةً وهو يضحك ضحكة غريبة :
- ولكن لبتك تعلمين عن أية فكرة غريبة عبرت أنت الآن يا أمي !

كان راسكولنيكوف يحس أن هذا الاجتماع ، وهذه الأم وهذه الأخت اللتين يراهما بعد فراق دام ثلاث سنين ، وهذه اللهجة الحميمية في الحديث ، بينما هو عاجز عن أن يقول كل شيء ، كان راسكولنيكوف يحس أن هذا كله يوشك أن يصبح أمراً لا يطاق إطلاقاً • غير أن هناك مسألة لا تحتمل مناقشتها ارجاءً ، مسألة كان قد قرر منذ صحا من نومه أن يحلها في هذا اليوم نفسه بطريقة أو بأخرى • وها هو ذا يحس الآن أن في وسمه أن يتخذها وسيلة للخروج مما هو فيه من ضيق وكرب ، فيرتاح لذلك بعض الارتياح •
بدأ كلامه فقال بلهجة خشنة قاسية :

- اسمعي يا دونيا • أنا طبعاً استغفرك عمّاً جرى أمس ، ولكنني أرى أن من واجبي أن أذكرك باتني ما زلت مصرّاً على الشيء الأساسي من أقوالى • اما أنا واما لوجين • قد أكون أنا أسوأ الناس طراً ، ولكن

ما ينبغي أن تكوني أنت كذلك • يكفي أن يكون أحدنا سيئاً إذا تزوجت
لوجين ، فلن أعدك اختي •

صاحت بولشيريا ألكسندروفنا تقول بحرارة :

— روديا ، روديا ! ها نحن اذن نمود الى ما كنا فيه بالأمس ! لماذا
تعد نفسك « أسوأ الناس طراً » ؟ أنا لا أستطيع أن أحتمل هذا • أمس
أيضاً كان هذا نفسه ...

وأجابت دونيا تقول بلهجة جازمة ، خشنة كلهجة :

— هذا ناشئ عن خطأ ترتكبه يا أخى • لقد فكرت هذه الليلة ،
فاكتشفت قوام خطئك • ان كل شيء ناشئ ، فيما يبدو لي ، عن تصورك
أنني أضحى في سبيل أحد • وهذا ليس صحيحاً البتة • فانا انما اتزوج
تحقيقاً لمصلحتي الخاصة ، لأن حياتي صعبة • طبعاً ... اذا استطعت في
المستقبل أن أنفع أهلي ... فسوف يسعدني ذلك ، ولكن السبب الرئيسى
للقرار الذى اتخذته ليس هو هذا ...

قال راسكولنيكوف لنفسه وهو يقضم أظافره حائقاً : « انها تكذب !
يا للمتعجرفة ! انها لا تريد أن تعترف بأنها تحلم أن تكون محسنة • آه
من هذه الطبائع ! حتى حين يجبون ، فكأنهم يكرهون • آه • • لشد
ما أكرههم جميعاً ! » •

وتابعت دونيا تقول :

— باختصار : أنا أتزوج بطرس بروفتش لأننى أختار أهون
الشرين • واذ اننى قررت أن أنفذ كل ما ينتظره منى ، بأمانة واستقامة
وشرف ، فأننى أعتقد أننى لا أخدعه ... لماذا تبسم ؟

سألها راسكولنيكوف بلهجة مسمومة :

— ستفّدين كل شيء ؟

— الى حد ما • وان الطريقة التي اتبعها بطرس بتروفتش في خطبتي قد أفهمتنى على الفور ما ينتظره منى • صحيح أن رأيته في نفسه عالٍ كثيراً ، ولكننى أمل أن يقدّرني أيضاً ••• لماذا تضحك من جديد ؟

— وأنت لماذا تحمرّين من جديد ؟ انك تكذبين يا أختى ، تكذبين عامدةً ، بمناد امرأة ، حتى لا تراجعى أمامى • أنت لا يمكن أن تحترمى لوجين : لقد رأيته وتحدثت معه • اذن أنت تبعين نفسك بالمال • اذن أنت تتصرفين تصرفاً دينياً على كل حال • وانه ليسعدنى ، انه ليسعدنى كثيراً ، أن تكونى على الأقل قادرةً على أن تحمرّى خجلاً •

صاحت دونيا تقول وقد فقدت كل هدونها :

— هذا غير صحيح • أنا لا أكذب ! لن أتزوجه دون أن أقتنع بأنه يقدرنى حق قدرى ، وأنه يحرص على • لن أتزوجه دون أن أقتنع اقتناعاً جازماً بأننى أستطيع أن أقدره • ومن حسن الحظ أن فى وسعى أن أقتنع بهذا على وجه اليقين فى هذا اليوم نفسه • ليس هذا الزواج دناءة على نحو ما تصف • وهبك على صواب ، وهبنى قررت أن أرتكب عملاً دينياً ، أفلا تكون أنت قاسياً حين تقول لى هذا الكلام الذى تقول ؟ لماذا تتطلب منى بطولةً تعجز عنها أنت نفسك ؟ هذا ظلم واستبداد ، هذا عنف وطفيان ! اذا كنت أشتقى أحداً ، فأنما أشتقى نفسى ! أنا لم أذبح أحداً بعد ••• لماذا تنظر الى هكذا ؟ لماذا اصفر وجهك هذا الاصفرار فجأة ؟ روديا ، ماذا بك ؟ روديا ، عزيزى •••

صاحت بولشويوا الكسندروفنا :

— رباه ! لقد بلغت من تعذيبه أنه سيُغنى عليه !

— لا ، لا ، لم يحدث شيء ، انتهى كل شيء • كل ما حدث هو أننى أحسست بشيء من دوار ••• ولكن لم يُغْمَ على • انكم تظنون كل

شيء اغماء • ماذا كنت أريد أن أقول ؟ نعم : بأية وسيلة مستعنين ،
في هذا اليوم نفسه ، بأنك تستطيعين احترامه ، وبأنه يقدرك ؟ ذلك هو
ما قلته ، أليس كذلك ؟ يخيّل إلى أنك قلت : « في هذا اليوم نفسه » ،
أم تراني سمعت خطأ ؟
قالت دونيا :

— ماما ، أطلعي أخى على رسالة بطرس بتروفتش •
فمدّت بولشيريا الكسندروفنا الرسالة إليه ، مرتعشة اليدين •
فتناولها باهتمام شديد واستطلاع قوى ، ولكنه قبل أن يفضّها نظر الى
دونيا مدهوشاً • وقال ببطء ، كأنما وافته فكرة جديدة :
— غريب جداً أنتى ثرت هذه الثورة كلها من أجل ... لماذا هذا
الاضطراب كله ؟ تزوجى من تشاين ...

قال هذا كمن يحدث نفسه ، ولكنه كان يتكلم بصوت عالٍ ، وظل
برهةً من الوقت ينظر الى أخته مرتبكاً •
وفضّ الرسالة أخيراً وهو ما يزال على ما هو عليه من دهشة
لا تحليل لها • ثم أخذ يقرأ الرسالة ببطء وانتباه •
أعاد قراءة الرسالة مرتين • وكانت بولشيريا الكسندروفنا قلقة
الى أبعد حدود القلق • وكان الجميع ، من جهة أخرى ، يتوقعون
انفجاراً •

بدأ راسكولنيكوف كلامه بحدّ لحظة من تأمل ، فقال وهو يرد
الرسالة الى أمه ، ولكن دون أن يخاطب أحداً بعينه :

— غريب • هو محام • وله زبائن ، وحتى حديثه لا يخلو من ...
حذقة • ومع ذلك يحسن المرء حين يقرؤه أنه ليس على شيء من تعليم
أو ثقافة •

حدثت حركة شاملة : لقد كانوا يتوقعون شيئاً آخر غير هذا تماماً •

قال رازوميخين بلهجة قاطعة :

– ولكنهم جميعاً يكتبون هكذا ؟

– هل قرأت هذه الرسالة ؟

– نعم •

قالت بولشيريا الكسندروفنا مضطربة :

– أطلعناه عليها يا روديا ، و ... سألتناه ... النصح ... منذ

برهه ...

فقاطعها رازوميخين يقول :

– هذا أسلوب القضاء لا أكثر ... ان جميع الأوراق القضائية

تُحرَّر الآن بهذا الأسلوب !

– القضاء ؟ نعم ... صحيح ! ... ذلك أن أسلوب هذه الرسالة

ليس أسلوب رجل محروم من أى حظ من ثقافة ، ولكنه في الوقت نفسه

ليس أسلوباً أدبياً • ان أسلوبه هو كما قلت يا رازوميخين أسلوب رجل

من رجال الأعمال •

قالت آفدوتيا رومانوفنا وقد أزعجتها لهجة أخيها من جديد :

– ان بطرس بتروفتش لا يخفى أن تعليمه كان متواضعاً ؛ بل انه

ليعتز بأنه عصامي شق طريقه بنفسه •

– اذا كان يعتز فلا شك أن هناك ما يدعو الى الاعتزاز ! أعتقد

أنك انزعجت يا أختي لأننى لم أخرج من هذه الرسالة كلها الا بهذه

الملاحظة التافهة ؛ وأنت تظنين أنني تعمدت أن اتسببت بهذه السفايف

لأسخر منك • والحق عن ذلك بعيد : ففى صدد موضوع الأسلوب هذا

انما خطرت ببالي ملاحظة تبدو لى فى هذه الحالة ذات شأن • لقد ورد

فى الرسالة تعبر بقول : « لن يكون لكم عندئذ أن تلوموا أحداً الا أنفسكم » ، وهو تعبير ذو دلالة بليغة فى ذاته ، عدا أنه يشتمل على تهديد : لقد قرر لوجين أن ينصرف فوراً اذا أنا حضرت . فهذا التهديد بالانصراف معناه أنه سترككما اذا أتما لم تطاوعا ، مع أنه هو الذى حملكما على المجئ الى بطرسبرج . فما رأيك ؟ هل يمكن أن تسووك هذه الكلمات حين يكتبها لوجين مثلما يمكن أن تسووك لو كتبها هذا (قال ذلك وهو يومئذ الى رازوميخين) أو كتبها زوسيموف أو كتبها أى واحد منا ؟

قالت دونيشكا متحمسة :

— ل... لا...! لقد أدركت حق الادراك أن فى أسلوبه سذاجة شديدة ، وأنه قد لا يكون حاذقاً كل الحذق فى استعمال قلمه . ان ملاحظتك سديدة جداً يا أخى ، حتى اننى لم أكن أتوقع أن ...

— نعم ، هذا هو طابع الأسلوب القضائى ، وبالأسلوب القضائى لا يمكن أن يكتب المرء غير هذا . ولعل لوجين كان فيما كتبه فظلاً أكثر مما أراد . ومع ذلك أريد أن أخيب ظنك قليلاً : ان فى هذه الرسالة نفسها تعبيراً آخر هو نعيمة فى حقى ، نعيمة خسيصة . لئن وهبت بالأمس مالاً للأرملة مصدورة يائسة ، فاننى لم أفعل ذلك « بحجة » دفع نفقات الجنائز ، بل لدفع نفقات الجنائز فعلاً . ثم اننى وضعت هذا المال لا فى يد الفتاة أو فى يد « البنت المعروفة بسوء السمعة » على حد تعبيره ، وانما وضعت المال فى يد الأرملة نفسها . اننى أرى فى كلامه هذا رغبة شديدة جامحة فى تلطيط صفحاتى ، وفى احداث شقاق بينى وبينكم . هنا يكشف الأسلوب القضائى عن نيات صاحبه بوضوح ، ويدل على تسرع فيه شئ من سذاجة . ان الرجل ذكى ، ولكن لا يكفى أن يكون المرء ذكياً حتى يتصرف بذكاء . هذا كله يطلعك على حقيقته . ثم اننى ...

لا أعتقد أنه يحترمك كثيراً • لا أقول لك هذا الا لتحيطى علماً •••
ذلك أننى أتمنى لك الخير صادقاً كل الصدق •

لم تجب دونيا • كانت قد اتخذت قرارها منذ مدة ، فهى تنتظر
حلول المساء •

سألت بولشيريا الكسندروفنا ابنها ، وقد اشتد قلقها بسبب طابع
«الأعمال» هذا الذى ساد الحديث :

— فماذا قررت يا روديا ؟

— ماذا تعنين بقولك « ماذا قررت » ؟

— ان ••• بطرس بتروفتش يطلب فى رسالته أن لا تجيء الينا
هذا المساء ، وانه سينصرف اذا أنت جئت • فهل ••• تجيء ؟

— لست أنا من يجب أن يقرر • وانما ينبغى أولاً أن تعرفا هل
يسوؤكما طلب بطرس بتروفتش أم لا ؟ وينبغى ثانياً أن تعرف دونيا هل
فى هذا الطلب اهانة لها أم لا •

وأضاف راسكولنيكوف يقول بخشونة :

— أما أنا فسأفعل ما يناسبكما كلتيكما •

أسرعت بولشيريا الكسندروفنا تجيب :

— لقد اتخذت دونيتشكا قرارها وانتهى الأمر ؛ وأنا أوافقها كل

الموافقة •

قالت دونيا :

— نعم ، لقد قررت يا روديا ••• قررت أن أطلب منك ، ملحة

مصرّة ، أن تحضر الاجتماع عندنا هذا المساء • هل تجيء ؟

— سأجىء •

والتفت دونيا الى رازوميخين فقالت له :

- وأنت أيضاً ... أرجوك أن تكون عندنا فى الساعة الثامنة •
يا أمى ، انتى أدعوه أيضاً •

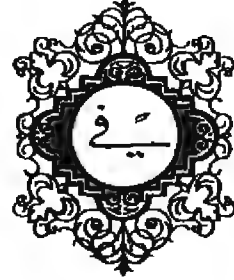
قالت بولشيريا الكسندروفنا :

- هذا حسن جداً يا دونيا •

ثم أضافت :

- ليكن ما تهررين • ثم انتى أنا نفسى أوتر هذا • انتى لا أحب
أن أظهار وأن أكذب • نعم ، الأفضل أن نقول الحقيقة جميعاً ...
اغضب أو لا تغضب يا بطرس بتروفتش !

الفصل الرابع



تلك اللحظة فُتح الباب برفق ، ودخلت الغرفة فتاةٌ تلقى على ما حولها نظرات وجلى . قالت للجميع نحوها مدهوشين مستطلعين . ولم يتعرفوا راسكولنيكوف فى الوهلة الأولى . انها صوفيا سيميونوفنا مارمیلادوفا . كان قد رآها أمس أول مرة ، ولكنه رآها فى لحظة خاصة وظروف خاصة ، ورآها مرتديةً ثياباً خاصة ، فكانت صورتها المنقوشة فى ذاكرته صورة انسانة أخرى غير هذه التى يراها الآن . هى فتاة بسيطة الملبس بل فقيرة الملبس ، تبدو فى مئة الصبا حتى لكأنها بنية صغيرة ، متحفظة الحركات محتشمة ، نقية الوجه على شئ من خوف ووجل ، ترتدى ثوباً بسيطاً مما يُلبس كل يوم ، وتضع على رأسها قبة بالية الزى ، ولكنها تحمل بيدها شمسية كالأمس .

فلما رأت ، على دهشة شديدة منها ، أن الغرفة تقصُ بالناس ، لم تضطرب فحسب ، بل فقدت كذلك كل سيطرة لها على نفسها ، وتحركت تهمُّ أن تسحب .

قال راسكولنيكوف وقد بلغ ذروة الدهشة :

— آآآ أهذا أنت ؟

وفقد هو أيضاً كل سيطرة له على نفسه .

وسرعان ما تذكر أن رسالة لوجين قد أخبرت أمه وأخته بوجود

هذه الآتية « المعروفة بسوء السمعة لدى جميع الناس » • وقد احتج هو منذ قليل على نمائمه لوجين معلناً أنه رأى هذه الفتاة أول مرة مساء أمس ، وها هي ذى تدخل عليه الآن بشخصها فجأة • وتذكر أيضاً أنه لم يخرج أى احتجاج على ما ورد فى رسالة لوجين من أن « البنت معروفة بسوء السمعة » •

ومضى ذلك كله فى ذهنه مضطرباً مبهماً بسرعة كسرعة البرق • ولكنه حين تأمل القادمة باتباه أكبر ، رأى أنها مخلوقة مسكينة مُدَلَّة ، مُدَلَّة الى حد كبير فلم يلبث أن أخذته بها شفقة • فلما تحركت تهم من رعبها أن تهرب ، كان هو قد شعر باضطراب ، فأسرع يقول لها وهو يستوقفها بنظره :

— لم أكن أتوقع مجيئك البتة • هلاً سررتى فجلست • لا شك أنك آتية من قبَل كاترين ايفانوفنا • من فضلك • لا ، ليس هنا • بل هنا • اجلسى هنا •

حين دخلت صونيا ، كان رازوميشين جالساً على أحد الكراسى الثلاثة التى تضمها غرفة راسكولنيكوف ، فنهض ليفسح لها مجال المرور. وقد دلَّها راسكولنيكوف فى أول الأمر على مكان فى طرف الديوان هو المكان الذى كان يشغله زوسيموف منذ برهة • لكنه وقد تذكر أن الجلوس على الديوان ينم على رفع الكلفة ، وأنه يتخذ الديوان سريراً له ، أسرع بدلَّها على كرسي رازوميشين • وقال لرازوميشين وهو يجلسه على طرف الديوان الذى كان يجلس عليه زوسيموف :

— وأنت ، اجلس هنا •

جلست صونيا وهى تكاد ترتعش ، ونظرت الى السيدتين خجلة وجلة • كان واضحاً أنها لا تفهم هى نفسها كيف تجرأت أن تجلس الى

جانبيهما • وقد بلغت من الارتياح حين تصورت ذلك أنها نهضت على حين
فجأة مضطربة أشد الاضطراب ، وثأثأت تقول متجهةً بكلامها الى
راسكولنيكوف :

- أنا ... أنا ما جئت الا لدقيقة واحدة ... اغفر لى ازعاجك •
ان كاترين ايفانوفنا هى التى أوقدتى اليك ... لأنها لم تجد أحداً
غيرى يمكنها أن توفده • طلبت منى كاترين ايفانوفنا أن أرجوك ملحةً
... أن تحضر غداً قداس الجنازة ... صباحاً ... بعد الصلاة ...
فى مقبرة سان ميتروفان * ... وأن تجيء بعد ذلك الينا ... اليها ...
لتصيب شيئاً من طعام ... هى ترجوك أن تهب لها هذا الشرف • نعم ،
كلفتنى بأن أسألك هذا ...

قالت صونيا ذلك ، واشتد ارتباكها فصمتت •
نهض راسكولنيكوف هو أيضاً ، واضطرب هو أيضاً ، وقال يجيبها:
- سأحاول أن أجيء حتماً ... حتماً ...
ثم أردف يقول لها فجأة :

- هلاً سررتنى فجلست • ان لى حديثاً معك • أرجوك • أنت
مستعجلة ؟ ولكن أرجوك ، هبى لى دقيقتين !

قال ذلك وقرَّب لها الكرسي • جلست صونيا • وعادت تلقى على
السيدتين نظرة خجلة وجلة ، ثم خفضت عينها فجأة •
احمر وجه راسكولنيكوف الشاحب ، وتقبضت قسماته ، وقدحت
عيناه شراً ، وقال بلهجة قاطعة ملحة :

- يا أمى ، هذه صوفيا سيميونوفنا مارميلادوفا ، ابنة ذلك المسكين
مارميلادوف الذى داسته الحيل مساء أمس على مرأى منى ، والذى سبق
أن حدثكم عنه •

ألفت بولشيريا الكسندروفنا نظرةً على صونيا وهي تطرف بعينها قليلاً • انها لم تستطع ، رغم الحشية التي توقظها فيها نظرة ابنها الثابتة المتحدية ، أن تمنع عن نفسها هذه المتعة • أما دونيا فقد حدثت الى وجه الفتاة فى جد واصرار ، وأخذت تدرسها بعناية واهتمام • وقد أرادت صونيا ، حين سمعت التعريف بها ، أن ترفع عينها ، ولكنها اضطربت مزيداً من الاضطراب •

وأسرع راسكولنيكوف يقول لها :

- وددت أن أعرف كيف جرت الأمور عندكم اليوم • ألم تلقوا مضايقات ؟ من جهة الشرطة مثلاً ؟

فأجابت الفتاة :

- لا ••• جرى كل شيء مجرى عادياً • كان لا يمكن أن يشك أحد فى سبب الوفاة • لم يزعجوننا • ولكن السكان غاضبون علينا • لماذا ؟

- لأن الجثمان بقى مدة طويلة ••• والجو الآن حار ، والرائحة ••• لذلك سينقل الجثمان اليوم الى المقبرة ، عند صلاة الغروب ، فيوضع فى الكنيسة الى الغد • كانت كاترين ايفانوفنا لا تريد ذلك فى أول الأمر ، لكنها تدرك الآن أن ليس هناك وسيلة أخرى •••

- اذن اليوم ؟

- لا بل هى ترجوك أن تشرفنا بحضور صلاة الجنازة غداً ••• فى الكنيسة ••• وبأن تأتى غداً إلينا للمشاركة فى الوليمة •

- أهى تقيم وليمة ؟

- نعم ، وليمة جنازة • وقد كلفتنى بأن أشكر لك المساعدة التى تفضلت عليها بها أمس • فلولاك لما ملكنا ما تنفقه على الدفن •

وأخذت شفتا الفتاة وذقتها تختلج فجأة ، ولكنها كابترت وتجلدت
فاستطاعت أن تسيطر على نفسها ، ثم أغضت طرفها من جديد .

تفحصها راسكولنيكوف أثناء الحديث تفحصاً دقيقاً . ان لها وجهاً
صغيراً بائساً ، شديد الهزال والنحول ، شاحب اللون ، ليس في قسماته
اتساق كبير ، منكسر الخطوط ، صغير الأنف مقرّنه . حتى يصعب أن
يقال انها جميلة . ولكن لها في مقابل ذلك عينيّن زرقاوين تبلغان من
الصفاء وتبلغان من قوة التعبير حين تتقدان أن وجهها يكتسى عندئذ طيبة
وبراءة لا يملك المرء ازاءهما الا أن ينجذب اليها . هذا الى أن لوجه
صونيا ، ولسائر شخصها ، صفة خاصة تميزها هي أنها ، على كونها في
الثامنة عشرة من عمرها ، تبدو أصغر سنّاً من ذلك بكثير ، حتى ليكاد
يحسبها المرء طفلة . وكان هذا يتجلى أحياناً في بعض حركاتها ، فيكاد
يبحث على الضحك .

سألها راسكولنيكوف وكان يواصل الحديث بالحاح :

- ولكن كيف استطاعت كاترين ايفانوفنا أن تدبر أمورها بمثل

ذلك المبلغ الضئيل من المال ، حتى لتولم وليمة ؟

- سيكون الثابوت بسيطاً جداً وسيكون كل شيء بسيطاً

فلا تكون النفقات باهظة لقد أجرينا الحساب منذ قليل مع كاترين
ايفانوفنا ، فلاحظنا أن سيقى لنا من المال ما نولم به وليمة لأن
كاترين ايفانوفنا تحرص على هذا أشدّ الحرص . ليس في الامكان أن
لا ان في هذا عزاء لها . هذه طبيعتها ، هي هكذا

- مفهوم ، مفهوم لماذا تفحصين غرفتي ؟ أمي أيضاً تقول

ان غرفتي أشبه بقبر .

قالت صونيا تحببه بنوع من همس قوى سريع ، وهي تخفض

عينها من جديد :

— أنت أعطيتنا كل ما كنت تملك ...

وعادت شفتاها وذقنها تختلج •

كانت قد لاحظت منذ برهة طويلة ما يسود غرفة راسكولنيكوف من فقر شديد ، فأفلتت هذه الكلمات منها الآن على غير ارادة أو شعور تقريباً • وخيم بعد ذلك صمت • وأضامت عينا دونيا • وحتى بولشيريّا ألكسندروفنا نظرت الى الفتاة فى رضى وبشاشة • ثم قالت وهى تنهض :

— نحن ذاهبتان الآن ، أنا ودونيا ، الى الغداء ، يا روديا • هلمنى يا دونيا • أما أنت يا روديا فعليك أن تقوم بنزهة قصيرة ، ثم تستريح : تستلقى قليلاً ، وتجىء إلينا بعد ذلك • أخشى أن نكون قد أتبناك كثيراً •
أجاب راسكولنيكوف وهو ينهض متعجباً :

— نعم نعم ، سأجىء • ثم ان هناك أعمالاً يجب أن أقوم بها •

صاح رازومихين يقول مدهوشاً وهو ينظر الى راسكولنيكوف :
— أصحيح أنكم لن تنحدوا معاً ؟ ما هذا الذى تقوله ؟

— نعم نعم ، سأجىء • أما أنت يا رازومихين ، فابق دقيقةً أخرى •
لستما فى حاجة إليه على الفور يا أمى ، أليس كذلك ؟ أأست أحرملكما
من ...

— لا ، لا ! ... وأنت يا دمترى بروكوفتش ، هل تصحبنا الى
الغداء ؟ هل تفضل فتقبل أن تصحبنا الى الغداء ؟
وثنت دونيا على طلب أمها فقالت هى أيضاً :
— أرجوك ، تعال ...

انحنى رازومихين وقد أشرق وجهه فرحاً • ثم لم تقض لحظة
قصيرة حتى شعر الجميع بنوع من الضيق والحرج •

- وداعاً يا روديا ، بل الى اللقاء ... أنا لا أحب أن أقول وداعاً !
وداعاً يا ناستاسيا ... هوه ! هأنذا أعود فأقول وداعاً ! ...

ودّت بولشيريا ألكسندروفنا لو تحيي صونيا أيضاً ، ولكنها لم
تفعل في ذلك ، فأسرعت تخرج من الترفة .

ولكن أفدوتيا رومانوفنا ، حين مرّت أمام صونيا ، حيثها تحية فيها
كياسة ، بل فيها مودة أيضاً . فاضطربت صونيا ، وأخذت رأسها متعجّلة
وجلة ، بينما طاف بقسمات وجهها تعبير أليم ، كأن ما أظهرته لها أفدوتيا
رومانوفنا من أدب ولطف قد شق على لنفسها حتى ليكاد لا يطلق .

هتف راسكولنيكوف يقول لأخته وقد خرج في اثرها الى فسحة
السلم :

- استودعك الله يا دونيا ! هلاً صافحتني !

فأجابته دونيا وهي تلتفت اليه بحركة خرقاء فيها عطف وحب :

- ولكنني صافحتك ، هل نسيت ؟

- أي خير في أن تصافحيني مرة أخرى ؟

وتناول يدها ، وشدّ على أصابعها شداً قوياً ، فابتسمت له دونيا ،
واحمرّت ، وسحبت يدها بسرعة ، وهرعت تلحق بأمتها سعيدة كل
السعادة لا تدري لماذا !

قال راسكولنيكوف وهو يعود الى الترفة ويلقي على صونيا نظرة
صافية مضيئة :

- عظيم ! اللهم اجعل الموتى في سلام ، وأبق الأحياء على قيد
الحياة . أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ هو كذلك ، هه ؟
كانت صونيا تنظر مدهوشة الى وجهه الذي استردّ هدوءه على حين

فجأة • وكان هو يتفرس فيها باتباه صامتاً • ثم لم تلبث قصة أبيها أن عادت الى ذاكرته بقتة •

بدأت بولشيريا الكسندروفنا تتكلم ، منذ صارتا فى الشارع ، فقالت مخاطباً ابنتها :

- رياه ! دونيتشكا ! اننى أشعر بارتياح عظيم لأننا خرجنا من عنده ! نعم ، اننى أحس كأن حملاً قد أزيح عن صدرى • لو قال لى قائل بالأمس ، فى القطار ، أن ترك ابنى سيسرنى ، فهل كنت أصدق ؟ - أكرر لك يا أمى أنه ما يزال مريضاً جداً • هل يمكن أن لا تكونى قد لاحظت ذلك ؟ لعل حزنه الناشئ عن أنه يعيش بعيداً عنا هو الذى جعله فى هذه الحالة • يجب على الانسان أن يكون متسامحاً ، فيمكنه عندئذ أن يفر أموراً كثيرة ، كثيرة جداً •

فأجابتها بولشيريا الكسندروفنا بلهجة حادة ساخطة :

- وهل كنت أنت متسامحة ؟ اسمعى يا دونيا : لقد أنعمت النظر اليكما ، فهل تعرفين ماذا لاحظت ؟ لاحظت أنك صورته تماماً ، تشبهينه جسماً وروحاً ، بل وتشبهينه روحاً أكثر مما تشبهينه جسماً • كلاكما مكشوب المزاج ؛ كلاكما متجهم النفس ، مندفع الطبع ؛ كلاكما متكبر متعال وسخى كريم • أليس كذلك يا دونيتشكا ؟ يستحيل أن يكون أنايا يا دونيتشكا ، أليس كذلك ؟ أليس كذلك ؟ آه ... حين أفكر فيما سيحدث عندنا هذا المساء ، يتجمد قلبى !

- لا تقلقى ياماما ! لن يحدث الا ما يجب أن يحدث •

- ولكن هلاً فكرت يا دونيتشكا فى الظرف الذى نحن فيه ؟ ماذا لو رجع بطرس بتروفنش عن وعده ؟

هذا ما أقلت من لسان بولشيريا ألكسندروفنا المسكينة بغير حذر أو
تبصر • فأجابتها دونيا بلهجة جافة تنم على الاحتقار :
- ليكن ! ان ذلك لن يشرّفه كثيراً !
فأسرعت بولشيريا ألكسندروفنا تقول :

- لقد أحسنا صنعاً اذ تركنا روديا • كان يستعجل الخروج لأمرٍ
ملح • بهذا يُتاح له أن يتحرك قليلاً ، وأن يستشق هواءً نقياً • الجو
خائف في غرفته ! ولكن أين يمكن أن يتنفس الانسان في هذه المدينة ؟
حتى في عرض الشارع يحس المرء أنه في غرفة بلا نوافذ ! رباه !
يا لها من مدينة !... انتهى ... ابتعدى ... كادوا يدومونك ! هذا
بيانو محمول ! آه ... ما أكثر ما يُصدم المرء هنا !... أنا خائفة أيضاً
من تلك البنت !...

- أية بنت ؟

- صوفيا سيميونوفنا تلك التي كانت ...
- لماذا أنت خائفة منها ؟

- عندى ما يشبه الاحساس يا دونيا بأن... صديقى أو لا تصديقى
... ولكننى منذ أن دخلت ، قلت لنفسى ، فى تلك الدقيقة نفسها ، ان
كل شيء ربما كان مردّه الى هذا ...
هتفت دونيا تقول غاضبة :

- لا شيء مردّه الى هذا ... عجيبة أنت واحساساتك ياماما !...
انه لا يعرفها الا منذ أمس ... حتى انه لم يتعرفها حين دخلت !
- سوف ترين ! ... لئن كانت تقلقنى ... سوف ترين ...
سوف ترين ! ... آه ... ما أشد ما أشعر به من خوف ! كانت تنظر
الى ، كانت تنظر الى بعينين ... بعينين لا أدري ماذا أقول فيهما ...

حتى لقد كنت من نظراتها لا أكاد أستطيع المكوث في مكاني ... هل
تذكرين طريقته في تقديمها لنا وتعريفنا بها ؟ ان الأمر الذي يبدو لي
غريباً عجيباً هو أن يقول عنها بطرس بتروفتش ذلك الكلام ، ثم اذا
بروديا يقدمها لنا ، ويقدمها اليك أنت خاصة ! ذلك دليل أنها عزيزة
لديه .

- ما أكثر ما يكتبه الناس ! ألم يكتبوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة ؟
ألم يقولوا عنا نحن أيضاً أشياء كثيرة ؟ أتراك نسيت ذلك ؟ أما أنا ...
فاننى واثقة بأنها امسانة ... محترمة ... وأن كل ما قيل عنها ليس
الا افتراء ...

- اسأل الله أن يكون هنا صحيحاً !
- أما بطرمس بتروفتش فليس الا نمأماً دنيئاً .
كذلك قالت دونيتشكا بلهجة قاطعة على حين فجأة !
فمخضت بولشيريأ ألكسندروفنا عينيها ، واقطع الحديث .

قال راسكولنيكوف وهو يقود رازوميخين نحو النافذة :
- اليك الأمر الذي أريد أن أحدثك فيه ...
فقال صونيا متعجلة وهي تحبى لتصرف :
- أستطيع اذن أن أقول لكأترين ايفانوفنا انك ستجىء ؟
- لحظة يا صوفيا سيميونوفنا . ليس هناك أسرار . انك
لا تضايقيننا البتة ... وأنا أريد أن أقول لك كلمتين أيضاً ...
قال ذلك ثم التفت الى رازوميخين قبل أن يتم جملة ، فواصل
كلامه له قائلاً :

- اليك الأمر ... أنت تعرف ذلك الرجل الذى يسمى ...
ما اسمه ؟ نعم ... بورفير بتروفتش ... أنت تعرفه ، أليس كذلك ؟
- أعرفه . نحن قريبان !
ثم أردف يسأل باستطلاع قوى :
- ولكن لماذا هذا السؤال ؟
- أليس هو الذى يحقق فى القضية ، قضية مقتل العجوز ؟ ألم تقل
أمس انه هو الذى يحقق فيها ؟
حمق رازوميخين فجأة وسأل :
- طيب وماذا ؟

- لقد استجوب أولئك الذين لهم أشياء مرهونة ، وأنا لى أشياء
مرهونة هناك ... أشياء صغيرة على كل حال : خاتم أعطيتبه أختى تذكّاراً
عند سفرى الى بطرسبرج ، وساعة أبى الذهبية . والرهنان كلاهما
لا يساويان أكثر من خمسة روبلات أو ستة ، لكنهما تذكّاران ، وأنا
أحرص عليهما . فما الذى يجب علىّ أن أفعله الآن ؟ لا أريد لهذين
الشيئين أن يضيئا ، ولا سيما الساعة . فمئذ قليل ، حين تكلمنا عن ساعة
أختى ، ارتجفت أنا خوفاً من أن تسألنى أمى أن ترى ساعتى . ان هذه
الساعة هى الشيء الوحيد الذى بقى لها من أبى ! فاذا ضاعت هذه الساعة
كان يمكن أن تمرض من ذلك أمى . هكذا هنّ النساء ! فأننا أنتظر
منك نصيحة . أنا أعلم أنه سيكون من الواجب أن أدلى بإفادة فى قسم
الشرطة ، ولكن أليس الأفضل أن تنجّه الى بورفير نفسه ؟ ما رأيك ؟
اننى أود أن أسوّى هذا الأمر بأقصى سرعة . لسوف ترى أن أمى
ستسأل عن هذه الساعة حتى قبل الغداء !

هتف رازوميخين يقول مضطرباً أشد الاضطراب :

- أنت على صواب : لا فائدة من الذهاب الى الشرطة • الأفضل أن
تتجه الى بورفير • آه ... أنا مسرور ! نستطيع أن نمضى اليه فوراً •
هو على مسافة خطوتين • وسنجدّه حتماً •
- اذن هلمّ بنا اليه !

- وميسرّمه أن يتعرف اليك ! لقد حدثته كثيراً عنك ، عدة
مرات • أسس أيضاً حدثته عنك • هلمّ نذهب اليه • اذن كنت تعرف
العجوز ؟ هنا هو الأمر ! هنا هو الأمر ! ان كل شيء يترايط ترابطاً
را ... نعماً ! آ ... نعم ... يا صوفيا ايفانوفنا ...

- يا صوفيا سيميونوفنا (هكذا صحّح راسكولنيكوف) ... هنا
الرجل هو صديقي رازوميخين ، وهو رجل طيب ...

قالت صونيا دون أن تنظر الى رازوميخين ، قالت مضطربة خجلة :
- اذا كان عليكما أن تخرجا الآن ...

فقال راسكولنيكوف بحسم الأمر :

- نعم ، فلنخرج • سأجىء اليك فى هذا النهار يا صوفيا سيميونوفنا
ولكن قولى لى أين تقيمين ؟

قال لها راسكولنيكوف ذلك دون ارتباك حقيقى ، ولكنه كان يتكلم
بسرعة محمومة ، متحاشياً أن ينظر الى الفتاة •

ذكرت له الفتاة عنوانها واحمر وجهها • وخرجوا جميعاً •

سأله رازوميخين وهو يهبط السلم وراءهما :

- أأنت لا تطلق بابك اذن بالفتاح ؟

فأجابه راسكولنيكوف بقوله :

- أبداً •

ثم أضاف يقول باهمال :

— على أنتى أنوى منذ ستين أن اشترى قفلاً •

ثم قال يخاطب صونيا بلهجة مرحة :

— ما أسعد الذين لا يملكون شيئاً يستحق أن يوضدوا عليه الأبواب
بالأقفال ، أليس كذلك ؟

حتى اذا صاروا فى الخارج وبلغوا الباب الكبير ، توقفوا •

— أنت ذاهبةٌ يميناً يا صوفيا سيميونوفتش ••• بالمناسبة : كيف

فعلت حتى استطعت أن تعثرى على بيتى ؟

ألقي عليها هذا السؤال وكأنه كان يريد أن يقول شيئاً آخر • لقد
ظل طوال الوقت يشتهى أن يتلبث ببصره على عيني الفتاة الصافيتين
الهادئتين دون أن يفلح فى ذلك •

أجابته صونيا :

— أنت نفسك ذكرت لبوليتشكا عنوانك •

— ذكرته لبوليا ؟ آ ••• نعم ••• بوليتشكا ! هى الصغرى •••

هى أختك ! اذن أنا أعطيها عنوانى ؟

— هل نسيت هذا ؟

— لا ••• الآن تذكرت •

— ثم انتى سمعت أبى الراحل يتحدث عنك • لكننى لم أكن

أعرف اسمك ••• وهو أيضاً لم يكن يعرف اسمك ••• فبحث الآن •••

ولما كنت قد عرفت اسمك أمس ، سألت اليوم : « هل هنا يسكن السيد

راسكولنيكوف ؟ » ••• ولم أكن أعرف أنك تقيم فى غرفة مفروشة •••

أستودعك الله ••• سأقول لكاترين ايفانوفنا •••

كانت تشعر بسرور رهيب من أنها استطاعت أخيراً أن تودّع

لتنصرف • وسارت خافضة العينين ، مسرعةً ، تستعجل الهروب من

نظراتهما وأن تقطع العشرين خطوة التي تفصلها عن ناصية الشارع التالية على اليمين ، وأن تبقى أخيراً وحدها فتستطيع أثناء سيرها البطيء ، دون أن تنظر الى أحد ودون أن ترى شيئاً ، أن تفكر وتذكر وترن في ذهنها كل كلمة قيلت وكل أمر حدث • انها لم تشمر طوال حياتها ، بشيء يشبه ما تشمر به الآن • ان عالماً جديداً كاملاً يدخل الى نفسها غامضاً مضطرباً • وتذكرت فجأة أن راسكولنيكوف يريد أن يجيء اليها في هذا النهار ، وربما في الصباح ، وربما على الفور •

عدمتم قول منقبضة الصدر متضرعة كطفل خائف :

— لا ، لا اليوم ، أرجوك ! رياه ! أيجيء الى ، في هذه الغرفة؟ •

اذن سوف يرى ... رياه !

ولم يكن في سمعها طبعاً أن تلاحظ أن سيداً مجهولاً كان يتبعها في تلك اللحظة • كان هذا السيد قد تبعها منذ باب العمارة الكبير ، حين توقفت هي وراسكولنيكوف ورازومихين على الرصيف يتبادلون بضع كلمات • وكان هذا السيد المجهول قد بدا كأنه يرتعش حين التقط عرضاً ، أثناء مروره بهم ، تلك الكلمات التي قالتها صونيا : « سألت : هل هنا يسكن السيد راسكولنيكوف » • فألقى على المتحدثين الثلاثة ، ولا سيما على راسكولنيكوف الذي كانت الفتاة تنجيه اليه بالكلام ، نظرة سريعة لكنها متنبهة ، ثم تفحص المنزل وحفظ رقمه • ثم ذلك كله بثلث لمح البصر سرعة ، ودون أن يلفت نظر أحد ، ثم ابتعد الرجل متباطئاً الخطى منتظراً • ورأى صونيا تودع الشابين ، فأدرك أنها ذاهبة الى مسكنها •

قال يسائل نفسه وهو يتذكر ملامح صونيا : « الى مسكنها ! ولكن أين مسكنها ؟ لقد رأيت هذا الوجه في مكان ما ... يجب أن أستعلم ! » •

فلما وصل الى ناصية الشارع انتقل الى الرصيف المقابل ، والتفت
فرأى صونيا تسير الآن فى نفس الاتجاه ، ولكن دون أن تلاحظ شيئاً .
فلما وصلت هى أيضاً الى الناصية مضت فى نفس الشارع الذى مضى هو
فيه . فأخذ يتبعها دون أن يحوّل عنها بصره . حتى اذا قطع نحو خمسين
خطوة رجع الى الرصيف الذى كانت تسير عليه صونيا ، ولحق بها ،
وأخذ يسير وراءها على مسافة خمس خطوات منها .

هو رجل فى نحو الخمسين من عمره ، أطول من وسطى الرجال ،
بدن ، عريض المنكبين على الكتفين ، حسن الملبس أنيق الهندام ، له
مظهر سيد من السادة ، يحمل عصا جميلة يقرع بها أرض الرصيف
عند كل خطوة من خطواته ، ويداه موشحتان بقفازين جديدين . ان
وجهه المريض لا يخلو من وسامة ، وان لبشرته نضارة لا يرى مثلها
فى سكان بطرسبرج . وان شعره أشقر زاه ، ما يزال كثيفاً ، لم يكد
يتسبب ؛ وان لحيته المزدهرة الكثيفة أزهى من شعر رأسه أيضاً . عيناه
زرقاوان لهما بريق كبريق المعدن ، ولهما نظرة ثابتة ملحاح . وشفتاه
حمراوان حمرة قوية . انه ، على وجه الاجمال ، رجل ما يزال محافظاً
على نضارته ، يبدو أصغر كثيراً من سنه .

فلما وصلت صونيا الى القناة ، التفت على الرصيف ؛ فاستطاع
الرجل أن يلاحظها فرأى ما كان يعبر عنه وجهها من ذهول وتفكير .
وحين وصلت أمام العمارة التى تسكن فيها ، استدارت فدخلت الباب
الكبير ، فتبعها مدهوشاً بعض الدهشة . حتى اذا بلغت فناء المنزل اتجهت
يميناً نحو الركن الذى يوجد فيه السلم المفضى الى مسكنها . فجمع
السيد البهول يقول لنفسه : « عجب ! » ، وأخذ يصعد درجات السلم
وراءها . وفى تلك اللحظة انما اتبعت الى صونيا .

صعدت صونيا حتى وصلت الى الطابق الثانى ، فسارت فى الرواق ،

ثم قرعت جرس باب الشقة ٩ ، حيث يقرأ المرء على بابها هاتين الكلمتين
مكتوبتين بالطباشير : « كابرناوموف ، خيَّاط » . فجمجم السيد المجهول
يقول من جديد : « عجب ! » . لقد أدهشته هذه المصادفة الغريبة .
وقرعه هو باب الشقة المجاورة ، الشقة ٨ ، ان المسافة بين البابين لا تزيد
على ست خطوات .

قال وهو ينظر الى صونيا ضاحكاً :

- آ ... أنت تسكنين عند كابرناوموف ! لقد أصلح لى صديرتى
أمس . أنا أَسكن هنا ، قريباً منك ، عند السيدة ريسليش ، السيدة
جورتود كارلوفنا ريسليش .
نظرت اليه صونيا باتباه .

وتابع هو كلامه يقول لها بلهجة فيها مرح خاص :

- نحن اذن جاران . أنا لا أقيم ببطرسبرج الا منذ ثلاثة أيام .
لسوف يسرنى أن ألقاك مرةً أخرى .
لم تجب صونيا . وفتح الباب ، فامتلت الى بيتها . كانت وجلى ،
فكانها تشعر بخجل وعارٍ من شيء ما ...

كان رازوميخين مضطرباً مضطرباً شديداً فى الطريق الى بورفير .
وقد كرر يقول لراسكولنيكوف عدة مرات :

- هذه فكرة حسنة ! أنا مسرور ، مسرور جداً !

قال راسكولنيكوف لنفسه : « ولكن ممّ هو مسرور ؟ » .

وتابع رازوميخين :

- كنت أجهل أنك أنت أيضاً قد رهنّت عند العجوز بعض الأشياء .

هل حدث ذلك منذ مدة طويلة ؟ أقصد : هل منذ مدة طويلة ذهبت إليها ؟
فقال راسكولنيكوف لنفسه : « يا للساذج ! يا للأحمق ! هل منذ
مدة طويلة كنت عندها ؟ » • وتوقف لحظة يفكر • ثم قال يجيب
صاحبه :

- قبل موتها بثلاثة أيام ، فيما يبدو لى •
ثم أمرع يضيف بلهجة يُظهر بها اهتمامه الشديد بأشيائه
المرهونة :

- على أتنى لا أنوى امترداد أشتائى حالاً • فأتنى لم يبق معى الا
روبل واحد ••• ومردٌ هذا الى ذلك « الهذيان » اللعين الذى اعترانى
أمس !

وقد نطق كلمة « الهذيان » هذه نطقاً فيه تأكيد واصرار •
فسرعان ما قال رازومبخين مزاولاً دون أن يدري لماذا :
- نعم ، نعم ••• ذلك هو السبب اذن فى أنك ••• فى ذلك اليوم
••• آه ••• لشد ما فجبأتى ذلك ••• انك ، أتساء هذيانك ، كنت
لا تتقطع عن الكلام عن خواتم ، وعن سلاسل ، وعملاً لا أدرى أيضاً
••• آه ••• نعم ••• اتضح الآن كل شىء •• اتضحت الأمور •• أصبح
كل شىء واضحاً ! ••

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « هكذا قامت الفكرة فى أذهانهم
اذن ونمت ••• ان هذا الرجل مستعد لأن يُصلب فى سبيلى ، ومع ذلك
يشعر بسعادة عظيمة لأن السبب الذى جعلنى أتكلم أتساء الهذيان عن
خواتم ، قد « اتضح » له الآن ! لقد ترسخت الفكرة فى أذهانهم
جميعاً ! » •

ثم سأل صاحبه بصوت عالٍ :

— هل تعتقد أننا سنجدته في بيته ؟

فأمرع رازوميين يجيبه قائلاً :

— سنجدته ، سنجدته ! انه شاب شهيم يا صاحبي ... سوف ترى •
صحيح أنه أخرق قليلاً ... وان يكن ممن يرتادون المجتمع الراقى •
على أنني أجده أخرق من ناحية أخرى ، بمعنى آخر ... انه شاب
ذكى ، ذكى ، ليس بالغبى البتة ... ولكن لتفكيره مجرى غريباً بعض
الغرابية • فهو كبير الشك والريب ، قوى الاشتباه والحذر ، شديد
الاستخفاف والاستهتار ... يحلو له أن يضلّك ... لا أقصد أن
يضلّك ، بل أن يخلق لك الأوهام ... الخلاصة : هو الأسلوب العتيق
... أسلوب الوقائع المادية ! ولكنه يجيد مهنته ... يتقنها ! ... في
السنة الماضية حقق في قضية قتل كانت قد اختفت جميع آثارها • وهو
يرغب كثيراً في التعرف اليك ، يرغب في ذلك كثيراً •
— لماذا يرغب في ذلك كثيراً ؟

— لا بسبب أن ... وانما لأننى ، فى الآونة الأخيرة ، أتناه
مرضك ، اتفق لى أن حدثته عنك مراراً • فكان هو يصفى ... فلما
علم أنك تدرس القانون ، وأنت لم تستطع أن تنهى دراستك بسبب
الظروف ، قال : « خسارة ! ... فاستنتجت من ذلك ... أقصد ...
من كافة هذه الأشياء مجتمعة ... لا من ذلك وحده ... وبالأمس ، قال
زاميوتوف ... اسمع يا روديا ، أمس مساءً ، حين كنا عائدين الى
بيتك معاً ، كنت أنا سكران جداً ، فلعلنى أسرفت فى الثروة ، فأرجو
يا روديا أن لا تغفلو فى حمل كلامى على محمل الجد •
— ماذا ؟ هم يستقدون أننى مجنون ، أليس كذلك ؟ ولكن قد
يكونون على حق •

قال واسكولنيكوف ذلك وضحك •

- نعم نعم ... لا بل !... دعك من هذا الكلام ! ان كل ما قلته
(وسائر ما عداه أيضاً) ليس الا سخفاً ... ليس الا ثمرة السكر !
صرخ راسكولنيكوف بغضب نصفه تصنع وتظاهر :
- ولكن علام تعتذر ؟ أوه !... ما أكر ما تضجبنى وتزعجنى
هذه الأمور كلها *

قال رازومихين :
- أعرف ، أعرف ، أنا أفهم ، ثق اننى أفهم * بل ان الكلام عن
هذا كله عار !

- اذا كان الكلام عن هذا كله عاراً ، فلنكف اذن عنه !
صمت الاثنان * كان رازومихين مفتوناً . وقد لاحظ راسكولنيكوف
ذلك مشعراً * وكان من جهة أخرى قلقاً مما قاله له رازومихين عن
بورفير منذ هنيهة *

قال يحدث نفسه وقد شحب لونه وخفق قلبه : * لهذا الرجل أيضاً
سيكون على أن أشكو الفقر ، وأن أظهر بمظهر من يستحق الشفقة
والرثاء ... وأن أفعل ذلك بطريقة تبدو طبيعية * ولكن الطريقة
الطبيعية هى أن لا أقول شيئاً البتة ، أن لا أقول شيئاً البتة ! ولكن لا ...
ان هذا أيضاً لن يبدو طبعياً !... على كل حال سوف نرى كيف
ستجرى الأمور ، وسوف نرى هل كان من الخير أن أذهب الى هناك أم
لم يكن ذلك من الخير !... الفراشة تطير الى لهب الشمعة من تلقاء
نفسها * قلبى يخفق * هذا نذير سوء ! * *

قال رازومихين :
- هنا ، فى هذه العمارة الرمادية *
وقال راسكولنيكوف يحدث نفسه : * النقطة الأساسية هى هذه :

هل بورفير على علم بالزيارة التي قمت بها أمس لمسكن العجوز ، وهل هو على علم بسؤالى عن الدم ؟ يجب على أن أعرف هذا منذ أدخل ، من النظرة الأولى ، يجب أن أقرأه فى وجهه لحظة دخولى ، والا فان... لأعرفن هذا ولو هلكت ! •

وقال يخاطب رازوميخين فجأة ، وهو يتسم ابتسامة مأكرة :
- هل تعرف ماذا لاحظت عليك ؟ لقد لاحظت عليك منذ هذا الصباح ، يا صاحبي ، أنك مضطرب اضطراباً غير مألوف كثيراً •
أنا مخطيء ؟

أجاب رازوميخين مستاءً :
- أنا مضطرب ؟ لا لست مضطرباً البتة •

- دعك من هذا الكلام يا صاحبي ! الأمر واضح ! منذ قليل ، كنت جالساً على الكرسي كما لا تجلس عادة • كنت جالساً على حافة الكرسي تماماً ، وكنت كمن أصيب بمنقص • وكنت شب من طرف أقصى الى طرف أقصى ، فتارة تنضب ، وتارة تجعل لسانك كالصل حلاوة ! بل لقد كان وجهك يحمر احمراراً شديداً • وقد احمر وجهك خاصة حين دُعيت الى الغداء • نعم ، اصطيفت بالحمرة حتى جذور شعرك •

- غير صحيح • أنت تكذب • الى ماذا تريد أن تنمز ؟
- أريد أن أغمز الى أنك خجول ككليمذ • ها • ها • ها • هانت ذا تحمر من جديد !

- يا للخنزير !
- ولكن علام هذا الاضطراب كله ؟ مسكين روميو ! اسمع : لن يفوتنى أن أتكلم عنك اليوم فى مكان ما • ها ها ها ! سوف أضحك أمى كثيراً • • • وسوف أضحك شخصاً آخر أيضاً •

قال رازوميخين وقد طاش عقله وتجمد رعباً :

- اسمع ، اسمع ، هذا أمر خطير ، هذا يا للعواقب !
ما هناك قاتلاً لهما ؟ أنا يا صاحبي آه يا لك من
خنزير !

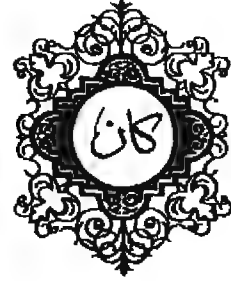
- وردة ، وردة من ورود الربيع حقاً ! ليتك تعلم كم يناسبك
هذا ! روميو طوله ست أقدام ! ثم انك قد غسلت وجهك اليوم ، ونظفت
أظفارك ، هه ؟ ذلك ما لم يحدث يوماً . ها وها أنت ذا قد تدهنت
وتطيت ! هياً اخفض رأسك لأرى ! يا لك من خنزير !

كان راسكولنيكوف يقول هذا الكلام وهو يضحك ضحكاً يبلغ من
الشدة أنه أصبح لا يستطيع السيطرة على نفسه . وعلى هذه الحال من
الضحك الشديد انما دخل الشابان بيت بورفير بتروفتش . وذلك بعينه
هو ما أراده راسكولنيكوف . من آخر البيت كان يمكن أن يُسمع دخولهما
ضاحكين . وقد استمرا يضحكان وهما في الدهليز .

همس رازوميخين يقول لراسكولنيكوف غاضباً وهو يقبض على
كتفه :

- اياك أن تقول كلمة واحدة في هذا الموضوع هنا ، والا
هشمت بوزك !

الفصل الخامس



راسكولنيكوف قد دخل الشقة • دخل دخول من
يبدل كل ما يملك من قوة حتى لا ينفجر
ضاحكاً • ودخل وراءه رازوميين محمرّ
الوجه ، أخرق الحركات ، متقبض القسما من
الغضب • كان وجهه في تلك اللحظة ، بل كان شخصه كله مضحكاً حقاً ،
يبرّر ما كان فيه راسكولنيكوف من قهقهة صاخبة • وقد انحنى
راسكولنيكوف يحيى رب البيت حتى قبل أن يقدم إليه • وكان رب
البيت واقفاً في وسط الغرفة يلقي على القادمين نظرة سائلة • ثم مدّ
راسكولنيكوف إليه يده فصافحه ، وهو يبدل جهداً ظاهراً في سبيل أن
يكبح جماح مرجه ، وأن ينطق بالكلمات القليلة التي يوجبها التعارف •
ولكنه ما ان أفلح في اتخاذ هيئة الجد ، وفي أن يدمم ببضع كلمات حتى
عاد ينظر الى رازوميين رغم ارادته ، فلم يستطع في هذه المرة أن
يصمد ، فاذا بضحكه يتدفق قوياً لا سبيل الى مغالبته ، لا سيما بعد أن
كظمه مدة طويلة • فاذا بالقيظ الحارق الذي يستقبل به رازوميين هذا
الضحك • الصريح ، يضاف على المشهد كله مظهر مرح طبيعي ، بل
ومرح صادق • وقد فاقم رازوميين مظهر المرح مزيداً من المغامرة كأنما
على عمد : ذلك أنه زار يقول لراسكولنيكوف وهو يجرى يده بحركة
تم على الغضب قائلاً :

— آ... يا للشيطان الرجيم !

فاذا بالحركة التي أجراها تصدم منصدة عليها فنجان شاي فارغ ،
فيطير كل شيء في الهواء ، ويسقط على الأرض مرقعاً •

هتف بورفير بتروفتش يقول مرحباً :

— لماذا تحطمون الأناث يا سادة ؟ لماذا تلحقون أذى بالدولة ؟

اليكم وصف المشهد الذي كان يُرى في تلك اللحظة: راسكولنيكوف
يضحك ملء خنجرته تاركاً يده في يد رب البيت ، ولكن دون أن يفقد
حسن القصد والاعتدال ، منتظراً اللحظة المناسبة التي سوف يستطيع فيها
أن يسحب يده بسرعة وعلى نحو طبيعي • ورازوميخين قد هوى به
سقوط المنصدة وتهشم الفنجان الى درك الحجل والاضطراب ، فألقى على
الحطام نظرة سوداء ، وبصق على الأرض ، وابتعد نحو النافذة ، فلبث
أمامها مديراً ظهره ، عابس الوجه مقطب الأسارير ينظر الى الخارج دون
أن يرى شيئاً • وبورفير بتروفتش يضحك ويرغب في الضحك ، لكنه
ينتظر شروحا بطبيعة الحال • وفي ركن من الأركان ، يجلس زامبوتوف
على كرسي •

كان زامبوتوف ، حين دخل الزائران ، قد نهض ينتظر وانفرج
فمه عن ابتسامة ، لكنه يبدو مدهوشاً مرتاباً ، ولاسيما ازاء راسكولنيكوف،
فهو ينظر اليه الآن متفرساً باتباء •

ان وجود زامبوتوف قد فاجأ راسكولنيكوف وأزعجه ، فقال
يحدث نفسه : « هذا عنصر آخر يجب أخذه في الحسبان » •

وبدأ يتكلم فقال يعرف بنفسه مصطنعاً الحجل :

— معذرة ، أرجوك • اسمي راسكولنيكوف •••

قال بورفير بتروفتش يجيبه :

— لا داعى الى الاعتذار البتة ؛ انه لجميل جداً أنك دخلت على هذا النحو •

وأردف يقول مشيراً الى رازوميخين :
— هيه ! ما باله لا يريد حتى أن يحيى ؟
قال راسكولنيكوف :

— حقاً لست أدري ما سبب حنقه علىّ الى هذا الحد • كل مافصلته هو أنتى قلت له أثناء الطريق انه أشبه بروميو ... وبرهنت له على صدق قولى • لا شىء غير هذا • أو ذلك هو ما يخبّل الىّ على الأقل !
دمدم رازوميخين يقول شامئاً دون أن يلتفت :
— خنزير !

فقال بورفير ضحكاً :

— لا بد أن هناك أسباباً خطيرة كل الخطورة تجعله يفضب هذا الغضب كله للكلمة بسيطة صغيرة !
فقال رازوميخين يقاطعه وقد أخذ يضحك هو أيضاً على حين فجأة :

— هيه ! اسكت أنت يا قاضى التحقيق ! ثم فلتذهبوا جميعاً الى الشيطان !

قال ذلك واقرب من بورفير بتروفتش مشرق الوجه منبسطة
الأسارير كأن شيئاً لم يحدث • وتابع كلامه فقال :

— نحن جميعاً حمقى فى الواقع • اسمع : هنا صديقى روديون رومانوفتش راسكولنيكوف • انه أولاً ، من كثرة ما سمع عنك ، أراد أن يتعرف اليك ؛ وهو ثانياً يحب أن يحدثك فى قضية صغيرة • هه !

زاميوتوف ؟ ماذا تفعل هنا ؟ أأنتما متعارفان اذن ؟ منذ متى ؟

قال راسكولنيكوف يحدث نفسه : « ما معنى هذا أيضاً ؟ » •

ظهر الاضطراب على زاميوتوف ، ولكن اضطرابه لم يكن شديداً .
وقال يجيب بلهجة طليقة :

— اتنا تعارفنا أمس في بيتك !

— اذن لقد أعفنتي العناية الالهية من جهد كان ينبغي أن أبذله •
تصور يا بورفير أنه يلح ، منذ أسبوع ، الحاحاً شديداً على أن أعرفك
به • فهأتما قد استغنيتما عني ، فتعارفتما دون وساطة مني ... أين
تبغك ؟

كان بورفير بتروفش يرثى ملابس البيت : ثوب منزل ، وقميصاً
نظيفاً ، وبابوجين قديمين معقوفين • هو رجل في نحو الخامسة والثلاثين
من عمره ؛ مربع القامة ؛ يدين الجسم ؛ له كرش ، حليق الوجه تماماً
فلا شارب ولا لحية ؛ مقصوص الشعر على رأس ضخم مدور بارز
القفا ؛ متورم الوجه ، أفطس الأنف قليلاً ، أصفر اللون كأنه مريض ،
ولكن هيئته لا تخلو من تعبير عن الحيوية ، ولا عن المرح • حتى لقد كان
يمكن أن يعبر وجهه عن شيء من الطيبة لولا عيناه اللتان تنظر اليها
فترى فيهما اخضراراً وبريقاً كبيرين المعدن في آن واحد ، وتكاد تحجيبها
أهداب يضرب لونها الى بياض ، وكأنهما من غمزهما المستمر ترسلان
اشارات لا تنقطع • ان نظرة هاتين العينين تنافي سائر هيئته بعض المنافاة
(وهي هيئة فيها شيء من أنوثه) وتجعل هذه الهيئة تبدو أميل الى الجذ
والجهامة مما قد يتوقعه المرء عند أول نظرة يلقيها عليه •

ما ان علم بورفير بتروفش أن زائره يرغب في أن يحدثه في
« قضية صغيرة » ، حتى رجاء أن يجلس على الديوان ، ثم يجلس على

الطرف الآخر ، منتظراً عرض القضية ، مُظهراً أشدَّ الاهتمام • ان مثل هذا الانتباه الصادر عن رجل لا تعرفه ، يبدو لك غير طبيعي ، بل ويُشعرك بشيء من الحرج والارتباك ، ولا سيما اذا كان ما ستقوله لا يستحق في رأيك هذا الانتباه ؛ ومع ذلك شرح راسكولنيكوف قصته ببضع كلمات ، في دقة ووضوح ، فبلغ من رضاه عن نفسه أنه أتبع له أن ينعم النظر في بورفير بتروفتش أثناء ذلك • وكان بورفير بتروفتش ، من جهته ، لا يحوّل بصره عن راسكولنيكوف دقيقة واحدة • وكان رازوميشين قد استقر أمامهما ، فهو يتابع عرض القضية بشغف عارم وصبر نافذ ، متجهماً بنظراته الى هذا تارة ، والى ذاك تارة أخرى ، وكان في هذا شيء من غلو طبعاً •

دمدم راسكولنيكوف يقول بينه وبين نفسه : « يا للأبله ! » •

أجاب بورفير بلهجة رسمية جداً :

– يجب عليك أن تبعت الى الشرطة بلاغاً تقول فيه انك وقد علمت بالنبا ، نبأ مقتل المعجوز ، تريد ابلاغ قاضي التحقيق المكلف بالقضية أن هذه الأشياء هي أشياءك وأنتك تريد استردادها • أو أن ... على كل حال ، سيكتبون اليك ...

قال راسكولنيكوف وهو يحاول أن يصطنع الحجل ما وسعه ذلك :

– ولكنني ... ولكنني ... في الوقت الحاضر ... لا أملك مالا ... فحتى هذه الأشياء التافهة التي لا قيمة لها لا أستطيع أن ... كل ما أريده الآن هو أن أصرّح بأن هذه الأشياء لي ، وبأنتي متى أصبح معي مال سوف ...

أجاب بورفير بتروفتش مستقبلاً هذه الايضاحات المالية ببرودة :

– ليس لهذا من قيمة • تستطيع على كل حال أن تكتب الى رأساً

إذا أردت فتقول : لا كنت قد علمت كيت وكيت ولما كانت الأشياء كذا وكذا هي أشياءي ، فأننى أرجوكم أن ... الخ •

فأسرع راسكولنيكوف يسأله ، مظهرأ بذلك اهتمامه بالناحية المالية من جديد :

- أأكتب هذه العريضة على ورق عادى ؟

- نعم نعم ، على ورق عادى ...

أجابه بورفير بتروفتش بهذا ، ثم نظر اليه على حين فجأة نظرة فيها سخر صريح ، غامزأ بعينه كأنه يقول له ان أسلوبه هذا لا يخفى على ذكائه • على أن من الجائز أن لا يكون ذلك الا احساساً خاليج راسكولنيكوف ، لأن التمزرة لم تدم الا لحظة قصيرة كومض البرق • ومع ذلك لا بد أن التمزرة كانت تشتمل على شئ من هذا المعنى • ومهما يكن من أمر ، فان راسكولنيكوف مستعد لأن يحلف أغلظ الايمان على أن بورفير قد غمز ... فاذا بكلمتين تومضان فى ذهنه بسرعة شديدة ، فيقول لنفسه : « انه يعلم ! » •

وتابع كلامه يقول وقد خارت همته قليلاً :

- اغفر لى ازعاجك بهذه الترهات ... صحيح أن هذين الشيئين اللذين كانا مرهونين عند العجوز لا تساوى قيمتهما أكثر من خمسة روبلات ، ولكنى أحرص عليهما حرصاً شديداً ، لأنهما تذكارة من واهيهما ؟ اعترف لك باننى ذُعرت أشد الذعر حين علمت أن ...

قال رازومبخين متعمداً وهو يبيت نية واضحة :

- الآن فهمت ! ذلك هو السبب فى أنك انتفضت أمس حين كنت أترنر أنا مع زوسيموف فقلتُ له ان بورفير يستجوب الأشخاص الذين كانوا قد رهنوا أشياء عند العجوز •

طفع الكيل عندئذ • فهذا هو راسكولنيكوف يخرج عن
فيلقي على رازوميين نظرة سوداء تشتعل غضباً • ولكنه لم يـ
سيطر على نفسه فوراً • ثم قال له بحق أحسن اصطناعه في حذق و
- يا عزيزى ، يخيل الى أنك تسخر من عقلى • انا أوافـ
أنتى أسرف قليلاً فى الاهتمام بأشياء هى فى نظرك تافهة لا قيمة
ولكن هذا ليس سيئاً يدعو الى اعتبارى أنايأ أو بخيلاً ، لأن هذه
التافهة فى نظرك قد لا تكون تافهة فى نظرى أنا • لقد قلت لك مـ
ان تلك الساعة الفضية التى لا قيمة لها هى الشيء الوحيد الذى بقى
أبى • فاسخر منى ما شئت أن تسخر ، ولكن أمى قد وصلت (وهذه
راسكولنيكوف نحو بورفير فجأة) ، فاذا علمت (استأنف راسكوا
كلامه وهو يعود الى رازوميين مسرعاً ويحاول أن يجعل صوته
مرتجفاً) فاذا علمت أن هذه الساعة قد فُقدت ، فسوف تهو
حضيض الكرب واليأس • هكذا خلقت النساء !

هتف رازوميين يقول بمرارة :

- ولكننى لم أقصد هذا قط ! أنا لم أقل ما قلته بهذا المعنى
نقيض ما أردت أن ...

تساءل راسكولنيكوف مهموماً مغموماً : • هل نجح هذا الأمر
هل كان كلامى طبيعياً ؟ ألم أبالغ ؟ لماذا قلت : هكذا خلقت النساء
قال بورفير بتروفتش يسأل لسبب من الأسباب :
- آ ... وصلت أملك ؟

- نعم •

- متى ؟

- مساء أمس •

وصمت بورفير كأنه يفكر • ثم أردف يقول بهدوء ، ببرود :
- أشياءك لا يمكن أن تُفقد بحال من الأحوال • ثم اتى كنت
أتظرك منذ مدة طويلة •

قال بورفير ذلك ، ثم التفت نحو رازوميخين وكأنه لم يحدث شيء ،
فمدَّ اليه منفضة سجائر ، لأن رازوميخين كان يهزُّ سيجارته بغير شفقة
فيسقط رمادها على السجادة •

ارتعش راسكولنيكوف ، ولكن بورفير الذى كان مشغولاً ببيعجاره
رازوميخين ، كان يبدو عليه أنه لا يلاحظه •
صرخ رازوميخين سائلاً :

- كيف ؟ كنت تنتظره ؟ أكنت تعرف انن أن له رهوناً هناك ،
هو أيضاً ؟

فاتجه بورفير الى راسكولنيكوف رأساً وقال له :
- كان هناك ، الخاتم والساعة ، موجودين « عندها » ، ملفوفين
بورقة واحدة ، وقد كُتب اسمك على الورقة واضحاً بقلم الرصاص ،
كما سُجِّل على الورقة تاريخ الرهن أيضاً •
قال راسكولنيكوف وهو يضحك ضحكاً أخرق ، ويحاول خاصةً
أن ينظر الى عيني بورفير :

- ما أقوى ذاكرتك !

ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه عن أن يضيف قائلاً على حين فجأة:

- لئن أبديت هذه الملاحظة ، فلأن هناك اشخاصاً كثيرين جداً قد
رهنوا أشياء ... فلا بد أن يصعب تذكر أسمائهم جميعاً ... أما أنت
فإنك تذكرهم تذكراً واضحاً ، واضحاً ، و ... و ...

ثم قال لنفسه : « ما أغباني ! ضعيف جداً ! لماذا أضفت هذا الكلام ؟ » •

أجابه بورفير بشيء من سخر طفيف لا يكاد يلاحظ :
- ولكن جميع أولئك الأشخاص أصبحت أعرفهم ، وأنت الشخص الوحيد الذى لم يطالب بأشيائه حتى الآن •
- ذلك أتى كنت مريضاً •

- هذا أيضاً سمعت عنه • بل لقد سمعت كذلك أنك كنت فلقساً مضطرباً من شيء ما • ثم أنك ما زلت تبدو شاحباً •

- لست شاحباً البتة • بالعكس : صحتى الآن حسنة جداً •
كذلك ردَّ راسكولنيكوف بفظاظة وشراسة ، وقد تغيرت لهجته فجأة • لقد غلى الغضب فى نفسه ، فأصبح لا يستطيع كبجه •
وقال يحدث نفسه من جديد : « هذا الغضب هو الذى سيفضحنى !
ولكن لماذا يعذبوننى هذا التعذيب ! » •
عاد رازومخين يتكلم فقال :

- صحتك جيدة جداً ! اسمعوا هذا الكلام ! كان حتى أمس لا يكاد يعى ، وكان يهذى ! هل تصدق يا بورفير أنه كان لا يكاد يستطيع الوقوف على ساقيه ، فما أن أدركنا ظهورنا ، أنا وزوسيموف ، حتى ارتدى ثيابه وتسلل خلسة ليمضى يتسكع لا أدري أين ، الى منتصف الليل ، أو الى منتصف الليل قريباً ، وهو فى حالة هذيان كامل ؟ هل تستطيع أن تتخيل شيئاً كهذا يا بورفير ؟ أمر غريب !

قال بورفير بتروفتش وهو يهز رأسه بحركة من الحركات التى تجريها النساء :

- حقاً ؟ فى « حالة هذيان كامل » ؟ غريب !...

وأقلت لسان راسكولنيكوف يقول غاضباً أشد الغضب :

— هذا سخف ! لا تصدقه !

ولكن بورفير بتروفتش بدا كأنه لم يسمع هذه الأقوال العجيبة !

قال رازومبخين وقد تحمس مزيداً من الحماسة على حين فجأة :

— ولكن هل كان يمكن أن تخرج لولا أنك كنت في حالة هذيان؟

ولماذا خرجت ؟ ماذا كان هدفك من الخروج ؟ ولماذا خرجت خفية ؟ أنك

لم تكن تملك عقلك ! أستطيع أن أقول لك هذا الآن وقد زال كل خطر!

قال راسكولنيكوف متجهماً بالكلام الى بورفير وهو يتسم ابتسامة

فيها وقاحة وتحدٍ :

— لقد أرهقوني أمس ارهاقاً فظيماً ، فهربت لأستأجر مسكناً آخر

لا يستطيعون أن يثروا على فيه ؛ وحين خرجت حملت كل ماكنت أملكه

من مال • وقد رأى زامبوتوف ذلك المال • يا سيد زامبوتوف ، أكنت

بالأمر سليم العقل أم لا ؟ عليك أنت أن تحسم النقاش •

لو استطاع في تلك اللحظة أن يخلق زامبوتوف لما تردد في ذلك •

كانت نظرة زامبوتوف وكان صمته يؤلمانه أشد الألم ، ويغيظانه أعظم

الغضب •

قال زامبوتوف يجهجه بجفاف :

— في رأيي أنك كنت تتكلم كلام انسان عاقل جداً ، بل وكلام

رجل حاذق جداً ••• كل ما هنالك أنك كنت سريع الاحتياج والغضب •

وقال بورفير بتروفتش مقاطعاً :

— واليوم ذكر لي نيكوديم فومتش أنه لقيك أمس ، في ساعة

متأخرة ، بمنزل موظف داسته عربية •

فقال رازوميخين يستأنف كلامه مخاطباً راسكولنيكوف :

- نعم ، لننظر فيما فعلته في بيت ذلك الموظف مثلاً : ألم تصرف
تصرف رجل مجنون هناك ؟ لقد أعطيت أرملة كل ما كان معك من مال
لدفع نفقات الجنازة • أقما كان في وسلك ، إذا أنت حرصت حرصاً
مطلقاً على مساعدتها ، أن تعطيتها خمسة عشر روبلاً أو حتى عشرين
روبلاً ، أو أن تحتفظ لنفسك بثلاثة روبلات في أقل تقدير ؟ ولكنك لم
تفعل هذا ، بل جددت عليها بكل ما تملك : خمسة وعشرين روبلاً !

- ولكن لعلني عثرت في مكان ما على كنز • مايدريك ؟ ولهذا كنت
كريمًا ذلك الكرم كله بالأمس • ان السيد زامبوتوف يعلم أنني وجدت
كنزاً ! اغفر لنا يا بورفير بتروفش (قال ذلك لبورفير بتروفش مختلج
الشفقتين) اغفر لنا ازعاجك بمثل هذه السفاسف طوال نصف ساعة !
نحن نضجرك ، أليس كذلك ؟

- بالعكس ، بالعكس ! لبتك تعلم كم يهمني أمرك ويشوقني
حديثك ! انها لمتعة عظيمة أن يراك المرء وأن يصنعني اليك ••• أعترف
لك أنني شديد السرور بأنك قررت أخيراً أن تقدم إلي طلباً •

هتف رازوميخين يقول لبورفير :

- هيه ! هلاًّ قدمت إلينا شيئاً من الشاي على الأقل ! لقد جفّ
حلقى تماماً !

- هذه فكرة رائدة ، ولعل سائر الصحب يوافقونك عليها ! ولكن
ألمست تحب أن تصيب قبل الشاي شيئاً أدنى الى سدّ الجوع واقامة الأود؟
- هياً •••

وخرج بورفير ليأمر بالشاي •

كانت الحواطر تعصف في رأس راسكولنيكوف كالاعصار • وكان مهتاجاً أشد الاحتياج •

قال يحدث نفسه : « أنكى ما في الأمر أنهم لا يخفون ولا يكتُمون ، أنهم لا يتحرجون ! كيف حدث ، وأنت لا تعرفني بعد ، أن تتحدث عني مع نيكوديم فومتش ؟ معنى ذلك أنهم لا يحاولون حتى أن يخفوا أو يكتُموا ، وأنهم يطاردونني جميعاً كما يطارد الفريسة سربٌ من كلاب الصيد ! أنهم يبصقون في وجهي صراحة ! (كذلك قال لنفسه وهو يرتجف من شدة الغضب) • ما بالكم لا تكونون صريحين ! لماذا تلعبون معي لعبة القط والفأرة ؟ حقاً ان هذا لمن قلة الأدب يا بورفير بتروفش ! ولعلني لن أسمع به بعد الآن !... لسوف أنهض واقفاً ، فأريكم بالحقيقة كلها صفهاً على وجوهكم • وسوف يرون عندئذ مدى الاحتقار الذي أحمله لهم ! » •

دارت هذه الحواطر في رأس راسكولنيكوف وهو يجد في التنفس مشقة كبيرة • تابع يحدث نفسه : « ولكن ألا يمكن أن يكون هذا كله احساساً باطلاً ، وهماً من أوهام الخيال ، سراياً لا أكثر ؟ ألا يمكن أن أكون مخطئاً في الحكم على الأمر كله من أوله الى آخره ، وأن لا يكون غضبي ناشئاً الا عن نقص الخبرة وقلة التجربة وعن عجزى عن تمثيل دورى الساقط ؟ لعلهم يقولون كل ما يقولونه بدون فكرة مينة أو نية سيئة ... لا ، ان كل ما يقولونه عادى ، ولكن المرء يحس وراء كل كلمة من كلماتهم ... صحيح أن من الممكن أن يتكلم جميع الناس بهذه الطريقة وهذا الأسلوب ، ولكن لا بد أن هؤلاء يضمرون أشياء يلعمون اليها الماعاً • لماذا قال كلمة « عندها » بالحاح خاص ؟ ولماذا قال زامبوتوف انتى كنت أتكلم كلام رجل « حاذق » ؟ لماذا يخاطبوننى بهذه اللهجة ؟ نعم ، هى اللهجة • ورازوميين موجود ، هو موجود ، فلماذا لا يشتبه

في شيء ؟ لماذا لا يخطر شيء بال هذا الأبله ؟ ها هي ذى الحمى تعتريني
 من جديد ! هل غمزني بورفير بعينه منذ لحظة أم هو لم يغمزني ؟ ترى
 لماذا وجهه الى تلك الغمزة ؟ أتراهم لا يريدون الا أن يثيروا أعصابي
 وأن يخرجوني عن طوري ؟ ... اما أن ذلك كله ليس الا سراياً ، واما
 أنهم « يعرفون » ... ولكن زامبوتوف وقع ! هل زامبوتوف وقع ؟
 لا بد أنه فكّر طويلاً أثناء الليل . كنت أوجس أنه سيفكر ! هو هنا
 كأنه في بيته . بورفير لا يعمه ضيقاً . هو يجلس مديراً ظهره لبورفير !
 انهما متواطئان . و « على » تواطؤهما ! لا شك في أنهما كانا يتكلمان
 عني أنا قبل وصولنا . هل يعرفان أنني ذهبت أرى الشقة ؟ ليتني أعلم
 هذا بسرعة ، بسرعة ! حين قلت انني هربت أمس مساءً لأبحث عن شقة
 استأجرها ، فان بورفير لم يفتن الى أقوالى . نعم ، لقد دسست مسألة
 الشقة هذه بحذق . سوف يفيدني هذا في المستقبل ! ... في حالة
 هذيان ... ها ها ها ! ... ولكنه يعرف كل ما فعلته أمس . كان يجهل
 أن أمي وصلت ! وقد سجلت العجوز تارينج الرهن بقلم الرصاص !
 أنت تكنب ، لن أسلم نفسي ! ما هذه بوقائع على كل حال . سراب
 لا أكثر ! ومع ذلك تذكرون هذا كله على أنه وقائع ! والشقة نفسها
 ليست واقعة ، وانما هي هذيان ! ألا انني أعرف ماذا سيحب عليّ أن أقول
 لهم ! أهم يعرفون ما حدث في الشقة ؟ ان أنصرف قبل أن أعرف هذا .
 لماذا جئت ؟ هاأنا ذا أغضب الآن ! هذه واقعة ، هذه ! أوه ... ما أشد
 احتياجي وما أسرع غضبي ! ولكن لعل هذا أفضل ... فأنني بذلك أمثل
 دور المريض ... سيحاول أن يهيجني ... أن يشوش أفكارى . لماذا
 جئت ؟ ...

ذلك كله ومض في ذهن راسكولنيكوف سريعاً كالبرق .
 وعاد بورفير بعد لحظة . انه يبدو الآن مرحاً جداً .

قال يخاطب رازوميخين ضاحكاً ، بلهجة مختلفة كل الاختلاف
عن اللهجة التي كان يتكلم بها منذ قليل :

- هل تعرف يا صاحبي أنني بعد سهرة الأمس في بيتك الجديد ،
أخذ رأسي يدور ، وانتي ما زلت الى الآن ...

- كانت سهرة شائعة ، أليس كذلك ؟ لا تسس أنني تركتكم في
أجمل لحظة . من الذي انتصر ؟

- لم ينتصر أحد طبعاً . لقد أخذوا يتناقشون في مشكلات أبدية ،
وحمي وطيس المناقشة !...

- تصور يا روديا انهم اندفعوا يتجادلون في هذا الموضوع : أهناك
جرائم أم ليس هناك جرائم ؟ يا للسخافات التي قالوها !... شيء فظيع...
فأجاب راسكولنيكوف بلهجة عادية يقول :

- هذه مسألة اجتماعية عادية جداً ، مع ذلك !
وتدخل بورفير فقال :

- غير أن السؤال لم تكن هذه صيغته .

فأسرع رازوميخين يعترف قائلاً وقد اشتعلت حماسه على عادته :

- صحيح . لم تكن هذه صيغته تماماً . اسمع يا روديا ، اسمع
وقل لي رأيك . أنا حريص على معرفة رأيك . لقد اندفعت أمس معهم
باتتظار وصولك . وكنت قد أعلنت لهم جميعاً أنك آت . بدأت المناقشة
بوجهة نظر الاشتراكيين . معروفة وجهة نظر الاشتراكيين . الجريمة
احتجاج على تنظيم اجتماعي غير سليم . ليست الجريمة شيئاً غير هذا .
ليس هناك أي باعث آخر على الجريمة .

صاح بورفير بتروفتش يقول :

— هأنت ذا تعود الى الاقتراء !

كان بورفير بتروفتش ينتعش امتعاشاً واضحاً ، ولا يكف عن الضحك وهو يلاحظ رازوميخين ، فكان ذلك يزيد هياج رازوميخين .
وتابع رازوميخين كلامه يقول محموماً :

— نعم ، ليس هناك أى باعث آخر ، فى نظر الاشتراكيين . أنا لا أقرى . سوف أريك كتبهم . هم يرون أن كل شىء ، أن كل شىء على الإطلاق ، إنما مردّه الى « جو البيئة السيء » ، لا أكثر من ذلك . نعم ، هذا هو تعبيرهم المفضل . وليس هناك الا خطوة واحدة بين هذا القول وبين الاعتقاد بأن جميع الجرائم ستزول دفعةً واحدة متى نُظِم المجتمع تنظيمًا سليماً . فمتى زالت أسباب الاحتجاج ، أصبح جميع الناس « صالحين » من تلقاء أنفسهم . ان الاشتراكيين لا ينظرون الى الطبيعة بعين الاعتبار ، بل يسقطونها من الحساب . هم لا يرون أن الانسانية هى التى تستصل من تلقاء ذاتها ، بتطور تاريخى « حى » ، الى أن تصبح مجتمعاً سليماً ، وانما يتصورون ظلماً اجتماعياً سوف يخرج من رأس عالم رياضى لا يدري أحد ما هو ، فاذا هو ينظم النوع الانسانى بأسره فى طرفة عين ، ويجعله صالحاً مبرأً من كل خطيئة ؛ وذلك طبعاً فى خارج أى تطور تاريخى ، حياتى ، حى . هذا هو السبب فى أنهم يبريزتهم يكرهون التاريخ : « ليس التاريخ الا أهوالاً كريهة وحماقات حقيرة » . هذا ما يقولونه . وهم يفسّرون كل شىء بالحماقة . وذلك هو السبب فى أنهم يكرهون تطور الحياة تطوراً حياً ، وينادون خاصةً بأن : « لا نفوس حية » . ان النفس الحية تتطلب الحياة ، فالنفس الحية لا تخضع للميكانيكا ، النفس الحية رِيَّابة ، النفس الحية رجسية ! لذلك تراهم يصنعون نفساً من كاو تشوك ينبعث منها تن الموت ، ولكنها ليست حيةً على الأقل ، يصنعون نفساً طيِّعة ذليلة لا تتمرد ! كل ذلك

في سبيل أن يصلوا الى حيث قادونا : الى تلك المجموعة من الآجر ،
المقسمة ممراتٍ وغرفاً ، التي يسمونها «تعاونية» ! * ان تعاونيتهم هذه
جاهزة ، والطبيعة وحدها هي التي لم تصبح جاهزة بعد ، لأنها تقتضى
الحياة ، لأنها لم تفرغ بعد من التطور الحياتي ، لأنها لم تذهب بعد للمقبرة !
ألا ان المنطق وحده لا يمكن أن يجعلنا نشب فوق الطبيعة ونخطأها • ان
المنطق يتصور ثلاث حالات ، مع أن الحالات ملايين ! أقتحذف هذه الملايين
كلها باسم قضية الرخاء وحدها ؟ لا شك أن حلَّ المشكلة بهذه الطريقة
هو أسهل الحلول ! كل شيء واضح : لم تبقى حاجة الى التفكير ! ذلك مفر
جذاب • فانما المهم أن لا نفكر • وفي الامكان بعد ذلك أن نحصر سر
الحياة كله في ورقتين مطبوعتين !

قال بورفير ضاحكاً :

- ما هو ذا يندفع • يجب تكييله !

ثم أضاف يقول ملتفتاً نحو راسكولنيكوف :

- تصوّر أن هذا نفسه هو ما حدث أمس ... وذلك في غرفة
تعلو فيها خمسة أصوات أو ستة ... وكان قد سقانا فوق ذلك حتى
سكرنا • هل تتصور ما حدث ؟ لا يا صاحبي ، أنت مخطئ • ... ان
• للبيئة ، دخلاً كبيراً في الجريمة • أستطيع أن أؤكد لك ذلك •

- أعرف أن للبيئة دخلاً كبيراً في الجريمة • ولكن قل لي : هب
رجلاً في الأربعين قد اغتصب بنتاً في العاشرة ، فهل البيئة هي التي دفعته
الى ارتكاب هذه الجريمة ؟

قال بورفير برصانة تثير الدهشة :

- بالمعنى الدقيق للكلمة ، يجوز أن نقول ان البيئة هي التي دفعته

الى ذلك • نعم ، ان اغتصاب بنت صغيرة يمكن جداً أن يعلّل بالتأثير
الذى تحدثه البيئة •

كاد رازوميخين أن يستعر غضبه استعاراً رهيباً • وزأر يقول :
- هذا هراء • ويمثل هذا الهراء أستطيع أن « أبرهن » لك على
أن السبب فى أن أهداك بيضاء هو أن ناقوس *كنيسة القديس يوحنا
بموسكو يبلغ علوه مائتين وثلاثين قدماً ، وأن أبرهن لك على ذلك
بوضوح ، وجلاء ، وأن أبرهن عليه برهاناً فيه تقدمية ، بل وفيه ليبرالية.
أتريد أن أبرهن لك على ذلك ؟ هل تراهن على آتى قادر أن أفعل ؟
- افعل ! سوف نرى كيف تستطيع أن تفعل !

- هتف رازوميخين يقول وهو ينهض بوثبة واحدة ، ويحرك
يده بإشارة تم على الأسف والمضض :

- ما أشدّ ولعه بالتمثيل والعبث ! لا حاجة الى الكلام معك ،
لا داعى الى هذا العناء ! ذلك أنه يفعل هذا عامداً ، أنت لا تعرفه بعد
يا روديا ! ولقد تحيّر أمس لهم ، ليسخر منهم ويعبت بهم ! الله يعلم
ماذا قال لهم أمس ! وما كان أشد سرورهم برؤيته منجازاً الى صفهم !
انه قادر على أن يظل يمثل خمسة عشر يوماً بغير انقطاع • فى السنة
الماضية ، روى لنا ، لسبب من الأسباب ، أنه سيصبح راهباً ، وظل يخذلنا
بهذه القصة شهرين كاملين • ومنذ مدة قصيرة ، أوهمنا بأنه سيتزوج ،
وقال انه هياً للاحتفال كل شىء • حتى لقد أوصى ببدلة جديدة ، وصدقناه
نحن وأخذنا نهشه • فماذا كان ؟ لم يكن هناك خطيبة ، لم يكن هناك
شىء البتة : سراب لا أكثر !

- أنت تكذب ! لقد أوصيت بالبدلة الجديدة أولاً ، والبدلة الجديدة
هى التى أوحى الى بفكرة تضليلكم جميعاً !

سأله راسكولنيكوف باعمال :

- أأنت تحب التفرير بالناس كل هذا الحب حقاً ؟
- أأنت تظن غير ذلك ؟ انتظر اذن ، فسوف ترى أنت أيضاً •
ها ها ها ! ولكن اسمع ، سأقول لك الحقيقة كلها : ان جميع هذه المسائل
التي دار عليها الحديث ، كمسألة الجريمة ، ومسألة البنات الصغيرات ،
ومسألة « البيثة » ، قد ذكرتها بمقالة لك منشورة ، مقالة شاققتي
دائماً على كل حال ، وعنوانها : « في الجريمة » • • • أو شيء من هذا
القليل • • • لا أذكر الآن • لقد أتبع لي منذ شهرين أن أستمتع بقراءة
تلك المقالة في مجلة « القول » الدورية •

هتف راسكولنيكوف يقول مدهوشاً :

- مقالتي ؟ في مجلة « القول » الدورية ؟ صحيح أنني ، منذ ستة
أشهر ، بعد تركي الجامعة ، كتبت مقالةً عن كتاب كان قد صدر منذ مدة
قصيرة ، ولكنني بعثت بالمقالة الى مجلة « القول » الأسبوعية ، لا الى مجلة
« القول » الدورية •

- لكنها نشرت في « مجلة القول الدورية » •

- لعل المجلة الأسبوعية لم تنشره في ذلك الحين لأنها توقفت عن
الصدور ؟

- نعم • ولكنها حين توقفت عن الصدور قد انصهرت في مجلة
« القول » الدورية ؛ وذلك هو السبب في أن مقالتك قد نشرت في المجلة
الدورية منذ شهرين ؟ أأنت تجهل ذلك ؟

كان راسكولنيكوف يجهل ذلك فعلاً •

قال له بورفير بتروفش :

- غريب • انك تستطيع أن تطالب المجلة بأجرك عن المقال •

ما أعجب طبعك ! أنت تعيش اذن فى عزلة كاملة فتجهل حتى الأمور التى
تصل بك من قرب . هذا واقع .

هتف رازومبخين يقول :

- مرحى روديا ! أنا أيضاً كنت أجهل هذا ! سأركض فى هذا
اليوم نفسه الى قاعة مطالعة ، فأطلب المقالة . هل ظهرت منذ شهرين ؟
ولكن فى أى يوم على وجه الدقة ؟ لا بأس ، سأجدها على كل حال .
هذه حكاية حقاً . أُنشر مقالة ولا تذكر عن ذلك شيئاً ؟
- ولكن كيف عرفت أن المقالة لى . أنا لم أوقّعها الا بالحروف
الأولى .

- عرفت ذلك عرضاً وعرفته فى الآونة الأخيرة فقط ، بفضل رئيس
التحرير الذى أعرفه . وقد شأقتنى المقالة كثيراً ، وأثارت اهتمامى .
- أذكر أنى حلّلت فى تلك المقالة الحالة النفسية التى يكون عليها
القاتل طوال مدة الجريمة .

- نعم ، كنت تقول ان تنفيذ الجريمة يُصحب دائماً بحالة نفسية
مرضية . وجهة نظر أصيلة ، أصيلة جداً ... ولكن هذا الجزء من
مقالتك ليس هو الجزء الذى أثار اهتمامى أكثر من غيره ، وانما أثارت
اهتمامى فكرة دستتها فى نهاية المقالة ، ولم تلبث عليها طويلاً ، وانما
أشرت اليها اشارة سريعة من سوء الحظ . وقد أردت أن أقول ، اذا
كنت تتذكر ذلك ، أن على الأرض أناساً يستطيعون ... لا يستطيعون
فحسب ... بل لهم كذلك حق مطلق فى أن يرتكبوا جميع أنواع
الأفعال الشائنة والجرائم ، وانه لا قيمة لأى قانون بالنسبة الى هؤلاء
الناس .

ابتسم راسكولنيكوف ازاء هذا الكلام الذى يؤول فكرته تأويلاً
مراوفاً •

سأل رازوميشين بنوع من النعر :

— ماذا ؟ ما هو الموضوع ؟ الحق فى ارتكاب الجريمة ؟ ولكن
لا بسبب « البيثة » على كل حال ، هه ؟
فأجابه بورفير :

— لا ، لا ، انك لم تفهم المقصود ؟ المسألة فى تلك المقالة هى أن
الناس فئتان : فئة العاديين ، وفئة الخارقين • فلما « العاديون » فيجب أن
يعيشوا طائعين خاضعين ، وليس لهم حق فى مخالفة القانون ، وذلك لأنهم
عاديون • وأما « الخارقون » ، فيحق لهم أن يرتكبوا جميع الجرائم وأن
يخالفوا جميع القوانين ، وذلك لأنهم « خارقون » • أكان هذا رأيك أم
ترانى مخطئاً ؟

دمدم رازوميشين يقول :

— ولكن كيف ؟ ليس من الممكن ••• أن يكون الأمر كذلك •••
وابتسم راسكولنيكوف ابتسامة ساخرة من جديد • لقد أدرك فوراً
ما الذى يريد أن يبلغه بورفير ، ما الذى يريد أن يستدرجه اليه أو أن
يستخرجه منه • وكان يتذكر مقالته • وقرر أن يرد على التحدى بمثله •
بدأ يتكلم فقال بلهجة بسيطة متواضعة :

— ليس هذا ما أردت أن أقوله على وجه الدقة • على أتى أعترف
بأنك عرضت فكرتى عرضاً أميناً ، بل وأميناً كل الأمانة اذا شئت (كأنه
كان يسره أن يوافق على أن فكرته قد عُرِضت عرضاً أميناً كل الأمانة) •
والفرق الوحيد هو أنني لم أقطع بأن جميع الخارقين يجب عليهم أن
يرتكبوا دائماً جميع أنواع الجرائم كما تقول • ولو قد فعلت ذلك لمنعت

الرقابة نشر المقالة فيما يخيّل الى . كل ما أوجيت به هو أن الانسان الخارق يملك الحق . . . لا الحق الرسمي بل الحق الشخصي في أن يأذن لضميره بتخطي بعض الحواجز . . . وذلك في حالة واحدة هي الحالة التي يتطلب فيها تنفيذ فكرته هذا التخطي (وهي فكرة قد يتوقف عليها سلام النوع الانساني) . أنت تدعى أن مقاتلي غير واضحة ، فأنا مستعد لأن أشرحها لك في حدود الامكان . ولعلني لا أخطئ اذ افترض أن هذه هي رغبتك . فليكن لك ما تشاء ! . . في رأيي أنه لو كانت اكتشافات كبلر أو نيوتن ، بسبب تضافر ظروف معينة ، ما كان لها أن تتحقق الا اذا ضُحّي في سبيلها بحياة فرد أو عشرة أفراد أو مائة فرد بل بحياة عدد من الأفراد أكبر يعيقون تحقيقها أو يقفون حائلاً دونها ، فانه يكون من حق نيوتن بل ومن واجبه . . . أن « يزيع » أولئك الأفراد العشرة أو المائة في سبيل أن ينفع الانسانية باكتشافه . ولكن ليس يترتب على هذا قط أن من حق نيوتن أن يقتل اى انسان يحلو له أن يقتله ، ولا أن يسرق كل يوم من أحد الأسواق . وأذكر أنني أوضحت في مقالتي أن جميع المؤسسين والمشرّعين في تاريخ الانسانية ، من أقدمهم الى أحدثهم ، مروراً بأمثال ليسورجوس وسولون ومحمد ونابليون وغيرهم ، يمكن أن يوصفوا جميعاً بأنهم مجرمون ، لأنهم حين أقاموا قانوناً انما خالفوا بذلك نفسه قانوناً قديماً كان يُعدّ مقدساً وكان موروثاً عن الأسلاف ؟ وما كان لهم طبعاً أن يمتنعوا عن سفك الدم (مهما يكن بريئاً في بعض الأحيان ، ومهما يكن قد بُدّل بدلاً بطولياً في سبيل القانون القديم) حين يسهّل سفك هذا الدم مهمتهم ؟ بل ويحسن أن نلاحظ أن أكثر هؤلاء الرواد الذين أحسنوا الى الانسانية وأصلحوا المجتمع انما كانوا أناساً شاذين دمويين . وأوجز فأقول انهم جميعاً ، لا أعظمهم فحسب بل الذين يطعنون أقل علو فوق الحد الوسط أيضاً ، أى الذين

فادريين ولو قدرة يسيرة على التعبير عن أفكارهم الجديدة ، انما كانوا مضطرين بحكم طبيعتهم نفسها الى أن يكونوا قلة ، قليلاً أو كثيراً طبعاً ؛ ولولا ذلك لما استطاعوا أن يخرجوا عن الحد الوسط ، وهم بحكم طبيعتهم أيضاً ما كان لهم أن يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط ؛ بل وفي رأيي أنه كان من واجبه أن لا يقبلوا البقاء عند هذا الحد الوسط .

الخلاصة : ها أنت ذا ترى أنه ليس فيما قلته حتى الآن شيء جديد كل الجدة . أما عن تقسيمى الرجال الى فئتين ، فئة العاديين وفئة الخارقين ، فاننى أوافق على أن فى هذا التقسيم شيئاً من التحكم ، ولكننى لم أقدم أرقاماً أيضاً . وأنا انما أومن بفكرتى الرئيسية ، وهى أن الرجال ينقسمون ، بحكم قوانين الطبيعة ، الى فئتين ، « بوجه عام » : فئة دنيا هى فئة العاديين الذين لا وجود لهم الا من حيث أنهم مواد إن صح التعبير ، وليس لهم من وظيفة الا أن يتناسلوا ، وفئة عليا هى فئة الخارقين الذين أوتوا موهبة أن يقولوا فى بيئتهم « قولاً جديداً » . ولا شك أن هناك تقسيمات فرعية لا حصر لعددتها ، ولكن السمات المميزة التى تفصل هاتين الفئتين قاطعة . فأما الفئة الأولى ، وهى فئة المواد ، فان افرادها ، على وجه العموم ، أناس « خلقوا محافظين » ، أناس معتدلون يعيشون فى الطاعة ويحلوا لهم أن يعيشوا فى الطاعة . وعندى أن عليهم أن يطيعوا ، لأن الطاعة هى ما كُتب لهم ، وليس فى طاعتهم ما يسىء اليهم أو يذل كرامتهم . وأما الفئة الثانية فهى تتألف من رجال يتميزون بأنهم جميعاً يكسرون القانون ، بأنهم جميعاً مدمرون ، أو بأنهم جميعاً مبالغون الى أن يصبحوا كذلك بحكم ملكاتهم . وجرائم هؤلاء الرجال متفاوت خطورتها وتنوع أشكالها طبعاً . وأكثرهم يريدون ، بأساليب متنوعة جداً ، تدمير الحاضر فى سبيل شيء أفضل . فاذا وجب على أحدهم ، من أجل تحقيق فكرته ، أن يخطو فوق جثة ، أو فوق بركة دم ، فانه

يستطيع (فى رأى) أن يعزم أمره على أن يخطو فوق الجثة وفوق بركة
الدم مرتاح الضمير ؟ وكل شئ رهن بمضمون فكرته ، وبما لها من أهمية
طبعاً . بهذا المعنى وحده انما تحدثت فى مقالتي عن حق ارتكاب الجريمة
(انك تذكر أن نقطة البداية التى انطلقنا منها انما كانت مسألة حقوقية) .
على أنه لا داعى الى القلق كثيراً . فان الجمهور لا يكاد يعترف لهؤلاء
الرجال أبداً بهذا الحق . بالعكس : ان الجمهور يضطهدهم ويشنقهم
(كثيراً أو قليلاً) ، وهو فى هذا يمارس حقه ، ويقوم بوظيفته كجمهور
محافظ ، رغم أن الأجيال اللاحقة من هذا الجمهور نفسه ستخلد ذكر
أولئك المضطهدين المذبذبين ، فقيم لهم التماثيل ، وتقديسهم (كثيراً أو
قليلاً) . فالقمة الأولى من الرجال هى سيدة الحاضر ، والقمة الثانية هى
سيدة المستقبل . الأولون يحفظون العالم ويزيدونه كماً ، والآخرين
يحركونه ويقودونه الى غاية . ولهؤلاء وأولئك حق واحد فى الحياة .
أى ان لهم كلهم حقوقاً متساوية ، و عاشت الحرب الأبدية ! ، الى أن
تقوم أورشليم الجديدة طبعاً !

- أأنت تؤمن اذن بأورشليم الجديدة ؟

أجاب راسكولنيكوف بصوت ثابت :

- أؤمن !

قال ذلك خافضاً رأسه مثبتاً بصره على نقطة من السجادة ، كما كان

طوال مدة حديثه المستفيض .

- وهل تؤمن بالله أيضاً ؟ اغفر لى فضولى !

فأجاب راسكولنيكوف وهو يرفع بصره الى بورفير :

- أؤمن به .

- وهل تؤمن ببعث لعازار ؟

- أو ... أو من به • ولكن لماذا تسألني عن هذا كله ؟

- هل تؤمن بذلك نصاً وحرفاً ؟

- نصاً وحرفاً !

- صحيح ؟ اغفر لي فضولي • لقد سألتك عن هذا كله من باب حب
الاطلاع • ولكن استمع لي • سوف أعود الآن الى ما كنت أقوله • أنا
أرى أن الجمهور لا يضطهدهم ويمذبهم جميعاً • بالعكس : بعضهم ...
- بعضهم ينتصرون أثناء حياتهم ؟ ... نعم بعضهم يحققون غاياتهم
أثناء حياتهم ، وعندئذ فانهم هم الذين ...

- هم الذين يرسلون الآخرين الى التعذيب ...

- نعم ، اذا لزم الأمر ... وأكثرهم يفعلون ذلك حقاً • ملاحظتك
هذه ... لطيفة جداً •

- أشكرك • ولكن قل لي : كيف تميّز هؤلاء الخارقين عن أولئك
العاديين ؟ هل هم يحملون علامات خاصة منذ ولادتهم ؟ أقصد أنه لا بد
من دقة أكبر ، أي لا بد من علامة مميزة واضحة • اغفر لي هذا
الاهتمام ، وهو اهتمام طبيعي لدى رجل عملى يريد الخير • ألا يمكننا
مثلاً أن نلبسهم رداءً خاصاً ، أن نخلع عليهم زياً موحداً ، أن تميّزهم
بعلامة فارقة ؟ اذ لا بد أن تسلم معي بأنه اذا حدث اختلاط ، فتخيل
رجل من رجال الفئة الأولى أنه ينتمي الى الفئة الثانية ، فأخذ « يزيع »
جميع العوائق ، على حد تمييزك الموفق ، فان ...

- صحيح ... هذا يحدث كثيراً • ملاحظتك هذه ألطف من
سابقتها أيضاً •

- أشكرك •

— لا داعى الى الشكر • ولكن لاحظ أن هذا الخطأ لا يمكن أن يقع الا لأفراد الفئة الأولى ، أى فئة العاديين (الذين لعلى لم أوفق كثيراً حين أطلقت عليهم هذا الاسم) : ان كثيراً من هؤلاء العاديين ، رغم ميلهم الفطرى الى الطاعة ، يمكن أن نلاحظ فيهم نزوةً من تلك النزوات التى نلاحظها فى الطبيعة ، ونلاحظها حتى لدى الأبقار ، فإذا هم يحبون أن يحسبوا أنفسهم رجالاً من الطبيعة ، رجالاً مدمرين ، وإذا هم يقحمون أنفسهم فى الدعوة الى « القول الجديد » ، صادقين مخلصين من جهة أخرى • وكثيراً ما يحدث لهم فى الوقت نفسه أن لا يتعرفوا بأولئك الذين هم مجدّدون حقاً ، حتى لقد يعدونهم أناساً منحطين ، رجعيين ، جديرين بالاحتقار • ولكنى أعتقد أن هذا ليس فيه خطر كبير ، فما ينبغي لك أن تقلق ، وذلك لسبب بسيط هو أن هؤلاء لا يقطعون شوطاً بعيداً فى يوم من الأيام ، وفى وسعك طبعاً ، من أجل أن تعاقبهم على حماسهم الطائشة ، وأن تردّهم الى مواقعهم ، فى وسعك أن تجلدتهم أحياناً • ولكن هذا كل شيء ؛ بل انه لا حاجة الى أن يتولى أحد هذه المهمة ، فانهم يجلدون أنفسهم بأنفسهم ، لأنهم أناس أخلاقيون جداً ، فبعضهم يجلدون أنفسهم بأيديهم ، وبعضهم يطلبون الى أقرانهم البشر أن يؤدوا لهم هذه الخدمة • ثم انهم يفرضون على أنفسهم أنواعاً من الكفارات على رموس الأشهاد فيكون هذا درساً مفيداً وعبرة جميلة •

الخلاصة : ليس عليك أن تقلق • ذلك هو القانون !

— حسناً ! لقد طمأنتنى من هذه الناحية قليلاً على كل حال • ولكنى أرى خطراً آخر • قل لى من فضلك : هل هم كثيرون أولئك الأفراد الذين يحق لهم أن يذبخوا غيرهم ، هل هم كثيرون أولئك « الخارقون » ؟ اننى مستعد طبعاً لأن أخضى احتراماً لهم ، ولكن لا بد

أن توافقني على أن المرء لا بد أن يشعر برعدة تسرى في ظهره اذا هم كانوا كثيرين ؟ أليس كذلك ؟

تابع راسكولنيكوف كلامه قائلاً : بتلك اللهجة نفسها :

- لا تقلق من هذا أيضاً . فعلى وجه العموم ، لا تولد الا قلة قليلة جداً من هؤلاء الأفراد الذين يملكون فكرةً جديدةً حقاً ، أو يقدرّون على أن يصبروا عن فكرة جديدة . هنالك شيء واحد محقق ، هو أن نسبة الأفراد الذين يولدون في هذه الفئة أو تلك لا بد أنها يحدّها قانون طبيعي ما تحديداً دقيقاً . وهذا القانون ما يزال حتى الآن مجهولاً ، ولكنني أعتقد أنه موجود ، وأنه سيتمكن اكتشافه في المستقبل . ولئن وُجدت كتلة من الأفراد تبلغ هذا المبلغ من الضخامة ، فما ذلك الا لمحاولة خلق انسان مستقل بعض الاستقلال ، ولو بنسبة واحد الى ألف ، وذلك بتطور ما يزال سرياً مجهولاً ، وبواسطة أنواع شتى من تصالّبات عروق وأنواع ، الخ . أما الأفراد الذين يملكون استقلالاً أكبر فان نسبتهم أصغر من ذلك : هم واحد بين عشرة آلاف (أتكلّم على وجه التقريب) . وأما الأفراد الذين يملكون درجةً عليا من الاستقلال فان نسبتهم أصغر من ذلك أيضاً : هم واحد بين مائة ألف . وأما العباقرة فلا يوجد منهم الا واحد بين مليون . وأما كبار العباقرة ، الذين هم قمة النوع الانساني ، فلا بد أن تنتظر أن تمر على الأرض ألوف ملايين الأفراد حتى يظهر منهم واحد . أنا لم أقم طبعاً بجولة في البوتقة التي يتم فيها هذا كله ، ولكن القانون موجود ، ولا بد أن يكون هناك قانون من هذا النوع . فلا مصادفة هنا !

صاح رازوميشين يقول أخيراً :

- قولاً لي : أأتما تمزحان ؟ أأتما بسبيل أن يخدع كل منكما

الآخر ؟ ان كلاً منهما جالس أمام صاحبه يستهزئ به ويضحك عليه !
أأنت تتكلم جاداً يا روديا !

رفع راسكولنيكوف وجهه الشاحب نحو رازوميخين صامتاً ، حزينا ،
ولم يجب بشيء . فلما رأى رازوميخين هذا الوجه الهادئ المتألم ،
استغرب تلك اللهجة اللاذعة القظة « المتحدية » التي استعملها بورفير .
قال رازوميخين :

– طيب يا صاحبي ، اذا كنت تتكلم جاداً ... فمن حقك طبعاً أن
تقول ان هذا كله ليس فيه جديد ، فهو يشبه ما قرأناه وسمعناه ألف
مرة . ولكن الشيء « الجديد » حقاً في الأمر ، الشيء الذي تتفرد به –
وهذا ما أشعر منه بهول ورعب – هو أنك تجد أن من الطبيعي أن يسفح
انسان دماً وهو واع كل الوعي ، وأنت تدافع عن هذا الرأي بمثل هذا
التعصب كله ... سامحني . معنى ذلك أن هذه هي الفكرة الأساسية
التي تتضمنها مقالاتك . وأنا أرى أن هذا السماح « الأخلاقي » بسفح
الدم ، أقطع حتى من السماح بسفح الدم رسمياً أو شرعياً .
قال بورفير :

– صحيح تماماً . هو أقطع منه .

وقال رازوميخين يخاطب راسكولنيكوف :

– لا ، لا ، لقد سمحت لنفسك بالاندفاع في مزالق الخطأ . هناك
خطأ . سوف أقرأ المقالة . حقاً لقد أسرفت في الغلو . لا يمكن أن يكون
هذا تفكيرك . سوف أقرأ المقالة ...

قال راسكولنيكوف :

– ليس في المقالة شيء من هذا كله . المقالة لا تتضمن الا اشارة .
قال بورفير وقد أصبح لا يستطيع أن يستقر في مكانه :

- نعم ، نعم ، الآن أصبحت أدرك رأيك في الجريمة بشيء من
الوضوح . اغفر لى الحاحى (أنا أعرف أنتى أضايك) . لقد طمأنتى
منذ قليل فى موضوع الاختلاط الذى يمكن أن يحدث بين الفتتين .
ولكن ... هناك حالات تظل تقلقنى من وجهة النظر العملية . لنفرض
أن رجلاً أو شاباً يعد نفسه مثل ليكوريوس أو مثل محمد . انه سوف
يشرع فوراً فى « ازاحة » جميع العوائق . سوف يقول : ان على عاتقى
أن أقوم بحملة بعيدة ؟ ومن أجل القيام بحملة لا بد لى مال . ولذلك
سوف يبدأ بالحصول على المال للقيام بحملته . واضح ؟
هنا انفجر زامبوتوف ضاحكاً فى ركنه ضحكاً قوياً على حين فجأة .
ولكن راسكولنيكوف ظل ساكناً ، حتى أنه لم يرفع نحوه عينيه .
وأجاب يقول بلهجة هادئة :

- أعترف بأن حالات كهذه لا بد أن تقع فلأ . ان الحقيقى
والمغربين يقومون فى هذا الفخ ، ولا سيما اذا كانوا شباباً .
- أرايت ؟ فماذا اذن ؟

أجاب راسكولنيكوف ضاحكاً :

- ما شأنى أنا ؟ أنا لا دخل لى ! هكنا انما جرت الأمور دائماً .
قال هو منذ قليل (هنا أوماً راسكولنيكوف الى رازومخين) انتى أبيع
سفع الدم . ما قيمة ذلك ؟ ان المجتمع تحميه المنافى والسجون وقضاة
التحقيق والمعتلات ؟ فعلام القلق ؟ طاردوا السارق !
- واذا قبضنا عليه ؟

- يجب أن يتبع لكم أن قبضوا عليه .
- أنت منطقى . ولكن ماذا عن ضميره الأخلاقى ؟
- فيم يظنكم ضميره الأخلاقى ؟

— مسألة إنسانية •

— من كان له ضمير أخلاقي فليس له إلا أن يتعذب اذا هو اعترف
لنفسه بخطيئته • سيكون هذا عقاباً له ، بالإضافة الى السجن •

سأل رازوميشين وهو يقطب حاجبيه :

— والأشخاص الذين يملكون العبقريّة حقاً ، الأشخاص الذين
أعطوا حق القتل ، هل يجب عليهم أن لا يتألوا البتة ولو سفحوا دمًا ؟

— لماذا تستعمل تعبير " يجب عليهم " ؟ ليس هنا لا اذن ولا منع •
ألا فليتألم من تأخذه بضحية شفقة ! لا بد أن يتألم من كان واسع الوجدان
عميق الشعور •

ثم أضاف راسكولنيكوف يقول فجأة وقد شرد فكره واختلفت
هيئة عما كانت عليه أثناء الحديث :

— يخيّل الىّ أن الرجال العظماء لا بد أن يشعروا على هذه الأرض
بهزن عظيم •

ورفع راسكولنيكوف عينيه ونظر الى الجميع مفكراً ، وابتم ،
وتناول قبعته • كان هادئاً هادواً كبيراً بالقياس الى الحالة التي كان عليها
حين دخل ؟ وكان يحس هو بذلك •

نهض الجميع •

واستأنف بورفير بتروفتش كلامه فقال :

— لك أن ت تمنى ولك أن تقضب ان شئت ؟ ولكنى لا أستطيع أن
أغالب رغبتى فى أن ألقى عليك سؤالاً آخر صغيراً • أنا أعلم أنتى أرهقتك
ارهاقاً شديداً ، ولكنى أحب أن أعبر لك عن فكرة صغيرة راودتى
وأخشى أن أنساها ...

— هات فكرتك الصغيرة •

كذلك قال له راسكولنيكوف جاداً ، شديد شحوب الوجه ، وهو واقف أمامه ينتظر •

— اليك فكرتى ••• ولكننى لا أعرف حقاً كيف أُعبّر عنها تعبيراً مناسباً ••• ان فكرتى الصغيرة تافهة قليلاً ••• هى فكرة سيكولوجية ••• اسمع : انه لمن المستحيل عليك أثناء كتابتك تلك المقالة أن لا تكون ••• هىء هىء هىء ••• أن لا تكون قد عدت نفسك ••• انساناً خارقاً بعض الشيء ••• انساناً يحمل « القول الجديد » ، بالمعنى الذى قصدته ، أليس هذا صحيحاً ؟

قال راسكولنيكوف باحتقار :

— جائز جداً •

وتحرك رازومихين •

وعاد بورفير بتروفتش يتكلم فقال :

— فإذا كان الأمر كذلك ، أفلا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك ، فى أعقاب اخفاق شخصي ما ، أو للخلاص من الفقر ، أو أيضاً لتسجيل سير الانسانية الى أمام ، لا يمكن أن تكون قد قررت أنت نفسك أن تتخطى الحاجز ••• ف ••• تقتل مثلاً أو تسرق •••؟

قال بورفير بتروفتش هذا وغمز بعينه اليسرى وأخذ يضحك ضحكاً خفيفاً ، كما فعل منذ قليل •

فأجابه راسكولنيكوف بلهجة متكبرة متحدية :

— اذا كنت قد تخطيت الحاجز فلن أقول لك اننى تخطيته •

— ان أمراً واحداً يهمنى ، هو أن أحسن تأويل مقالتك ، وأن أحسن ذلك من الناحية الأدبية وحدهما •

قال راسكولنيكوف لنفسه : « هوه ! يا للشرك القذر ! » •

وقال يجيب مخاطبه بخشونة :

— اسمع لى أن ألفت نظرك الى أنتى لا أعد نفسى لا مثل محمد
ولا مثل نابوليون ••• ولا مثل أى شخص من هذا النوع !••• واذا أنتى
لست واحداً من هؤلاء الأشخاص ، فانتى لا أستطيع أن أقدم اليك جواباً
مرضياً ، فأقول لك ما الذى يمكن أن أفعله •
قال بورفير بتروفتش فجأة بألفة مخيفة :
— دعك من هذا الكلام ! أى واحد منا ، فى روسيا ، لا يعد نفسه
اليوم مثل نابوليون ؟

وكان فى نبرة صوته نفسها ما يدل على نية واضحة جداً •
ورشق زامبوتوف من ركه هذا السؤال :

— ألا يمكن أن يكون واحد ممن يمدون أنفسهم مثل نابوليون
فى المستقبل هو الذى قتل آليونا ايغانوفا فى الأسبوع الماضى ؟
صمت راسكولنيكوف وحدّث الى بورفير بنظرة ثابتة قاسية • واكنهر
وجه رازوميخين • كان رازوميخين قد بدأ يشتبه منذ برهة • ونظر
حواليه غاضباً • وانقضت دقيقة فى صمت قاتم • وتحرك راسكولنيكوف
يريد أن ينصرف •

قال بورفير بلهجة رقيقة عذبة :

— أتصرف ؟

ومدّ اليه يده بكثير من التحبب والتودد • وتابع يقول له :

— سعيد جداً ، سعيد جداً بمعرفتك • أما عن مطالبتك برهنيك ،
فكن مطمئناً : يكفى أن تكتب عريضةً بالمعنى الذى أشرت به عليك •

نعم • بل ربما كان الأفضل من ذلك أيضاً أن تأتي الى ، فى يوم قريب
••• فى الغد مثلاً ••• سأكون بمكتبى حتماً فى نحو الساعة •••
الحادية عشرة • سنرتب الأمر كله ، وسترثر قليلاً ••• فاذ أنك واحد
من أواخر من ذهبوا الى « هناك » ، فانك قد تستطيع أن تقول لنا شيئاً ما
(هذا ما أضاف يقوله وهو يصطنع كل الطيبة وكل البساطة) •

سأله راسكولنيكوف بلهجة خشنة :

— أتريد أن تستجوبنى رسمياً ، وفقاً للأصول ؟

• — قيم أستجوبك على هذا النحو ؟ لا تدفعنى الى هذا أية ضرورة
حتى الآن • طبعاً ••• أنا لا أدع لأية فرصة تفلت منى ••• وقد تحدثت
الى جميع الذين أودعوا رهوناً لدى العجوز • حتى لقد استطعت أن
أحصل على بعض الدلائل • ولما كنت أنت آخر هؤلاء ••• ولكن بالمناسبة
(هتف يقول ذلك فجأة فى غمرة من الفرح) بالمناسبة ••• الآن تذكرت
••• ماذا أريد أن أقول ؟ ••• (هنا التفت يخاطب رازوميشين) •••
نعم يا رازوميشين ••• ان القتي نيكولاشكا ذاك الذى صدعت به رأسى
••• قد ثبت لى اليوم ••• على وجه اليقين (وهنا عاد يلتفت الى
راسكولنيكوف) أنه برى ••• ولكن ما حيلتى ؟ لقد كان لا بد لى أيضاً
من ازعاج ميتكا ••• والآن اليك ما كنت أريد أن أسألك عنه : حين
صدعت السلم ، كانت الساعة بين السابعة والثامنة ، أليس كذلك ؟

أجاب راسكولنيكوف :

— نعم ، كانت الساعة قد تجاوزت السابعة •

وسرعان ما أدرك راسكولنيكوف ممتعضاً أنه كان فى وسعه أن
لا يذكر هذا •

— ألم ترَ ، وأنت تصعد السلم ، بعد الساعة السابعة ، فى شقة كان

بابها مفتوحاً - هل تذكر ؟ - ألم ترَ عمالاً كانوا يعملون في تلك
الشقة ، أو عمالاً منهم على الأقل ؟ هم دهانون كانوا يدهنون الشقة ،
ألم تلاحظهم ؟ هذا أمر هام جداً ، هام جداً بالنسبة إليهم .
أجاب راسكولنيكوف يقول ببطء ، كأنه ينيش ذاكرته ، وهو
يحاول بجهد مرهق أن يكتشف الفخ الذي ينصبه له مخاطبه ليتحاشى
الوقوع فيه :

- دهانون ؟ لا ، لم أر دهانين . لا ، لم أرهم . ثم اتنى لا أذكر
أتنى رأيت شقة كان بابها مفتوحاً . ولكننى فى مقابل ذلك (هو يشعر
الآن بأنه تجنب الفخ وهو فرح بذلك) أذكر أن موظفاً كان يتقل فى
الطابق الثالث من الشقة التى تقع أمام شقة آلونا إيفانوفنا . اتنى أذكر
هذا ، بل أذكره واضحاً كل الوضوح كان هناك جنود يحملون
أريكة ، فاضطرت أن التصق بالحائط . ولكننى لم أر دهانين ، لا ،
لا أذكر أتنى رأيت دهانين . ويخيل إلى أنه لم يكن أى باب من الأبواب
مفتوحاً . لا ، لم يكن هناك باب مفتوح لم يكن هناك باب
مفتوح

صاح رازومихين يقول فجأة كأنه تاب الى رشده أخيراً وفهم فى
هذه اللحظة نفسها ، صاح يقول مخاطباً بورفير :

- ولكن ما هذا الذى تقوله ؟ أمت تعلم أن الدهانين كانوا يعملون
يوم مقتل العجوز ، أما هو فقد ذهب الى العجوز قبل ذلك بيومين . فما
هذا السؤال الذى تلقى عليه ؟

فهتف بورفير قائلاً وهو يلطم جبينه :

- آ نعم اختلط على كل شىء نبأ لى . ان هذه القضية
قد أفقدت صوابى .

والتفت يقول لراسكولنيكوف كأنما يعتذر :

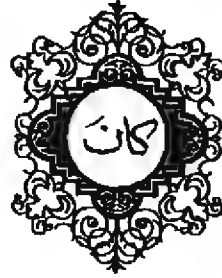
- انتهى من فرض اهتمامي بأن أعرف هل رأى أحدٌ أولئك
الدهانين بعد الساعة السابعة في الشقة ، قد تخيلت أنك تستطيع أن تجيب
عن هذا السؤال ... نعم ، لقد اختلط على كل شيء .

قال رازومихين غاضباً :

- يجب عليك أن تتبه !

وقد قيلت هذه الكلمات الأخيرة حين وصلوا الى حجرة المدخل .
لقد شيعهما بورفير بتروفتش الى الباب بتودد كبير ولطف بالغ . فلما
صارا في الشارع كان كل منهما مظلم النفس متجهم الوجه . وسارا
بضع خطوات لا ينطقان بكلمة واحدة . وتنفس راسكولنيكوف تنفساً
عميقاً ...

الفصل السادس



رازومبخين يردّد قائلاً في حيرة واضطراب
وهو يحاول أن يدحض حجج راسكولنيكوف
بكل ما أوتي من قوة :

ـ أنا لا أصدق هذا ! لا أستطيع أن أصدقته !
كانا قد اقتربا من عمارة باكاليف ، حيث تنتظرهما بولشيريا
الكسندروفنا ودونيا منذ مدة طويلة • وفي غمرة المناقشة الحامية ، كان
الفتى يتوقف في كل لحظة مضطرباً قلقاً ، على الأقل لأن هذه هي المرة
الأولى التي يتحدثان فيها صراحةً عن « ذلك الأمر » •
أجاب راسكولنيكوف وهو يتسهم ابتسامة باردة جافة :

ـ لا تصدّق ! أنت على عادتك لم تلاحظ شيئاً ، أما أنا فقد كنت
أذن كل كلمة •

ـ أنت شكاك ريتاب ، لذلك كنت تزن كل كلمة • هم •••
أوافقك على أن لهجة بورفير كانت غريبة بعض الغرابة ••• وأن ذلك
الوغد زامبوتوف خاصة ••• انك على حق ••• لقد كان فيه شيء من ،
شيء من ••• ولكن لماذا ؟ لماذا ؟
ـ سيفكر أثناء الليل !

ـ ولكن لا ، بالعكس ، بالعكس ! لو كانت تدور في ذهنيهما فكرة
كهذه الفكرة الغبية ، لحاولا ، على العكس ، أن يخفياها بجميع الوسائل ،

لحاولا أن يكتماها ليفاجثاك بها فيما بعد ، أما ما فعلاه فقد كان ... كان
وقاحةً ، وقاحةً ...

- لو كانا يملكان وقائع ، أقصد وقائع حقيقية ، أو شبهات تقوم على
أى أساس من وقائع ، لحاولا أن يخفيا ما يدور فى ذهنيهما (ولقاما من
جهة أخرى بتفتيش مسكنى منذ مدة طويلة) . ولكنهما لا يملكان
وقائع ، لا يملكان أية واقعة . ليس هذا كله الا سراياً ... هذا كله
لا رأس له ولا ذنب ! .. هذا كله لا يقوم على شيء ولا يستند الى شيء ،
لذلك لا يعمدان الى طريقة المباغتة . لعله هو نفسه غاضب من أنه
لا يملك أية واقعة . لعل هذا هو السبب فى حنقه وغضبه . وربما كان
كذلك يبيّت نية خفية خبيثة . هذا رجل ذكى ، كما يبدو لى أنا على
الأقل ... لعله أراد تخويفى باظهار أنه يعرف أشياء ... يا صاحبي ،
الأمر هنا أمر سيكولوجيا شخصية . على كل حال ... فان جميع هذه
التفسيرات والتأويلات تثير اشمئزازى . هلاً تركنا هذا الحديث كله !

- ثم ان فى كلامه اهانة ، اهانة ! أنا أفهمك . ولكن ما دنا قد
بدأنا التحدث بصراحة (وانه لحسن جداً أننا وصلنا الى ذلك ، وأنا
معتبط بهذا أشد الاعتباط) ، فأحب أن أعترف لك دون لف أو دوران
أنتى قد لاحظت منذ مدة طويلة أن هذه الفكرة تدور فى ذهنيهما . ولكن
لا شك أنها لم تكن قد تجسدت بعد ، وأنها لم يكن لها الا وجود كامن .
على أن وجودها فى ذهنيهما حتى فى هذه الصورة أمر لا يطلق . كيف
يجرؤان ؟ أين ، فى أى جزء من نفسيهما استطاعت هذه الفكرة أن تجد
لها عشاً ؟ لىك تعلم كم أحنقنى هذا وكم أثار جنونى ! طالب فقير دمرته
أنواع البؤس وصنوف الهواجس والمخاوف .. على وشك الاصابة بمرض
مصحوب بهذيان ... بل لعل المرض كان قد ألمّ به منذ ذلك الحين

(لاحظ هذا) ... شاب مفرد في الشك والحذر ، شديد
الكبرياء شاعر بقيمته ، ظل مدفوناً في ركنه ستة أشهر لا يرى
في أثنائها أحداً ... قد بليت ثيابه حتى أصبحت خرقاً رثة لا تستر
ظهره ، وبلى حذاءه حتى اهترأ فكأنه حافي القدمين ... شاب
هذا شأنه يجد نفسه واقفاً على حين فجأة أمام رجال من الشرطة تافهين
يصبو عليه وقاحتهم ، ويطالبونه بأن يبادر الى سداد قيمة سند باطل ...
ورائحة الدهان الطرى تزكم أنفه ... والحرارة ثلاثون درجة في
غرفة غاصة بالناس ، فلا يكاد يستطيع أن يتنفس ... وما هو ذا يسمع
حديثاً عن مقتل امرأة كان قد رآها بالأمس ... وهو فوق ذلك خاوي
المعدة ... أفعجب أن يغمى على هذا الشاب حينذاك ؟ كيف ينون
كل تلك الافتراضات السخيفة على اغمائه ذاك ؟ شيطان يأخذهم ! ...
اسمع يا روديا ! أنا أدرك أن هذا أمر يثير الغيظ . ولكنني لو كنت في
مكانك لما زدت على أن أضحك منه ... لما زدت على أن أضحك عليهم ،
أمام أنوفهم ، بل وأن أبصق في وجوههم ... أن أرمي وجوههم بسيول
من البصاق ، وأن أكيل لهم صفعات يحسون بها احساساً قوياً ... ابصق
عليهم ! أقول لك ابصق عليهم ! لا تخف ! ... اجعلهم يشعرون بالخزي
والعار !

قال رامكولينكوف يحدث نفسه : • تكلم فأحسن الكلام على كل
حال ! •

ثم قال لرازومخين بمرارة :

— أبصق عليهم ؟ ولكنني سأخضع في غد لاستجواب جديد • هل
يجب على حقاً أن أصل الى حد تقديم شروح وتعليلات ، بينما أنا
سأخط على نفسي منذ الآن لأنني أهنت نفسي اذ ارتضيت أن أكلم
زاميوتوف بالأمس في الكاباريه ؟

- شيطان يأخذهم • سأذهب الى يورفير بنفسى • ولأصرفنّ معه
تصرف • قريب من أقربائه • ، صدّقنى • لا بد أن يفرغ جعبته • أما
زاميوتوف ...

قال راسكولنيكوف لنفسه : « أخيراً فهم • ،
وصاح رازومبخين قائلاً وهو يمسكه من كتفه :

- انتظر ! انتظر ! لقد قلت حماقة من الحماقات • نعم ، فكّرت
فى الأمر ، فأيقنتُ أنك قلت حماقة من الحماقات • ما هذا الذى تذكره
عن فتح نصب لك ؟ أين الفخ فى هذا ؟ أنت تزعم أن مسألة العمال هذه
فتح • ولكن فكّر قليلاً : لو كنت قد فعلت « ذلك الأمر » ، أفكنت
تستسلم فتذكر أن الشقة كانت تُدهن ... وأنك فوق ذلك قد رأيت
العمال ؟ بالعكس • ما كنت لتذكر أنك رأيت عمالاً ، حتى ولو كنت
قد رأيتهم • من ذا الذى يشهد على نفسه ؟

أجاب راسكولنيكوف يقول على مضض ، مشمئزاً اشمئزاً
واضحاً :

- لو كنت قد فعلت « ذلك الأمر » ، لذكرت حتماً أننى رأيت
العمال والشقة •

- ولكن لماذا يشهد المرء على نفسه ؟

- لأنه ما من أحد غير الفلاحين السذج أو الأغرار الذين ليس
لهم خبرة ينكر كل شيء على الإطلاق حين يُستجوب • أما الانسان الذى
يملك ولو أقل قدر من الذكاء والخبرة ، فانه لا يفوته أبداً ، فى حدود
الامكان ، أن يعترف بالوقائع الخارجية التى لا سبيل الى انكارها ، وانما
هو يحاول أن يؤولها تأويلاً آخر ، أن يرتبها على النحو الذى يريد ،
أن يضى عليها دلالة غير متوقعة ، فاذا هى تفسّر تفسيراً جديداً وترى

في ضوء جديد • ولقد كان بورفير يأمل أن أجيب قطعاً بهذه الطريقة ،
أى أن أذكر له أنني رأيت العمال ، من باب اضافة مزيد من مظهر
الصدق على أقوالى ، ثم أضيف الى ذلك تفسيراً ما •

— ولكن لو فعلت ذلك لأجيبك فوراً بأنه لم يكن هناك عمال قبل
مقتل العجوز بيومين ، فلا بد اذن أنك كنت هناك يوم مقتل العجوز بعد
الساعة السابعة ... ولضيقك هذا الأمر التفصيلي !•

— ذلك بعينه هو ما كان يسوّل عليه ويأمل فيه • كان يأمل أن
يتسع وقى للتفكير ، فاذا أنا أسارع الى تقديم الجواب الذى يضى على
أقوالى مظهر الصدق ، ناسياً أن العمال لم يكونوا هناك قبل وقوع الجريمة
بيومين •

— وكيف تنسى هذا ؟

— لا أسهل من نسيانه ! وفى مثل هذه التفاصيل النافهة انما يرتبك
أمكر الناس بأكبر سهوله • فكلما كان مكر المرء أكبر كانت الأمور
الأبسط هى التى توقعه فى الفج • ليس بورفير غيباً الى الحد الذى
تصوره •

— هو وغد كبير على كل حال !

لم يستطع راسكولنيكوف أن يمتنع عن التيسم • ولكنه فى الوقت
نفسه قد استغرب هذا التعجل وهذا التلذذ اللذين سيطرا عليه وهو يقدم
هذا الشرح ألم يكن قد أجرى ذلك الحديث كله مشتمزاً ، مكرهاً ،
مستجيباً لدواعى الحساب وحده ؟ قال لنفسه : « لا شك أن بعض نقاط
هذه القضية تجد هوى فى نفسى ! » •

ولكنه فى تلك الدقيقة نفسها بدا عليه القلق فجأة ، كأن فكرة غير

متوقفة ، فكرة تبعث على الخوف قد ساورتها على حين بغتة • وازداد
قلقه • وكانا قد وصلا الى باب عمارة باكالاييف •
قال راسكولنيكوف فجأة :

— ادخل وحدك ، وسأرجع حالاً •

— ولكن الى أين تذهب ؟ لقد وصلنا !

— يجب على أن ••• يجب على أن ••• هناك عمل ينبغي أن
أقوم به • سأعود بعد نصف ساعة • قل لهما هذا •
— لك ما تشاء ، ولكنني آت معك •

فهتف راسكولنيكوف يقول بخنق يبلغ من المرارة والكرب أن
رازومبخين شعر باضطراب وحيرة وارتباك :
— أأنت أيضاً تريد اذن أن تعذبني ؟

وظل رازومبخين بعض الوقت واقفاً على درجات المدخل ، مظلم
الهيئة ، ينظر الى راسكولنيكوف الذي كان يمضي بخطى مديدة في اتجاه
الزقاق المؤدى الى بيته • وأخيراً كرز أسنانه ، وشنَّج قبضته ، وحلف
ليعصرن بورفير في ذلك اليوم نفسه ؛ وصعد يهدي روع بولشيريا
الكسندروفنا التي كانت قلقة من تأخيرهما الطويل منذ ذلك الحين •

وصل راسكولنيكوف أمام بيته مبلى الصدغين بالعرق ، لاهماً
يتنفس تنفساً شاقاً • وصعد السلم مسرعاً ودخل غرفته التي لم يكن قد
أغلق بابها ، وأسرع يوصد عليه من الداخل بالكلاية • ثم هرع ، وقد
جنَّ جنونه رعباً وذعراً ، أسرع نحو الركن الذي كان فيه الثقب الذي
يخفيه ورق الجدار ، والذي كان قد خبأ فيه الأشياء المسروقة في ذلك
اليوم • دسَّ يده في الثقب ، وظل ينشسه بكثير من العناية خلال عدة
دقائق ، سابراً جميع الشقوق وجميع ثنيات الورق • فلما لم يعثر على

شيء نهض فتتفس تنفساً عميقاً • لقد تخيل منذ قليل ، حين وصل مع رفيقه الى عمارة باكاليف ، تخيل فجأة أن من الممكن أن يكون أحد الأشياء التي أودعها في هذا الثقب ، كسلسلة صغيرة أو زرع كم أو حتى الورقة التي لفت بها هذه الأشياء وعليها كتابة بخط المعجوز ، أن يكون أحد هذه الأشياء قد اندس في شق من الشقوق على نحو من الأنحاء ، فإذا هو يظهر بعد ذلك قرينة قاطعة أو دليلاً ثابتاً لم يكن متوقفاً ولا يمكن انكاره •

لبث راسكولنيكوف واقفاً هنالك كالشده ، ثم اذا بإتسامة غريبة ذليلة تلم بشفتيه وهو لا يكاد يشعر بها • وأخيراً تناول قبعة وخرج من الغرفة صامتاً • كانت أفكاره مشوشة مضطربة • ومراً تحت باب المدخل الكبير شارد الفكر حالماً •

صاح صوت ضخم قاتلاً :

— هذا هو !

فرفع راسكولنيكوف رأسه •

كان البواب واقفاً على عتبة حجراته ، يومئذ الى راسكولنيكوف لرجل قصير القامة يبدو عليه أنه بائع صغير ، يرتدى فوق صدرته معطفاً أشبه بثوب من ثياب المنزل ، اذا رآه الرائي من بعيد ظنه امرأة ؛ وعلى رأسه قبعة متسخة ، ورأسه مائل على صدره ؛ ويدل وجهه الرخو المتنفض على أنه في نحو الخمسين من عمره على أقل تقدير ، وتعبّر عيناه الصغيرتان الفائرتان في حجاجيهما عن قسوة وتجهم واستياء •

سأل راسكولنيكوف البواب وهو يقترب :

— ماذا هنالك ؟

فرشقه البائع الصغير بنظرة من تحت ، وحدّق الى يتفحصه

باتتياه ، ثم ابتعد عن باب المدخل وسار فى الشارع دون تعجل ، ودون
أن يقول كلمة واحدة •

هتف راسكولنيكوف يقول :

– ولكن ماذا هنالك ؟

فأجابه البواب :

– هو رجل سألنى هل يسكن فى هذه العمارة طالب • وقد ذكر
اسمك ، وسأل كذلك عن الشخص الذى تقيم عنده • فلما نزلت أنت
فى تلك اللحظة نفسها دللته عليك ، فاذا هو ينصرف ... على النحو
الذى رأيت •

كان البواب مدهوشاً هو أيضاً ، لكن دهشته لم تكن قوية كثيراً •
وقد فكّر لحظة ، ثم استدار وعاد يدخل حجرتة •

هرع راسكولنيكوف يجرى فى آثار البائع الصغير ، فسرعان
ما لمح سائراً فى الجهة الأخرى من الشارع ، بخطى متساوية بطيئة ،
مطرقاً الى الأرض ، شارد الفكر • ولم يلبث راسكولنيكوف أن لحق به ،
ولكنه اكتفى فى أول الأمر بأن يسير ورائه • ثم أدركه أخيراً ، فألقى على
وجهه نظرة مواربة • فلاحظه الرجل فوراً ، فألقى عليه نظرة سريعة
لكنه عاد يخفض عينيه • وسار الرجلان على هذا النحو جنباً الى جنب
مدة دقيقة دون أن يقول أحد منهما شيئاً •

وأخيراً قال راسكولنيكوف بصوت أجش :

– سألت عني ... البواب ...

فلم يجبه الرجل ، حتى انه لم يرفع اليه بصره • وساد صمت
جديد •

عاد راسكولنيكوف يقول بصوت مختنق ، فلا تخرج الألفاظ من صدره الا بعناء كبير :

- انك قد جئت تسأل عني ... وهأنت ذا تصمت الآن ...
فما معنى هذا ؟

فرفع الرجل عينيه في هذه المرة ، وحدّق الى راسكولنيكوف بنظرة قائمة مشثومة ، وقال له بصوت خافت لكنه واضح متميز :
- قاتل !

كان راسكولنيكوف يسير الى جانبه . فلما سمع منه هذه الكلمة ، ضعفت ساقاه ضعفاً رهيباً ، وسرت في ظهره رعدة باردة ، وتوقف قلبه عن الحققان لحظة ، كأنه قد انهار انهياراً كاملاً على حين فجأة . وسارا على هذا النحو مسافة مائة خطوة ، جنباً الى جنب ، في صمت مطلق . وكان الرجل لا ينظر اليه .

تمتم راسكولنيكوف يقول أخيراً بصوت لا يكاد يُسمع :
- ولكن ماذا تريد أن ... من ... من هو القاتل ؟
فقال الرجل بصوت فيه مزيد من الوضوح ، وفيه مزيد من الحزم أيضاً :
- القاتل « أنت » !

وبنوع من ابتسامة تعبّر عن كره وانتصار ، نظر الى راسكولنيكوف من جديد ، متفرساً في وجهه الشاحب وعينه المنطقتين .

وكانا قد وصلا الى مفترق ، فسار الرجل يسرةً ، وابتعد دون أن يلتفت . وظل راسكولنيكوف مسمراً في مكانه يتابعه بنظراته مدةً طويلة . حتى اذا قطع الرجل المجهول مسافة خمسين خطوة ، رآه

راسكولنيكوف الذى ما يزال جامداً فى مكانه ، رآه يلتفت وينظر اليه ، مبتسماً ابتسامةً فيها برودة ، واتصار ، وكره .

فقفل راسكولنيكوف راجعاً الى بيته ، يسير بخطى مترنحة ، مصطكاً الساقين ، فى جسمه قشعريرة . فلما وصل الى غرفته خلع قبعته فوضها على المائدة ، ولبث واقفاً خلال عشر دقائق كاملة لا يستطيع حراكاً . ثم استلقى على سريره مهدود القوى ، ومدّ ساقيه وذراعيه وهو يشن أنيناً شاكياً . وانطبقت أجنفانه . وظل راقداً على هذه الحال قرابة نصف ساعة .

لم يكن يفكر فى شيء . لا شيء الا بضع خطرات ، أو قل بضع شذرات من خطرات كانت تتلاحق فى فكره فوضى بغير نظام ولا اتصال ولا اتساق : وجوه أفراد كان قد رآهم فى ماضيات الأيام ، أثناء طفولته ، وجوه صادفها مرة واحدة ثم لم يتذكرها فى أحواله العادية بعد ذلك قط ؛ ناقوس كنيسة ف . . . ؛ بلياردو فى كاباريه وضابط يقف قرب هذا البلياردو ؛ رائحة فى محل لبيع التبغ فى قبو ؛ سلّم خزانة من الحمامات ، مظلم جداً ، مملوء بالقاذورات ، قد تآثرت على درجاته قشور بيض ، بينما يترامى الى المكان رنين النواقيس فى يوم الأحد . . . وهذه الأشياء تتلاحق سريعةً كأنما يحملها اعصار . ومنها أشياء ممتعة يتشبث بها راسكولنيكوف ويتسلق عليها ، ولكنها تنيب وتزول ؛ ويظل فى نفسه شيء ما يثقل على قلبه ، ولكنه لا يسرف فى ايلامه . . . حتى لقد يحس أحياناً بارتياح وهناءة . وثمة رعدة خفيفة لا تبارحه . وهذه أيضاً لذيدة . . .

سمع راسكولنيكوف وقع أقدام متعجلة ، وسمع صوت رازوميخين ، فأغمض عينيه متظاهراً بالنوم . فتح رازوميخين الباب ، ولبث على العتبة

متردداً لحظة • ثم دخل الثرفة بهدوء ورفق ، واقترب من السرير
محاذراً ، وسمعت وشوشة نامتاسيا قائلة :

– لا تزعجه • لينم ما شاء أن ينم ! سيأكل فيما بعد •

ويجيها رازوميخين :

– أنت على حق •

ويخرج رازوميخين ونامتاسيا بهدوء ، ويفلقان الباب •

انفضى على هذه الحال نصف ساعة • وفتح راسكولنيكوف عينه ،
ثم تهالك على ظهره من جديد ، مصالباً يديه وراء رأسه • • من كان
ذلك الرجل ؟ ما هو ذلك الرجل الذى خرج من تحت الأرض ؟ أين
كان وماذا رأى ؟ لا ريب فى أنه رأى كل شيء • ولكن أين كان
يتوارى ؟ من أين كان يراقب ويرصد ؟ ولماذا لم يخرج من تحت
الأرض الا الآن ؟ كيف استطاع أن يرى ؟ هل من الممكن أن • • آه •
كذلك كان يتساءل راسكولنيكوف ، ثم تابع تساؤلاته وقد اعترته
رعدة باردة سرت فى ظهره : « والعلبة التى وجدها يقولوا وراء الباب ؟
هل كان يمكن أن يتصور المرء شيئاً كهذا ؟ • • • قرائن قاطعة ؟ أدلة
ثابتة ؟ أيكفى اغفال شيء صغير كجبة رمل حتى يظهر دليل ضخم
كأهرام مصر ! ذبابة طارت ، فرأت الذبابة كل شيء • • • هل يتصور
أحد هذا ؟ • »

وباشمئزاز عميق أدرك راسكولنيكوف ضعفه ، أحسنّ وهن

جسمه •

قال يحدث نفسه وهو يتسهم ابتسامة مرة : « كان ينبغي لى أن
أنصور هذا ! كيف تجرأت ، وأنا أعرف نفسى ، وأنا أتبناً بقدرتى
وطاقتى ، كيف تجرأت فتناولت ساطوراً ولطخت يديّ بالدم ؟ كان

يجب على أن أعرف هذا سلفاً ... ولقد كنت أعرفه سلفاً بالفعل ! •
هكذا دمدم يقول وقد بلغ غاية الكرب واليأس •

وكانت تدور في رأسه أفكار تشلّه شللاً • قال يحدث نفسه :
« لا ، لا ، ان أولئك الرجال هم من طينة أخرى غير طينتي ! ان
«المسيطر» * الحقيقي ، الذى يجوز له كل شيء ، يقصف طولون بالمدافع ،
ويقوم بمذبحة في باريس ، و « ينسى » جيشه بمصر ، و « ينفق » نصف
مليون من الرجال في حملة موسكو ، ثم يتملص من القضية في فلنا بجملته
تستعمل على تلاعب بالألفاظ ثم تقام له التماثيل بعد موته • كل شيء مباح
اذن له ! لا ، ان أولئك الرجال هم من طينة أخرى ؛ ليسوا من لحم بل
من برونز • •

وومضت في فكر راسكولنيكوف فكرة مفاجئة فكاد يضحك • قال
يحدث نفسه : « نابوليون ، أهرامات مصر ، واترلو ، ثم عجوز مرايية
مهترئة هي أرملة موظف صغير ، تخفى تحت سريرها صندوقاً من جلد
أحمر ... كيف يمكن التقريب بين هذا وذاك ، كيف يمكن تشبيه هذا
بذاك ، كيف يستطيع انسان أن يبلغ هذا حتى ولو كان بورفير بترفش؟
كيف يمكنهم أن يهضموا هذا ؟ ألا ان الجمال الفنى نفسه يرفض ذلك :
هل كان يمكن أن يندم نابوليون تحت سرير عجوز حقيرة ؟
يا للصنار ! • •

وكان راسكولنيكوف يحس في بعض اللحظات بأنه يهذى ، وكان
يندفع اندفاعات فيها حمى ! ...

قال يحدث نفسه بحمياً مسعورة : « ليست العجوز شيئاً ذا بال •
العجوز ليست الا خطأ • ولكن القضية ليست قضية العجوز • العجوز
ليست الا مرضاً • وقد أردت أن أقفز فوق الحاجز وأن أتخطاه بسرعة.

أنا لم أقتل كائنًا إنسانيًا ، وإنما قتلت مبدأً . ولكن لئن قتلت
 المبدأ ، فانتى لم أستطع أن أخطئه ، بل بقيت في الجهة التي كنت فيها .
 كل ما استطعت أن أفعله هو أنني قتلت . حتى اننى لم أعرف كيف أقتل
 ... هو المبدأ ، نعم هو المبدأ ! لماذا كان هذا القبي رازوميخين يهاجم
 الاشتراكيين منذ قليل ؟ هؤلاء أناس عاملون ، جادون ، يهتمون « بسعادة
 البشر العامة الشاملة » . لا ، لا ، لقد وُهِبَ لى الحياة مرة واحدة الى
 الأبد ، ولن أعرف حياة أخرى . أريد أن أحيا شخصيًا ، والا فالأفضل
 أن لا أحيا البتة . أى عيب فى هذا ؟ أنا لم أزد على أن رفضت أن أمرَّ
 بأمِّ جائعة ، قابضاً على قروشى فى جيبي ، منتظراً تحقق السعادة العامة
 الشاملة ! « لقد حملت حبرى الى المبنى الذى يُشاد لتحقيق السعادة
 العامة الشاملة ، ومن ذلك أستمَد طمأنينة القلب وسكينة النفس ! » .
 ها ها ! لماذا نسيتمونى ؟ أنا ليس لى الا حياة واحدة ، وانى لأريد أن
 أحياها ! آه ... ما أنا الا قملة محشوة بأفكار فنية . ذلك أنا . ولست
 شيئاً آخر . (كذلك أضاف يقول فجأة وهو ينفجر فى ضحك كضحك
 المجانين) . نعم ، أنا قملة فعلاً (هكذا تابع يقول بفرح خبيث) : أولاً
 لأننى أفكر كما أفكر فى هذه اللحظة مستندلاً على أننى قملة ؛ وثانياً
 لأننى لبثت شهراً بكامله أزعج العناية الالهية ، وأشهداها على أننى لم أقرر
 أن أفعل ما فعلت عن هوى منى بل فى سبيل غاية عظيمة وهدف كبير .
 ها ها ها ، وثالثاً لأننى قررت أن أسلك الى فعلتى كل العدالة الممكنة ،
 فراعى فى تنفيذها الوزن والقياس والحساب : ألم أختار من بين جميع
 قمل الكون قملةً هى أقل القمل جدوى ؟ وحين قتلها ، ألم أكن أنوى
 أن لا آخذ منها الا ما كنت فى حاجة اليه لأخطو خطواتى الأولى (ثم
 يذهب الباقي الى الدير تنفيذاً لوصيتها ، ها ها ها ؟) . نعم ، أنا قملة قطعاً
 (هذا ما أضافه الى قوله وهو يصرف بأسنانه) ، بل لعلنى أحقر من

قملة ، وأبعث على الانتسمزاز من قملة مسحوقة ، لأننى كنت أعلم
« سلفاً » ، كنت أتبأ سلفاً بأننى بعد قتلها سأقول لنفسى هذا الكلام ! هل
فى العالم كله شىء يمكن أن يقارن بفضاعة كهذه الفضاعة ؟ يا للصغار !
يا للجنين ! ألا اننى لأفهم أعمق الفهم ذلك النبى المتطلى صهوة جواده ،
المشهر سيفه ، القائل : الله يريد هذا ، فأطع واخضع ايها المخلوف
« المرتش » * ! لقد كان على حق ، كان على حق تماماً ، ذلك النبى ، الذى
صفّ المدافع فى عرض الشوارع وأمر باطلاق القذائف على الأبرياء .
والجناة على السواء ، ولم يرض حتى أن يشرح سلوكه وأن يسوّغه .
أطع أيها المخلوق المرتجف ، وحذار أن ترغب فى أى شىء ، فليس هذا
شأنك أنت ! .. آه .. لن أغفر لهذه العجوز فى يوم من الأيام ، فى يوم من
الأيام ، بحال من الأحوال ! ..

كان شعره مبتلاً بالعرق ، وكانت شفاته المختلجان مصوّحتين ،
وكان بصره يحدّق الى السقف بنظرة ثابتة .

« أمى ، أختى ، لشد ما كنت أحبهما ! فلماذا صرت أكرههما الآن ؟
ذلك اننى أكرههما ، أكرههما جسيماً ، لا أطيق أن احتمل وجودهما الى
جانبي ! .. منذ قليل ، اقتربت من أمى وقبلتها .. اننى أتذكر هذا ..
عافقتها وتساءلت : ترى لو كانت تعلم .. ينبغي لى اذن أن أقولها ..
لو قلت لها لتخففت من عبء .. آه .. لا شك فى أنها مثل (كذلك أضاف
يقول بجهد ، كأنه يقاوم الهذيان الذى يجتاحه) . أوه ! لشدّ ما أكرهها
الآن ، تلك العجوز ! أعتقد اننى مستعد لأن أقتلها مرة أخرى لو بعثت
حية ! مسكينة الزايت ! لماذا وجدت هناك ؟ .. ومع ذلك لا تخطر
ببالى الا قليلاً ، فكأننى لم أقتلها ! ما أغرب هذا ! الزايت ، صونيا !
يا للبنتين المسكيتين ، المتواضعتين ، الوديعتين .. الزاخرة أعينهما رقة
وعنوبة ! يا هذه المخلوقات العزيزة ، لماذا لا تبكين ؟ لماذا لا تثنين ؟ انها

تعطى كل شيء ، وتنظر اليك نظرة تفيض رقة وهدوءاً وسكينة !...
صونيا ! صونيا ! يا صونيا الوداعة المسالمة ! »

وأغمى على راسكولنيكوف •

واستغرب كيف أمكن أن لا يتذكر كيف وجد نفسه مرة أخرى
فى الشارع • الوقت متأخر • الظلمات تنكأف • البدر يسطع بضياء
ما ينفك يقوى • ولكن الجو خائق • أناس كثيرون يسرون فى الشوارع •
فبعضهم يعودون الى بيوتهم منهكين ، وبعضهم يتزهون • وفى الهواء
رائحة كلس وغبار ومياه مستتعة • وراسكولنيكوف يمشى حزيناََ مهموماً •
وهو يتذكر أنه خرج على نية معينة محددة ؛ هو يعرف أن عليه أن
يتسجل القيام بأمر من الأمور ، ولكنه أصبح لا يدرى ما هو ذلك الأمر
على وجه الدقة • وها هو ذا يتوقف فجأة ، فىرى فى الجهة الأخرى من
الشارع ، على الرصيف ، رجلاً يومى ، له بيده • أخذ يقطع الشارع
ليمضى اليه ، ولكن الرجل ابتعد فجأة كأن شيئاً لم يكن ، حتى دون أن
يلتفت • تساءل راسكولنيكوف وقد أخذ يلاحقه : « هل ناداني حقاً ؟ » •
ولكنه حين وقف على مسافة عشر خطوات منه لم يلبث أن تعرقه
بغثة فاستولى عليه رعب : انه ذلك البائع الصغير نفسه ، بمعطفه الذى
يشبه ثوباً من أثواب المنزل ، وبوجهه المتفضن • تبعه راسكولنيكوف
من بعد ، خافق القلب • ودخل الاثنان فى شارع صغير • ما زال الرجل
لا يلتفت • تساءل راسكولنيكوف : « هل يعرف أنتى أمشى وراءه ؟ » •
عبر البائع الصغير مدخل عمارة من العمارات • اقترب راسكولنيكوف من
الباب بسرعة كبيرة ، ونظر : ترى ألن ينظر اليه هذا الرجل ، ألن
يناديه ؟ وها هو ذا الرجل يلتفت على حين فجأة فعلاً ، حين صار فى
فناء المنزل ، فيومى له بغثة من جديد • ولج راسكولنيكوف مدخل
العمارة ، ولكن ما ان مر تحت العتبة حتى اختفى الرجل من الفناء •

لا يمكن الا أن يكون الرجل قد دخل السلم الأول الذى يقع يمناً •
اندفع راسكولنيكوف يلاحقه • وكانت ما تزال تُسمع ، فعلاً ، بعد
طابقين ، أصوات وقع أقدام تسير بخطى منتظمة • شيء غريب : ان
السلم لا يبدو لراسكولنيكوف مجهولاً • هذه نافذة الطابق الأرضى •
ان ضياء القمر ، الحزين السرى ، يتسلل من خلال الزجاج • وهذا هو
الطابق الأول • عجيب : انها الشقة التى كان يعمل فيها الدهّانون ! • • •
كيف لم يتعرف ذلك فوراً ؟ سكنت أصوات خطوات الرجل الذى كان
يتقدمه : • لقد توقّف اذن ، أو اختبأ فى مكان ما ، • وهذا هو الطابق
الثانى • هل يجب على راسكولنيكوف أن يصعد الى أعلى ؟ ان الصمت
رهيب جداً ! وظل راسكولنيكوف يصعد رغم ذلك • ان أصوات وقع
أقدامه هو نفسه تقلقه ، ترعبه • رباه ! ما أحلك هذا الظلام ! لا شك
فى أن الرجل المجهول قد اختبأ فى مكان ما ، فى ركن ما • آه • • • ان
باب الشقة مفتوح على سعته كلها ! فكّر راسكولنيكوف لحظة ، ثم دخل •
الدهليز مظلم خال ، والأثاث يبدو أنه نُقل • نفذ راسكولنيكوف الى
الصالون سائراً على رعوس الأصابع فى رفق وهدوء : ان ضوء القمر
الساطع يغمّر الغرفة • كل شيء فى الصالون ما يزال كما كان : الكراسى ،
المرآة ، الديوان الأصفر ، الصور فى أطرها • وهذا قمر ضخم ، أحمر
بلون النحاس ، مدور تماماً ، يُطل من النافذة رأساً • قال راسكولنيكوف
يحدث نفسه : • عن القمر انما يصدر هذا الصمت • • • لا شك فى أن
القمر يحاول الآن أن يفضح سرّاً من الأسرار ، أن يكشف لغزاً من
الألغاز ! • • ظل راسكولنيكوف ساكناً جامداً ينتظر ، فكلما ازداد القمر
صمتاً ازداد خفقان قلبه شدة وعنفاً حتى أصبح يؤله • وما يزال الصمت
مخيماً ! وفجأة تنطلق قرعة جافة كقرعة غصن ينكسر ، ثم يصمت
كل شيء من جديد • وهذه ذبابة تستيقظ وتطير فتصدم الزجاج ، وتنددن

بصوت كأنه شكاة وأنين • وفي تلك اللحظة نفسها يميّز راسكولنيكوف ، في الركن ، بين الحزاة الصغيرة والنافذة ، شيئاً يشبه معطف معطف امرأة ، يتدلى على الحائط • تسأل راسكولنيكوف : « لماذا يوجد معطف هنا ؟ لم يكن في هذا المكان معطف من قبل ! » • واقترب سائراً يخطى ببطيئة ، وحزر أن أحداً لا بد أنه يختبئ وراء هذا المعطف • وأزاح المعطف معاذراً ، فرأى كرسيًا ، ورأى المعجوز جالسةً على الكرسي ، متكومةً على نفسها ، خافضة رأسها بحيث لم يستطع أن يرى وجهها • لكنها هي المعجوز ما في ذلك ريب • لبث واقفاً الى جانبها لحظة • قال لنفسه : « انها خائفة » ثم أخرج الساطور من الازيم برفق وهذوء ، فهوى به على قمة جمجمة المعجوز ، مرةً أولى ، فمرةً ثانية • ولكن الشيء الغريب أن المعجوز لم تترنح تحت الضربات. لكأنها من خشب. خاف راسكولنيكوف ، ومال على المعجوز يتفحصها من كتب • كل ما هنالك أن رأسها قد انخفض مزيداً من الانخفاض • انحنى راسكولنيكوف عندئذ انحناءً كاملاً حتى الأرض ، ونظر اليها من أخمص القدمين الى قمة الرأس • نظر اليها متجمداً من الرعب • كانت المعجوز تضحك وهي جالسة على كرسيها ، تضحك ضحكاً كبيراً يهز جسمها كله ، ولكنه ضحك لا يكاد يدرك ، فهي تخنقه حتى لا يكاد يسمعه راسكولنيكوف • وبدا له فجأة أن باب غرفة النوم يُشق ، وأن وراء الباب أيضاً أناساً يضحكون ويتهايمسون • استولى عليه الغضب • فأخذ يضرب المعجوز على رأسها بكل ما يملك من قوة ، ولكن الضحك والتهايمس الصادرين عن غرفة النوم يزدادان وضوحاً وقوة كلما هوى على رأس المعجوز بضربة جديدة • والمعجوز نفسها قد أصبح جسمها يهتز الآن كله من شدة الضحك • أراد راسكولنيكوف أن يهرب • ولكن الدهليز كان قد امتلأ بالناس • وكان الباب الذي يفضي الى السلم مفتوحاً على سعته

كلها • وكان السلم ممثلاً بالناس كذلك من أسفله الى أعلاه • جمهور كبير • حشد هائل • رموس ثم رموس • والجميع ينظرون اليه ، ولكنهم فى الوقت نفسه يخبثون ، ويتنظرون ، ويصمتون !... انقبض قلبه ، ورفضت ساقاه أن تتحركا ، فكأنهما قد أصبحت لهما جنور فى الأرض • أراد أن يصرخ • وأفاق من اغمائه •

استرد أنفاسه فى جهد وعناء • ولكن الشئ الغريب أنه ترمى له أنه ما يزال يحلم • كان باب غرفه ما يزال مفتوحاً على سعته كلها • وكان يقف على عتبة الباب رجل لا يعرفه راسكولنيكوف إطلاقاً ، رجل كان يتفرس فيه بالحاح •

ما كاد راسكولنيكوف يفتح عينيه تماماً حتى عاد يغمضهما فوراً • كان مستلقياً على ظهره لا يقوم بأية حركة • قال يسأل نفسه : « أهو الحلم ما يزال مستمراً أم لا ؟ » • وفتح جفنيه قليلاً ونظر : كان الرجل المجهول ما يزال واقفاً فى مكانه نفسه يحدث الى • ثم ها هو ذا يجتاز العتبة محاذراً ، ويفلق الباب وراعه اغلاقاً محكماً ، ويقترّب من المائدة ، وينتظر دقيقة دون أن يحوّل بصره عن راسكولنيكوف ، ثم يجلس على الكرسي قرب الديوان هادئاً صامتاً •

وضع الرجل المجهول قبضته على الأرض الى جانبه ، ثم أسند يديه الى مقبض عصاه ، وألقى بذقنه على يديه • كان واضحاً أنه ينهياً لا انتظار طويل •

إذا صحَّ ما استطاع راسكولنيكوف أن يلاحظه من خلال آجفانه التى كانت أشبه بالمنمضة ، فان هذا الرجل كان قد تجاوز الشباب ، وكان قوى البنية ، عريض المنكبين ، كثيف اللحية ، زاهى الشفرة حتى لتكاد تكون شقرته بياضاً ...

انقضت عشر دقائق • لم يكن الظلام قد هبط بعد ، ولكن المساء يقترب • ان صمتاً كاملاً يسود الغرفة • حتى السلم لا تصل منه أية ضجة • ليس يُسمع شيء الا دندنة ذبابة ضخمة كانت قد صدمت الزجاج أثناء طيرانها • نفذ صبر راسكولنيكوف أخيراً ، فنهض فجأة وجلس على الديوان ، وقال يخاطب الزائر المجهول :

— هيه ••• تكلم ••• ماذا تريد ؟

فأجابه الزائر المجهول بلهجة غريبة عجيبة ، وهو يطلق ضحكة هادئة :

— كنت أعلم أنك لست نائماً ، وأنتك تتظاهر بالنوم تظاهراً •
اسمح لي أن أعرفك بنفسى : آرКАДى ايفانوفتش سفدريجاييلوف •

حواش

- الصفحة
- ٧ * « زقاق س ٠٠٠ » : هو زقاق ستولياري نى بيرىثولوك ، اى « زقاق النجارين » ، القريب من « سوق العلف » ، حيث اقام دوستويفسكى من سنة ١٨٦٤ الى سنة ١٨٦٧ .
- ٧ * فى روسيا يسمى الطابق الأرضى من العمارة بالطابق الاول ، ويسمى الطابق الاول بالطابق الثانى ، وهكذا دواليك .
- ٩ * « سوق العلف » ، هو ميدان محاط بحانات وخمارات وفنادق مشبوهة . وقد جاء دوستويفسكى على ذكره فى كتابه « فى قبوى » (المجلد السادس من هذه الطبعة العربية) .
- ١٠ * « تسيرمان » : رجل ألمانى كان يملك محلا لأزياء القبعات .
- ١٤ * « راسكولنيكوف » : اشتق المؤلف اسم راسكولنيكوف من الكلمة الروسية « راسكولنيك » ومعناها الانفصال ، ليشير بذلك الى انفصال بطل الرواية عن آراء المجتمع . وفى الصياغة الاولى لهذه الرواية ، اى الصياغة التى جعل دوستويفسكى عنوانها : « يوميات راسكولنيكوف » ، أطلق المؤلف على بطله اسم « فاسيا » . ولعله لاحظ بعد ذلك أن اسم « فاسيا » الطف وأرق من أن يطلق على هذا البطل فجعل اسمه ونسبته الى أبيه : « روديون رومانوفتش » ، وتلك تسمية غريبة توحى الى القارئ الروسى ، فيما يقال ، بما يتصف به طبع راسكولنيكوف من قسوة وعنف .
- ١٦ * « آيلونا » تشويه شعبى لاسم ايلينا (هيلانة) .
- ٢٢ * « بوديا تشسكايا » : اى شوارع القسس ، وهو أحد شوارع وسط مدينة سان بطرسبرج ، قرب «سوق العلف» .

الصفحة	
٢٥	★ وظيفة « المستشار » المتصورة هنا هي وظيفة موظف فى الدرجة التاسعة .
٣٠	★ « بطاقتها الصفراء » : هى بطاقة تحقيق الشخصية الخاصة بالمؤسسات .
٣٠	★ « كل خبىء مآله الى ظهور » : اشارة الى النص الوارد فى انجيل متى (الاصحاح العاشر ، ٢٦) : « ليس مكتوم لن يستعلن ، ولا خفى لن يعرف » .
٣٢	★ « اننى أشبه الوحش كل الشبه » : اشارة الى الوحش الذى جاء ذكره فى رؤيا يوحنا .
٣٣	★ « رقصة الشال » : كانت ماريا كونستانت ، زوجة دوستويفسكى الاولى ، تتباهى بأنها رقصت رقصة الشال فى حفلة تخرج « بمعهد استراخان » .
٣٣	★ « نالت وساما ذهبيا » : فى المدارس الثانوية والمعاهد بروسيا كان تلاميذ التلاميذ ينالون عند حصولهم على شهادة البكالوريا وساما ذهبيا .
٣٧	★ « ليويس » : ج . هـ . ليويس ، فيلسوف انجليزى كان أحد المعجبين بالفيلسوف الفرنسى أوجوست كونت ، وقد ألف كتابا بعنوان « قزيولوجية الحياة العامة » ظهر سنة ١٨٦٠ وراج رواجا كبيرا فى روسيا ، ولا سيما فى الاوساط الراديكالية .
٣٧	★ « صونيا » ، « صونيتشكا » : تصغير اسم صونيا ، تحبها وتدليلا .
٣٧	★ « مستشار الدولة » : موظف من الدرجة الخامسة .
٣٨	★ « جوخ السيدات » : نسيج صوفى خفيف .

- ٤٠ ★ « كابرناؤموف » : نسبة الى مدينة كفر ناحوم التي وود ذكرها في الانجيل .
- ٤٤ ★ « زاخارتش » : تخفيف اسم زاخاروفتش ، والشعب يعمد الى هذا التخفيف مستغنيا عن «فتش» بـ «تش» . ولسوف نقع في النص على راسكولنيكوف تارة باسم روديون رومانوفتش وتارة باسم روديون روماننش ، وكذلك سنقع على بروكوفتش وبروكوفوفتش اسما لشخص واحد ، وهكذا دواليك .
- ٤٥ ★ « كلص الليل » : يستعمل مارميلادوف هنا التعبير الوارد في رسالة القديس بولس الاولى الى اهل تسالونيكي (الاصحاح الخامس ، ٢) .
- ٤٦ ★ « جسر مصر » : جسر مزين بزخارف مصرية على قناة فونتাকা ، غير بعيد عن « سوق العلف » .
- ٦٢ ★ « روديا » مصغر اسم روديون .
- ٦٣ ★ « دونيا » ، « دونيتشكا » : تصغير اسم آدفتيا ، من باب المحبة والتدليل .
- ٦٤ ★ « سفيدريجايلوف » : اشتق المؤلف هذا الاسم من اسم سفيدريجايلو ، وهو دوق كبير من ليتوانيا في القرن الخامس عشر ، اشارة الى نبالة مجتد هذه الشخصية من شخصيات روايته .
- ٦٦ ★ « باخوس » : اله الخمر عند قدماء الاغريق
- ٧٠ ★ « مستشار قضائي » : هو موظف من الدرجة السادسة .
- ٧٣ ★ كان مجلس الشيوخ يقوم بوظائف محكمة النقض
- ٧٧ ★ مائة كيلومتر تقريبا .

- ٨٢ * « بورقتين صغيرتين » ، أى بورقتين نقديتين قيمة كل منهما روبل واحد .
- ٨٣ * « وسام القديسة حنة » : أرفع الأوسمة الروسية ، وله درجات ثلاث أعلاها الصليب النى تزدان به العروة ، وهو المشار اليه هنا .
- ٨٤ * ان الحرب التى شنتها بروسيا والتمسا على الدنمارك سنة ١٨٦٤ لامتلاك دوقية شفلنسيج هولشتاين قد أشارت سخط الراى العام الاوروبى . وقد سبق أن أورد المؤلف ذكرها فى قصته « فى قبوى » .
- ٨٤ * كانت الصحف الروسية تتحدث كثيرا آنذاك عن سوء معاملة الزنوج فى أمريكا بسبب حرب الانفصال (١٨٦١ - ١٨٦٥) : وكان معروفا أن البارونات الألمان فى مقاطعات البلطيق يسومون الليتونيين سوء العذاب فيهرب هؤلاء من أراضيهم .
- ١٠٢ * ان نهر نيفا الصغير يضم جزيرة فاميلفسكى ، ويضم فى موقع أبعد من ذلك جزر كريستوفسكى وبتروفسكى وإيلاجين ، وغيرها . التى تغطيها حدائق وتملؤها فيلات .
- ١٠٥ * « ميكولكا » تصغير ميكولا (نيقولا) .
- ١٥٨ * « ميتكا » : تصغير ديمترى ، ديمترى .
- ٢٠٨ * « رادتشيف » : كاتب من القرن الثامن عشر ، نشر سنة ١٨٧٠ كتابه الشهير « رحلة من سان بطرسبرج الى موسكو » ، وهو كتاب عاطفى ثورى ، تأثر بالأب رانيال أكثر مما تأثر بجان جاك روسو . وقد صادرت الرقابة الكتاب ، ونفى المؤلف الى سيبيريا حيث قضى ست سنين .

- ٢٠٩ ★ «جسر نيقولا» : هو الجسر الذى يوصل من جزيرة فاسيلفسكى الى المدينة ، قرب « قصر الشتاء » .
- ٢١٠ ★ هى كاتدرائية سان اسحاق الكبرى ، الواقعة فى وسط المدينة .
- ٢١١ ★ تقع الجامعة فى أول جزيرة فاسيلفسكى .
- ٢١٨ ★ « باشنكا » و « باشا » : تصغير اسم ياراسكيقا ، يراسكوفيا ، تحببا وتديلا ؛ و يراسكوفيا هذه هى صاحبة البيت الذى يسكن فيه راسكولنيكوف .
- ٢٣٧ ★ كان اللورد بالمرستون قد مات منذ مدة قصيرة سنة ١٨٦٥ ، وقد سمي باسمه معطف ذو شكل خاص ، كما يوجد معطف ذو شكل آخر سمي باسم لورد راجلان .
- ٢٣٧ ★ الولايات المتحدة الامريكية تعنى هنا السراويل (البنطلون) ، وهذا قائم على لعب بالتجانس اللفظى بين كلمة « شتاتى » الروسية ومعناها الدولة أو الولاية ، وبين كلمة « شتاتى » ومعناها السروال .
- ٢٣٩ ★ « شارمر » خياط على الموضة ببترسبرج « مورد صاحب الجلالة الامبراطورية » .
- ٢٤٣ ★ « قصر الكريستال » : حانة أطلق عليها دوستويفسكى اسم قصر الكريستال من باب التهكم ، تشبها لها « بقصر الكريستال » الذى رآه فى لندن وتحدث عنه فى « ذكريات شتاء عن مشاعر صيف » (راجع المجلد السادس من هذه الطبعة العربية) .
- ٢٤٤ ★ « مدرسة القانون الامبراطورية » : هى مدرسة ذات امتيازات أنشئت سنة ١٨٣٥ وتخرج منها قانونيون متنورون مثل البارون آ. فرانجل ، صديق دوستويفسكى . وقد تخرج من هذه المدرسة المؤلفان الموسيقيان ف. سيروف و ب. تشايكوفسكى؛

- كما تخرج بوشكين من مدرسة ثانوية مسائلة هي مدرسة تساركويه سيلو .
- ٢٥١ * « حى الرمال » (بسكى) : حى وضيع فى الجزء الشرقى من مدينة سان بطرسبرج .
- ٢٥١ * « أهل كولومنا » : ان كولومنا مدينة صغيرة تقع فى الجنوب الشرقى من موسكو غير بعيد من زاراييسك ، الفلاحون الذين جاءوا يسكنون العاصمة يتجمعون فى أحياء تختلف باختلاف أقاليمهم التى وفدوا منها .
- ٢٧٢ * المقصود هنا هو الاصلاحات الكبرى التى تمت بين سنة ١٨٦١ وسنة ١٨٦٤ ، أى إلغاء القنانة ، والاصلاح القضائى والجزائى ، وادخال نظام « الحكم الذاتى » ، الخ .
- ٢٧٤ * ان لوجين يعرض هنا عرضا عاما نظرية « الانانية العاقلة » ، تلك النظرية المبسطة فى كتاب تشيرنيشفسكى : « ما العمل؟ »
- ٢٧٨ * « هنا ، طالب سابق يهاجم عربية بريد ٠٠٠ » : يشير دوستويفسكى الى هذه الواقعة فى رسالة بعث بها الى كاتكوف فى شهر ايلول (سبتمبر) ١٨٦٥ .
- ٢٧٨ * « ٠٠٠ أستاذ من أساتذة التاريخ العام » : نظر القضاء فى هذه القضية وفصل فيها فى شهر أيار (مايو) ١٨٦٥ .
- ٢٩٢ * لا شك فى أن هذه التاملات التى تمر بذهن رجل محكوم عليه بالاعدام انما احتفظ بها دوستويفسكى من الدقائق التى عاشها قرب المقصلة فى ٢٢ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٩ .
- ٢٩٤ * كان رجل اسمه ايتسلر ، ولعله ألماني الأصل ، قد افتتح فى ضواحي بطرسبرج حانة على الطراز الريفى فكان ينشر اعلانات كثيرة عنها فى الجرائد . أما الاعلانات التى يقرأ راسكولينكوف

عناوينها « ماسيمو - بارتولا - الأزيكيان » فهي عن رجل أمريكي اسمه موريس كان يعرض في صيف ١٨٦٥ بمدينة سان بطرسبرج « آخر شخصين من آزتيكي المكسيك » ، أحدهما بنت اسمها بارتولا ، والثاني صبي اسمه ماسيمو . وكان الرجل الأمريكي ينشر اعلانات في الصحف كل يوم عن هذا العرض لاجتذاب المشاهدين .

وأما « حريق في ٠٠٠ وحريق في ٠٠٠ وحريق آخر في ٠٠٠ » ، فهي أنباء حرائق كثيرة شبت بمدينة سان بطرسبرج في ذلك الصيف نفسه من عام ١٨٦٥ ؛ لذلك كتبت جريدة «الصوت» في عددها ١٦٦ تقول : « جميع الصحف ملأى بوصف حرائق خطيرة كثيرا أو قليلا » .

٣٠٦ ★ « - أرايت ؟ أوراق حمراء وأوراق زرقاء ! » : الاوراق المالية الحمراء هي أوراق العشرة روبلات ، أما الزرقاء فهي أوراق الخمسة روبلات .

٣٠٦ ★ « كفى حديثا » : وردت بالفرنسية في الأصل ، وهي الجملة التي قالها فوتران في رواية بالزاك « الأب جوريو » .

٣١١ ★ « جسر س ٠٠٠ » : هو جسر « الصعود » على قناة كاترين .

٣١٦ ★ « بيتر » : اختصار شعبي لاسم مدينة بطرسبرج .

٣٣٠ ★ « بوليا » و « بولينكا » : تصغير اسم أبوليناريا .

٣٣٤ ★ « ليدا » و « ليدوتشكا » : تصغير اسم ليديا .

٣٧٨ ★ كان عازف الكمان روبنشتاين (١٨٢٩ - ١٨٩٤) عندئذ في قمة مجده .

٣٩٧ ★ « ان تلك الملكة ٠٠٠ » : يفكر الكاتب هنا في ماري انطوانيت وهي في الهيكل .

- ٤٢٧ ★ « مقبرة سان متروفان » : مقبرة فقيرة تقع فى جنوب العاصمة،
بعد محطات القطار .
- ٤٦١ ★ الاشارة هنا الى اشتراكية شارل فورييه الخيالية .
- ٤٦٢ ★ ان ناقوس كنيسة القديس يوحنا الكبير جزء من الكرملين
بموسكو ، وهو أعلى ناقوس فى روسيا .
- ٤٩١ ★ المقصود طبعا هو نابوليون بوناپرت الذى قصف طولون بالمدافع
فعلا سنة ١٧٩٣ ، ورمى الملكيين بالرصاص بباريز فى شهر
تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٧٩٥ ، وترك جيشه بمصر سنة
١٧٩٩ ، ويقال انه بعد فقدته « الجيش الكبير » قال فى فلنا
سنة ١٨١٢ : « ليس بين الرائع والمضحك الا خطوة واحدة » .
فلتفصل الاجيال القادمة فى هذا » .
- ٤٩٢ ★ تعبير للاشتراكي فكتور كونسيديران نجده فى كتابه الذى
عنوانه « قمر الاشتراكية » (١٨٣٨) .
- ٤٩٣ ★ اشارة الى بيت من الشعر فى قصيدة بوشكين ومحاكاة القرآن .

فهرس

الصفحة

الجزء الأول

٧	الفصل الأول
٢٣	الفصل الثاني
٥٦	الفصل الثالث
٧٩	الفصل الرابع
١٠٠	الفصل الخامس
١٢٠	الفصل السادس
١٤١	الفصل السابع

الجزء الثاني

١٦٥	الفصل الأول
١٩٧	الفصل الثاني
٢١٦	الفصل الثالث

الصفحة

٢٤١	الفصل الرابع
٢٦٢	الفصل الخامس
٢٨٥	الفصل السادس
٣٢٣	الفصل السابع

الجزء الثالث

٣٥٧	الفصل الأول
٣٨٠	الفصل الثاني
٤٠٠	الفصل الثالث
٤٢٥	الفصل الرابع
٤٤٦	الفصل الخامس
٤٨٠	الفصل السادس
٤٩٩	حواشي

الأعمال الأدبية الكاملة

<u>المجلد الأول</u>	<u>المجلد الثامن</u>
الفقراء	الجريمة والعقاب - ١.
المثمل	<u>المجلد التاسع</u>
قلب ضعيف	الجريمة والعقاب - ٢.
<u>المجلد الثاني</u>	<u>المجلد العاشر</u>
نيتوشكانزفانوفنا	الأبلة - ١.
الليالي البيضاء	<u>المجلد الحادي عشر</u>
بروخاروشين	الأبلة - ٢.
الجسارة	<u>المجلد الثاني عشر</u>
المهريج	الشياطين - ١.
السارق الشريف	<u>المجلد الثالث عشر</u>
البطل الصغير	الشياطين - ٢.
قصة في تسع رسائل	<u>المجلد الرابع عشر</u>
شجرة عيد الميلاد والزواج	للرامق - ١.
زوجة آخر، وزجيل تحت السرير	<u>المجلد الخامس عشر</u>
<u>المجلد الثالث</u>	الرامق - ٢.
قريبة ستيبان تشيكوفوفوسكانها	قصص
حلم العم	<u>المجلد السادس عشر</u>
<u>المجلد الرابع</u>	الاخوة كارامازوف - ١.
مذلولون مهانون	<u>المجلد السابع عشر</u>
<u>المجلد الخامس</u>	الاخوة كارامازوف - ٢.
ذكريات من منزل الأموات	<u>المجلد الثامن عشر</u>
<u>المجلد السادس</u>	الاخوة كارامازوف - ٢.
في قبوي	
قصة اليمعة	
ذكريات شتاء عن مشاعر صيف	
الشمساح	
<u>المجلد السابع</u>	
المقامر	
الزوج الأنثوي	

دوستويفسكي

الاعمال الادبية الكاملة

إن معاصري دوستويفسكي قد أساءوا فهمه ، فأكثرهم لم يشأ أن يرى فيه إلا كاتباً اجتماعياً يدافع عن "الفقراء" والمذللين المبانين" فإذا عالج مشكلات ما تنفك تزداد عمقا أخذ بعضهم يشتر به ويصفه بأنه "موهبة مريضة" ومن النقاد من لم يدرك أن الواقعية الخيالية "التي يمكن أن توصف بها أعمال دوستويفسكي إنما تسبر أعماق أغوار النفس الإنسانية ، وأن دوستويفسكي كان رائداً سبق نظرية التحليل النفسي التي أنشأها فرويد وآدلر ، وأنه زرع هذه المشكلة الميتافيزيقية ، مشكلة الصراع بين الخير والشر ، في كل نفس".

ألكسندر في سروريف